

دراسة موضوعية وفنية ١

الشاعر علي بن المقرب

العَيُونِي

بقلم : الدكتور / أحمد موسى الخطيب

بالشعر.. أريج ابن المقرب



دولة العيون

هذا البحث

الشاعر البحريني القديم والشهير علي بن المقرب العيوني لا تكمن أهميته فقط في أنه أحد الشعراء المجيدين الذين عرفهم تاريخ الأدب العربي وإنما ترجع أهميته في أنه يعتبر المرجع الأهم بل يكاد يكون المصدر الوحيد . لتاريخ دولة كاملة هي دولة العيونيين التي حكمت البحرين لأكثر من ١٥٠ عاما بدأت مع أوائل القرن الثالث عشر الميلادي وشغلت مساحة ليست بسيطة في تاريخ هذه الجزر العريق .. وكأنما كان الشاعر علي بن المقرب يعرف أن مصادر تاريخ هذه الدولة سوف تضع فأرخ بشعره لها ولحكامها ورسم بقلمه صوراً دقيقة لواقع الحياة خلال الفترة التي عاشها وعاش فيها دولة العيونيين . وإذا كان البحث في تاريخ علي بن المقرب وشعره أمراً أكثر أهمية بالنسبة للباحث في الأدب واللغة إلا أنه سيظل دائماً أمراً هاماً بالنسبة للباحث في تاريخ دولة البحرين بصفة عامة وعصر العيونيين بصفة خاصة وذلك ما دفعنا إلى أن نعرض على صفحات الوثيقة هذا البحث القيم للباحث الدكتور / أحمد موسى الخطيب راجين أن يحقق الهدف منه وهو توفير بعض المادة التاريخية عن تاريخ هذه الدولة للباحثين في تاريخ البحرين .

(الوثيقة)

الرجل .. عصره .. وحياته (عصره : الزمان)

حرى بنا قبل الوقوف على البيئة الخاصة للشاعر ، أن نلقي نظرة على البيئة العامة له ، ونقصد بذلك عصره ، وأحوال سائر الأمصار العربية الأخرى ، وذلك لأن الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية

للأمة العربية كل لا يتجزأ ، مهما تباعدت أقطارها ، فهي مشدودة - دائماً - بأواصر متينة إذا فدراسة أى قطر عربي بمعزل عن الاطار القومي العام ، تعد دراسة ينقصها الكثير من الكمال . لقد ظلت الشعوب الاسلامية مجموعة الى لواء الخلافة زهاء قرنين من الزمان ، ثم بدأت الخلافة المركزية في الضعف ، وأخذت أجزاؤها تتفرق واحدة بعد

واحدة . ولم يكن هذا التفرق نتيجة لضعف الخلافة العباسية وحده . وإنما يرجع في بعض أسبابه الى تطور الوحدات والشعوب الاسلامية تطورا ، جعل بقاء الوحدة الشاملة أمرا غير ميسور . ونعنى بهذا التطور نهوض بعض الأجناس الاسلامية ، واتجاهها نحو القوة ، وميلها الى بدء حياة قومية جديدة . فلما كان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، والسنوات الأولى من القرن الرابع . كانت الدولة العباسية الكبرى قد بدأت أركانها تتصدع ، وأمصارها تستقل ، وولاياتها تنفصل عنها ، وأصبحت العاصمة «بغداد» مركزا للدسائس والمؤامرات ، فتقلص ظل الخلافة ، وذابت سطوتها ، وأصبح الخليفة أسير قصوره وقواده ، لا يكاد يملك من أمر نفسه شيئا .^(١)

ولم يلبث الفرس أن طردوا ، حين أظهروا عجزهم عن قمع الفوضى المنتشرة في قلب الامبراطورية الاسلامية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أحس العباسيون بالخطر الذي سيجلبه عليهم تسلط الفرس على أمور الدولة ، ولذلك حاولوا التخلص منهم ، فجاءوا بالترك ، وسلطوهم عليهم ، وكان هذا بلاء جديدا ، ومرضاً أفتك من المرض الأول ، دخل جسم الأمة العربية ، لأن الفرس كانوا قوما ذوى حضارة قديمة ، وعلم موروث ، فلما توطدت أركانهم في الدولة العربية نشروا علمهم ، وبعثوا حضارتهم ، أما الترك فقوم لم يعرفوا بحضارة ، ولا روى عنهم علم موروث ، فلما استولوا على زمام أمر الدولة العربية ، سيطر عليها الجهل وعمت الفوضى ، وفشا الفساد ، وأصبح من

الطليعي أن تحصل الدولة العربية الى حالة «مزعجة من الفساد»^(٢) حتى في عهد أقوى شخصياتها الوزير نظام الملك^(٣) «الذى ترك رسالة رائعة ، كشف فيها النقاب عن مساوئ الإدارة في الامبراطورية السلجوقية» .^(٤)

وسرعان ما تجزأت الامبراطورية السلجوقية ، وفقد الأمراء من هذا البيت سلطانهم بالكلية ، بعد أن استبد بها من دونهم من الأتابك ، الأوصياء عليهم .^(٥) وهكذا كان العالم العربي عامة ، والعراق خاصة في فجر القرن السابع ، على حالة مزعجة من الاضطراب والفوضى ، والسري في ذلك يرجع الى الخلفاء الذين أصبحوا العوبة في يد الأعاجم من الأتراك والسلاجقة ، يتصرفون بالبلاد كما يشاءون ، ويقضون على القومية العربية بما يريدون .^(٦) «وقد كان خلفاء بنى العباس المتأخرين ، وهم قادة المسلمين اسميا ، لا يتمتعون بالاحترام معنوي خارج مملكتهم الصغيرة ، التي لم تكن تقدم لهم من الامكانات ، ما يساعدهم على النهوض بواجب سياسي خطير» .^(٧) «وكان الناصر لدين الله (٥٧٥هـ - ٦٢٢هـ)^(٨) هو أول هؤلاء الخلفاء الذين بدأ الغزو المغولي في عهدهم ، وقد اشتد في أيامه انحلال الامبراطورية السلجوقية ،^(٩) «وكان الناصر قبيح السيرة في رعيته ظالما متعسفا ، أكثر عليهم الجواسيس ، واشتد في فرض الضرائب ، وأخذ أموال الناس حتى خرب العراق في عهده ، وتفرق أهله في البلاد ، وكان يفعل الشيء » وضده ، فكان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية بخلاف آبائه»^(١٠) والواقع أن هذا الخليفة الذى يعد آخر الدهاة من بنى

العباس ، كان يحاول أن يمكن لسلطته الهزيلة المثقلة ، بعمل بارع قوامه موالاة الشيعة ورعايتهم .^(١١)

ولما آلت الخلافة الى المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ)^(١٢) ، ثم الى المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦هـ)^(١٣) ازدادت الفوضى ، واضطرب حبل الأمن ، وبخاصة في عهد الأخير ، فقد كان ضعيف الرأي ، لا يسمع له قول^(١٤) ، منصرفا الى اللهو وسفاسف الأمور ، ولم تكن حاشيته ورجال بلاطه أفضل منه . ولما أخذ خطر التتريقوى ، وشرعت أخبارهم تصل الى بغداد ، حاول بعض العقلاء من رجال الدولة تقويم اعوجاج الخليفة ، واصلاح حال الحاشية ، والدعوة الى الأخذ بأسباب النهوض بالبلاد والدفاع عنها من الخطر الداهم ، ولكن الخليفة الأخرق ، وحاشيته الخبيثة ظلوا سادرين في غيهم ، لا يسمعون لنصح المخلصين ، ولا يعملون على اصلاح حال البلاد ، وانقاذها مما هي فيه من الاضطراب والفساد .^(١٥)

وأطل القرن السابع على الجزيرة وهى غارقة في سبات عميق ، وجهل مطبق ، فقد أهملها خلفاء بنى العباس ، الامكة والمدينة ، فانهم قد وجهوا اليهما بعض العناية ، لما لهما من المكانة الدينية ، والقداسة التاريخية ، أما سائر المدن في الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وغيرها من بقاع الجزيرة العربية الواسعة ، فقد كانت الفوضى ضاربة أطنابها فيها ، وكانت أخلاق الناس في بلاد العرب سائرة نحو الانحلال ، وكانت البلاد مقسمة الى دويلات وامارات ، يحكم كلا منها حاكم مستبد مستقل ، ولا سلطان لأحد عليه ،

حتى ليخيل للمرء أن الجزيرة العربية قد عادت الى جاهليتها الأولى أو كادت .^(١٦) وهكذا كان حال الحاضرة العربية ، أما البادية فحدث عن فوضاها ، وتناحر قبائلها ماشئت ، وإذا كانت نفس البدوى في طبيعتها لا تقبل النظام ، حتى في عصور القوة ، والحكومات الرشيدة ، والامارات الفاضلة ، فأحرى بها أن لا تقبل شيئا من النظام في عصور الضعف ، والحكومات الفاسدة ، والامارات الجاهلة ، وإذا كانت هذه حال الجزيرة ، فمن الطبيعي أن تنقطع الصلات التاريخية بينها وبين كثير من أجزاء العالم العربي ، وهكذا كان الأمر ، فقد أضحت أخبارها شبه مجهولة ، وتاريخها غامضا ، أو كالغامض ، ولذلك صار علمنا عنها قليلا .^(١٧)

أما الولايات الاسلامية الأخرى كالجزيرة ومصر ومعظم بلاد الشام فلم تكن أحسن حالا ، نظرا لانقسام الدولة الأيوبية بعد وفاة الملك العادل - أخى صلاح الدين عام ٦١٥هـ - بين أولاده ، الذين انشغلوا بالمنازعات والحروب ، وتهديد الدويلات الصليبية ، التى كانت قائمة في سوريا وفلسطين ومصر .^(١٨) «وكانت فكرة الحرب في سبيل الأرض المقدسة قد انكمشت في تلك الفترة ، ولكن «أندراوس» ملك المجر ، لم يلبث أن بعثها من مرقدها عام ٦١٤هـ ، قبيل وصول الحملة الى دمياط .^(١٩) وقد أشار ابن المقرب في مدحه للملك الأشرف (ت ٣٦٥)^(٢٠) الى الدور الذى نهض به في قتال الصليبيين ، ودفع خطرهم عن دمياط عام ٦١٧هـ حين سار اليهم من أرض الجزيرة في الشام :

سل الكفر من أودى بدمياط ركنه :
 وقصر أعلى فرعته وهو بأسبق
 يخبرك صدقا أن موسى هو الذى
 بصارمه باقت عليه البوائق
 وقد جاءت الأفرنج من كل وجهة
 كان تداعيتها السيول الدوافق
 كتائب ملء البر والبحر من بدت
 له قال ذا جنح من الليل غاسق^(٢١)
 ثم يصف المعركة وهولها ، وبطولة
 الملك الأشرف ، وما أوقعه فيهم من قتل ،
 سال على أثره بحر من الدماء على شاطئ
 دمياط :

فسال دم لو سال في الأرض لاستوى
 بها ردغ ما عمرت ومزالق
 جرى منه فوق البحر بحر فموجه
 إلى الآن من بعد الاقاحى شقائق^(٢٢)

ونتيجة لهذا وذاك من الظروف
 السيئة ، التى شملت العالم العربي ،
 فقد تعذر اقامة حلف أو جبهة اسلامية
 تستطيع الوقوف في وجه المغول ، ولذلك
 لم يكن سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ حدثا
 مفاجئا ، وانما كان نتيجة حتمية لضعف
 العالم الاسلامي .

«ولئن كان الاتراك قد أوقعوا أعظم
 الأذى - خلال قرون متطاولة من سوء
 الادارة - بحضارة ايران والعراق ، التى
 بلغت في يوم غاية ما بعدها من الازدهار ،
 فقد كان من نصيب أنسابهم التتار أو
 المغول ، في مستهل القرن الثالث عشر ،
 القضاء نهائيا على تلك الحضارة» .^(٢٣)
 اضطربت الحالة العامة في العراق
 اضطرابا شديدا منذ فجر القرن
 السادس ، واستمر هذا الاضطراب الى
 هذا القرن السابع ، ففي القرن الماضى
 كان الأمر بيد الأعاجم من الفرس ،

والأتابكة والترك ، ولكنهم كانوا على شيء
 من معرفة الادارة والاطلاع على
 السياسة ، وخشية الجانب العربي ، أما
 في هذا القرن ، فقد ساءت حالة أولى
 الأمر ، وبخاصة الخلفاء الى درجة أصبح
 معها من المستحيل بقاء الحكم في أيديهم
 ولو اسما ، لأنهم استسلموا للمماليك
 والخصيان والجواري ، الذين سيطروا
 على قصورهم ، وتحكموا فيهم كل
 تحكم .^(٢٤) وقام النزاع بين القواد ،
 الذين طالبوا بزيادة أرزاقهم ، وتفاقت
 العداوة والبغضاء بين الشيعيين
 والسنين ، واشتد خطر فيضان دجلة ،
 فاختل الأمن ،^(٢٥) وشاع نظام المصادرة
 والتعدى على الناس والقضاء على
 الحريات ، ومحو العدل والمساواة ، ولم
 تكن حالة الشعب أفضل من حالة
 الخليفة ورجالات عصره ، فقد كان عامة
 الناس على جانب عظيم من التفسخ
 الخلقى ، والفساد الاجتماعي ، لأن
 العناصر الدخيلة قد دخلت بينهم ،
 وأعملت فيهم فسادا وتمزيقا ، حتى
 انقسموا على أنفسهم شيعا ، كل شيعة
 تناصر احدى الدول الأجنبية المجاورة ،
 حتى فقدت العصبية العربية تماما ،
 وكان لدسائس الفرس والترك ، أثر كبير
 في هذا التفرق والفساد ، وبخاصة
 ملاحدة الباطنيين ، وأتابكة الترك ،
 ومفسدى المغول ،^(٢٦) أضف الى هذا
 انتشار طائفة من المفاسد والأمراض
 الاجتماعية ، التى ما دخلت أمة الا
 أهلكتها ، وسلبت عزتها ، وكرامتها
 القومية ، من الخلاعة ، واستيلاء
 الخصيان والمماليك والجواري على زمام
 الأمور ، وإلى جانب هذا وذاك طائفة من
 الأمراض والأوبئة التى استوطنت

العراق كالحميات والطواعين (٢٧)

وإذا كانت هذه حال العراق - وهو مهد الخلافة العباسية ، وميزان الامبراطورية الاسلامية - فكيف تكون حال سائر ممالك الخلافة التابعة لها ؟ والحق أنها كانت في حالة مزعجة ، سواء من حيث التفكك أو الجهل أو الفساد أو الاضطراب ..

تميز القرنان السادس والسابع بعد الهجرة ، بتقدم زراعي ، وتنوع في الثورة الزراعية ، وقد أدى هذا بدوره الى قيام صناعات عديدة ، تركز على الحاصلات الزراعية ، والثروة المعدنية . وكذلك تجلى في هذا العصر انتعاش التجارة الداخلية ، كما نشطت حركة التبادل التجاري بين مدن العراق ، وبلاد المشرق الاسلامي ، بفضل انشاء الطرق وتأمينها . وكان من أثر وفرة المحاصيل الزراعية وتنوعها ، وتقدم الصناعات وازدهارها ، ونشاط حركة التجارة أن رخصت الأسعار ، وتحسنت أوضاع الناس المعيشية (٢٨)

ويمكن القول أن النشاط الزراعي في العراق خلال القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع كان جيداً ، وأن القرى والمدن كانت عامرة (٢٩)

وكانت التجارة مهنة نشيطة خلال العصر العباسي الأول ، وقد استمرت كذلك حتى هذه الفترة (٣٠) وقد كانت مصنوعات الحديد العراقية تستهوي التجار فيستوردونها الى أوطانهم (٣١) ، كما فعل شاعرنا علي بن المقرب العيوني ، إذ اشترى حديداً من بغداد ، وانحدر به الى البصرة ، ماراً بواسط ، وقد استوقفه بواسط ضامن المكوس ، وأخذ منه مكسا

بقدر نصف الثمن ، حيث كان ثمن المئ الواحد ببغداد دينارين ، بينما كانت الضريبة ديناراً واحداً على كل مئ حديد ، لذا هجا ابن المقرب ضامن المكوس بواسط بقوله :

بع واسط بالنأي والهجر
ودع المرور بها الى الحشر
أرض يدبرها ابن صائبة
شابت مفارقها من الكفر (٣٢)
ثم يشير الى اجحافهم في الضريبة ، الى حد وصفه لهم بقطاع طرق ، لاضامني مكوس :

أسرفت في ظلم العباد أما
للبعث في ناديك من ذكر
وأعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السفر
نصف البضاعة حين تظفرها
مكس لقد بالغت في النكر
خنت الخليفة في رعيته
وعصيته في السر والجهر
وكلت عثماناً فوافقني
فيها وتابعه أبو بكر
حتى خرجت على حسابهما
مما جلبت براحة صفر (٣٣)

ولكن مهزلة «قطاع الطرق» من رجال المكوس لم تنته عند هذا الحد ، فلما وصل ابن المقرب البصرة ، أخذ منه ضامن مكسها ضريبة يسيره ، ثم عاوده ليأخذ منه مرة أخرى (٣٤) ، فكتب ابن المقرب قصيدته التي تقع في ثمانية أبيات ، وبعث بها الى أمير البصرة شمس الدين باتكين (٣٥) ، يشكوه ذلك ، ويطلب منه دفع قيمة المكس :

يا شمس دين الله كم لك من يد
يثنى بها باد ويشهد حاضر
ولدي اعمدة قليل قدرها
جدا ولديوان وال قادر
لا شيء عندي : مكسها لكنني
أخشى يقول الناس جاهك قاصر
ولقد جرى فيها بواسط رقعة
ما كان لي فيها هنالك ناصر (٣٦)
ثم يختتم هذه الابيات بقوله :
فادفع بجاهك أو بمالك منعما
عني فما لك للعفاة ذخائر

ويتضح جليا من هاتين القصيدتين أن
الزيادة في المكس واقعة من قبل
الضامن ، وليس للحكومة ممثلة بخليفتها
أو ولايتها علم بذلك ، ولذلك طلب الشاعر
مساعدة والى البصرة .

لقد أثبتت كتب التاريخ والأدب أن
الحركة العلمية والأدبية ، كانت مزدهرة
في هذا العصر في بلاد العراق ، والمشرق
الإسلامي ، فاهتم كثير من العلماء
والفقهاء بالاشتغال بالعلوم الدينية
واللسانية ، من قراءات وتفسير وحديث .
وظهرت عدة مراكز للثقافة العلمية ، ولكن
بغداد احتفظت بمركزها الخاص .

وكان لاستقلال بعض الدول عن
الخلافة أثره في نشاط الحركة الفكرية ،
ورواج الثقافة ، فزخر بلاط هذه الدول
بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم ، ومن
ثم نرى صدى هذه النهضة في بلاط كل
من الغزنويين في الشرق والفاطميين
والأيوبيين في مصر والشام ، والأمويين في
الأندلس ، والمرابطين والموحدين في
المغرب. (٣٧)

«وهكذا كانت الثقافة العربية
الإسلامية تمتد - في القرنين السادس

والسابع الهجريين - من الهند الى
الأندلس ، وتبادل العلم والعلماء قائم بين
هذه الدول جميعا ، وان تباعدت
أصقاعها ، واختلفت ألوانها السياسية ،
أو تعادى ملوكها وحكامها ، فان الثقافة
العربية حينئذ لم تعترف بالحدود
الإقليمية ولا السلطان والفوارق
السياسية أو العنصرية ، فيخرج العلماء
من شتى بلاد المشرق ، أو يجوبون هذا
العالم العربي الإسلامي ، من حدود
الهند وأذربيجان الى أقصى حدود المغرب
والأندلس». (٣٨)

ويجب أن لا ننفل في هذا المقام دور
كثير من الفرق ، التي اتخذت الثقافة
والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها
السياسية ، وما كان لها من أثر في
النهضة العلمية ، وخير مثل لذلك الآثار
التي خلفها العلماء من السنيين
والشييعين. (٣٩)

وقد تميزت الحركة العلمية والأدبية ،
في العراق والمشرق على عهد الخليفة
الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ)
بميزتين أساسيتين ، تندرج تحت كل
منهما خصائص فرعية متنوعة ،
أولاهما : صفة الشمول التي اتسمت بها
أفاق النشاط الذهني ، فامتد نطاق
البحث حتى شمل مختلف العلوم
والآداب والفنون . وثانية الخصائص
تتعلق بالأسلوب ، فقد تجلت الصناعة
اللفظية في كتب العلوم والآداب
والفنون. (٤٠)

أما حال الشعر في هذا العصر فقد
تغيرت عما كانت عليه قبله ، بعد ذهاب
سيف الدولة ، والصاحب بن عباد
وغيرهما من الآخذين بناصر الأدباء
والشعراء . وصارت أكثر أمور الدولة الى

(٢)

مع مطلع القرن الرابع الميلادي استولى سابور (ملك الفرس) على البحرين ، ونكل بأهلها ، وعندها أصبحت تابعة لمملكة الفرس^(٤٢) «وعاملها من قبلهم المنذر بن ساوى التميمي»^(٤٣) وكان بها خلق كثير من عبد القيس ، وبكر بن وائل ، وتغلب ، وتميم^(٤٤) وكانت «عبد القيس» قد جاءت من تهامة الى البحرين ، يقودها عمرو بن الجعيد بن الدؤل بن شن بن أقص بن عبد القيس ، فزاحمت قضاة واياد ، وغلبتها ، واستوطنت فيها^(٤٥) . وحين خرجت رسل الخير من «يثرب» تحمل بشرى الدين الجديد الى أطراف شبه الجزيرة ، أنفذ الرسول ﷺ العلاء بن عبد الله الحضرمي ليدعو أهلها الى الاسلام أو الجزية ، فأسلم أهلها العرب وبعض المجوس^(٤٦) . وكانت رياستها في صدر الاسلام لبني الجارودي^(٤٧) . وبقيت البحرين تحت سلطة الدولة العباسية حتى عام ٢٤٩ هـ ، الى أن هاجمها الزنج بثورتهم المشهورة ، وأصبحت تحت سلطانهم مدة احدى وعشرين سنة ، وعندما هلك صاحب الزنج عام ٢٧٠ هـ رجعت البحرين الى تبعية الدولة العباسية حتى زمن المستكفي^(٤٨) بالله (٣٣٣ - ٣٣٨ هـ)^(٤٩) . وفي عام ٢٨٦ هـ ظهرت بالبحرين جماعة القرامطة^(٥٠) بزعامة أبي سعيد الجنابي ، والتفت حوله جماعة من الاعراب ، فقوى أمره ، واستولى على القطيف ، ثم عبر الى أوال^(٥١) ، وفي السنة التالية أغار على نواحي هجر ، وبعد ذلك توالى غاراتهم

الأعاجم ، وانصرفت القرائح الى الفقة والتصوف وغيرهما من العلوم الدينية ، وظهر الأدب الشعبي نتيجة لفقدان الرعاية ، فأصبح الشاعر لا ينظم رغبة في الجائزة ، أو تنافسا في التقدم لدى ولاية الأمر ، وانما ينظم في الأكثر ارضاء لقريحتة ، فتغيرت أغراض الشعراء من النظم ، وقل النابغون منهم ، ومع اتساع الدولة الاسلامية ، وطول هذا العصر ، لم ينبغ فيه من الشعراء البلغاء نصف ما نبغ في العصور السابقة . ونظرا لما توالى على الدولة الاسلامية من الإحن والفتن ، كسدت سوق الشعر ، وأصبح المنتج من الشعراء لا يستنكف من شكوى الفقر وطلب الرغد بصراحة . ويمتاز هذا العصر باتقان الصناعة اللفظية على الاجمال ، ولحق الشعر منها حظ كبير ... فأصبح الشاعر يصرف همه الى اللفظ ولو سخر له المعنى أحيانا^(٥١) .

هكذا فقد شهد هذا العصر قدرا كبيرا من الفوضى والاضطراب ، وضعف السلطة المركزية ، وتفكك أطراف الدولة الكبرى ، وصراع هذه الدويلات وتنافسها ، وترتب على هذا سوء الأحوال الاجتماعية ، وانتشار الأوبئة الاجتماعية والمادية . وعلى الرغم من هذا وذاك ، فقد شهد هذا العصر تقدما زراعيا وصناعيا ، وشيئا من الرخاء الاقتصادي ، حال رجال المكوس دون تمتع الرعية بهذا الرخاء ، وذلك التقدم . وكانت الحياة العلمية والأدبية أحسن حالا من سائر حيوات هذا العصر ، ولكن الشيء المتفق عليه ، أن هذه الفترة قد تميزت بالمحاكاة ، وخلت - أو كادت تخلو - من الابداع والابتكار ، وحال الشعر خير دليل على هذا .

داخل الجزيرة وخارجها ، وأخذهم الحاج غير مرة (٥٣)

وفي عام ٣٠١ هـ يقتل زعيمهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي بعد أن استولى على هجر ، والاحساء ، والقطيف ، والطائف ، وسائر بلاد البحرين (٥٣) وكان لموت مقدمهم هذا أثر كبير على أوضاعهم السياسية التي بدأ الضعف يدب فيها ، ولكنهم مع هذا استمروا عائنين في الأرض .. ناشرين الفرع ، ومخلفين الموت والدمار ، وبلغ بهم التطرف والاستهتار الى حد اقتلاع الحجر الأسود عام ٣١٧ هـ وأخذة الى الاحساء مدة اثنتين وعشرين سنة (٥٤)

وفي عام ٣٢٦ فسدت حالهم وقتل بعضهم بعضا (٥٥) ومع هذا توالى غاراتهم الى دمشق ، ومنها الى الرملة ، فالديار المصرية (٥٦) ومع بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري يبدأ الجموح القرمطي في الانحسار ، ويرى ابن الأثير (٥٧) أن زوال ناموسهم كان بهزيمة صمصام الدولة لهم عام ٣٧٥ هـ ، وقتل مقدمهم وغيره ، وأسر جماعة منهم ، ونهب سوادهم . ويرى ابن خلدون (٥٨) مثل هذا في تفرق أمرهم وتلاشي دعوتهم بعد تلك الهزيمة ، وكلا المؤرخين متفق على أن ظهور الأصفر (الأصغر) ابن أبي الحسن الثعلبي - من بني المنتفق - على مسرح الأحداث عام ٣٧٦ هـ كان إيذانا بذهاب دولتهم (٥٩) فقد حشد لهم جمعا كبيرا ، وتمكن من هزيمتهم ، وقتل مقدمهم ، وأسر العديد منهم ، وتبعهم الى الاحساء ، فتحصنوا منه ، فعدل الى القطيف ، فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم ، وسار بها الى البصرة (٦٠) ثم تمكن عام ٣٩٨ هـ من

الاستيلاء على الاحساء ، والخطبة للخليفة العباسي ، وبهذا فقد أذهب دولتهم ، وأقر الأمر له ولبنيه (٦١) ولكننا نجد أن باحثا (٦٢) معاصرا يبكر قليلا في انتهاء دولتهم الى نحو منتصف القرن الرابع الهجري ، ان دخلوا عام ٣٥٨ هـ في طاعة الخليفة العباسي ، وخطبوا له على المنابر ، ولعله بهذا يشير الى تولي أبي علي الحسن بن أحمد أمر القرامطة عام ٣٥٩ هـ وكان يلقب بالأعصم وقيل الأغصم ، وطالت مدته ، ونفى جمعا كثيرا من ولد أبي طاهر الى جزيرة أوال ، وحج بنفسه ، ولم يتعرض للحاج ولا أنكر الخطبة للخليفة العباسي (٦٣)

ولكن ابن المقرب يضعنا أمام حقيقة أخرى حين يشير الى الدور الذي نهضت به أسرته في القضاء على القرامطة فيقول :

سل القرامط من شظى جماجهم
فلقا وغادرهم بعد العلا خدما
من بعد ان جل بالبحرين شأنهم
وأرجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشى سناكبها
أرض العراق وتغشى تارة أدما
وحرقوا عبد قيس في منازلها
وصيروا الغر من ساداتها حمما
وأبطلوا الصلوات الخمس وانتهكو
شهر الصيام ونصوا منهم صنما
وما بنوا مسجدا لله نعرفه

بل كل ما أدركوه قائما هدماء (٦٤)
ثم يواصل حديثه عن دور قومه في حربهم ، والقبائل التي أوزت القرامطة ، كالآزد ، وعامر خاصة . وهذه الإشارة بشرحها الموجز هنا ، والمفصل حيناً آخر ، في أكثر من مخطوطة ، وأكثر من مطبوعة للديوان ، واستناد عدد من

الباحثين والمؤرخين المعاصرين إليها في التأريخ لنهاية القرامطة ، وقيام الدولة العيونية ، يجعلنا نقف حائرين في كيفية التوفيق بين ما قاله المتقدمون حول تلك النهاية ، وتحديد ما في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وبين ما جاء في شرح بعض مخطوطات^(٦٥) الديوان وتحديد تلك النهاية بعام ٤٦٩ هـ .^(٦٦) ولعله من المعقول ، والأقرب الى فهم الحقيقة أن نتصور نهايتين للقرامطة ، احدهما نهاية سياسية وكانت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وتمثلت في انحسار موجاتهم ، وتقوقعهم في البحرين ، والخطبة للخليفة العباسي . والأخرى مذهبية وكانت على يد العيونيين في مطلع النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . وقد حرص العيونيون على استئصال بقايا بدعهم أثناء حكمهم ، وإلى مثل هذا يشير ابن المقرب في ميمته المشهورة :

منا الذي أبطل «الماشوش»^(٦٧) فانقطعت

أثاره وانحصى في الناس وانطمسا^(٦٨)

يرجع نسب العيونيين الى قبيلة عبدالقيس ، والتي ينتهي نسبها الى ربابعة ، التي تنحدر من العرب العدنانية . وقد عاشت قبيلة ربابعة في الجاهلية في منطقة تهامة ،^(٦٩) على ساحل البحر الأحمر من غربي الجزيرة العربية ، وحين وقعت الحرب بين بطونها ، أدى ذلك الى تفرقها ، وارتحال بعضها الى أماكن أخرى ، فاتجهت عبدالقيس يقودها عمرو بن الجعيد بن الدؤل بن شن بن أفص بن عبدالقيس صوب الشرق من الجزيرة العربية ،^(٧٠) واستقرت على أرض البحرين بعد أن أرسلت روادها الذين أجمعوا على اختيار

المنطقة ، وكانت تعيش على أرض البحرين يومها قبائل اياد ، والأزد ، وتميم ، وبكر بن وائل .^(٧١) فاقتتلت عبدالقيس مع تلك القبائل ، وانتصرت عليها ، وأجلت بعضها عن البلاد ، واقتسمت الأرض ، واختلطت بالسكان .^(٧٢)

وذكر في الأنساب أنه قد ولد لعبدالقيس أفص ولبؤ ،^(٧٣) واللبؤ حي عظيم ، رحل قسم منهم وسكن مدينة توج في بلاد فارس .^(٧٤) أما أفص فكان منه ولدان شن ولكيز ، وهما بطنان عظيمان في عبدالقيس ،^(٧٥) فكانت لشن سيطرة وسطوة ، ومنهم الأفكل - عمرو بن الجعيد - سيد عبدالقيس في الجاهلية وقائد جموعها من تهامة الى البحرين ، وشن هي التي أطبقت على قبيلة اياد ، وأجبرتها على الرحيل من البحرين الى العراق^(٧٦) واستقرت في أماكنها شمالي البحرين .

أما «لكيز» فهي قبيلة كبيرة انحدرت منها بطون : وديعة ، وصباح ، ونكرة^(٧٧) ومن قبيلة نكرة لمع نجم أكثر من شاعر ، كالمثقب ، والمزق ، والمفضل ، وكانت منازلها قرب مدينة القطيف حاضرة عبدالقيس في القديم .^(٧٨) وكلا القبيلتين - شن ولكيز - «قد شغلنا الناس بما كان لهما من تراث شعري ضخم ، ومجد حربي كبير» .^(٧٩)

ولكن الى أي قبيلة من عبدالقيس يرجع نسب العيونيين ؟ «فالمصادر التي بين أيدينا لا تسعفنا في تحديد تلك الصلة ، حتى في مخطوطات الديوان المشروحة لا نجد سلسلة الأبوة لمؤسس الدولة العيونية عبدالله بن علي بن

عبدالله بن ابراهيم العبقسي :
فمن عيص ابراهيم تنمي فروعها
ومن بحر عبدالله يجري عبابها^(٨٠)
وكان الرجوع الى ديوان ابن المقرب
خير سبيل للكشف عن تلك الصلة ، فمن
قصيدة لابن المقرب يمدح فيها الأمير
الحاكم للاحساء ، محمد بن ماجد بن
عبدالله بن علي العيوني يبدو منها جليا
أن «آل ابراهيم» ينحدرون من قبيلة
ربيعة :

ولو سئلت يوما ربيعة من بهم
لها خضعت وارتجت الشرق والغرب
ومن خيرها طرا قديما وسالفا
وانجبها عقبا اذا أخلف العقب
لأخبر أهل العلم أن ربيعة
رحى «آل ابراهيم» في سرها القطب^(٨١)
ثم نجد ابن المقرب - في موقف آخر -
يجلو هذه الصلة أكثر ، فيقول من
قصيدة له يشكو فيها حقه المضيع :
فإن ضيعت حقي لكيز وأنكرت
بنو عامر^(٨٢) سعيي لها واجتهاديا
فقد ضيعت قبلي رباب بنيها
وما كنت أدري لابن أفص^(٨٣) مساويا^(٨٤)

ويقول في موضع آخر مخاطبا قومه ،
منكرا عليهم تخاذلهم :
أعيذكم أن تقبلوا ذا وأنتم
ذؤابه أفص كلها وسنامها^(٨٥)
ويقول في موضع آخر مخاطبا قومه :
أما حان يا فرعى ربيعة أن أرى
بنات الوغى يعلو الروابي قتاماها^(٨٦)
وتزداد تلك الصلة جلاء ووضوحا عند
ابن المقرب ، في قصيدة ، نظمها حين كان
بالعراق ، بعيدا عن وطنه « الاحساء » ،
يكابد مرارة الغربة :

فياراكبا وجناء تستغرق البرى
ويطوى الفياقي خطوها وانجذابها
اقم صدرها قصد الى الخط^(٨٧) واحتقب
رسالة ود أنت عندى كتابها
فحين ترى الحصن المعلى مقابلا
ويبدو من الدرب الشمالى بابها
فلج بسلام أمنا تلق بلدة
مقدسة الاكناف رحبا جنابها
بها كل قرم من ربيعة ينتمى
الى ذروه تعلو الرواسى هضابها
لكيزيه^(٨٨) انسابها عامرية
يلوذ المناوى ضيمها واعتصابها
اذا ثوب الداعي بها : يال عامر
اتت مثل اسد الغاب غلب رقابها
مقدمها من صلب عوف^(٨٩) بن عامر
الى الموت فتيان شديد غلابها
من الحارثيين^(٩٠) الاولى في اكفهم
بحار الندى مسجورة لاثغابها
وعن مالك^(٩١) بنت الفخارين عامر
فوارس ارواح الاعادى نهابها^(٩٢)
وقد تعددت الاشارة^(٩٣) في ديوان ابن
المقرب الى انتساب قومه العيونيين الى
قبيلة عبدالقيس . وحسبنا منها قوله في
مدح الامير العيوني ابن الفضل
بن أحمد بن عبدالله بن علي ، حين ملك
القطيف :

ينمى الى الشم الغطارف والذرى
من حارث والسادة الحكام
ولحارث عرفت رئاسة عامر
في جاهليتها وفي الاسلام^(٩٤)
فالعيونيون - كما يتضح جليا من
شعر ابن المقرب - ينتمون الى أحد بطون
عامر بن الحارث بن انمار بن وديعة بن
لكيز بن أفص بن عبدالقيس بن أفص بن

دعى بن جديلة بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان . ولكن ديوان الشاعر لم يسعفنا في تحديد ذلك البطن من عامر الذي ينتمى اليه العيونيون والاقرب الى الظن أن هذا البطن هم « آل ابراهيم » الذين أشار اليهم . وسموا بالعيونيين نسبة الى موضع بالبحرين يقال له « العيون » ، يقع في أقصى شمال الاحساء على بعد عشرين ميلا شمالى مدينة الهفوف^(٩٥) الحالية .

سبق أن أشرنا الى أن الربع الاخير من القرن الرابع الهجرى ، قد شهد نهاية المد القرمطى ، وتوقف حملاتهم الحربية وتوقعهم في البحرين . وفي النصف الأول من القرن الخامس أخذت أحوالهم في التردى ، وتمكن أبو البهلؤل العوام بن محمد بن يوسف بن الزجاج - وهو من قبيلة عبد القيس صاحبة السلطة السابقة في البحرين - من اقناع ابن أرحم ناظر القرامطة في أوال ، ان يتدخل لاقناع القرامطة بالسماح لهم ببناء جامع سننى في « أوال » من البحرين تقام فيه صلاة الجمعة ، بهدف تشجيع التجار السننيين على زيارة الجزيرة ، وكان لهم ما أرادوا مقابل مبلغ من المال ، وعند ما تم بناء الجامع عام ٤٥٠هـ ، نهض خطيب الجمعة الوليد أخو أبى البهلؤل ، وخطب باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، فغضب المتعصبون للقرامطة من تصرفه ، ولكنهم لم يفلحوا في منعه^(٩٦) . وقوى بعد ذلك نفوذ السنة في أوال وازداد عدد التجار بها ، مما شجع أبى البهلؤل على طرد الناظر القرمطى من أوال وتسميته نفسه بالامير . وقد حاول القرامطة استعادة نفوذهم عليها ، والتخلص من أبى البهلؤل ، فسيروا اليه

حملات متلاحقة ، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك ، بل هلك كثير من قبيلة عامر ربيعة من عقيل - ممن كانت تعتمد عليهم في حربه -^(٩٧) في موقعة كسكوس أوال البحرية^(٩٨) .

وكانت قبائل اليمن في الاحساء قد شرت القرامطة في تدبير أمورهم منذ عام ٤٥٩هـ وتسمى بعضهم بالأمير ،^(٩٩) وليس من شك في أن هذه الاحداث كانت بمثابة مؤشرات واضحة ودالة على بداية النهاية للقرامطة ، اذ بدأوا يفقدون نفوذهم على أجزاء من دولتهم وأصبحوا عاجزين عن تأديب الخارجين عليهم ، والطامعين في سلطتهم من الداخل ، مما حدا بيحيى بن عياش الى الظهور على مسرح الصراع في البحرين ، يبعث الانفراد بجزء من التركة القرمطية ، أو بها كلها ، فيتصدى لحرب القرامطة في القطيف ، ويهزمهم ، ويجلبهم عنها ، ثم يعلن استقلاله بها ، وتتطلع نفسه بعد ذلك الى بسط سيادته على جزيرة أوال ، ويتم له ما أراد ، منهيأ امارة أبى البهلؤل عليها^(١٠٠) .

وحين حقق ابن عياش هذه الانتصارات المتلاحقة على القرامطة في القطيف ، وعلى أبى البهلؤل في جزيرة أوال ، شجع هذا الصراع شخصية جديدة على الظهور في البحرين فنهض عبدالله بن على العيونى لقتال القرامطة في الاحساء عام ٤٦٢هـ وانتصر عليهم ، فتحصنوا في الاحساء ..^(١٠١) ويبدو أن ظهور العيونيين بزعامة عبدالله بن على في الاحساء ، كان ثأرا لأبى البهلؤل من ابن عياش الذي قضى عليه وأخضع أوال لسلطانه وضمها الى القطيف ، واستكمالا لدوره في حرب القرامطة

وهذا مما أثار غضب الخلافة على ابن عياش ، لأنه قضى على شخصية موالية لها في أوال من البحرين ، لذا فحين أجاب الخليفة طلب الأمير العيوني عام ٤٦٨هـ (١٠٨) ، وبعث اليه بسبعة آلاف مقاتل بقيادة اكسك سلار ، متجها من البصرة الى الاحساء ، كان الهدف الاول لهذا الجيش تأديب ابن عياش في القطيف ، الذي هرب معتصما بجزيرة أوال ، ثم انضم اكسك سلار الى الامير العيوني وحاصرا القرامطة في الاحساء ، حتى أشرفوا على الهلاك ولكن جند الخليفة لم يحتملوا مدة الحصار الطويلة ، فعاد اكسك سلار الى الخليفة ، ثم طلب منه العودة لاستئصال القرامطة ، وكان له ما أراد ، وحين عاد الى الاحساء وجد عبدالله العيوني انتهى من حصارهم ، ، وانهاء أمرهم ، وتم له ذلك عام ٤٦٩هـ (١٠٩) على الرغم من استنجادهم بقبائل عامر :

فاستنجدت عامراً من بأسها فأتت
مغدة لا ترى في سيرها يتما (١١٠)
وسارع ابن عياش لا نتزاع الاحساء
من العيونيين ، قبل أن يستفحل
أمرهم ، ويتهدد وجوده في المنطقة ،
فحشد جموعه ، وسار بها نحوها ، فبرز
له العيونيون ، ودارت بينهم معركة
شرسة ، في مكان يعرف « بجوناظرة »
أسفرت عن هزيمة ابن عياش وتقهقره
الى القطيف (قصبة حكمه) ، ومن ثم
الى أوال فاتبعه العيونيون الى جزيرة
أوال ، حيث احتل عبدالله العيوني
القطيف ، ووجه ابنه « الفضل » إثر
جموع ابن عياش في أوال واستطاع ان
يحقق نصرا حاسما ، تولى إثره ابن

والقضاء على مابقى لهم من نفوذ ، وذلك
لأن العيونيين شركوا أبا البهلول ثورته
على القرامطة ، وحربه لهم ، وقاد بشر بن
مفلح العيوني جيش أبى البهلول الذي
هزم جموع القرامطة وأنصارهم في موقعة
كسكوس أوال (١١٢) .

ولم يكن في مقدور عبدالله العيوني
حقيقة أن ينهض بمفرده بهذا الدور
الخطير في قتال القرامطة ، والحد من
أطماع ابن عياش ، الذي أخذ يطمع في
بسط سيطرته على الاحساء ، فقد كان
أعوان العيوني قلة لا يربو عددهم على
اربعمائة مقاتل :

وجمعنا في مئين اربع قصر
عدا ، لكنها أعلى الورى قدما (١١٣)
ولكنه - على ما يبدو - كان يتمتع
بقدر من الدهاء والحكمة ، فبعد ان
أبدى صدق النية في قتال القرامطة ،
وشرع يقاتلهم طامعا في الأحساء ، منذ
عام ٤٦٢ هـ (١٠٤) . وحقق بعض
الانتصارات ، طلب المعونة من الخليفة
العباسي عام ٤٦٧هـ (١٠٥) فكتب الى
جلال الدولة أبى الفتح ملكشاه السلطان
السلجوقي ، والخليفة يومئذ ابو جعفر
القائم بأمر الله (ت ٤٦٧هـ) .
والوزير نظام الملك (ت ٤٨٥هـ) ،
وشرح له أحوال القرامطة وضعفهم ،
وأنه يريد أخذ الاحساء منهم ، واقامة
الدعوة للدولة الجلالية العباسية في
الاحساء ، ويميت سنن
القرامطة (١١٦) . وهنا تجدر الإشارة الى
أن أبا البهلول قد سبق له مثل هذا
الطلب من الخليفة العباسي (١٠٧) ولكن
ابن عياش لم يمهل ، وعاجله بالقضاء
عليه قبل أن يحصل على موافقة الخلافة
بمده بالمعونة اللازمة لقتال القرامطة ،

عياش عن أوال «وَقَتْلَ نَفْسِهِ»^(١١١) ،
بعد أن فقد وزيره ، وقائده ، وساعده
الايمن «العكروت»^(١١٢) وإلى هذا يشير
ابن المقرب بقوله :

ولم ينج ابن عياش بمهجته
يم اذا ما يراه الناظر ارتسما
اتى مغيرا فوافى جو ناظرة
فعاين الموت منا دون مازعما
فراح يطرد طرد الوحش ليس يرى
حبل السلامة الا السوط والقدما
فانصاع نحو أوال يبتغي عصما
اذ لم يجد في نواحي الخط معتصما
فاقحم البحر منا خلفه ملك
مازال مذ كان لاهوال مقتحما
فحاز ملك أوال بعد ما ترك الـ
عكروت بالسيف للبوغاء ملتزما
فصار ملك ابن عياش وملك ابي الـ
بهلول مع ملكنا عقدا لنا نظلما

ويسجل ابن المقرب - في موضع
آخر - هذه المسيرة الطافرة لقومه من
الاحساء^(١١٣) فالقطيف ، فأوال ،
فيقول :

فعن هجر زادوا القرامط عنوة
وقد شركت فيها عتيك وحدان^(١١٤)
وساروا الى ارض القطيف فلم يكن
ليمنعها منهم حصون وحيطان
ولم تمتنع منهم أوال بمزبد
من اليم تزجيته شمال ومرخان^(١١٥)

ولم يكد عبدالله العيوبى يلتقط
أنفاسه ، حتى ظهر خطر بنى عامر ممن
انحازوا الى القرامطة ضده ، وقد قطع
ما كان لرؤسائهم من العوائد والجرايات
أيام القرامطة ، فجاءوا مطالبين بتلك
العوائد ، وأجمعوا على حربه ولكنه
استطاع هزيمتهم وتبديدهم ، ولم ينج

منهم الا رئيسهم احمد بن مسعر ، وأبو
فراس بن الشباش ، في جماعة قليلة
هربوا الى العراق^(١١٦) وإلى هذا يشير ابن
المقرب في ميمته المشهورة :

وطالبتنا بنو الاعمام عادتنا
فلم تجد بكما فينا ولا صمما^(١١٧)
وكانت قبيلة الازد تؤازر بنى عامر في
حربهم لعبدالله العيوني :

فأقبلت ورجال الازد تقدمها
كالأسد قد جعلت سمر القنا اجما^(١١٨)
ثم يسجل ابن المقرب وصفا لتلك
الجولة الحاسمة ، وما أسفرت عنه :
ثم انتحينا لعوف بعدما ورمت
أنوفها ففششنا ذلك الورما
دسناهم دوسة مرية جمعت
أسلامهم وضباع الجو والرخما
لم ينج غير رئيس القوم تحمله
خيفانة كظليم ريع تحت سما
ثم اثنتينا بجرد الخيل نجنيها
نقائذا وأفانا السبى والنعما^(١١٩)

ولم يكد ينتهى العيونيون من حسم
أمر القرامطة ، ومن حالهم ، حتى جاء
ركن الدين والدولة السلجوقي يبغي الثأر
«للغوش» أخى اكسك سلاز :

والشرسكية اذ جاءت تطالبنا
دم البغوش وفيها تقسم القسما^(١٢٠)

وكان البغوش قد طمع في الاحساء
بعد معونة أخيه للعيونيين ، فقتله عبدالله
العيوني . وقد تمكن العيونيون من صد
أولئك الموتورين الطامعين ، وإلى هذا
يشير ابن المقرب بقوله :

ونحن حميناها الاعاجم بعدما
أقامت تروم الملك حولا محرما
ضربنا وجوه الشرسكية دونه
وأقفاءها بالسيف حتى تثلما

وقد غررتهم من نزار ويعرب
لشنانكم قوم وقوم تبرما
فعدنا ببيض ذكرتهم حدودها
بما كان من أخبار كسرى ورستما
فولوا وراح الركن منهم كانه
صريع عقار بات منها مجشما^(١٢١)

وكان عليه أن يواجه بعض الطامحين
في بسط سيادتهم على الاحساء كالحسن
بن يحيى الذي كانت له السيادة على
منطقة القطيف ابان تأسيس دولتهم .
وقد حاول استقطاب بعض الأمراء
العيونيين ، ببذل المال والذهب
والبساتين لهم ، وكان ذابأس وقوة ،
وقد سير اليهم جيشه مرارا للاغارة على
الاحساء ، ولكن محاولاته لم تؤت
ثمارها المرجوة وفي هذا يقول ابن
المقرب :

وحول ابن يحيى لم تصاهل جيانا
وقد كان بحرا ذا عباب قلهدما
اذال لنا الاموال درأ وعسجدا
وتبرا ونخلا يانعا ومكما
فعفنا سنيات العطايا حمية
عليكم ودسنا الشر حتى تشرما
وحتى ملكتم ملكه واقتصرتم
مقاصيره اللاتي بناها فاحكما
وقد كان يزجي كل يوم كتيبة
اليكم وجيشا ذا زهاء عرمرما
وقاد اليه الناس بأس ورغبة
وعز ينامى يذبلأ ويلملما^(١٢٢)

ومثل ابن يحيى « حماد النائلي » ،
وهو من بنى نائل الذي اجتمعت حوله
أحلاف عرب الاحساء ، وتصدى لفتنته
هذه أمير القطيف أبو مقدم شكر بن علي
بن عبدالله بن علي العيوني ، فهزمه ،
وقتل قائد جموعه السبيع بن غفيلة أحد

رجال النائلي ، وأطلق على المكان
« الخأس » لكثرة من قتل من جماعة
النائلي :

منا الذي عام حرب النائلي جلا
يوم السبيع ويوم الخأس
الغما^(١٢٣)

كما كان عليه أيضا أن يواجه أعداء
المنطقة التقليديين من العجم الطامعين ،
غير من ذكرناهم من (الشركسيين)
السلاجة ، كالقاروني احد ملوك العجم
ببلاد قارون :

وسل بقارون هل فازت كتابه
لما اتتنا وهل كنا لهم غنما^(١٢٤)
ولقد حرص مؤسس الدولة العيونية
عبدالله بن علي العيوني ، منذ بدء حربه
للقرامطة وصراعه مع منافسيه على أن
يقيم جسرا متينا من العلاقات الطيبة مع
الخلافة العباسية فقد رحب الخليفة
القائم بأمر الله بعرضه ، حين طلب
المعونة العسكرية للقضاء على القرامطة ،
ولا يخفى على أحد ما عانت الخلافة
العباسية من غارات القرامطة على جميع
أطرافها ، حي بغداد لم تسلم من
أذاهم .

وهكذا شهد النصف الثاني من القرن
الخامس الهجري ، نهاية الدولة
القرمطية ، وامانة سننها ، وبقايا
بدعها ، وتصفية أعوانها في المنطقة ،
وشهد قيام دولة فتية جديدة ، امتد
نفوذها من البصرة الى عمان . وكان
العيونيون قد توزعوا نفوذهم بعد وفاة
مؤسس دولتهم ، فاستقل آل علي
بن عبدالله بحكم الاحساء ونواحيه بينما
اقتصر حكم آل الفضل بن عبدالله على
القطيف ونواحيه ، وادى هذا الى نشوء
نوع من الصراع بين الفرعين القويين

حمل من البر ، وألغا ومائتي ثوب من عمل مصر ،^(١٣١) وإلى هذه العلاقة الطيبة يشير ابن المقرب بقوله :

ومال أمير المؤمنين بوده
إليه وسماه زعيم الأعراب
حمى البر من حد العراق فحازه
إلى الشام واستولى على حد ناعب^(١٣٢)
وقد تمكن من تأديب الكثيرين من
خصوم دولته ، كبنى عامر حين تحالفوا
على حربه عام ٦٠٢ هـ^(١٣٣) ، ويخاطبهم
ابن المقرب مهذبا محذرا :

واقسم إن نبهتم الحرب ساعة
وضمكم نحو الأمير مغار
لتصطبجن كأسا عليكم مريرة
يطول لكم سكر بها وخمار
بها شربت من قبل عوف بن عامر
غداة دعتها نزقة ونفار
بكف أبيه لا بكف أبيكم
فراحت وفيها ذلة وصغار^(١٣٤)
ثم يتوجه إليهم ناصحا بالخضوع
لأمره :

فما الرأي إلا أن تذلو لحكمه
فليس عليكم في المذلة عار
وتمسوا كما كنتم جميعاً رعاة
عسى أن تنالوا نصفه وتجاروا^(١٣٥)

وقد واجه في عهده أطماع البدو ،
كبنى مالك ، الذين خرجوا على طاعته ،
وجاءوا لحربه ، ولقيهم على « ماء
الدجاني » ، في الجانب الغربي من
الدهناء ، فلقنهم درسا قاسيا ، قتلا ،
وسبيا وقتل الكثير منهم جوعا ، وعطشا ،
وقد وصف ابن المقرب هذه الواقعة في
لاميته وصفا دقيقا :

كأنكم لم تعرفوا سطواته
إذا الحرب فارت من لظاها مارجل

للأسرة العيونية : ثم تمكن الفضليون من
بسط نفوذهم على سائر البحرين ، ولكن
الصراع بقى مستمرا ،^(١٣٥) وكان على
الفروع العيونية الأخرى أن تحدد ميلها
وولاءها ، وعلى أساس من هذا الولاء
وذلك الميل كانت تلقى احترامها ،
وأضطهادها ، كما حدث لشاعرنا ابن
المقرب ، الذي دفع ثمن ميله للفضليين
غاليا من الفرع الآخر المناوئ لهم .

وقد تعاور الامارة العيونية ، منذ قيام
دولتهم ، وحتى سقوطها في النصف
الأول من القرن السابع الهجري ،
ما يقارب العشرين أميرا .^(١٣٦) وبلغت
على يد الرعيل الاول منهم حدا من المهابة
وسعة النفوذ ، وإلى هذا يشير ابن المقرب
في مدحه للامير الحاكم أبي شكر مقدم بن
ماجد بن محمد بن أحمد بن محمد
بن الفضل بن عبدالله العيوني :

بني المعالي لهم فضل وشيدها
أبو سنان^(١٣٧) قريع العجم والعرب
وأحمد^(١٣٨) أبنة الملك الذي منعت
مابين نزوى^(١٣٩) سراياه إلى
حلب^(١٣٠)

وبعد الامير محمد بن أحمد أبي
الحسين بن محمد أبي سنان بن الفضل
بن عبدالله العيوني (٥٨٤ - ٦٠٣ هـ)
أهم أمراء الاسرة العيونية وآخر النخبة
المتأثرة من حكامهم وقد عاصره شاعرنا ،
ومدحه ، وسجل مآثره . وحربه
لخصومه ، وراثه عند موته .

وقد استفحل ملك العيونيين في زمن
هذا الامير ، وامتد نفوذهم إلى نجد ،
وبادية الشام ، وجعل له الخليفة العباسي
الناصر لدين الله خفارة الحاج اذا خرج
من بغداد ، حتى يصل إلى مكة ، ويرجع
منها ، وقرره في كل سنة ألفا وخمسمائة

سلوا تخبروا من غير جهل لفعله
 بنى مالك فالحر بالحق قائل
 ألم يجلب الجرد العتاق شوازبا
 من الخط تتلوها المطايا المراسل
 ألى أن أناخت بالدجاني بعدما
 براها السرى والاین فهى نواحل
 فصبحن حیا لم تصبح حلاله
 قديما ولا رامت لقاه الجحافل
 فكم قرم قوم غادرته مجد لا
 تقط شواه الخامعات العواسل
 وكم مال نحام من القوم أصبحت
 تقسم غصبا جله والعقائل^(١٣٦)
 ثم يواصل حديثه عن هزيمته لهم بقية
 القصيدة :

كما يصف لنا ابن المقرب وقعة أخرى
 لهذا الأمير مع قبائل عنين ، وطىء ،
 وزيد .. وعرب الشام ، وكانوا قد
 انحدروا صائلين على قبائل قيس ،
 فاهمها ذلك ، واستغاثت بالأمير
 العيونى ، فلم يخيب رجاءهم ، وحمل
 عليهم ، ومزقهم شرمزق :

وكان لهم بالحزم يوم عصبصب
 وقد حشدت للحرب تلك القبائل
 عنين وآل الفضل من آل برمك
 وكلهم للعز أنف وكاهل
 وجاءت زبيد كالجراد وطىء
 وكل يمنى نفسه ما يحاول^(١٣٧)
 ثم يقول :

فضاقت على أحياء قيس رجاها
 من الخوف وانسدت عليها المناهل^(١٣٨)

ثم يتحدث عن دور آل الفضل من
 العيونيين فى صد هذه الهجمة ، الى أن
 يقول :

وأقبل ليث الغاب أعنى محمداً
 يفتش عن أشباله ويسائل

ف قيل له تحت العجاجة دأبهم
 طعان العدى فى حيث تخفى المقاتل
 فأوردهم صدر الحصان كأنه
 بأخذ نفوس القوم بالسيف كافل
 فطاروا سلالا من أسير وهارب
 ومن هالك تبكى عليه الثواكل^(١٣٩)
 ويشير ابن المقرب فى نونيته ، الى
 الحملات التى قادها هذا الأمير ، والجهد
 الذى تحمله فى المحافظة على تماسك
 دولتهم ، والاعداء الذين هزمهم ، ممن
 كانوا يطمعون فى دولتهم - غير من سبق
 ذكرهم - كأهل القطيف ، وبنى سليمان ،
 وبنى لبيد ، وأهل عمان ، وعدوان ،
 فيقول :

لما أنت أهل القطيف بجحفل
 متوقد كتوقد النيران
 فى آل حفاف وآل شبانه
 مثل الاسود بحافتى خفان
 وتسربلوا حلق الحديد وأقبلوا
 بالخيل والرايات كالعقبان
 فرى الأمير جموعهم فتمزقت
 كالشاء اذ جفلت من السرجان
 وتحكمت فيهم حدود سيوفه
 ضربا فويق معاهد التيجان^(١٤٠)
 ثم يشير الى حملات أخرى قادها بغية
 تأديب من حدثتهم أنفسهم بالخروج على
 طاعته :

وهو الذى قاد الجياد عوابساً
 تحت العجاج الى بنى سلمان
 وبنى لبيد كلها فاجتاحها
 بدراك غارات وحسن طعان
 وأتت اليه بالخراج مطيعة
 خوفاً من الغارات أهل عمان
 وتزعزعت رهبا فجاءت تبغى
 منه الذمام الشم من عدوان^(١٤١)
 وقد سار هذا الأمير على سياسة من

لباه جهرا واصطفاه له فتى
 من بين أبناء النبى وقيدر
 وأمه بخزائن لو صبحت
 ذات العماد لأذنت بتدعتر
 فيها المجانيق العظام يحفها
 نبط تاجح ناره بتسعر
 وقسى أسد لاترد نصالها
 زبر الحديد ولا صفيح المرمر
 وقضى اليه أن حكمك نافذ
 ماض بأكناف العراق وتستتر^(١٤٤)
 فاضم اليك الجيش وانهض وافتتح
 ماشئت من بلد وجد وشمر^(١٤٥)

والمعروف ان شاعرنا قد سفر يوما
 لدولته ، لدى بلاط الخليفة الناصر لدين الله
 عام ٦٠٦ هـ ، الخزائن من بغداد الخزائن
 التى أمد بها الناصر الفضل بن محمد بن
 أبى الحسين بعد مقتل والده .^(١٤٦)
 ولكن الملاحظ ان شعره فى الفترة
 الأخيرة ، التى شهدت ضعف حكاهم ،
 وصراعهم على السلطة ، وتوثبهم ببعض ، قد
 خلا من مثل هذه الاشارات ، الى تلك
 العلاقات الطيبة الوطيدة ، بين خلفاء بنى
 العباس وحكام الاحساء ، ولعل هذا يعود
 لأمرين :

أولهما : أن الحكام العيونيين قد
 أصبحوا عاجزين عن أداء خدماتهم
 للخلافة .

وثانيهما : أن الخلافة نفسها كانت
 تعاني مرض الشيخوخة ، وقد أوشكت
 نهايتها ، فلم تعد قادرة على الاستمرار فى
 مثل هذه العلاقات ، التى تكلفها مالىس فى
 وسعها .

وعلى الرغم مما بذله الامير محمد بن أبى
 الحسين من جهود ، الا أنه قد قتل
 غيلة ،^(١٤٧) بمؤامرة حاكها رجال من

سبقه من حكام دولتهم ، فى الولاء
 للخلافة العباسية ، وقد سبقت الاشارة
 الى تكليف الخليفة له بحماية قوافل
 الحج ، كما ساعد الخلافة فى الضرب على
 أيدي بعض العصاة والخارجين من عرب
 البادية ، أمثال قوم دهمش بن سند بن
 أجود ، فقد شكاه الحاج الى الخليفة
 الناصر لدين الله ، الذى بعث بدوره
 رسولا الى الأمير محمد بن أبى الحسين
 يخبره بذلك ، ويحثه على النهوض اليه
 وقومه والتنكيل بهم ، فكان له ما أراد ،
 اذ لقيهم بظاهر الكوفة وهزمهم ، ونكل
 بهم ، ولجأ زعيمهم الى مشهد الامام
 على - كرم الله وجهه - وأقام به
 مستجيرا ، حتى جاء رجال الخليفة ،
 وقبضوا عليه ، واستاقوه الى
 بغداد .^(١٤٨) وإلى هذا يشير ابن المقرب
 فى ميميته المشهورة :

منا الذى ضربت حمر القباب له
 بالمشهدين وأعطى الأمن وانتقما
 لولا عياذ بنى الجراح منه به
 لصاحبت دهمشا او الحقث درما^(١٤٩)

وترسم ابنه الامير الفضل بن محمد
 بن أبى الحسين - من بعده - سياسته فى
 الابقاء على صلاتهم الطيبة مع الخلافة
 العباسية ، متحملا المهام التى نهض بها
 والده بتكليف منها ، نظير مساعدات
 عسكرية ، كانت الخلافة فى بغداد - على
 ما يبدو - قد التزمت بها للأمراء
 العيونيين ، لينهضوا بما تكلفهم به من
 مهام . وإلى هذا يشير ابن المقرب فى
 مدحه للأمير الفضل بن محمد بن أبى
 الحسين :

رضى الخليفة هديه واختاره
 وحباه بالحظ الجزيل الأوفر

أسرته ومن بنى عامر . وقد رثاه ابن المقرب
رثاء يفيض أسى ولوعه ، وكأنه بحسه المرفه
كان يعرف ما يعنيه موت هذا الأمير ، وقد
اتضح فعلا من ديوانه ، ان موته كان نقطة
تحول خطيرة في تاريخ الدولة العيونية فقد
بدأ الضعف يدب في كيانها من مناح مختلفة
بعد ذلك .

يا سوء حظ بنى نزار بعده
وشقاء حاضرها وشؤم بداتها
رجفت لمهلكه البلاد وزلزلت
وغدا مناخ الذل في جبراتها
ان نبك مصرعه أسى فلقد بكت
جزعا عليه الجن من ستراتها
كانت به البحرين جنة مأرب
أيام بهجتها وطيب حباتها
حتى اذا ما الترب واري شخصه
أبدت يد الايام عن سواتها (١٤٨)
وقد أثرت الوقوف عند هذه
الشخصية العيونية القوية ، والتي
بلغت دولتهم في عهده قمة أوجها ،
وعرضت في هذه العجالة للجهود
المضنية التي تجسمها في المحافظة على
هبة دولته ، لنحد من الأطماع
التقليدية في سلطتهم ، وللحيلولة دون
ظهور طامعين جدد .

فقد أردت من خلال هذا تقديم
صورة لوضع هذه الدولة ، والتي -
كما يبدو - قد حرمت الاستقرار
والأمن ، حتى في نهود الأقوياء من
رجالها ، وبالطبع كان لهذا الوضع
المهتز ، القائم على التوجس ،
والحذر ، والريبة ، أثره على الحياة
الاجتماعية والاقتصادية والعقلية ..
وان كنا لا نستبعد أن تكون هذه

الدولة قد نعمت بشيء من الرخاء في
عهد أمرائها الأول ، ففي مطولة ابن
المقرب «الميمية» عدة أشارات الى
العطايا السخية لأولئك الأمراء .

ويرى الدكتور شوقي ضيف «أن
هذه العطايا لتدل على الرخاء الذي
نعمت به تلك الديار في عهد هؤلاء
الأمراء» (١٤٩) . ولكن ينبغي الحيطة
من الأخذ بما جاء في شرح هذه
الآبيات ، والانتخذا دليلا أكيدا على
رخاء تلك الديار آنذاك . فقد أسهب
الشارح في ايراد قصص الكرم
العيوني ، وهي قصص لا تخلو من
مبالغة ، مما يرجح الظن أن شارح
الديوان الذي مازال مجهولا يمت
بصله قوية الى البيت العيوني .
وبالإضافة الى ذلك ، فليس معنى
سقاء حاكم ما أن رعيته تعيش في
حبوحة من العيش ، بل كثيرا ما تكون
مظاهر بذخ الحكام واسرافهم على
حساب رخاء رعاياهم .

كما نجد في «ميمية» الشاعر
اشارات يسيرة الى عطايا هؤلاء
الأمراء لبعض الشعراء ، مما حدا
بالدكتور شوقي ضيف أن يقول : «أن
هذه العطايا للشعراء في عهد أولئك
الأمراء ، لتدل على أنه كانت هناك
نهضة أدبية ، رعوها خير
رعاية» (١٥٠) .

يروى لنا شارح الديوان أن أمير
القطيف أبا سنان محمد بن الفضل ،
كان بحرا فياضا مثل أبيه الفضل ،
وأن عامله على البحرين جاء اليه بمال

ولآلئ وجواهر كثيرة وتصادف أن كان
في مجلسه شاعر عراقي يعرف
بالثعلبي دبج فيه مدائح كثيرة فقال
للعامل : ادفع المال اليه ، وكان فيه
جوهرة بألف دينار ، فبهت العامل ،
ومات على الأثر . وفي ذلك يقول ابن
المقرب :

منا الذي من نداه مات عامله
غما واصبح في الاموات مخترما
(١٥١)

كما يذكر الشارح أن أبافراس
غريز بن محمد أبي سنان قد امتدحه
يوما الثعلبي شاعر أبيه بقصيدة
فطلب الى صاحب خزائنه أن يعطيه
جميع مفاتيحها ، ويتنحى بعيدا
ليأخذ منها ما يريد ، فقال الثعلبي : في
بعض ذلك غنى وسعه ، ويكفيني ألف
دينار ، فأمر بأربعة آلاف له وفي ذلك
يقول ابن المقرب :

منا الذي جاد إيثارا بما ملكت
كفاه لا يديجزئها ولا رحماً (١٥٢)
ويذكر الشارح أن أمير القطيف أبا
الحسن بن عبد الله بن علي قد حضره
ذات يوم أربعون شاعرا ، فأعطاهم
أربعين فرسا مسرجا ملجما ، وفي ذلك
يقول ابن المقرب :

وجاد في بعض يوم وهو مرتفق
بأربعين جوادا تعلق اللجما (١٥٣)
وقد استوقفني طويلا أخبار
الشارح تلك ، ولكن حذري منها حال
دون أخذي بها وشجعني على ذلك أن
الثعلبي شاعر مجهول تماما ، ولا
يعني تردد شاعر مجهول على بلاطهم

أن هناك نهضة أدبية ، وأنهم رعوها
خير رعاية . كما أن وفادة أربعين
شاعرا ذات يوم على أمير ، أمر مبالغ
فيه ، ولم نسمع به في عصور
الازدهار ، الا فيما نعلم عن بلاط دار
الخلافة وسيف الدولة وما أشبهه أو
إذا كانوا من أولئك البدو ممن
يتحلقون للسمر في بيوت الأمراء ،
ويتناشدون الأشعار النبطية أو ما
شابه ذلك ، ولا يعد وجودهم دليل
نهضة أدبية ، كما أننا لم نسمع عن
شاعر من تلك الدولة سوى ابن
المقرب . وربما كانت هذه الأخبار
اشارات الى خطوات على طريق نهضة
أدبية ، لم تتج لها ظروف دولتهم
المضطربة أن تنمو وتزدهر .

ومع مطلع القرن السابع
الهجري ، كانت الدولة العيونية ،
تشهد آخر عهود الأقوياء من
حكامها ، بزعامة الأمير محمد بن أبي
الحسين لها ، والذي كان من حسن
طالعه ، تألق نجم شاعرنا أيامه ،
فسجل لنا هذه الفترة من خلال مدحه
له ، وأعجابه ببطولاته وما أن طويت
صفحة هذا الأمير ، حتى أطلت الفتنة
برأسها ، وكان على الأمير الجديد
الفضل بن محمد بن أبي الحسين أن
يملا الفراغ الذي خلفه والده ، فسعى
جاهدا للصمود في وجه التحديات
والأخطار ، وكانت له مواقف مشرفة ،

كتأديبه لبني عقيل المتآمرين على
الدولة ، فقد دعوا أهل السيب (١٥٤)
من عرب العراق ، وتحالفوا معهم

للقضاء على العيونيين ، ولكنهم هزموا
 شر هزيمة أمام الفضل ورجاله :
 اشبهت والدك الهمام وانما
 عرفت بنو الأساد من أصواتها
 وحميت دار أبيك منك بهمة
 الجود والأقدام من هاماتها
 من بعد ماجمعت عقيل كيدها
 بالرأي من عقالها وغواتها
 ودعت بأهل السيب فابتدأت بها
 من شط دجلتها وشط فراتها
 تتلو المعلي حيث سار وانه
 للفارس الولا ج في غمراتها
 فصبرت صبر الأكرمين ولم تخم
 عن زحفها يوماً ولا غاراتها^(١٥٥)
 ثم يواصل وصفه لما أوقعه فيهم
 من خسائر ، الى أن يقول من القصيدة
 ذاتها :

تركزت نساء السيب تبكي حسرة
 لولاتها وتطيل من ويلاتها
 ولكن الأمير الفضل لم يستطع أن
 يواصل صمود وسلفه ، فقد اضطر
 عام ٦٠٦هـ الى توقيع صلح من ملك
 جزيرة قيس غياث الدين شاه بن تاج
 الدين جمشيد وتنص معاهدة الصلح
 هذه على تنازلات عيونية كبيرة .^(١٥٦)
 وقد شعر ابن المقرب بهذا الضعف
 الذي بدأ يدب في كيان دولتهم ، فأخذ
 يحذر وينصح ، ولم يجد أذانا
 صاغية ، بل لقد قوبل بالاهانة
 والسجن والنفي :

أوليس جهلاً أن تسيم بمرتج
 أكلت به المعزي لحوم رعاتها
 أعربت حين دعوت الا أنه
 لا يبلغ الأموات صوت دعائها

فانهض وسل الهم عنك بجسرة
 روحاتها تربى على غدواتها
 وارغب بنفسك ان تقيم ببلدة
 عصفورها يسطو بشهب بزاتها
 إن يرض قومي الهون في فطالما
 عمداً أهنت النفس في مرضاتها
 كم قد غدوت ورحت غير مقصر
 في لم فرققتها وجمع شتاتها^(١٥٧)
 الى أن يقول من القصيدة ذاتها :

ولرب لاح قال لي وجفونه
 سكري الى الاماق من عبراتها
 هون فقومك يا على حياتها
 كمماتها ومماتها كحياتها
 لو كان فيهم من همام ماجد
 لم تسق مر الضيم من راحتها
 ثم يتولى الأمير على بن ماجد بن
 محمد بن أبي الحسين بن محمد بن
 الفضل الحكم بعد عمه الفضل ،
 فيعيد الى البحرين شيئاً من
 الاستقرار ، وينهض ببعض
 الإصلاحات :

لله درك يا على فلم يعد
 الاك في هذا الزمان مهذب
 أضحت بك الاحساء ساكنه وقد
 رجفت بمن فيها وكادت تقلب
 لو لم تداركها وترأب صدعها
 لغدت بها خيل الهلاك توثب
 أحبيتها بعد الممات وبعدها
 قامت بواكيها تنوح وتندب
 ومنعتها من بعد ماكانت سدى
 في كل ناحية تغار وتنهب
 وملاؤها عدلاً وكانت عممت
 جوراً تغوربه الديار وتخرب
 حتى كأنك والمشبه صادق
 عمر بها وكأنها لك يثرب^(١٥٨)

ولم تمنع مهابتهم وسعة نفوذهم الطامعين في دولتهم ، من الاستمرار في محاولاتهم للسيطرة على أجزاء منها ، وخاصة جزيرة (أوال) ، التي كانت محطاً لاطماع حكام جزيرة (قيس) (١٥٩) ، لأهمية موقعها ، وشهرة لآلها ووفرتها ، فابن المقرب يشير في ميميته المشهورة ، الى الدور الذي نهض به الأمير الحاكم أبو علي الحسن بن عبدالله بن علي العيوني في صد احدى حملاتهم عنها ، وكانت بقيادة ملكهم أبي كرزاز بن سعد بن قيصر ، وقد نزلت جموعه بشبه جزيرة «سترة» (١٦٠) في أوال ، فأرسل الأمير أبو علي أخاه أبا مقدم على رأس جيش من القطيف ، فعبر اليه ، وهزمه ، وقتل من جيشه ألفين وثمانمائة ، وأسر «نام سار» أخا الملك أبي كرزاز (١٦١)

ويوم سترة منا كان صاحبه لاقت به شامه (١٦٢) والحاكك الرقما الفين غادر منهم مع ثمان مئى صرعي فكم مرضع من بعدها يتما (١٦٣) ولكن بعد مقتل الأمير محمد بن أبي الحسين - جد الأمير علي بن ماجد - غيلة أخذ الصراع العيوني يشتد ، وتنافسهم على السلطة يزداد ، ويتخذ شكلاً دموياً .

وإلى هذا يشير ابن المقرب متحسراً :
رزئت ملوكاً لو بكيك لفقدهم
دما ما كفاني عمر نوح ولقمان
بهم كنت أرمي من رمانى وأتقى
بهم نائبات الدهر من حيث تلقانى

باسيافهم ذاقوا الردى وتجرعوا
حسا الموت لا آسيف قيس وغيلان
(١٦٤)

وقد أعطى هذا الصراع المتفاقم الضوء الأخضر لاعدائهم المتآمرين من زعماء عبد القيس بأن يتغلغلوا ويتدخلوا لا في شئون الدولة فحسب ، بل في تعيين الحكام وعزلهم . فهاهم جماعة من رؤساء عبد القيس يثرون على الأمير علي بن ماجد ، ويخرجونه من البلاد ، ويبايعون الأمير مقدم بن غرير بن الحسن بن شكر بن علي (١٦٥) ، وكان مقدم هذا قد نشأ نشأة بدوية ، فلم تكن له دراية بشئون الحكم والسياسة ، فتكالب الطامعون على الدولة ، وفقدت الامارة العيونية هيبتها ، وضعفت وساء تدبيرها ، وصارت العامة تقدم من تريد من السلاطين ، وإذا ما ملك أحدهم ، أخرج جميع أهل الفضل والشرف من البلاد ، وخوت خزائن الحكام ، ولم يعد في مقدورهم ان يجندوا الجند ، فاجترأت الرعية ، وصار كل يريد الملك على يديه ، وجعلوا مهمهم تصفية رجال الأسرة الحاكمة ، (١٦٦) وإلى هذا يشير ابن المقرب بقوله :

وصالى أرى السادات إما مشردا
بارض الأعادى أو مقيما مكبلا (١٦٧)
وقد أطاعهم مقدم لجهله بمكرهم
وخداهم ، فقبض على عدة رجال منهم ، وألقاهم في السجن ، ونهب ما في خزائنهم ، فجاءه ابن المقرب ، وقبح عليه فعلته ، ولكنه ادعى الجهل فيما حدث ، وأسنده الى أحد زعماء الاحساء أبى علي ابراهيم بن عبدالله بن عزيز بن إبراهيم أبى جروان . (١٦٨) وهنا ينتفض ابن المقرب ، هاجياً رجال

لم يبق مال تتقون به العدى
لربيعه فيها ولا قحطان
أخذوا من الاحسا الكتيب^(١٧٢) الى محا
ديث^(١٧٣) العيون الى نقا حلوان^(١٧٤)
والخط^(١٧٥) من صفواء^(١٧٦) حازوها فما
أبقوا بها شبرا الى الظهران^(١٧٧)
والبحر فاستولوا على ما فيه من
صيد الى در الى مرجان
ومنازل العظماء منكم أصبحت
دورا لهم تكرى بلا أثمان
وأض شيء للقلوب قطائع
بالمروزان^(١٧٨) لهم وكرز^(١٧٩) كان^(١٨٠)
ثم يتوجه باللوم والنصح لأبى على
ابراهيم بن أبى جروان ، ممن كانوا
يخططون لخراب الدولة :
أبلغ هديت أبا على ذا العلى
عنى السلام وقل له ببيان
أترك ترضى أن يحدث جاهل
أو عالم من نازح أو دان
فيقول كان خراب دار ربيعه
بعد العمارينو أبى جروان^(١٨١)
وتتوالى صرخات ابن المقرب ، ويحاول
أن يبصر السادة من قومه ، بمواطن
الضعف في سياستهم ، وماقد يترتب على
استمرارهم فيها :
ومن يعط خصما درعه وحسامه
وسابقه فليلبس الذل مشملا
ومن ملك الاعداء تدبير أمره
فذاك الذى يدعى العديم المثلثا
ومن رام طول العمر بالذل والغبا
رأى الموت مرأى عاجلا ومؤجلا
ومن لم تكن انصاره من رجاله
أخيف وأضحى بالجنايات مبسلا
ومن لأن يوما للعدى هان واصطلى
على الكره من نيرانها شر مصطلى^(١٨٢)
وكان منتهى أمل شاعرنا أن يسمعه

عبد القيس ، مقبجا استسلامهم لكيد
عدوهم ، وصراهم وتنافسهم :
أرجال عبد القيس كم أدعوكم
في كل حين للعلا وآوان
فتراكم موتى فاسكت أم ترى
خلقت رعو سكم بلا أذان
كم ذا تسامون الهوان وانتم
خضع الرقاب تطامن الخصيان
ثكلتكم الاعداء ثكلا عاجلا
ياغصة الاخوان والجيران
القوم تاكلكم وياكل بعضكم
بعضا كأنكم من الحيتان^(١٦٩)
ثم يشير الى ازدياد نفوذ البدو ، ومحاولة
الحكام كسبهم بالأموال والبساتين .
لم يغضب البدوى الا قلت
سدوه كى يرضى بمال فلان
والسد أخرب مأربا فتيقنوا
بعد انفتاح السد بالطوفان^(١٧٠)
وتكرر هذه الاشارة في قصيدة
أخرى ، في محاولاتهم لكسب عدوهم ،
ولكنها هذه المرة تقطر مرارة وألما ، لتيقن
شاعرنا بالنتائج العكسية والسلبية لهذه
السياسة ، التى تنم عن ضعفهم ، وسوء
أحوالهم ، وجهل حكامهم :
ومن أعجب الأشياء والدهر كله
عجائب يأتى فذهبا وتوامها
إذا نحن زدنا في عطايا قبيلة
لكف أذاها زاد منا انتقامها
هي النار ان شبهتها وعطاؤنا
لها حطب مازاد زاد اضطرامها^(١٧١)
ثم تنتهى بهم هذه السياسة
الضعيفة ، الى حال لا يحسدون عليها ،
فقد لاحظنا كيف فقدوا سلطتهم
ونفوذهم ، وصاروا حكاما بلا سلطة ،
والان أصبحوا حكاما بلا سلطة وبلا
أرض :

قومه ، ويعوا ما يقول :
فاه لقومي لو أطعت لديمهم
دورا ان فيهم حازم الراى فيصللا (١٨٣)
ثم تمضي الايام بهذه الدولة ، من سىء
الى أسوأ ، ويحاول بعض حكامها ،
كالأمير أبى سنان مسعود بن محمد
بن عبدالله ، رأب صدعها ، ولم شملها ،
واعادة شىء من الهيبة لها ، فكان لها
كالجرعة المنشطة :

أبوسنان حليف المكرمات ومن
أناف سؤدده السامى على زحل
محي البلاد وقد أشفت على جرف
هار ومانعها بالببيض والاسل (١٨٤)
وقد جاءت ولاية هذا الأمير بعد أن
بلغت الأحوال حدا من السوء ، دعا
أصحاب الأرض الى الهجرة الى العراق ،
وفارس هربا من الظلم الذى نالهم :

وابعث الى المدن بالبشرى مخبرة
بملك أروع لاعى ولاكل
كيما تعود الى الأوطان آبية
قوم راوا قبل فيها خيبة الأمل
جلاهم الضيم عنها فاغتدوا هربا
من غير ما بغضة منهم ولاملل
في أرض فارس لا يحصى عديدهم
وفي العراقيين ملء السهل والجبل
مذبذبين عن الاوطان كلهم
من شدة الشوق والتذكار في شغل
ومن أقام بها قامت قيامته
وعاين النار من خلف ومن قبل (١٨٥)
وينادى ابن المقرب الطيور المهاجرة في
فارس والعراق ، ويدعوهم الى العودة
لوطنهم :

يا هاجر الدار من خوف هلم فقد
نادى بك الأمن أن اقدم على عجل
ولا تخف فالذى قد كنت تعهده
أزاله سيد الاملاك منذ ولى (١٨٦)

وتجلت همة هذا الأمير ، في الحد من
صولجان البادية بزعامة بنى عقيل ، حين
جاءوا مغيرين على الاحساء :
سل عنه يوم أغارت في كتابها
خيل القطيف من القرعا (١٨٧) الى
الجبل
يحثها من عقيل كل ذى أثر
مولى فوارس لا ميل ولا عزل (١٨٨)
فقد استطاع أن يعيد الى البحرين شيئا
من استقرارها ومنعتها ، بعد طول
اضطراب وذل :

به أنارت قرى البحرين وابتهجت
بقاعها وتسمت قرة المقل
وأصبحت بعد ثوب الذل قد لبست
ثوبا من العزذا وشى وذا خمل (١٨٩)
ومثل هذه الجرعة المنشطة ، سرعان
ما انتهى مفعولها ، ويبدو ان الدولة قد
بلغت حدا من الضعف ، أصبح فيه
تحديد الداء ، ووصف الدواء ، غير ذى
جدوى ، فلا تكاد تخلو قصيدة
لابن المقرب في هذه الفترة ، من النصيح
والتحذير ، وانتقاد سياسة حكامهم ، الى
حد السخرية منهم :

وكم أندب الموتى واسترشد الصفا
واستنهض الزمنى واعتان بالرمد (١٩٠)
ويقول من قصيدة أخرى :
تكلتهم الاعداء إن حياتهم
غم الصديق وفرحة الأعداء
جلد الجمال على الهوان وفيهم
ضعف الدبا وتلون الحرباء (١٩١)
ثم يتولى الحكم الأمير ابو القاسم
مسعود بن محمد بن علي بن عبدالله ،
ولكنه كان عظيم الركون الى بطانة
الفساد ، ممن كانوا يعملون في هلاك
دولته (١٩٢) ، وفي عهده قام أهل الاحساء

بقتل بدوى قاطع طريق من بنى عقيل ،
فجاء أهله يطالبون الأمير بديته ، فأنكرت
أهل الاحساء عليه ذلك ، وبهتيل ابن
المقرب الفرصة ، مرغبا قومه في الصبر
والحرب ، مقبحا عليهم خضوعهم (١٩٣) ،
فيقول :

الى كم مداراة العدى واحترامها
وكم يعترينا ضيمها واهتمامها
أما حان يافرعى رببعة أن ارى
بنات الوغى يعلو الروابى قتامها
ردوا الحرب ورد الظامئات حياضها
خوامس يغتال النصال ازدحامها (١٩٤)

ثم يقول من القصيدة ذاتها :
صلوا بالخطا قصر السيوف فانها
تطول ولا يغنى غناء كهامها
فضربا وطعنا بالصوارم والقنا
فلا عذر حتى يخضب السيف هامها
ولا تهنوا واستشعروا الصبر جنة
وعزما فما للحرب الاعترامها

وتستغل بطانة السوء من حول أبى
القاسم ركونه اليهم ، فيتواطئون مع
رؤساء قبيلة بنى عقيل بن عامر (وهم بنو
عصفور) ، بأن يشنوا الحرب على
الأمير ، ويحصروا الاحساء ، ويطلبوا
الصلح مقابل مبلغ من الذهب يعجز
الامير عنه ، وهنا يشيرون على الامير
برهن ما بقى من ممتلكات أسرته ، وكان
لهم ما أرادوا ، وتمت المؤامرة في غيبة
من الشاعر ابن المقرب في القطيف ، فلم
يتركوا لاسرته ملكا يعرف باسم أو يحد
بحد ، فجاء معاتباً ابا القاسم على ذلك :
فأنكره ، وحلف أنه لم يفعله (١٩٥) ، ثم
أنشأ قصيدته التى مطلعها :

بعض الذى نالنا يادهر يكفينا
فامنن ببقيا واودعها يدا فينا (١٩٦)

وقد جاءت هذه القصيدة نفثة
مصدور ، تدفقت زفرات حرى ،
وحسرات مؤلة على عزهم الزاهب ، وهو
يراه يتحول الى من لا يستحقونه :

يا ضيعة العمر يا خسران صفقتنا
يا شؤم حاضرننا الأشقى وباديننا
كنا نخاف انتقال الملك فى مضر
فمرحبا بك يا ملك اليمانينا
فإن تولت ملوك الروم ما بلغت
معشار ما صنعت اخواننا فينا
كنا نضج من الحرمان عندهم
ونطلب الجاه فيهم والبساتينا
فاليوم نفرح ان يبقوا لموسرنا
من ارث جديه سهما من ثمانينا (١٩٧)
ثم يسجل اعترافه بنجاح سياسة
أعدائهم ، ونيلهم لمآربهم ، بما التوى من
السبل أو كان واضحا صريحا :
نال المعاند منا ما يحاوله
سرا وجهراً وتعريضاً وتعييناً (١٩٨)

وحين نقرأ قصائده لهذه الفترة ، التى
صورت انحطاط شأنهم ، وتدهور
أحوالهم ، نحس بقدر كبير من المرارة
فيها ، إذ لم يبق لهم سوى السيادة
الاسمية على البحرين ، والسلطة الفعلية
قد أصبحت لأعدائهم البدو المتمتعين
بكامل خيراتها ، وحسبنا عينيته التى
مطلعها .

دع الدار بالبحرين تعفو ربوعها
وسقها ولو لم يبق الا نسوعها (١٩٩)
والتي يقول فيها :

وليس لنا فى الدر الا محاره
ولا فى عذوق النخل الا قموعها (٢٠٠)
فبعداً لدار خيرها لعدوها
وقوم بأسوا كل حظ قنوعها
وتبلغ المرارة قمته حين يقول :

عفاء على البحرين لو قبل أينعت
زنابير واديها وجادت زروعها
فهل ذاك الا للعدو وعصبة
سيشقى بها متبوعها وتبوعها^(٢٠١)
وكان لهذا الاضطراب السياسى ،
وفقدان السلطة الحاكمة لهيبتها أثره فى
الحياة الاجتماعية ، فانحطت الأخلاق ،
وشاع الفساد ، وتدهورت القيم
الأخلاقية ، وأصبح المال غاية همهم ،
ناهيك عن الثمن .

وسوداء مومسة أجل لديهم
من عالم حبر وأدنى مقعدا
وبمصلح لابل بالفى مصلح
لا يعدلون خبيث أصل مفسدا
لو قيل كن هوداً لأشرف رتبة
منهم ودونك درهما لتهودا^(٢٠٢)
وهذا مؤشر واضح وقوى ، على
النهاية الحتمية الوشيكة لدولتهم ، بعد
ان أصبحت بلادهم .

أما كنا لعبت أهل الفساد بها
فدمروها بلا فكر ولا نظر^(٢٠٣)
وقد ترتب على سوء تصرف الأمير أبى
القاسم مسعود بن محمد ، أن سخطت
عليه الأسرة العيونية ، ونفضت يدها من
مناصرتة ، لتجريدهم ممتلكاتهم ،
فتلاشت سلطته ، وتقلص نفوذ العيونيين
من ذلك الحين ، وما هى الا سنوات
قليلة ، سيطر بعدها بنو عصفور رؤساء
بنى عقيل بن عامر على شئون الحكم ،
وذلك فى العقد الرابع من القرن السابع
من الهجرة^(٢٠٤) .

كما يذكر ابن خلدون فى تاريخه^(٢٠٥)
« ان ابن سعد قال : سألت أهل
البحرين حين لقيتهم بالمدينة النبوية عام
٦٥١هـ عن البحرين ، فقالوا : الملك
فيها لبنى عامر بن عوف بن عامر بن

عقيل ، وبنو ثعلب من جملة رعاياهم ،
وبنو عصفور منهم أصحاب الاحساء » .
وفى عام ٦٢٣هـ يطغى المد الزنجى
الفارسى على المنطقة ، بقيادة أبى بكر بن
سعيد الزنجى ، الذى وسع مملكة
فارس ، فاستولى على جزيرة قيس عام
٦٢٦هـ ، وكان بها بنو قيصر ، فانزع
الجزيرة منهم ، ثم استولى على جزيرة
أوال ، ثم عبر منها الى القطيف عام
٦٤١هـ فاحتلها ، وزحف بجنده نحو
الاحساء ، فانزعها من أهلها ،^(٢٠٦) .

وأرى ان هذه النهاية للدولة
العيونية ، التى اتفق عليها - تقريبا - من
أرخوا لهذه الدولة ، أو اهتموا بتاريخ
هذه المنطقة ، تعد نهاية منطقية ،
وحتمية لتطور الأحداث والتى عرضها
ابن المقرب عرضا صادقا ووافيا ، يسهل
منه توقع نهاية هذه الدولة وتحديد ما اذا
ما وضعنا فى أذهاننا أن وفاة شاعرنا كانت
عام ٦٣٠هـ فالأدنى للمنطق ان تنتقل
السلطة الى سواهم ، بعد وفاته بقليل ،
أى فى وقت لا يزيد عن العقد الرابع من
القرن السابع الهجرى .

وهكذا دام حكم العيونيين مائة
وسبعين عاما تقريبا ، وليس صحيحا أنه
استمر ثلاثة قرون كما يذكر
العبيدى .^(٢٠٧) وكان الفضل بن محمد
بن مسعود آخر حكامها .^(٢٠٨) .

وبعد هذا العرض السريع لقيام الدولة
العيونية ، الذى وقفنا فيه عند مؤسسها
عبدالله بن علي ، والدور الكبير الذى
نهض به فى اقرار سلطتهم ، عند آخر
حكائها الأقوياء محمد بن أبى الحسين .
وخرجنا من هذه الوقفة بأن أمراء هذه
الدولة كانوا يعترفون بسلطة بغداد
الرمزية عليهم ، وكانت هذه الدولة عربية

الحسن ، وماجد بن محمد ، وأبو القاسم
مسعود بن محمد .

- صراعهم مع حكام جزيرة
« قيس » .

- والوقوف في وجه العجم الطامعين في
في الاحساء « كالقاروني » والشركسيين
الذين جاءوا بقيادة ركن الدولة للتأثر
« للبعوش » أخى اكسك سلار .

- صراعهم مع بعض الشخصيات
القوية في الاحساء ، ممن كانوا يتمتعون
بالسيادة على اجزاء منها أبان تأسيس
دولتهم كالحسن بن يحيى ، وحمام
النائل .

- ويجب أن لا نغفل سوء الاحوال
الاجتماعية والاقتصادية ، فقد عانت
البحرين أيام حكمهم من تلاحق الغارات
عليها ، وتجريد الحملات لاختام الفتن
فيها ، وتقشى الظلم الذي راح ضحيته
عدد من أبناء الأسرة العيونية نفسها ،
ممن لم يعجبهم تخاذل حكامهم ، وأدى ،
بالتالى - الى نزوحهم عن وطنهم ،
قاصدين العراق وفارس ، وكان شاعرنا
ابن المقرب الضحية الأولى والكبرى
الذى ذاق ألوانا من ظنم ذوى قرباه ، ولم
تكن الرعاية أحسن حالا ، فقد كثرت
اشارات ابن المقرب الى سوء احوالها ،
وفساد أخلاقها ، وضعف النفوس فيها .
ولم يكن من الممكن ازدهار حياة عقلية
في دولة كان هذا حالها ، وذاك طابعها فلم
نجد في شعر ابن المقرب اشارات لاهتمام
حكامهم بالعلم والعلماء ، ولم نسمع عن
شاعر قد سعى مادحا الى بلاطهم ، سوى
ذلك الشاعر المغفور المسمى « بالثعلبي »
كما كان يفعل حكام الدويلات المستقلة
عن الخلافة ، حين كانوا يحاولون الظهور
بمظهر يليق باستقلالهم فاستكثروا في

بحته ، وعصبتها يمثلون كثرة ساحقه في
البحرين ، وأن الطابع البدوى كان
مسيطر الى حد كبير على أجهزة الدولة ،
وعلى نظام الحكم فيها ، وأنها قد افتقرت
طوال مدة حكمها للاستقرار والامن ،
وأن أعداءها - وهم كثر - لم يكفوا عن
ازعاجها ولم تحل هيبة حكامها الأقوياء
دون أطماعهم فيها ، وقد لاحظنا مع
مطلع القرن السابع ان أحوالها قد أخذت
تسوء ، وتؤذن بزوال فمנית في آخر
أيامها بعدد من الحكام الضعاف ممن
كانت تنقصهم الدراية بسياسة البدو ،
وفي العقد الرابع من هذا القرن ، كانت
السلطة قد خرجت تماما من أيديهم الى
بنى عصفور ، زعماء بنى عقيل بن عامر .
ولعله من المناسب أن نوجز العوامل
التي أضعفت دولتهم :

- وفي مقدمة هذه العوامل « الصراع
القبلي » بين العيونيين وبدو الاحساء ،
كبنى عامر ، وبنى عقيل ، وبنى مالك ..
وغيرهم ، وقد عانت الدولة كثيرا من هذا
الصراع ، الذي استنزف الكثير من
طاقاتها ، منذ تأسيسها وحتى سقوطها .
- يلي هذا عامل لا يقل عن سابقة
أهمية ، وهو انقسام الاسرة العيونية ،
وتنافس أمرائها على السلطة ، وتوثبهم
ببعض ، وقد اتخذ تنافسهم شكلا دمويا
في أخريات أيام دولتهم ، وكان أعداؤهم
من البدو حريصين على هذا التنافس ،
وذلك الانقسام ، وتدبير الاغتيالات
لبعض امرائهم وكان النزاع على الحكم
بين فرعى فضل وعلى ، أقوى فروع
الاسرة العيونية .

- ثم وفاة الأمير محمد بن أبى
الحسين ، ومجئ حكام ضعاف تنقصهم
الخبرة بسياسة البدو ، مثل غرير بن

عرفت منذ أقدم عصورها طريقين أساسيين للقوافل التجارية بين طرفيها الشمالى والجنوبى . ويبدأ الطريقان من « ظفار » التى كانت المركز الاساسى لتجارة البخور ، التى يعتمد عليها الشطر الاكبر من التجارة العربية ، ويجرى الطريقان الى الشرق والغرب منها ، ليتجنبا اختراق تلك الصحراء الرهيبة المعروفة بالربع الخالى . أما الطريق الشرقى فيمضى متاخماً لقوس عمان الساحلى متجها الى القطيف على الخليج العربى ، التى كانت مرفأً تحمل اليه بضائع الهند ومن القطيف عن طريق تدمر الى فلسطين وصور بسوريا ، وليس من شك فى أن هذا الطريق كان الطريق الاساسى الذى تنقل فيه بضائع الهند الى صنعاء باليمن ، ومنها الى ثغور البحر الاحمر أو الى الحجاز» (٢١٠) .

وقد شهدت هذه المنطقة - لأهمية موقعها - صراعا طويلا الأمد بغرض الاستحواذ على طرقها التجارية وخيراتها ، فكانت مسرحا للاثاماع والغزوات الخارجية عبر قرون عديدة ، ومن أمم مختلفة . « والمنطقة الشرقية » من أحفل الأقطار العربية بالحوادث التاريخية ، التى تدعو المؤرخين الى العناية والاهتمام ، فقد كانت مهدا لشعوب عريقة فى الحضارة ، كما دلت على ذلك الآثار التى كشف عنها حديثا فى سواحل هذه البلاد ، وفى جزيرة « أوال » المعروفة الآن باسم « البحرين » .. ثم هذا القطر من حيث الخصوبة والموقع المتوسط يعد من خيرة أقطار الجزيرة العربية وأصلحها للاستيطان ، فتنازعتة قبائل عربية مختلفة ، من « تنوخ » و « إياد » ، و « ربيعة » وغيرها من القبائل

بلاطهم من العلماء والشعراء . ولعل هذا لم يكن ذنب العيونيين ، بقدر ما هو ذنب العصر الذى أقاموا فيه دولتهم ، عصر انحطاط الدولة الاسلامية وتمزق أوصالها ، واحاطتها بشتى الأخطار كما أن تاريخ هذه الدولة لا زال بحاجة الى المزيد من جهد الباحثين والمتخصصين لالقاء المزيد من الضوء عليه .

عصره : المكان

تحتل المنطقة التى عرفت قديما باسم « البحرين » ثم باسم « هجر » ثم باسم « الاحساء » ثم أطلق عليها فى عهدنا الحاضر اسم « المنطقة الشرقية » الممتدة على الساحل الغربى للخليج العربى ، والتى تمثل الحد الشرقى الاقصى للوطن العربى ، موقعا فريدا بالنسبة للعالم ، فسواحلها الغربية تضم . المنافذ الطبيعية للأقاليم الداخلية الفسيحة لشبه الجزيرة العربية ، كما تجاور ساحلها الغربى أغنى أماكن العالم بزيت النفط .

وتبرز أهمية الموقع الاستراتيجى للخليج العربى بين قارات العالم آسيا وأوروبا وأفريقيا بأنه ذراع المحيط الهندى البحرى ، والذي يقرب المسافة عبر منطقة الهلال الخصيب بين المحيط والبحر المتوسط ، فموقعه المتوسط هذا جعل منه ممرا هاما يصل الهند من ناحية ، وشط العرب من الناحية الأخرى . (٢٠٩) .

أما عن أهمية الموقع بالنسبة للجزيرة العربية ، وما جاورها من الامصار ، فحسبنا أن نذكر أن الجزيرة العربية قد

نعمة الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعى .

ثم يصمت التاريخ عن هذه المنطقة الشاسعة ، وتتفوق على نفسها ، ومثلها سائر شبه الجزيرة العربية ، اللهم الا اليمن ، ومكة ، والمدينة التى بقيت نابضة بالحياة . وعادت القبائل العربية تتنازع السيطرة على اجزائها ، معيدة بذلك سيرتها الأولى .

ومع بداية هذا القرن أخذت الحياة تدب على أرض الاحساء قوية نشطة ، وزادت أهميتها بكشف موارد البترول فى أرضها ، فقد قلب هذا السائل السحرى مجرى تاريخ طبيعة البلاد ، ورفع مستواها^(٢١٤) وليس بين أقاليم المملكة العربية السعودية اقليم يضارع مقاطعة الاحساء أو يدانيها فى شهرتها العالمية ، فقد اكتشف الخبراء ان تحت سطح أرضها مستودعات زاخرة بالنفط ، ولا يقل احتياطيتها من البترول عن ثلثى الاحتياطى العربى^(٢١٥) .

تقع البحرين فى شرقي الجزيرة العربية .. ويقول صاحب معجم البلدان :^(٢١٦) «والبحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند (الخليج العربى) بين البصرة وعمان» وقد اختلف جغرافيو^(٢١٧) العرب القدامى فى تحديد رقعتها ، وكانت تحديداتهم لها مرتبطة بالحدود السياسية ، وهذه الحدود لم تكن تعرف الثبات آنذاك ، فهى تتسع تارة ، وتضيق أخرى ، تبعا لقوة السلطة الحاكمة أو ضعفها ، فحين يعد بعضهم «اليمامة» من أعمالها ، يرى ياقوت أنها عمل برأسه فى وسط الطريق بين مكة والبحرين...^(٢١٨) .

فصار مسرحا لكثير من حوادث البطولة فى العصر الجاهلى^(٢١٩) .

ومن هذا القطر أيضا انطلقت ثورتان عنيفتان غريبتان فى تاريخ الاسلام ، ثورة « صاحب الزنج » التى دعت الى تحرير العبيد ، وثورة « القرامطة » الى دعت الى نوع من العدالة الاجتماعية المتطرفة ، فأزعجت بنى العباس ، وعاشت فسادا فى سائر الاقطار العربية ، حتى أطلق بعض المؤرخين على دولتهم « الامبراطورية القرمطية » .

ولكن حين نقلب كتب التاريخ العربى - على ضخامتها وكثرتها - نجد أنها قد أغفلت هذه المنطقة الهامة من العالم العربى ، فيما عدا تأريخها لهاتين الثورتين اللتين استطاعتا لفت انظار العالم الاسلامى آنذاك الى هذه المنطقة لفترة محدودة ، وبقي تاريخ البحرين ، القديم مفصم الحلقات غير متصل ، حيث أن الفصول التى عثر عليها منه تكاد تكون مفصومة ، للوقت الحاضر^(٢٢٠) .

ولعل سبب اهمال تاريخ هذا القطر - على أهميته - ان تاريخنا هو تاريخ حكومات وأفراد ، لا تاريخ أمم وشعوب وأقاليم^(٢٢١) .. هذا من جانب ، ومن جانب آخر عدم قيام دولة مستقلة على أرضه ، فى ذلك الزمان تتمتع بقدر من المدنية ، ونظم الحكم المستقرة كالتى شهدناها فى أنحاء كثيرة من العالم الاسلامى فى العصر العباسى الثانى ، فقد كان لهذه الدويلات من المكانة ، ما جعلها تنافس الخلافة فى بغداد . أما عن الدولة العيونية - وسيأتى الحديث عنها - التى حكمت زهاء قرنين فى البحرين فى أواخر العصر العباسى الثانى ، فقد كانت الى طابع البداوة أقرب ، كما أنها قد حرمت

وكما اختلف جغرافيو العرب في تحديد رقعتها ، اختلفوا في تحديد قصبته ، فقليل هي قصبه هجر ، وقيل : هجر قصبه البحرين .. (٢١٩) . «والهجرة بلغة حمير والعرب العاربة : القرية ، فمنها هجر البحرين ، وهجر نجران ، وهجر جازان .. وهجر مدينة ، وهي قاعدة البحرين ، وربما قيل الهجر بالالف واللام ، وقيل ناحية البحرين كلها هجر» (٢٢٠) . ويقول الهمداني «ومدينتها هجر» (٢٢١) . أما القلقشندي فيقول «وقاعدتها عمان» . (٢٢٢)

والبحرين هي الخط ، والقطيف ، والآرة ، وهجر ، وبينونه ، والزارة ، وجواثا ، والسابور ، ودارين ، والغاية ، وقصبه هجر الصفا والمشقر . (٢٢٣) ، والفروق والشنون (٢٢٤) ، وعمايه ، وثعاله ، وأحزب ، وصاحه (٢٢٥) ، وهذا دليل قاطع على اتساع أرض البحرين قديما .

وهذه المنطقة التي كان يطلق عليها البحرين مرة ، وهجر مرة أخرى تضم الآن ، قطر ، والبحرين ، والكويت والجزر المقابلة لها ، والاحساء . (٢٢٦) وهناك تعليقات كثيرة مختلفة لاطلاق اسم «البحرين» على هذه المنطقة ، لدى القدماء والمعاصرين من جغرافي العرب ، قيل في المشترك (٢٢٧) نقلا عن الازهري : انما سميت هجر بالبحرين لبحيرة عند الاحساء ، قدرها ثلاثة أميال ، وماؤها مر زعاق ، وهي البحيرة المعروفة والمشهورة الآن بالأصفر في آخر قرى الاحساء الشرقية» . (٢٢٨) .

ويرى بعضهم أنها سميت البحرين من أجل نهرها محلم ولنهر عين الجريب . (٢٢٩) . أو ربما اطلق عليها هذا

الاسم لأنها على شاطئ البحرين ، بحر عمان ، وبحر فارس . (٢٣٠) .

وبالنسبة لهذه التعليقات ، فالرأي الأول - عندي - هو الأرجح ، شأنها في ذلك شأن بعض البلاد التي عرفت واشتهرت بأسم مدينة فيها أو موضع ، فمصر مثلا اسم يطلق على الاقليم العربي المعروف ، وقد يقصد به مدينة القاهرة ، وهذا ابن بطوطة (٢٣١) يقول في تحفته : والبحرين مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين .. ولم يسبق - في مدى علمي - أن ذكر أحد قبله مدينة باسم البحرين ، وانما قد زار عاصمتها آنذاك ومثله - في اطلاق اسم البحرين على قصبته - ابن خلدون (٢٣٢) . فقد عرفت هذه المنطقة بالبحرين نسبة لتلك البحيرة الغربية والمشهورة حتى الآن ، ثم عرفت باسم هجر حين صارت يوما عاصمة ، الى أن جاء أبوطاهر القرمطي فابتنى الاحساء واتخذها عاصمة . (٢٣٣) . ويبدو أن اسم المدينة «الاحساء» (٢٣٤) . قد غلب على الاقليم كله ، وخاصة حينما تنوسيت كلمة هجر ، وأطلقت كلمة «البحرين» على مجموعة الجزر المعروفة الآن في الخليج العربي (٢٣٥) ، بالقرب من الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب ، ونحن لا نستطيع أن نعين تاريخا دقيقا لانتقال اسم البحرين من الأرض نفسها الى الأرخبيل المجاور لها . (٢٣٦) ، فحتى نهاية العصر العباسي الثاني - كما نفهم من شعر ابن المقرب - كان اسم البحرين ما يزال يطلق على الساحل الشرقي للجزيرة العربية بما فيها ذلك الأرخبيل المجاور لها .

«والاحساء بالفتح والمد جمع حسي بكسر الحاء وسكون السين .. وهو الماء

الذي تنشفه الأرض من الرمل ، فإذا صار الى صلابة أمسكته ، فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه .. وفي البادية أحساء كثيرة على هذه الصفة ، منها احساء بني سعد بحذاء هجر ، واحساء القطيف .. وغير ذلك» . (٢٣٧)

والاحساء في مجموعها أراض منبسطة قليلة الارتفاع اذ يتراوح ارتفاعها بين ثلاثين مترا وثلاثمائة متر ، تميل ميلا خفيفا نحو الشرق ، أي نحو الخليج العربي (٢٣٨) . ويمكن أن يستدل على ذلك من اتجاه الينابيع . (٢٣٩) والقسم الأكبر من الاحساء سهل صحراوي ، ويوجد كثير من التلال المتقطعة ، تستخدم كحدود للمناطق ، ويوجد خط من التلال على طول وادي المياه وجبل الطف ممتدة الى الجنوب ، كما يمتد مرتفع الصمان الصخري ، موازيا لساحل الخليج العربي متوسطا بين الاحساء والذهناء حيث يفصل هذا القسم عن نجد ، والمنطقة الساحلية سبخة على العموم ، ويوجد بها عدد عظيم من الآبار وماؤها قريب من سطح البحر . (٢٤٠) وتربته خفيفة رملية ، ومع أنه توجد بقاع قاحلة صغيرة هنا وهناك ، الا أن أرضها خصبة بوجه عام ، (٢٤١) وتكاد تغص بالعيون الدافئة منها والحارة (٢٤٢) ، وهي ذات بساتين وأشجار وأنهار ، وبها حدائق النخل والرمان واللاترج ، ويزرع بها القطن (٢٤٣) ، كما تعد أكبر مخزن لتكوينات

البترول التي تجمعت في المناطق القبابية ، التي تمتد على طول الخليج العربي كما تعد أكبر مخزن للمياه الباطنية . (٢٤٤)

وعلى الرغم من وفرة المياه فيها ، وخصوبة الأرض ، وكثرة البساتين والأشجار ، وانتشار العشب في مراعيها في الربيع ، فإنها لا تتمتع بجو صحي فجوها يشبه جو المناطق المنخفضة ، والقسم الشرقي من الاحساء يشبه جو تهامة . (٢٤٥)

وهواء القطيف كثير الرطوبة وغير صحي . (٢٤٦) والاحساء شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها . (٢٤٧) والخليج العربي ككل لموقعه بين خطي عرض عشرين درجة وثلاثين درجة شمال خط الاستواء في العروض المدارية ، جعل من مناخه أكثر أنواع المناخ ارهاقا لطول مدة ظهور الشمس في الأفق حيث يبلغ ظهورها (ثلاث عشرة ساعة ونصف) (صيفا) ، وعشر ساعات ونصف) (شتاء) ، مما يؤدي الى عظم تأثير ضوء الشمس في ارتفاع درجة الحرارة والرطوبة ، لقلة تأثير مسطح الخليج المائي تأثيرا محسوسا ، وخلوها من الغطاءات النباتية الأمر الذي يؤدي الى ارتفاع نسبة الرطوبة والحرارة . (٢٤٨) لذا فمناخ الخليج العربي بعامة له شهرة لا يحسد عليها .



المراجع

- ١ - د. مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمداني : ص ٧ : دار القلم : القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٢ - محمد طلس : تاريخ الأمة العربية : ج ٤ / ص ٥ : دار الاندلس : بيروت ١٩٦٣ .
- ٣ - نظام الملك : أبو علي الحسن بن علي بن اسحق . ت ٤٨٥ هـ ، وقد تقلد الوزارة لألب أرسلان وملكشاه نحو من ثلاثين سنة ، وكان عالما دينيا جوادا عادلا حليما ، محبا للعلماء ، وقد بنى المدارس في سائر الأقطار والبلاد (انظر : ابن الأثير : الكامل ١٦١/٨ - ١٦٣ : مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .
- ٤ - بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية : ص ١٣٥ : ترجمة نبيه فارس ، ومخير بعلبكي دار العلم للملايين : بيروت ١٩٤٨ م .
- ٥ - انظر تاريخ الشعوب الاسلامية : ١٣٥ .
- ٦ - انظر تاريخ الأمة العربية : ج ٤ ص ٥ .
- ٧ - جعفر خصبك : العراق في عهد المغول : ٥ : مطبعة العاني : بغداد : الطبعة الأولى ١٩٦٨ .
- ٨ - الناصر لدين الله : أحمد - أبو العباس - بن المستضىء ، بأمر الله ، ولى الخلافة عام ٥٧٥ هـ ، كان من أفاضل الخلفاء وأعيانهم ، بصيرا بالأمور ، مجربا ، مهيبا ، طالت مدته وصفا له الملك ، كان وقته مصروفا الى تدبير أمور المملكة ، والى التولية والعزل والمصادرة وتحصيل الاموال ، توفي عام ٦٢٢ هـ (ابن طباطبا - تاريخ الدولة الاسلامية : ٣٢٢ : دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ م) .
- ٩ - العراق في عهد المغول : ١٣ .
- ١٠ - السيوطي : تاريخ الخلفاء : ٤٨٠ : تحقيق لجنة من الأدباء : دار الثقافة : بيروت (بدون تاريخ) . وانظر : ابن الأثير : الكامل : ٣٣١/٩ ، ٣٦١ .
- ١١ - انظر تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢٥٨ .
- ١٢ - المستنصر بالله : أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله ، ولى الخلافة عام ٦٢٣ هـ عرف بكرمه وشهامته ، وله من الآثار الجليلة «المستنصرية» كانت

- أيامه طيبة ، والدنيا في زمانه ساكنة ، توفي عام ٦٤٠هـ (انظر تاريخ الدولة الإسلامية ٣٣٠ وانظر تاريخ الخلفاء ٤٩٠).
- ١٣ - المستعصم بالله : قتل التتار ، تولى الخلافة عام ٦٤٠هـ ، وتوفي عام ٦٥٦هـ (انظر : تاريخ الدولة الإسلامية ص ٣٣٣ ، انظر : تاريخ الخلفاء : ص ٤٩٧)
- ١٤ - تاريخ الدولة الإسلامية : ص ٣٣٣ .
- ١٥ - انظر : تاريخ الأمة العربية : ٥/٤ .
- ١٦ - انظر : تاريخ الأمة العربية : ١٢١/٤ .
- ١٧ - انظر : المرجع السابق نفسه ١٢١/٤ - ١٢٢ .
- ١٨ - د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي : ١٣٥/٤ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧ .
- ١٩ - انظر تاريخ الشعوب الإسلامية : ٣٢٦ .
- ٢٠ - الملك الأشرف : أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب الملقب بالملك الأشرف ، وهو أحد ملوك بني أيوب ، كان سلطانا كريما ، حلما ، واسع الصدر ، كريم الاخلاق ، ولد عام ٥٧٨هـ ، وتوفي بدمشق عام ٦٣٥هـ . (انظر : وفيات الاعيان : ٤١٣/٤) تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، النهضة المصرية : ١٩٤٨ .
- ٢١ - عبدالفتاح الحلواني ابن المقرب : ٣٠٠ مطبعة الحلبي : القاهرة : الطبعة الأولى ١٩٦٣ م . وباقت عليه البوائق : أصابته الشرور والدواهي .
- ٢٢ - الديوان : ٣٠٠
- ٢٣ - تاريخ الشعوب الإسلامية : ٢٥٣ .
- ٢٤ - انظر : تاريخ الأمة العربية ٨/٤ .
- ٢٥ - تاريخ الاسلام السياسي ١٣٥/٤ .
- ٢٦ - انظر : تاريخ الأمة العربية ٥/٤ - ٦ .
- ٢٧ - انظر : المرجع نفسه .
- ٢٨ - انظر : محمد صالح : الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير : ٣ : مطبعة القضاء : النجف الأشرف : ١٩٧٠ م .
- ٢٩ - انظر : بدرى فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير : ٣٣٨ : مطبعة الارشاد ببغداد ١٩٧٣ م .
- ٣٠ - بدرى فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير : ٣٥٠ .
- ٣١ - المرجع نفسه : ٣٧٠ - ٣٧١ .
- ٣٢ - الديوان : ٢٢٤ .
- ٣٣ - القصيدة السابقة : ٢٢٧ - ٢٢٨ .
- ٣٤ - الديوان : ٢١٣ .
- ٣٥ - شمس الدين باتكين الرومي الناصري ، كان مملوكا لابنة الخليفة المستنجد بالله ، سلمت اليه البصرة بحربها وخراجها ، فأقام بها ثلاثا وعشرين سنة ،

فعمرها وأحسن السيرة في أهلها ، ولما ملك الخليفة «اربل» استدعى من البصرة وأنفذ إليها واليا . كان متعبدا كثير التلاوة للقرآن ، والمذاكرة للعلوم والسير والتاريخ والاعخبار ، والأشعار ، وله نظم حسن .
(انظر : لابن الفوطي : ١٨١ - ١٨٢ ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة) ، المكتبة العربية ببغداد ١٣٥١هـ .

- ٢٦ - الديوان : ٢١٢ - ٢١٣ .
- ٢٧ - انظر : تاريخ الاسلام السياسي : ٤٢٠/٤ .
- ٣٨ - انظر : محمد زغول سلام : الأدب في العصر الأيوبي : ٦ - ٧ : دار المعارف بالقاهرة ١٩٧١ م .
- ٣٩ - انظر : تاريخ الاسلام السياسي : ٤٢٠/٤ .
- ٤٠ - الحياة السياسية في العراق : ٣٦٥ .
- ٤١ - جورج زيدان : تاريخ أداب اللغة العربية : ١٢/٣ - ١٣ : مطبعة الهلال ١٩٣١ م .
- ٤٢ - انظر : ارنولد ويلسون : الخليج العربي : ١٦٠ : مطبعة الأمل : الكويت (بدون تاريخ) .
- ٤٣ - ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر : ١٩٧/٤ : دار الكتاب اللبناني ١٩٥٨ .
- ٤٤ - ياقوت الحموي : معجم البلدان : ٣٤٨/١ : ١ / مطبعة السعادة : القاهرة ١٩٠٦ .
- ٤٥ - انظر : محمد عبدالقادر الانصاري : تحفة المستفيد : ٥٦ - ٥٧ : ط ١ الرياض ١٩٦٠ .
- وانظر ابن حزم : جمهرة انساب العرب ٢٨٢ دار المعارف بمصر ١٩٤٨ م .
- ٤٦ - انظر : محمد بن خليفة النبهاني : التحفة النبهانية : ٧٨ : المطبعة المحمدية بالقاهرة ١٣٤٢ هـ .
- ٤٧ - العبر : ١٩٧/٤ .
- ٤٨ - المستكفي بالله : بويغ بالخلافة عام ٣٣٣ هـ - واستولى البويهيون في زمنه على مقاليد السلطة ، واعتقله معز الدولة بن بويه ، ولم يفرج عنه حتى توفي عام ٣٣٨ هـ . (انظر تاريخ الخلفاء : ٤٢٧) .
- ٤٩ - خضر نعمان العبيدي : البحرين من امارات الخليج العربي : ٢٦ : مطبعة المعارف ببغداد ١٩٦٩ .
- ٥٠ - القرامطة : الواحد قرمطي وهم جماعة من غلاة الباطنية، عرفوا بفساد عقيدتهم ، وكبيرهم ابو سعيد بن بهرام الجنابي القرمطي ظهر بالبحرين ودعا الناس الى نخلته ، وعظم امره ، وحارب الخلافة العباسية بعد أن استولى على سائر حواضر البحرين ، فقتله خادمه في الحمام عام ٣٠١ هـ .

- وانظر في ابتداء أمرهم وفساد عقيدتهم ابن الأثير : الكامل : حـ ٧ / ١٦٠ -
 ١٦١ المطبعة الكبرى بالقاهرة ١٢٩٠ هـ .
- ٥١ - الكامل : ١٧٥/٧ وانظر البحرين من امارات الخليج العربي .
- ٥٢ - انظر الكامل : ١٧٧/٧ وما بعدها .
- ٥٣ - المصدر نفسه ١٩/٨ .
- ٥٤ - انظر المصدر نفسه : ٧١/٨ وما بعدها ، ١٧٥ ويذكر ابن الأثير أن أباطاهر القرمطي قد هجم على مكة (عام ٣١٧ هـ) في يوم التروية ، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوه حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه ، وقلع الحجر الأسود ، ونقله الى هجر ، وقلع باب البيت ، وطرح القتلى في بئر زمزم وأخذ كسوة الكعبة ، ونهب دور أهل مكة بعد أن قتل أميرها . فلما بلغ ذلك المهدي أبامحمد عبيدالله العلوي بافريقيه كتب اليه ينكر عليه ذلك ، ويلومه ويلعنه ، ويرميه بالكفر والالحاد . فلما وصله كتابه أعاد الحجر الاسود في ذي القعدة من عام ٣٣٩ هـ ، وقالوا أخذناه بأمر وأعدناه بأمر .
- ٥٥ - المصدر نفسه ١٢٣/٨ .
- ٥٦ - انظر : المصدر نفسه : ٢٢٠/٨ وما بعدها .
- ٥٧ - المصدر نفسه ١٥/٩ ، ١٦ .
- ٥٨ - العبر : ١٩٥/٤ وما بعدها .
- ٥٩ - انظر : الكامل : ١٥/٩ ، ١٦ وانظر : العبر : ١٩٥/٤ وما بعدها .
- *صمصام الدولة هو ابن عضد الدولة البويهى (٣٧٢ هـ - ٣٨٨ هـ) كتاب الوزراء :
- هلال الصابي : ص ١٦٩ : تحقيق عبدالستار فراج : الحلبي ١٩٥٨ .
- ٦٠ - انظر : الكامل : ١٥/٩ - ١٦ .
- ٦١ - انظر : العبر : ١٩٥/٤ وما بعدها .
- ٦٢ - انظر : العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف : ٤١ : دار المعارف بمصر ١٩٧٣ م .
- ٦٣ - انظر : العبر : ١٩٥/٤ وما بعدها .
- ٦٤ - الديوان ٥٣١/٥٣٢ وأدم : بئر على مرحلة من مكة (القاموس : ٧٣/٤) .
- ٦٥ - انظر : نسخة برنستون المشروحة : تسلسل ٤٤ ، ونسخة برلين المشروحة : تسلسل ١٩٨ ونسخة المكتبة البريطانية المشروحة : تسلسل ٧٢٨٨ .
- ٦٦ - انظر : JAS IX. T. v. 1895. Page 1 ..
- وانظر : تحفة المستفيد : ٢٥٧ - ٢٥٨ وجاء في دائرة المعارف الاسلامية (مادة البحرين) أن نهايتهم كانت بعد سنوات قلائل من عام ٤٥٠ هـ على

أبدي أسرة جديدة حاكمة من أهل الاحساء هم العيونية من عبدالقيس .
انظر حـ ٣١٩/٤٥ / دار الشعب القاهرة (بدون تاريخ) .

٦٧ - المشوش :

بدعة ابتدعها القرامطة في البحرين وجعلوها ديناً ، وهو أن يجمع الرجال والنساء في ليلة العاشر من محرم ، وأول ليلة من برج الحمل المسمى النبروز ، ويشعلون الشمع ويرقصون ويختلطون ، ثم يطفئون الشمع ، ويقبض كل منهم يد امرأة من الجمع ويواقعها سواء أكانت من محارمه أم أجنبية ، فحين ملك عبدالله بن علي العيوني البحرين وصارت تلك الليلة ركب أبو شكر المبارك بن الحسن بن أبي مقرب العيوني ومعه غلمانته وهجموا على جمع الفساد فضربوهم وسلبوهم ، وأماتوا بدعتهم من البحرين فما بقيت تعرف . انظر شرح الديوان : ٥٥١ .

٦٨ - الديوان : ٥٥١ .

٦٩ - انظر : أبو عبيد البكري : معجم ما استعجم : ٧٩/١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥ .

٧٠ - تحفة المستفيد : ٥٦ .

٧١ - انظر : معجم ما استعجم : ٨١/١ .

٧٢ - انظر : معجم ما استعجم : ٨١/١ .

٧٣ - انظر : جمهرة أنساب العرب : ١٩٧ ، ٢٩٥ ، وانظر : ابن عبدربه : العقد الفريد : ٣٥٧/٣ : مطبعة التأليف والترجمة والنشر : ١٩٥٢ م .

٧٤ - The Encyclopedia of Islam Vol 1 : 74, Leideu Brill 1960

٧٥ - ابن منظور : لسان العرب : جـ ٢٧٣/٣ الدار المصرية للتأليف والترجمة (بدون تاريخ) .

٧٦ - معجم ما استعجم : ٨١/١ وانظر : الجمهرة : ٢٩٩ .

٧٧ - جمهرة أنساب العرب : ٢٩٥ .

٧٨ - معجم ما استعجم : ٨٤/١ .

٧٩ - دائرة المعارف الإسلامية : ٧٣/١ - ٧٤ .

٨٠ - الديوان : ٤٥ والعيص / الشجر الكثير الملتف .

٨١ - المصدر نفسه : ٢٨/٢٩ .

٨٢ - بنو عامر : هم بنو عامر بن الحارث بن أنمار بن وديعة بن لكيز بن أفص بن عبدالقيس (انظر : الجمهرة ٢٩٥) .

٨٣ - ابن اقصي : كناية عن نفسه ، وإقصي هو ابن عبدالقيس : انظر : الجمهرة : ٢٩٥ ورباب : أحياء ضبة لأنهم أدخلوا أيديهم في رب وتعاقدوا (القاموس : ٧١/١) .

٨٤ - الديوان : ٦٦٢ .

- ٨٥ - الديوان : ٤٦١ .
- ٨٦ - المصدر نفسه : ٤٥٦ .
- ٨٧ - الخط : مرفا للسفن بالبحرين واليهما تنسب الرماح الخطية .
- ٨٨ - لكيزية : نسبة الى لكيز بن اقصى بن عبد القيس (الجمهرة : ٢٩٥) .
- ٨٩ - عوف : أحد بطون قبيلة عامر (الجمهرة : ٢٨٠) .
- ٩٠ - الحارثيين : نسبة الى الحارث بن اثمار بن وديعة بن لكيز ، وكان هذا البطن أشهر بطون اثمار : انظر : جمهرة انساب العرب : ٢٩٥ .
- ٩١ - مالك : أحد بطون قبيلة عامر (الجمهرة : ٢٨١) .
- ٩٢ - الديوان : ٤٢ - ٤٣ .
- ٩٣ - انظر المصدر نفسه : ٣٦٧ ، ٤٦٢ ، ٥٦٦ .
- ٩٤ - الديوان : ٥٠٤ .
- ٩٥ - دليل الخليج : ٨٢٢/٢ .
- ٩٦ - انظر : مخطوطة برلين المشروحة : تسلسل ١٩٨ ، ومخطوطة برنستون المشروحة : تسلسل ٤٤ وانظر : Jas. Page 16 - 17 ، وانظر تحفة المستفيد ٢٥٧ - ٢٥٨ وانظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٣١٩/٤٥ .
- ٩٧ - انظر : مخطوطة برلين المشروحة : تسلسل ١٩٨ ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية : ٣١٩/٤٥ .
- ٩٨ - ديوان ابن المقرب : المطبعة الهندية : ٤٤٤ ، مطبعة دت برساد بيومبي : ١٣١١هـ . وانظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٣١٩/٤٥ .
- ٩٩ - انظر : مخطوطة برلين المشروحة تسلسل ١٩٨ : شرح قصيدته الميمية .
- ١٠٠ - انظر : التحفة النبهانية : ٩٥ .
- ١٠١ - انظر : Jas. Page 16 - 17 ، وانظر تحفة المستفيد ، ٩٨ وما بعدها النسخة الهندية : ٤٤٤ وما بعدها .
- ١٠٢ - انظر : النسخة الهندية ، ٤٤٤ ، وانظر : الديوان : ٥٣٣ .
- ١٠٣ - الديوان : ٥٣٤ .
- ١٠٤ - انظروا : Jas. Page 16 - 17 .
- ١٠٥ - انظر المرجع السابق نفسه وانظر مخطوطة مجهولة المؤلف بدار الكتب المصرية تسلسل ٦٣٧ تاريخ .
- ١٠٦ - انظر تحفة المستفيد : ٩٨ وما بعدها .
- ١٠٧ - انظر : مخطوطة برلين المشروحة ، وقد ورد فيها نص رسالته الى الخلافة العباسية كاملة وتقع في اثنتي عشرة صفحة .
- ١٠٨ - Jas. Page 16 - 17 .
- ١٠٩ - انظر : تحفة المستفيد : ٩٨ وما بعدها ، وانظر : التحفة النبهانية : ٩٦ ، وانظر الديوان : ٥٣٣ . وانظر : Jas. Page 16 - 17 : نسخة برنستون المشروحة : تسلسل ٤٤ (شرح الميمية) .

- ١١٠ - الديوان : ٥٣٤ واليتم : الإبطاء (القاموس : ١٩٣/٤) .
- ١١١ - انظر : ابن المقرب حياته وشعره : ٤٢ .
- ١١٢ - التحفة النبهانية : ٩٥ ، وانظر : نسخة برنستون المشروحة تسلسل ٤٤ (شرح الميمية) .
- ١١٣ - الديوان ٥٣٨ - ٥٣٩ .
- ١١٤ - عتيك : قبيلة تنسب الى عتيك بن الازد بن عمران بن عمرو مزيقاء الكهلاني القحطاني (الجمهرة : ٣٤٨) حدان : قبيلة تنسب الى حدان بن شمس بن عمرو بن غنم بن نصر بن الازد ، معجم قبائل العرب - لعمر رضا كحالة : ط ١ / ٢٤٩ - ٢٥٠ المكتبة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩ م .
- ١١٥ - الديوان : ٥٩٠ .
- ١١٦ - انظر تحفة المستفيد : ١٠١ وانظر : التحفة النبهانية : ٩٦ ، وانظر شرح الديوان / ٥٣٣ .
- ١١٧ - الديوان : ٥٣٢ .
- ١١٨ - نفسه ٥٣٣ .
- ١١٩ - نفسه ٥٣٧ وناقاة خيفانة : سريعة والظليم : ذكر النعام والنقيذ : فرس أنقذته من العدو .
- ١٢٠ - والشرسكية : لعلها الشركمية ، الديوان : ٥٣٨ .
- ١٢١ - الديوان : ٤٦٩ .
- ١٢٢ - المصدر نفسه : ٤٧٠ يذبل : جبل مشهور بنجد ، ويللم : جبل على مرحلتين من مكة (القاموس : ١٧٧/٤) .
- ١٢٣ - الديوان : ٥٤٦ .
- ١٢٤ - المصدر نفسه ٥٣٨ .
- * - جاء في هامش الديوان ص ٥٣٨ أن ملكا من ملوك العجم كان ببلاد قارون (ولعلها حوض نهر قارون ببلاد فارس) فخرج يريد الاحساء في جيش عظيم ، وكان أميرها حينئذ عبدالله بن علي العيوني الذي استطاع أن يضللهم في الصحراء بمساعدة الادلاء من البدو ، ما بين البحرين وعمان ، وأفسد بالتالي خططهم ، وأهداهم .
- ١٢٥ - عمران محمد العمران : ابن مقرب حياته وشعره : ٤٤ .
- ١٢٦ - التحفة النبهانية : ٩٩ .
- ١٢٧ - أبوسنان هو محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني .
- ١٢٨ - أحمد هو أبو الحسين بن محمد بن الفضل بن عبدالله العيوني .
- ١٢٩ - نزوى : النزوة : جبل بعمان وهو قصبة الخوارج في عمان (القاموس الفيروزبادي ٣٩٥/٤) .
- ١٣٠ - الديوان : ٧٨ - ٧٩ .
- ١٣١ - تحفة المستفيد : ١٠٤ .

- ١٣٢ - الديوان : ٥١ - حد ناعب : حى من العرب .
- ١٣٣ - الديوان : ٢٠٧ .
- ١٣٤ - الديوان : ٢٠٨ .
- ١٣٥ - الديوان : ٣١٠ .
- ١٣٦ - الديوان : ٣٥٣ - ٣٥٤ ، والشاذب : الضامر ، والمراسل : الابل السهلة السير . والدجاني : اسم ماء في الجانب الغربي من الدهناء ، والأين : التعب والنصب ، والشوى : اليدان والرجلان والأطراف والخامعات : الذئب او الضباع ، والعسال : الذئب ، والنحام : البخيل .
- ١٣٧ - الديوان : ٣٥٥ .
- ١٣٨ - نفسه : ٣٥٥ .
- ١٣٩ - نفسه : ٣٥٧ ، وانسل وتسئل : انطلق في استخفاء .
- ١٤٠ - الديوان : ٦٢١ وخفان : مأسده .
- ١٤١ - الديوان : ٦٢١ - ٦٢٢ .
- ١٤٢ - ينظر : الديوان ٥٤٧ - ٥٤٨ .
- ١٤٣ - نفسه : ٥٤٧ ودرم : أسم رجل قتل فلم يدرك بثأره فصار مثلاً « أودى درم » اللسان : درم .
- ١٤٤ - تستر : أعظم مدينة بخورستان ، وهى على مرتفع من الارض ، وتستتر تعريب ششتر (نقلاً عن الديوان : ٢٢٣) .
- ١٤٥ - نفسه : ٢٢٣ والنبيت : أبو حى باليمن ، اسمه عمرو بن مالك (القاموس : ١٥٨/١) وقيدار بن اسماعيل : ابو العرب (القاموس : ١١٥/٢) .
- ١٤٦ - الديوان : ٥٩٤ .
- ١٤٧ (ابن مقرب - حياته وشعره : ٤٧ .
- ١٤٨ - الديوان : ١١٠ .
- ١٤٩ - د . شوقي ضيف : سجل شعري تاريخي فريد : مقالة بمجلة مجمع اللغة العربية : عدد ٣٨ ، ١٩٧٦ .
- ١٥٠ - د . شوقي ضيف : سجل شعري تاريخي فريد : مقالة بمجلة مجمع اللغة العربية : عدد ٣٨ .
- ١٥١ - الديوان : ٥٤١ .
- ١٥٢ - القصيدة ذاتها : ٥٤٢ .
- ١٥٣ - القصيدة ذاتها : ٥٤٤ .
- ١٥٤ - السيب : نهر بالبصرة ، وفي قرى كثيرة (مراسد الاطلاع : ج ٢/٧٦٣) . تحقيق على البجاوي : دار إحياء الكتب العربية : ١٩٥٤ م .
- ١٥٥ - الديوان : ١١١ - ١١٢ - ١١٣ .
- ١٥٦ - تحفة المستفيد : ١٠٨ - ١٠٩ وانظر : مخطوطة مجهولة المؤلف بدار الكتب المصرية تسلسل : ٦٣٧ تاريخ .

١٥٧ - الديوان : ١٠٥ - ١٠٦ .

١٥٨ - المصدر نفسه : ٨٩ .

١٥٩ - قيس (كيش) وهو تعجيم قيس ، جزيرة في وسط البحر تعد من أعمال فارس ، لأن أهلها فرس ، وتعد من أعمال عمان (معجم البلدان : ٣٠٦/٧) وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن قيس جزيرة صغيرة في بحر عمان ، وأن أسرة من قبيلة القيس استطاعت في زمن النبي محمد (ﷺ) أن تقيم لها دولة فيها . وظهرت أهمية هذه الجزيرة في نهاية العصر الوسيط عندما برز أمير من جنوب الجزيرة العربية ، واحتلها ، وبنى أسطولا ، وأخذ ينشر نفوذه . وبدأت الجزيرة تتمتع بازدهار متواصل ، أصبحت مركزا للتجارة الهندية الفارسية الصينية . وقد خلط ابن بطوطة في تحفته (ص ٣٤٤) بين سيراف كمدينة تقع على الساحل الشمالي القريب من الجزيرة ، وبين جزيرة قيس .

(Incyclopeedia of Islam· Leyden· London 1927· vol 74 : 649)

١٦٠ - سترة : هي شبه جزيرة سترة بالبحرين الحالية ، تكتسب أهميتها الآن من وجود أكبر مصفاة لتكرير النفط في المنطقة بها .

١٦١ - انظر : الديوان : ٥٥٠ .

١٦٢ - شامة والحاشك : لعله يقصد بهما قوم الملك أبي كرزاز ، والرقم : الداهية (القاموس : ٤ / ١٢١) .

١٦٣ - الديوان : ٥٥٠ .

١٦٤ - المصدر السابق نفسه : ٥٩٤ - ٥٩٥ .

١٦٥ - ابن مقرب حياته وشعره : ٤٧ .

١٦٦ - انظر الديوان : ٦٣١ وقيس وغيلان : خصومهم لأنهم أعز بادية بأرضهم .

١٦٧ - المصدر نفسه : ٣٦٩ .

١٦٨ - انظر المصدر نفسه : ٦٣١ .

ابو علي ابراهيم بن عبدالله بن عزيز بن ابراهيم بن أبي جروان ، وعزيزا احد بنى بريق ، وهو عمرو بن عبدالله بن مالك بن عامر ، وكانت صلة ابن المقرب به طيبة ، لما بينهما من خلطة ولحمة نسب ، وقد مدحه بقصيدتين يفهم منهما أنه من قبيلة عبد القيس ومن زعماء الاحساء (الديوان : ١٦٧) .

ساد	الورى	طفلا	وبرز	يافعا
لم	يثغر	وبنى	المكارم	أمردا
أباؤه	من	عبدقيس	خيرها	
حسبا	واكرمها	وأوسعها	ندى	

(الديوان ١٦٧)

ويقول من قصيدة أخرى :

فتى حل من عليا لكيز وعامر
 بأعلى محل من ذرى
 أخ وابن عم حين أدعو ووالد
 شقيق وخل لا يخون
 كفى ساكن البحرين كل عزيمة
 وناء بأعباء تكون
 الديوان : ٣٧٧ - ٣٧٨ .

- ١٦٩ - الديوان ٦٣٢ - ٦٣٣ .
 ١٧٠ - المصدر نفسه : ٦٣٤ .
 ١٧١ - المصدر نفسه : ٤٦٤ .
 ١٧٢ - الكتيب : طرف الاحساء الجنوبي .
 ١٧٣ - والعيون : طرفها الشمالى . والمحاديث من ارض العيون .
 ١٧٤ - وحلوان : مكان بين الاحساء والقطيف .
 ١٧٥ - والخط : هي القطيف .
 ١٧٦ - وصفواء : طرف القطيف الشمالى .
 ١٧٧ - والظهران : طرف القطيف الجنوبي .
 ١٧٨ - ١٧٩ - المروزان وكرزكان : قريتان في جزيرة اوال (الديوان :
 ٦٣٩/٦٣٨) .

- ١٨٠ - نفسه : ٦٣٨ - ٦٣٩ .
 ١٨١ - نفسه : ٦٤٠ - ٦٤١ .
 ١٨٢ - الديوان : ٣٦٩ .
 ١٨٣ - المصدر نفسه : (٣٧٠) .
 ١٨٤ - المصدر نفسه : ٣٨٥ - ٣٨٦ .
 ١٨٥ - الديوان ٣٨٤ - ٣٨٥ .
 ١٨٦ - نفسه : ٣٨٥ .
 ١٨٧ - القرحا : سيف القطيف (الديوان : ٣٨٧ - .
 ١٨٨ - نفسه : ٣٨٧ .
 ١٨٩ - نفسه : ٣٨٨ - ٣٨٩ .
 ١٩٠ - نفسه : ١٣٤ .
 ١٩١ - نفسه : ١٤ .
 ١٩٢ - الديوان : ٦١٠ .
 ١٩٣ - نفسه : ٤٥٦ .
 ١٩٤ - نفسه : ٤٥٦ - ٤٥٧ .
 ١٩٥ - نفسه : ٦١٠ - ٦١١ .
 ١٩٦ - نفسه : ٦١١ .

- ١٩٧ - الديوان : ٦١٥ - ٦١٦ .
- ١٩٨ - نفسه : ٦١٦ .
- ١٩٩ - نفسه : ٢٥٥ .
- ٢٠٠ - نفسه : ٢٥٥ .
- ٢٠١ - نفسه : ٢٥٧ .
- ٢٠٢ - الديوان : ١٦٩ .
- ٢٠٣ - نفسه : ٢٤٢ .
- ٢٠٤ - انظر : تحفة المستفيد : ١١٨ وانظر : ابن مقرب حياته وشعره : ٤٨ .
- ٢٠٥ - تاريخ ابن خلدون : ٤ : ١٩٦ .
- ٢٠٦ - انظر : التحفة النبهانية ٩٩ - ١٠٠ .
- ٢٠٧ - البحرين من امارات الخليج العربي : ٢٦ .
- ٢٠٨ - ابن مقرب حياته وشعره : ٤٨ .
- ٢٠٩ - انظر : عبد الحميد غنيم : مشكلات الحدود السياسية في الساحل الغربي للخليج العربي : ٣ - ٤ رسالة مخطوطة بمكتبة آداب القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ٢١٠ - يوسف خليف : الشعراء الصعاليك : ١٢٥ - ١٢٦ ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٢١١ - تحفة المستفيد : من المقدمة لحمد الجاسر .
- ٢١٢ - البحرين من امارات الخليج العربي : ٢٠ .
- ٢١٣ - تحفة المستفيد : من المقدمة لحمد الجاسر .
- ٢١٤ - تحفة المستفيد : ١٩ .
- ٢١٥ - مشكلات الحدود السياسية : ٥ .
- ٢١٦ - ياقوت الحموي : معجم البلدان : ٧/٢ ، وانظر : البكري : معجم مااستعجم وانظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر : ١٩٧/٤ .
- ٢١٧ - انظر : المقدسي : أحسن التقاسيم : ٥٩ : مطبعة بريل : ليدن ١٩٠٩ م ومعجم البلدان : ٣٤٦/١ ، والعبر : ١٩٧/٤ .
- ٢١٨ - معجم البلدان : ٧٢/٢ .
- ٢١٩ - المصدر السابق نفسه : ٧٢/٢ .
- ٢٢٠ - المصدر السابق نفسه ٤٤٦/٨ .
- ٢٢١ - الهمداني : صفة جزيرة العرب : ١٣٦ ، مطبعة السعادة : القاهرة ١٩٥٣ م .
- ٢٢٢ - القلقشندي : صبح الاعشى : ج ٥٥/١٣ : المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٤ م .
- ٢٢٣ - معجم البلدان : ٧٣/٢ .

- ٢٢٤ - ابن خرداذبه : المسالك والممالك : ١٥٢ مطبعة بريل : لندن ١٨٨٩ م .
- ٢٢٥ - صفة جزيرة العرب : ١٧٨ .
- ٢٢٦ - عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب : ٢٦١ : المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٤ .
- ٢٢٧ - أبو الفداء : تقويم البلدان : ٩٩ : دار الطباعة السلطانية بباريس ١٨٤٠ م .
- ٢٢٨ - تحفة المستفيد : ٣ .
- ٢٢٩ - صفة جزيرة العرب : ٣٦ ويقول ابن سيده والزجاج والأزهري كل نهر عظيم لا ينقطع ماؤه فهو بحر - لسان العرب : (مادة : بحر) .
- ٢٣٠ - أمين الريحاني : ملوك العرب : ٢٢٣ : دار صادر ، ربحان : بيروت ١٩٥١ م .
- ٢٣١ - ابن بطوطة : تحفة النظر في غرائب الأمصار : ١٧٧/١ : مطبعة الاستقامة : ١٩٧٦ م . وجاء في لسان العرب أن سيبويه يقول بحراني في النسب الى البحرين التي هي مدينة . (انظر اللسان : مادة بحر) .
- ٢٣٢ - العبر : ١٩٧/٤ . معجم البلدان : ١٣٧/١ .
- ٢٣٣ - معجم البلدان : ١٣٧/١ .
- ٢٣٤ - «واحساء القرامطة غير الاحساء الموجودة الآن ، وانما موقعها عين الجوهريّة ، والمكان المعروف بالبطالية ، وأما الاحساء الموجودة الآن فهي من بناء الأتراك بعهد الوالي فروخ باشا» .
- (ديوان ابن المقرب : المكتب الاسلامي بدمشق : الطبعة الثانية ١٩٦٨ - من المقدمة من رسالة بعث بها الشيخ يوسف بن راشد المبارك للمكتب بدمشق مصححا بعض المعلومات الواردة في الطبعة الأولى) .
- ٢٣٥ - عبد الفتاح الحلو : شعراء هجر : حـ من المقدمة : مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ١٩٥٩ م .
- ٢٣٦ - دائرة المعارف الاسلامية : ٣١٩/٤٥ .
- ٢٣٧ - معجم البلدان : ١٣٦/١ - ١٣٧ .
- ٢٣٨ - محمد متولي : حوض الخليج العربي : ٦٣ : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٠ م .
- ٢٣٩ - حافظ وهبة : جزيرة العرب : ٦٨ : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ م .
- ٢٤٠ - انظر : لوريمر : دليل الخليج (القسم الجغرافي) : ج ٢/٨٢٠ ترجم وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر (بدون تاريخ) .
- ٢٤١ - المرجع السابق نفسه : ٨٢٠/٢ .
- ٢٤٢ - جزيرة العرب : ٦٩ .

- ٢٤٣ - تحفة النظر : ١٧٧/١ .
٢٤٤ - حوض الخليج العربي : ٦٣ .
٢٤٥ - انظر : جزيرة العرب : ٦٩ .
٢٤٦ - المرجع نفسه : ٧٢ .
٢٤٧ - تحفة النظر : ١٧٧/١ وانظر : العبر : ١٩٧/٤ .
٢٤٨ - انظر : مشكلات الحدود السياسية في الساحل الغربي للخليج العربي : ٨ .

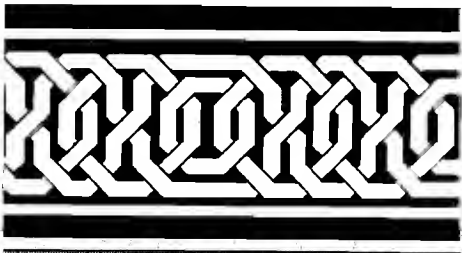
الشاعر

دراسة موضوع

٢

بقلم : الدكتور

أحمد موسى الخطيب



18 - AL WATHEEKAH



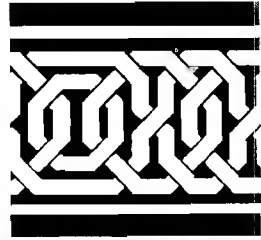
علي بن المقرب العيوني

تأليف

الشاعر البحريني القديم والشهير علي بن المقرب العيوني لا تكمن أهميته فقط في أنه أحد الشعراء المجيدين الذين عرفهم تاريخ الأدب العربي وإنما ترجع أهميته الى أنه يعتبر المرجع الأهم بل يكاد يكون المصدر الوحيد . لتاريخ دولة كاملة هي دولة العيونيين التي حكمت البحرين لأكثر من ١٥٠ عاما بدأت مع أوائل القرن الثالث عشر الميلادي وشغلت مساحة ليست بسيطة في تاريخ هذه الجزر العريق .. وكأنما كان الشاعر علي بن المقرب يعرف أن مصادر تاريخ هذه الدولة سوف تضيع فأرخ بشعره لها ولحكامها ورسم بقلمه صوراً دقيقة لواقع الحياة خلال الفترة التي عاشها وعاش فيها دولة العيونيين . وإذا كان البحث في تاريخ علي بن المقرب وشعره أمراً أكثر أهمية بالنسبة للباحث في الأدب واللغة إلا أنه سيظل دائماً أمراً هاماً بالنسبة للباحث في تاريخ دولة البحرين بصفة عامة وعصر العيونيين بصفة خاصة وذلك ما دفعنا إلى أن نعرض على صفحات الوثيقة هذا البحث القيم للباحث الدكتور / أحمد موسى الخطيب راجين أن يحقق الهدف منه وهو توفير بعض المادة التاريخية عن تاريخ هذه الدولة للباحثين في تاريخ البحرين .

(الوثيقة)

هذا
البحث



حياته .. (١)

اختلف أصحاب التراجم ، ونساخت ديوانه ، وبعض المعاصرين من الباحثين في اسمه ، ولقبه ، وفي ترتيب أسماء آبائه حتى الجد الأعلى للعشيرة فتارة يزيدون في عددها ، وأخرى ينقصون ، وحيناً ثالثاً يحرفون فيها .

ولكن ما انتهينا إليه ، ورجحناه ، مطمئنين أن شاعرنا هو «علي بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن عزيز بن ضبار بن عبدالله بن علي بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم بن محمد العبدي (١) ، العامري ، اللكيزي (٢) الربيعي البحراني العيوني الاحسائي» ولقبه جمال الدين ، وكنيته أبو عبدالله .

وقد اعتمدنا في هذا - الى حد كبير - على رواية كل من ابن النجار البغدادي ، وابن الشعار الموصللي ، فكلاهما معاصر للشاعر ، والتقى به ، وسمع منه ، وامتازت روايتاهما عن روايات بقية معاصريه ، أنهما الأوفى والأكمل . أما الأول محب الدين أبو عبدالله محمد بن النجار البغدادي المؤرخ المحدث ، فقد ذكره في (التاريخ المجدد لمدينة السلام) . قال : (٣) «علي بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن عزيز بن ضبار بن عبدالله بن علي بن محمد بن ابراهيم بن محمد أبو عبدالله الربيعي البحراني العيوني ، من أهل العيون : أرض بالبحرين ، قدم علينا بغداد ، وذكر لنا أنه من ربيعة الفرس ، وأقام عندنا سنة عشر (وستمائة) وسنة أربع عشرة .

أما الثاني ابن الشعار الموصللي المتوفى سنة ٦٥٤هـ ، فقد ترجم له في كتابه (قلائد الجمان في شعراء الزمان) فقال : (٤) «علي بن المقرب بن منصور بن المقرب

والملاحظ على رواية ابن النجار ، أنها قد أغفلت ذكر لقب الشاعر ، وأسقطت من سلسلة الأبوة اسم (عبدالله) جد عبدالله بن علي مؤسس الدولة العيونية .

بن الحسن بن عزيز بن ضبار بن عبدالله بن علي بن محمد بن ابراهيم بن محمد أبو عبدالله الربيعي البحراني العيوني ، هكذا أملي على نسبة من حفظه» .

وكان ابن الشعار قد لقي ابن المقرب ببغداد سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وأنشده ابن المقرب الكثير من قوله . (٥) والملاحظ أن روايته جاءت مطابقة تماما لما أورده ابن النجار البغدادي .

وأقدم مؤرخ ذكر ابن المقرب هو ياقوت الرومي الحموي في معجمه الشهير ، في مادة العيون : (٦)

«وبالبحرين موضع يقال له العيون ، ينسب اليه شاعر قدم الموصل وأنابها ، واسمه علي بن المقرب بن الحسن بن عزيز بن ضبار بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم العيوني البحراني ، لقيته بالموصل سنة ٦١٧هـ ، وقد مدح بدر الدين وغيره من الأعيان ونفق ، فأرفدوه وأكرموه» .

ونجد أن ياقوت قد أغفل ذكر لقبه وكنيته ، ولم يستوف سلسلة الأبوه ، ولكن ما ذكره منها جاء متفقا مع رواية سابقة .

كما ترجم له معاصر آخر ، هو جمال الدين بن محمد بن سعيد الواسطي المعروف بابن الديبشي ، فقد قال في «ذيل تاريخ بغداد» (٧) : «علي بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن عزيز الربيعي أبو عبدالله ، من أهل البحرين ، شاعر قدم بغداد في سنة ثلاث عشرة وستمائة «فابن الديبشي يورد لنا كنية للشاعر ، ويهمل لقبه ، ولم يستوف سلسلة أبوته ، ويتوقف في سردها عند (عزيز) الجد الرابع له ، وما ذكره منها

مطابق لما رجحناه .

أما صاحب «تاج العروس» فقد قال : (٨) «علي بن مقرب (كذا) بن منصور البحراني ، أديب سمع منه ابن نقطة «وابن نقطة من معاصري ابن المقرب ، قال في كتابه (٩) «المستدرک» الذي استدرک به علي کتاب ابن ماکولا ، فقال في مادة (ع ي ن) : وأما العيوني فهو علي بن المقرب بن الحسن بن غرير بن ضبار أبو عبدالله بن محمد بن ابراهيم العيوني البحراني الشاعر ، قدم علينا بغداد ، شاعر محسن سمعنا منه شيئا من شعره» .

وذكره في مادة (ض ب ر) فقال : «وأما ضبار - بفتح الضاد المعجمة ، وتشديد الباء المعجمة بواحدة وآخره راء - فهو أبو الحسن علي بن المقرب بن الحسن ابن غرير بن ضبار بن عبدالله البحراني» . فكناه ابن نقطة (بأبي الحسن) ، ولم يذكر لقباً له ، كما لم يستوف سلسلة نسبه واتفق فيما ذكره منها مع من عرضنا لرواياتهم ، ولكنه اختلف عنهم في (عزيز) جده الرابع فأورده بالغين المعجمة المضمومة ، والراء المهملة ، وبعدها ياء ساكنة فراء مهملة .

وقد ترجم له زكي الدين عبد العظيم المنذري المتوفى عام ٦٥٦هـ ، في كتابه (التكملة لوفيات النقلة) ، (١٠) قال في وفيات سنة ٦٢٩هـ : «وفي هذه السنة أيضا توفي الأديب الفاضل أبو عبدالله ويقال أبو الحسن علي بن المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن بن عزيز بن ضبار بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم الربيعي العيوني البحراني الاحسائي ، الشاعر بالبحرين» وبعد ذكره لشيء من

أخبار الشاعر ، ووصف شاعريته قال :
«عزیز بفتح العين المهملة ، وكسر الزاي
وبعدها ياء آخر الحروف ساكنة وزاي ،
وضبار بفتح الضاد المعجمة وتشديد
الباء الموحدة وفتحها ، وبعد الألف راء
مهملة» .

ويؤخذ من كلام المنذرى : أنه قد ذكر
كنيتين له (أبا عبدالله) و (أبا الحسن)
واتفق في الأولى مع ابن الشعار ، وفي
الثانية مع ابن نقطة ، كما اتفق مع ابن
الشعار في سرد أبوته ، ماعدا قوله عن
(عبدالله بن علي بن محمد) أنه (عبدالله
بن محمد) وإغفاله (لمحمد) أخرجه له .
وذكره كمال الدين ابن الفوطى
البغدادى المتوفى سنة ٧٢٣هـ ، في كتابه
«تلخيص مجمع الآداب» وترجم له في
الملقبين بكمال الدين ، قال : ^(١١) «كمال
الدين أبو الحسن علي بن المقرب بن
الحسن بن عزيز العيوني البحراني ،
ذكره ياقوت الحموى وقال : لقيه
بالموصل .. وديوانه موجود» . ثم نسي
ابن الفوطى ذلك اللقب فترجم له في
الملقبين بموفق الدين ، قال : موفق الدين
أبو القاسم علي بن المقرب بن الحسن بن
العزیز البحراني العيوني الشاعر ، ذكره
كمال الدين بن المبارك بن الشعار .. .
ففي الترجمة الأولى أعطاه لقباً جديداً
(كمال الدين) واتفق مع الحافظ المنذرى
وابن نقطة في كنيته (بأبى الحسن) . وفي
الترجمة الثانية ، أضفى علي ابن المقرب
لقباً وكنية جديدين ، لم يذكرهما سواه ،
وأدخل التعريف علي جده الرابع
(عزيز) ، واختصر سلسلة الأبوة في كلا
الترجمتين .

وقال الصفدى ^(١٢) المتوفى عام

٧٩٤هـ في (الوافي بالوفيات) : «علي بن
المقرب بن منصور بن المقرب بن الحسن
بن عزيز بن صبار بن عبدالله بن علي أبو
عبدالله الربعى البحراني العيوني من
أهل العيون بأرض البحرين ، ذكر أنه من
ربيعة الفرس» .

والفرق الواضح في كلام الصفدى هو
إيراده الجد الخامس للشاعر باسم
(صبار) ، بالصاد المهملة بدلا من الضاد
المعجمة ، التي أجمعت عليها الأقوال
المذكورة آنفاً ، هذا مع اختصار سلسلة
الأبوة ، وتوقفه في سردها عند (علي) جده
السابع .

وجاء في مقدمة النسخة المخطوطة
ببرلين ^(١٣) مانصه : «الامير الاجل ابو
عبدالله علي بن مقرب بن منصور بن
مقرب بن الحسن بن عزيز بن صبار بن
عبدالله بن علي بن عبدالله بن محمد
بن ابراهيم بن محمد الابراهيمى
العيونى البحرانى ..» .

وفي هذا تقارب مع ماورد عند ابن
النجار وابن الشعار ، ما عدا تنكير اسم
أبيه وجده الثانى ، وذكر (عبدالله) جد
(عبدالله بن علي) .

كما جاء في صدر مخطوطة لديوانه
بمكتبة الأوقاف العامة بالموصل ^(١٤) ،
وأخرى بالمتحف العراقى ببغداد ^(١٥) ،
مانصه : «هذا ديوان الامير جمال
الدين أبى منصور علي بن عبدالله بن
المقرب» .

وفي هذا لقب وكنية جديان للشاعر ،
وايراد اسم أبيه (عبدالله) لا (المقرب)
وجاء في مقدمة مخطوطة ظاهرية
دمشق ^(١٦) مانصه : «جمال الدين أبو

عبدالله على ابن المقرب بن منصور بن المقرب العيوني الاحسائي .

فقد اتفقت في لقبه (جمال الدين) مع نسختي الموصل والمتحف العراقي ، كما اتفقت في كنيته (أبى عبدالله) واسمه مع معظم من ذكرنا آنفا .

وقد ورد في مقدمة مخطوطتي (١٧) مكتبة الدراسات العليا ببغداد ، مانصه : « على بن المقرب النعماني » والجديد في هذا ، نسبته الى « النعمان » التي لم ترد مطلقا عند من ترجموا له . اما مخطوطة (١٨) برنستون ، فقد ورد اسمه في مقدمتها « على بن محمد بن مقرب الاحسائي العيوني » والجديد في هذا اسم أبيه (محمد) والذي لم يتفق معه أحد فيه .

كما جاء في مقدمة ديوانه المطبوع بالهند عام ١٣١٠ هـ ، مانصه : « جمال الدين أبو عبدالله على بن مقرب بن منصور بن مقرب بن أبى الحسين ابن (غرير بن ضباب بن عبدالله بن على بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم بن محمد العيوني الاحسائي .

ونلاحظ في هذه الرواية أمورا ثلاثة : أولها : ذكرها لكنية جده الثالث (أبى الحسين) وإغفالها لاسمه .

وثانيها : ذكرها (غرير) - جده الرابع - بالغين المعجمة المضمومة ، والراء المهملة المفتوحة بعدها ياء ساكنة وراء مهملة .

وثالثها : ذكرها (ضباب) جده الخامس - بالياء .

كما نلاحظ على هذه الرواية - مع اختلافها فيما ذكرنا - اتفاقها في ايراد سلسلة الابوة كاملة ، كما جاءت في

مقدمة نسخة برلين ، وعليها اعتمد كل من اسماعيل باشا البغدادي في ترجمته له ، في « هدية العارفين » (١٩) وعبدالفتاح الحلوفي مقدمة ديوان ابن المقرب المطبوع بالقاهرة عام ١٣٨٣ هـ وما جاء في مقدمة النسخة الهندية المطبوعة ، يقارب رواية ابن النجار وابن الشعار ، ما عدا تنكير اسم أبيه وجده الثاني ، وذكر (عبدالله) جد عبدالله بن على .

أما ديوانه المطبوع بدمشق عام ١٣٨٨ هـ فما ذكره عن اسم الشاعر وسلسلة نسبة يطابق ما جاء في التكملة . (٢٠) .

وقد ترجم له جورجى زيدان في كتابه (٢١) (تاريخ آداب اللغة العربية) تحت عنوان « شعراء جزيرة العرب » مانصه : جمال الدين أبو عبدالله محمد بن على بن المقرب بن منصور الابراهيمي . « ولم يذكر مرجعا لكلامه المذكور ، وبالتالي فلا نعرف من أين أتى (محمد بن على) .

كما ترجم له خير الدين الزركلى في كتابه (الاعلام) (٢٢) واحال بترجمته على كتاب (التكملة لوفيات النقلة) للحافظ المنذرى ، ومعجم البلدان لياقوت الحموى ونسخة خطية لديوانه بدار الكتب المصرية تسلسل ١٢٦ ادب ، سمى فيها (محمد بن على بن المقرب) والنسخة المطبوعة بالهند ، وكتاب بروكلمان ، وذكر ان بروكلمان (*) سماه « على بن عبدالله بن المقرب » وكناه بأبى منصور وما في التكملة اصح .

وقد اتفق مع الزركلى في الترجمة له عمر رضا كحاله في معجمه (٢٣) وفؤاد

البستاني في دائرته^(٢٤)، مع اضافة كنية (أبي المنصور) وذكر اسمين له (على بن المقرب) او (محمد بن على) .

هذه أقوال عدد من المؤرخين ، وأصحاب التراجم ، والباحثين ، حول اسم الشاعر ولقبه وكنيته ، أوردناها وبيننا ما اتفقت عليه او اختلفت فيه ويؤخذ من هذا كله :

- أن يا قوتا ، وابن نقطة ، وابن الشعار ، وابن النجار ، وابن الديبشي معاصرون لابن المقرب ، وقد التقوا به فعلا ، وسمعوا منه شعره ، ولهذا يجب ان نأخذ اقوالهم بعين الاعتبار ، غير أن ابن الشعار يمتاز عن الآخرين ، بأنه قد اخذ نسبة ابن المقرب عنه مشافهة ، واملاء ، ولذا يمكننا ان نضع قول ابن الشعار ، اساسا لرأينا .

- أن ابن الشعار وابن النجار ، قد اسقطا - ولعل ذلك سهوا - اسم (عبدالله) جد عبدالله بن على ، من سلسلة الأبوة للشاعر ، بينما يجمع الرواة^(٢٥) الذين استوفوا سلسلة أبوته على ذكر ذلك الاسم .

- وأن اسم الشاعر هو (على) وقد صرح به في شعره :

هون فقومك يا على حياتها
كمماتها ومماتها كحياتها^(٢٦)

- وأن يا قوت ، وابن نقطة ، وابن الشعار ، وابن النجار ، وابن الديبشي ، ممن ترجموا له من معاصريه ، قد اتفقوا على ادخال التعريف على اسم أبيه وجده الثاني .

- وأن ابن نقطة ، وكاتب مقدمة الطبعة الهندية لديوان الشاعر ، قد انفردا بتسمية الجد الرابع للشاعر

(غريرا) بالغين المعجمة المضمومة ، فالراء المفتوحة ، وبعدها ياء ساكنة ، فراء مهملة ، بينما تجمع سائر^(٢٧) الروايات على (عزيز) بالعين المهملة المفتوحة ، فزاي مكسورة فياء فزاي .

- وأن الجد الخامس للشاعر (ضبار) بالراء ، كما أجمعت عليه الروايات لا (ضباب) بالباء ، كما جاء في مقدمة الطبعة الهندية ، وفي هدية العارفين للبغدادى ، ولا (صبار) بالصاد المهملة ، كما اوردتها الصفدى . وقد صرح باسم جده هذا بما لا يقبل الشك في قصيدة يمدح فيها الأمير الفضل بن أبي القاسم بن على :

لأن عليا جده عمى الذي
يطول به بيتى على من يطاول
وضبار جدى عمه وكلاهما
خليصان والعم المهذب ناجل^(٢٨)

- أما عن لقب الشاعر وكنيته ، فقد لقبه المؤرخون بثلاثة ألقاب ، هى جمال الدين ، وكمال الدين ، وموفق الدين . وقد انفرد ابن الفوطى بالآخرين ، أما الأول فقد جاء فى مقدمة عدد من مخطوطات ديوانه ، ومقدمة الطبعة الهندية ، وقد ذكر له الدكتور مصطفى جواد^(٢٩) لقبا رابعا هو (مehذب الدين) ، ولكنه لم يشر الى المصدر الذي أخذ منه . كما انفردت نسخة^(٣٠) مخطوطة بميلانو بلقب خامس له هو (نور الدين) .

وقد كنوه بأربعة كنى : أبى عبدالله ، وأبى الحسن ، وأبى منصور ، وأبى القاسم وكان يصح عند القدماء أن يكنى الرجل بأكثر من كنية ، وقد انفرد ابن الفوطى بالاخيرة ولم ترد الثالثة عند

ومن قصيدة يمدح فيها الأمير أبا سنان
مسعود بن محمد العيوني ، يقول :
نماك من « آل ابراهيم » كل فتى
منزه العرض من غش ومن دغل^(٣٤)
وعرف قومه (بالعيونيين) نسبة الى
بلدة « العيون » بالاحساء ، وبهذه
الاخيرة عرف التاريخ دولتهم وتحدث
عنهم .

حياته ... (٢)

ليس بين أيدينا من الاخبار والروايات
في كتب الاقدمين ما ينير جوانب حياة ابن
المقرب ، فيبدر الظلمات التي تكتنف
نشأته ، ويصف تقلبه في الدنيا طفلاً
وفتًى ، وكهلاً ، وثم يكشف من أثر البيئة
في نفسه ، وما كان لقبيلته من أثر في
فصاحته ، وما أفاده في بلده قبل أن
يرتحل عنه . وما أفاده خارج بلده في
رحلاته الى البصرة ، وبغداد ،
والموصل ، وما أفاده من حلقات العلماء
هناك وندوات المفكرين التي تردد عليها ،
في نمو معارفه ، وعمق مداركه ، ونفاذ
بصيرته ، وانما هي نتفج أوردها القدماء
في كتبهم .

ولم يختص القدماء ابن المقرب وحده
بهذا الاهمال ، فقد كان ذلك شأنهم
وديدنهم مع أكثر الشعراء . فقد كانوا
لا يعنون بحياة الشاعر ونشأته ،
ولا يأخذون انفسهم ببيان البيئات التي
درج فيها صغيراً ، وتفتيا ظلالتها ناشئاً ،
وكهلاً ، ويتناسون المناهل الثقافية التي
وردها ، ومصادر المعرفة التي منحتهم
الخيال الخصب ، والرؤى وفحت
بصيرته على ألوان الجمال ، فراح يتتبعها
في رحاب الكون الفسيحة ، ليتغنى أعذب

معاصر له موثوق به ، والثانية أوردها
الحافظ المنذرى ، وابن الفوطى ، وهى
أقل شهرة - كما هو واضح - من كنيته
الاولى (أبى عبدالله) التي نظمئن اليها
وان كنا لانستبعدا لأنها كنية شائعة
لعل ، ولعل كنيته الاولى (أبا عبدالله)
باسم ابنه الأكبر عبدالله .

وربيعة جد شاعرنا الاعلى فخذ من
قبيلة عبدالقيس العدنانية ، ذات
الامجاد الذائعة الصيت في الجاهلية
والاسلام .

ويطلق على عشيرته (آل عبدل)
نسبة الى جدهم عبدالله بن ، على ،
مؤسس الدولة العيونية ، وقد أشار لهذا
في أكثر من موضع في ديوانه ، فقال في
معرض مدحه لأحد امراء أسرته الامير
أبى شكر مقدم بن ماجد العيوني :

وارغب بمدحك الا في سليل علا
ينفى الى الغر من أبائك النجب
متوج (عبدلى) حين تنسبه
لخير جد اذا يدعى وخير أب^(٣١)
وقال مادحا الامير أبا سنان محمد
بن على بن عبدالله العيوني :

سمابك بيت (عبدلى) أحله
ديار الاعادى سمره وقواضيه
وعالى محل من (ربيعة) أشرفت
علوا على كل البرايا مراتبه^(٣٢)
ويقال لعشيرته . « آل ابراهيم »
نسبة الى الجد الاعلى ابراهيم
بن محمد . وقد صرح بهذا في مدحه
للأمير أبى شكر مقدم بن ماجد العيوني :

يا بن الملوك الأولى شادوا مما لكهم
بسلة البيض والخطية السلب
نماك من (آل ابراهيم) كل فتى
مذهب طاهر الاخلاق منتخب^(٣٣)

الحانة ، وأرق قصائده ، وانما كانوا يكتفون باللحاحات الخاطفة ، يتناولون بها حياته ، ثم يتعقبون بذكر النوادر والاحبار التي ترفع من شأن الشاعر أو تنال منه . يذكر ابن الشعراء ابن المقرب قد ولد عام ٥٧٢هـ - (٣٥) ، وفي بلدة العيون « (٣٦) من نواحي الاحساء ، وبين أهله وعشيرته ترعرع ، وعاش طفولة مجهولة كالكثر من الشعراء ، وزاد انها مجهولة تماما ، فلانجد لها خبرا عند مؤرخي الادب ، ولا نجد ما يشير اليها في شعره . وفي ربوع البحرين قضى أيام شبابه وصباه ، وكانت - كما يبدو - أياما عذبة ، أذاقته الدنيا فيها أفوايق السعادة والغبطة ، فظلت في أعماق نفسه ذكريات حية :

رعى الله الثليم وساكنيه
وأجرعا تكنفها الثلام
وجاد من الجديد الى المصلى
الى الحصنين وكاف ركام
فمسرح لذتى ومراح لهوى
هنالككم وجيرتى الكرام
وملعب كل غانية كعاب
مخدمة يزين بها الخدام
يراها القابيس العجلان لحا
فببقي لا وراء ولا امام
وترسل من لواظها سهام
فتمضى حيث لا تمضى السهام
مضى ذاك الزمان فليت أنى
صدى من قبل ممضاه وهام (٣٧)

وقوله :

يامنزل الحى بالجرعاء لا برحت
تهمى بك المزن منهلا عزاليها
كم لى بمغناك من يوم نعمت به
وليلة تعدل الدنيا وما فيها (٣٨)

وقد أمضى شاعرنا شطرا من أيام شبابه اللاهى في (الحجر) قسبة اليمامة و(اجله) من ارض اليمامة ايضا قبل ان تذهله صروف حياته عن متع الدنيا وملذاتها.

لله أيام الصبا ان دارنا
حجر القرى ولنا باجلة معهد
ان لمتى تحكى الغداف وانما
أشهى الشعور الى العيون الاسود
والخد من ماء الشباب كأنما
فيه لاحداق الكواعب مورد
كم ليلة طالت فقصر طولها
شدو المزهرا والغزال الاغيد
وترنم الاوتار في يد قينة
غنج يدين لها الغريض ومعهد (٣٩)
وقبل المضى مع الشاعر في رحلة الحياة الطويلة ، لابد من وقفة عند أسرته ، ونقصد أسرة (المقرب بن منصور) ، لنستجلي من خلال هذه الوقفة ، أثر الاطار الضيق والهام على نفس الشاعر وحياته .

فقد ذكر ابن المقرب أباه في موضعين ، فقد قال في معرض فخره بنفسه :
أبى من قد علمت وليس يخفى
بضاحى شمس يوم اضحيان
سل العلماء ياذا الجهل عنه
ونار الحرب ساطعة الدخان
غداة كفى العشيرة ما عناها
بعزيمة ماجد كاف معان
فعمت تلکم النعماء منه
نزارى الابوة واليمانى
ويوم علا بجرعاء المصلى
عجاج غاب فيه المسجدان
الم يلق الردى منه بقلب
على الاهوال اثبت من أبان (٤٠)

عشيه عامر وبنى على
كدفاع السيول من الرعان^(٤١)
ومن قصيدة أخرى قالها ببغداد عام
٦٠٥ هـ ، يفضح فيها قومه ، ويحذرهم
من سوء العاقبة ، والمصير الاسود الذي
ينتظر نساءهم ، اذا ما تقاومت أمورهم ،
فيقول :

فإن سلمت نفسى لهن هنيئة
من الدهر جاورن النجوم الثواقب
وعاد الى الدهر بعد غرامه
يعفر خديه على الارض تائباً
كما جاء قبلى مستكيناً الى أبى
وقدهم ان يلوى عليه المخالب^(٤٢)
والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ،
لماذا لا نجد سوى هاتين الاشارتين الى
أبيه ؟ الا انه كان لا يعرف أباه ومات عنه
صغيراً ؟ ولكننا نعرف أنه أشاد بالكثير
من السابقين ممن لم يعاصرهم من
أسرته ، وقبيلته في فروعها القريبة ،
وأصولها البعيدة ، ام كان ذلك لأنه عرف
أباه ، ولكنه لم ير له خطراً ، ولم يرفى
ذكره ما يرفع من شأنه ، ويرد عنه كيد
الكائدين ؟ فلا ينبئنا المؤرخون ولا شعر
الشاعر بقليل أو كثير عنه ، سوى أنهم
اختلفوا حيناً ، واتفقوا حيناً آخر ، على
أنه (المقرب ابن منصور) ، والذي
لا شك فيه ، انه من آل ابراهيم
العيونيين ، ومن رجال الصف الثاني أو
ما بعد ذلك ، لا خطر له بينهم ، ومثله
كثيرون في أى أسرة حاكمة في كل زمان
ومكان .

وان نمت اشارة شاعرنا عن أبيه
شيئاً ، فليس أكثر من اتقانه للكر
والطعن ، وهى ضرورة حياتيه ، لا غنى
عنها لسكان باديتهم ، وان كان له فضل

فيها ، فهو فضل الاجادة لفنون القتال ،
مضافا اليها جرأة وأقدام ، أمكناه من
التصدى للدهر « وقد هم أن يلوى عليه
المخالب » ولعل ما عرف به ابن المقرب ،
من صفات الجرأة والاقدام والفروسية ،
هى ميراث هذه الابوة .

أما أمه فقد ذكرها في « موضعين »
مفتخراً بهذه الامومة ، وتلك الخؤولة في
بكرين وائل ، والام كل ما يهم الابن منها
هو تلك الخؤولة ، وبكرين وائل غنية عن
الحديث فبطولاتها على امتداد الجاهلية
والاسلام ، فقال في معرض فخره .
أمثلى من يعطى مقاليد أمره
ويرضى بأن يجدى عليه ولا يجدى
اذا لم تلدنى حاصن وأئيلة
مقابلة اليباء منجبة الولد
خؤولتها للحوفزان وتنتمى
الى الملك الوهاب مسلمة الجعد^(٤٣)
وفي معرض تهديده لكارهيه والساعين
للايقاع به ، يقول :

فما ولدتنى حاصن حنيفة
عبيديه تسمو الى الحساب الجزل
لئن أنا لم أغش اللثام بوقعة
يشيب لها من هولها مفرق الطفل^(٤٤)
ودبوان ابن المقرب يخلو تماماً من رثاء
أمه وأبيه ، وهذا ما يجعلنا نرجح -
مطمئنين - أنهما قد ماتا وهو صغير ،
فعاش يتيماً محروماً من عطف الاب ،
وحنان الام .

كما أن ديوانه قد خلا من ذكر أخ له أو
أخت ، وهذا - أيضاً - ما يجعلنا نميل
الى القول ، انه الابن البكر والوحيد
لهذين الأبوين ، اللذين لم يقدر لهما ان
يرياه شاعراً ملء العين السمع .

حياته .. (٣)

إذا كان الشاعر مجيدا حقا ، فشعره مرآة نفسه وعواطفه ، ومظهر شخصيته كلها ، بحيث نقرأ قصائده المختلفة ، فنشعر فيها بروح واحد ، ونفس واحد ، وقوة واحدة ، وقد يختلف هذا الشعر شدة ولينا ، ويتباين عنفا ولطفا ، ولكن شخصية الشاعر ظاهرة فيه .. ” (٤٥)

وهذا ما يعرف بالطبيعة الفنية ” تلك الطبيعة التي تجعل فن الشاعر جزءا من حياته أيا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ، ومن الثروة أو الفاقة ومن الألفة أو الشذوذ ، وتتام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا ، لا ينفصل فيه الانسان الى من الانسان الناضج ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره ، وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه ، يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ، ولا يخفى فيها ذكر خالصة ولا هاجسة ، مما تتألف منه حياة الانسان ، ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل ” (٤٦)

والقارئ لديوان ابن المقرب تطالعه شخصية ، واضحة الملامح ، وكأنه يعوض بذلك مالحقه من تقصير مؤرخي الأدب ، وإهمالهم له . فحفظ لنا شعره - بكل أمانة - معالم شخصيته ، فقد كان عزيز النفس ، سامي الهممة ، طموحا الى المجد :

يظن نحول ذو السفاهة والغبا
غراما بهند واشتياقا الى دعد
ولم يدر أنني ماجد شف جسمه
لقاء هموم خيلها ابدا تردى

قليل الكرى ماض على الهول مقدم
على الليل والبيداء والحر والبرد
عدمتم فؤادا لايبيت وهمه
كرام المساعي وارتقاء الى المجد
لعمري مادعد بهمي وان دنت
ولالى بهند من غرام ولا وجد (٤٧)
ومن حكمه التي تعطينا مؤشرا على
علوهمته ، وتطلعه الدائب الى المجد ،
قوله :

فقم نحصد الأعمار أو نبليغ المنى
بجد فلاحمار لا بد حاصد
فليس بصعاد الى المجد عاجز
نئوم تناديه العلى وهو راقد
وفي السعى عذر للفتى لو تعذرت
عليه المساعي أو جفته المقاصد (٤٨)
أما رفضه الضيم والخنوع ، فقد كانا من
أبرز ملامح شخصه ، وكلفه هذا الرفض
الهجرة عن الوطن ، ومفارقة الأهل
والولد :

خليلي ما دار المذلة فاعلما
بدارى ولا من ماء أعداها وردى (٤٩)
وقد تكرر هذا المعنى في مواطن كثيرة من
ديوانه ، كقوله :

ولا تك مثلافا لدار مذلة
ولو فاض واديهما لجينا وعسجدا (٥٠)
ومنها قوله :

خليلي عن دار الهوان فقوضا
خيامي وزما لا رتحال نجائبي (٥١)
كما كان صاحب عزيمة متوقدة ،
وحماسة لا هبة ، وقناة صلبة ، والكثير
من حكمه قد ضمن هذه الملامح ، ومنها
يقول :

وما بلغ العلياء الا ابن حرة
قليل افتكار في أمور العواقب
وما العز الا في صها كل سابع
وما المال الا في شبا كل قاضب

لم تكن ذنباً أكلتك الذئب " فيقول :
من سالم الناس لم تسلم مقاتله
منهم ومن عاث فيهم بالأذى سلماً (٥٨)
ومنه قوله :

ومن ضيع السيف اتكالا على العصى
شكا وقع حد السيف ممن ينازله (٥٩)
وكل شعره دعوة للحرب ، وإلى حشد
الجند ، ورفع السلاح " (٦٠) وهذه الروح
القوية تطالعنا في معظم قصائده ، وكأننا
بروح أبي الطيب القوية المتوثبة .
ولم يكن ممن يميلون الى التعلق
بأوهام الحياة وأباطيلها ، والتشبيث
بواهى حبال آمالها الخادعة ، فأحلام
اليقظة - في رأيه - من شيم ضعاف
الهمم لا قوتها ، لذا لا مكان لأفعال
الرجاء في قاموس حياته :

ولا تذكر عندي لعل ولا عسى
فما بعسى يقضى نجاح لطالب
وليس عسى أو ربما أو لعلماء
ويا طامحا الاقيود المعاطب (٦١)
كان ذا مزاج حاد ، لا يميل الى استمراء
الراحة ، وتجنب صراع الحياة ، والضرب
في أرجاء الأرض ، فنفسه العظيمة في
طراد دائب :

لقد مل جنبي مضجعي من اقامتي
ومل حسامي من مجاورة الغمد
ولج نجيبى في الحزن تشوقا
الى الرحل والانساع والبيد والوخد
وأقبل بالتصهال مهري يقول لى
أبقى كذا لا فى طراد ولا طرد (٦٢)
وعن إباطه وشموسه ، وعزمه
الهامي ، قل ما شئت ، فهى صفات
أصيلة في الجزيرة العربية ، وخاصة في
باديتها حيث نشأ وإذا ما أضفنا لهذا
ميراث حسبه ، يصبح من الواضح
لدينا ، مصادر هذا العزم ، وذاك الابعاء ،

ومن لم يعض الدهر من قبل عضه
ببابيه اضحى مضغة للنوائب (٥٢)
فهو من أنصار القوة في الحياة :
قد تساوى في مضاء صارمى
وسنانى ولسانى وفؤادى (٥٣)
ويرى القوة خير مفتاح لولوج ما يرتج
عليه ، والسيف عنده رمز القوة :
بالسيف يفتح كل باب مقفل
وتحل عقدة كل خطب مشكل
فاقرع اذا صادفت بابا مرتجا
بالسيف حلقة صفقتيه تدخل (٥٤)
وبالقوة يحقق غاياته :

واذا بدت لك حاجة فاستقضها
بالمشرقية والرماح الذبل
فالسيف اكرم مجتدى يممته
فاذا تلوذ به فأمنع معقل (٥٥)
والقوة عنده هى السبيل الأمثل للتفاهم
مع الأعداء ، ووسائلها في رأيه أصدق
مرسل :

واجعل رسوك ان بعثت الى العدى
زرق الأسنة فهى أصدق مرسل
واعلم هديت ولا أخالك جاهلا
أن الرسول يبين عقل المرسل (٥٦)
بل يؤمن بسياسة القوة سبيلا لاستبعاد
الناس :

فمن رام أن يستعبد الناس فليمل
عليهم بأطراف القناغير راحم (٥٧)
وتنبئنا مثل هذه السياسة ذات
الحدين ، البعيدة عن لباقة السياسة
وأصحاب الرأى بأثر نشأته البدوية ،
ومجتمعه ، والصراع القبلي من حوله ..
ولعل ما ناله من الناس - وهو كثير - في
حياته ، جعله ينصح بالبطش بهم بلا
هوادة ولا رحمة ، أضف أنه لم يقل حكم
الناس أو قيادتهم بل " استعبادهم " .
وهو في هذا يصدر عن القول الشائع " اذا

ولنسمع اليه مخاطبا عاذليه :

أجد كما لا أبرح الدهر تابعا
وعندى من العزم الهامى ما عندى
أمثلى من يعطى مقاليد أمره
ويرض بان يجدى عليه ولا يجدى^(٦٣)
ومن القصيدة ذاتها يقول :

أرضى بما يرضى الدنى وصارمى
حسام وعزمى عزم ذى لبدة ورد
سأضى على الايام عزم ابن حرة
يفدى باباء الرجال ولا يفدى^(٦٤)
وكقوله مبررا رحيله عن وطنه :

كذا شيم الحر اذا نبا
به وطن زم المطايا وأحفدا
أقنع بالخط الخسيس ولم أكن
كهاما ولارث المساعى مزندا^(٦٥)
ولقد أشرنا آنفا - في حديثنا عن
دولتهم الى مواقف ابن المقرب الجريئة ،
واعلانه رأيه في سياستهم المتهاونة ، كما
عنف ابراهيم بن أبى جروان ، وغيره من
زعماء الاحساء المتأمرين على دولتهم .
وماذا عساه يخشى بعد أن سلبوه ماله ،
وأرضه ، وسجنوه ونفوه ؟ أيخشى الموت
وهو القائل :

فاما أن أعيش مصاد عز
لمجنى عليه أو لجان
وإما أن أموت وما عليها
سوى من خافنى أو من رجانى
فموت الحر خير من حياة
يقاسى عندها ذل الهوان^(٦٦)
نصح قومه فأحسن النصح ، وكان
الصدق ديدنه ، أيا كان الثمن :
وذاك بعد سؤال منه عن خبرى
والصدق من شيمى لو أورث
البكما^(٦٧)

ولم يكن يبغى من هذا الصدق في
النصح ، وتلك الشجاعة في الراى ،

الا عز قومه ، وعزه رهن بعزتهم :

لعمرك ما عز امرؤ ذل قومه
ولا جاد من أعطى عطية راهب^(٦٨)
ولأمر ما يحتاج ماله ، ويلقى في
السجن ، ويتفرق أصحابه ، ويبتعدوا
عنه ، ويذوق ظلم ذوى القربى -
وما أشده - وينفى باختياره الى العراق ،
ومع هذا بقى صابرا على مصائب
الزمان :

منيت من الزمان بعنقفير
قليل عندها حز الشفار
فراق أحبه وذهب مال
وضيم أقارب ، وأذاة جار
فلا والله ما وجد كوجدى
ولا عرف اصطبار كاصطبارى^(٦٩)

نزلت به المصائب شابا ، فلقبها بحكمة
الكهول وصبرهم ، وهذا الصبر مؤشر
للرصيد الأيمانى عند الشاعر ، مما جعله
يواجه حظه العاثر بقدر كبير من الرضى ،
والثقة بالله ، فلم يهن ولم يجزع :

كم عاين الدهر منى صبر مكتهل
اذ ليس يوجد صبر العود في الجذع
ومارمتى بكر من نوائبه
إلا صككت بصبرى هامة الجزع

.....

لقد تفكرت في شأنى وشأنهم
فبان لى أن ذنبى عندهم ورعى^(٧٠)
وأى عبء تنوء به نفس ، بعد الذى أفضى
به ، لمدوحه ، وصديقه شمس الدين
باتكين ، أمير البصرة ، اذ قال :

أعاذك الله من وجدى ومن قلقي
ومن غرامي ومن همي ووسواي^(٧١)
وكأن هذه الهموم المقلقة ، وتلك الأحداث
المزعجة ، ما هى الا اختبار لكبرياء
الصبر في النفس الكبيرة :

وفي على حز المدى خنزوانة
ولو أفنت الأحداث حالي وماليا^(٧٢)
ولكن النفس الكبيرة ، لا يفوتها أن الحلم
المطلق لا يخلو من ذل :

والحلم في بعض المواطن ذلة
فاصفح وعاقب واعجلن وتأيدا
ماكل حلم مصلح فطالما
غر السفية الحلم عنه فافسدا^(٧٣)
وقد داهمه الشيب مبكرا ، وهو في
العشرين من عمره ، والشيب في هذه
السن لا يتأتى - غالبا - الا من صروف
الدهر ، وفادح الخطوب :

وما شبت من سن مضت بل أشابني
صروف الليالي والخطوب الفوادح
لعشرين لاح الشيب في وأوجفت
على خيول المرزئات الضوايح^(٧٤)
وهذا المعنى يتكرر عنده ، وكأنه أراد أن
يؤكد معاناته المبكرة في الحياة ، ومواجهة
تحدياتها :

وما شبت من عد السنين وانما
أشاب قذالي ميلها وانقلابها^(٧٥)
ويبدو أن تلك التحديات قد عاشها ولم
يبلغ سن الحلم ، ولم يخط عذاره بعد :
فقد كلفتني خططا أشابت
قذالي قبل خط في عذارى^(٧٦)
” وكان - لقومه - اللسان الذرب ،
المعبر عن أمجادهم ، المنافح عن
حوزتهم .. كان لهم كصحافة اليوم
الحزبية .. بالرغم من أن قومه ناصبوه
الريب والحذر ، فتحدوا مشاعره ،
وضايقوه في عيشه .. فبقدر ما ناله من
قسوة ومضايقة وحرمان ، كان يمد لهم
يد القرابة والعشيرة .. ” .^(٧٧)

لقد بذلوا المجهود فيما يسوؤني
وقد كنت أرمي دونهم وأجالد^(٧٨)
ومن قوله :

وان قطعوا أرحام بيني وبينهم
وصلت وذو العليا أبر وأرحم^(٧٩)
هذا ومع ارتحاله بعيدا عنهم ، الا أنه
كان حفيا بأنبائهم ، يتلقاها من خلف
المهامه ويسأل الركبان عنهم ، ضنينا
بهم ، ويوصل رحمهم وان قطعوا ،
ولنستمع اليه منشدا هذه الابيات في
بغداد ، حيث طوحت به ريح النوى غير
مرة الى هناك :

وان انفرادي عنهم وتغربي
ترامي بي الأمواج والحزن والسهب
بغير اختيار كان مني ولا قلى
وانهم للعين والأنف والقلب
ولكنها الأيام تبعدتارة
وتدني ولا بعد يدوم ولا قرب
وانى حفى عنهم ومسائل
بهم حيث يثوى السفر أو ينزل الركب
وكم قائل لى عد عنهم فانه
مع الألم المضاض قد يقطع الإرب
فقلت رويدا قد صدقت وذلكم
اذا لم يكن فيه لحامله طب
اذا لم أداو العضو الا بقطعه
فلا قصب يبقى لعمرى ولا قصب
وانى بقومى للضنين واننى
على بعد دارى والتنائى بهم حذب^(٨٠)
وهذا الخلق النبيل الذي التزم به
طوال حياته ، شيمة عربية أصيلة ،
ومرتكز أساسى للفخر القومى في أدبنا
العربى .

ويجد الشاعر نفسه - فجأة - فقيرا
بعد غنى ، ذليلا بعد عز ، راجيا
لا مرجوا ، وما اشد أن يطرأ هذا على
النفوس الكبيرة ! فلم يتردد في غربته من
بيع فرسه بئمن بخس : ليقى عرضه :

فإنى بعت مركوبى ومالى
سواه يد أنوء به ورجل
بأوكس قيمة فى شروقت
وعضل البيع فى الحاجات بسل
وقلت اقى به عرضى لئلا
يرى حسبى بعين النقص نذل^(٨١)
وكان قد التزم قبل هذا بالايمدح
سوى أمراء بيته العيونى فلا يليق
بمثله ان يمدح ويتكسب :

أنفت لمدحى من سواكم لأننى
الى ذروتكم فى سنام وحارك
وأكبرت نفسى ان أرى متضائلا
أرجى نوالا من لئيم ركارك^(٨٢)
ومن القصيدة ذاتها يقول :

ولست وأن أودى الزمان يثروتى
وزاحمنى منه بخصم مباحك
بمهد ثنائى والمنادىح جمة
الى حوتكى ابشع اللؤم راعك
ومهما بلغ الممدوح من غير أهله
مكانة ، فمدحه بغیض الى نفسه :

وانى لاشبا المدح فى غير سيد
أبوه أبى لو زاحم النجم كاهله^(٨٣)
ولكن ارزاء الدهر كانت أقوى -
على ما يبدو - من كبرياء نفسه ،
فوجد نفسه مضطرا لان يمدح ،
ويطلب النوال ، ويرجو .. فمدح
الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ -
٦٢٢هـ) وبدر الدين لؤلؤ ملك
الموصل ، وشمس الدين باتكين أمير
البصرة ، وغيرهم ، وكفى أن نستمتع
اليه مادحا لوجيه موصلى أيام بدر
الدين لؤلؤ :

أبا الكرم المدعو للخطب اننى
رجوتك والمدعو لا يتاول

ففرز لكريم لم يكن فى حسابه
نزول بأبواب السلاطين يسال
ولا خال أن الدهر يسعى لكديه
فيلقى عليه منه نحر وكلكل^(٨٤)

ويستوقفنا هنا التناقض الذى بدا
فى خلق هذا الرجل ، تناقض بين القول
والسلوك فقد أعلن صراحة فى مواضع
كثيرة من ديوانه ، انه لن يرجو نوالا
من احد ، خارج نطاق أسرته
العيونية ، مهما جار عليه الدهر ،
وما حكته خصومه ، ولكن حين نقرأ
مدائحه فى العراق لمن ذكرنا من
الخلفاء والأمراء ، نفاجأ بلهجة
الرجاء والاستعطاف ، وقد يقول
قائل : ان هذه المدائح قد دبجها بعد
أن ساءت أحواله فى بلاد الغربة ،
واضطر لبيع فرسه ، ليقى عرضه
مذلة السؤال ، وليس هذا طبع ابن
المقرب . ومع احترامنا لوجهة هذا
التعليل ، الا أنه لا يمنع من الاقرار
بنكوس ابن المقرب عما أعلنه من
مبادئ وأصحاب النفوس الكبيرة
لا تززعهم النكبات والنوازل ، مهما
عصفت واشتد ريحها ، بل على
العكس لا تزيدهم الا ثباتا وصلابة ،
فالظروف الصعبة هى المحك الحقيقى
لمعادن الرجال .

ولكن ما يغفر لابن المقرب أنه لم
يمدح من رجالات العراق الامن عرف
بخطر سياسى او اجتماعى أو علمى ..
من أمثال الخليفة العباسى الناصر
لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ)
والخليفة العباسى المستنصر بالله

(٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ، وشمس الدين باتكين أمير البصرة ، وبدر الدين لؤلؤ أمير الموصل^(٨٥) ، والملك الأيوبي الأشرف (ت ٦٣٥) والنقيب العلوي تاج الدين اسماعيل^(٨٦) ، والرئيس محمد بن عبدالله بن سنان^(٨٧) ، والعالم الجليل أبي البقاء العكبري^(٨٨) .

وكان ابن المقرب فاضلا في خلقه ، عاش في بيئة شهدت قدرا غير قليل من الانحلال والتفسخ ، انحطت فيها القيم ، واضطربت معايير الحكم على الرجال ، وتقييهم ومع هذا أبي لنفسه - صيانة لعرضه - أن يشينها ، أو يعطى الشائئين فرصة النيل منها ، مهما جار فيها الذهر واعتدى فهو يقول :

قلو أحسن التصفيق والرقص فيهم
ورفع المثاني والغناء المهودا
لعشت عزيزا فيهم ولما اجترا
يمد الى الضيم باعا ولايدا
ولاراح شرب المقرفين ذوى الخنا
بهانها عبا وشربى مصردا
ولو أننى كنت اتخذت رذية
أو يطف رغاء لدى الشد أكبدا
وصاحبت من أدنى البواد مكشما
ضعيف الا يادى قاصر الجاه مسندا
لكانت سنياه الجوائز ترتقى
الى حيث أهوى باديات وعودا
ولكننى لم أرض ذاك صيانة
لعرضى أن أعطى المعادين مقودا
وأكبرت نفسى أن اجالس قينة
ودفا ومزمارا وعودا وأعيدا

وان اجعل الانزال حزبا وشيعة
ولو جار فى الدهر ماشاء واعتدى
فلست ببذع فى الكرام وهذه
سبيل ذوى الافضال والباس والندى^(٨٩)
ومن كانت له أخلاق ابن المقرب ، وهمته العالية ، وهدفه السامى وعاش فى مثل هذا المجتمع المضطرب القيم ، فعليه ان يتحلى بقدر كبير من المرونة ، والا فسيجد نفسه نبئا شاذا بل وغير مرغوب فيه . كما حدث لشاعرنا فقد كان يفتقر لحكمة المرونة مع مجتمعه أول أمره ، فلما رماه الدهر ، ونكب فى ماله ، وسجن ، ونفى ، أدرك الحقيقة المرة ، بأنه قد خلق لزمان غير هذا الزمان ، ومجتمع غير هذا المجتمع ، لذا عليه أن يتحمل ، وأن يدارى ، فالحلم مع ذوى الجهل خير من مناجزتهم :

فلما رمانى الدهر عن قوس نازع
وللدهر حالات تجور وتعدل
وأصبحت الحسنى تعد إساءة
على ويستصفى عدوى وأعزل
وماذاك عجز عن مكافاة خائن
ولكن حلمى عن ذوى الجهل أفضل^(٩٠)
وتطول مداراته لهؤلاء الجهلة
واللئام ، ويعد هذا سفاها منه ، لأنه أمر مخالف لما جبلت عليه نفسه :
وطالت مداراتى اللئام وانما
سفاه لمثلئ ان يكون المداريا^(٩١)
وأما مداراة العدو فمهانة ، الموت خير منها :

ألم تعلمى ان العتو نباهة
وان الرضا بالذل من شيمة الوغد

وان مداراة العدو مهانة
إذا لم يكن من سكرة الموت من بد^(٩٢)
ولم يفت ابن المقرب أن يتغنى
« بالوفاء » ، ويفتخره خلقا بزفيه
أقرانه :

سل الاخلاء عنى هل صحبتهم
يوما من الدهر إلا والوفاء معى
لقى مسيئهم بالبشر مبتسما
حتى كان لم يخن عهداً ولم يضع
وسلمهم هل وفى لى من ثقاتهم
حر ولم يشرف فى نقصى ولم يبيع^(٩٣)
وكان شديد الاعجاب بنفسه ،
معتدا بها ، لا ينساها حتى إذا مدح ،
حيث كانت تذوب ذوات الكثير من
شعرائنا ، ويرى أنه خير أبناء قومه ،
وفتاهم الاول ، شجاعة واقداما ،
وكرما ونفاذا فى رأى :

ستعلم هند أننى خير قومها
وأنى الفتى المرجو للحل والعقد
وأنى إذا ماحل خطب وردته
بعزيمة ذى جد واقدام ذى جد
وأن أياذى القوم أبسطها يدي
وان زناد الحى اثقبها زندي^(٩٤)
ومن القصيدة ذاتها يقول :

وأنى متى يدعى الى البأس والندى
فأحضرها نصرى وأجزلها وردى
وان كرام القوم لانهز العدى
ليوجعها عتبي ويؤلمها فقدى
ولعل هذا الاعجاب بالنفس
تعويض لما لقيه من ظلم ذويه ،
وإهمالهم له ، وانكارهم شأنه ، والا
فما الذى يدفعه لأن يقول :

فإن لم يكن لى ناصر من بنى أبى
فحزمنى وعزمنى يغنيانى عن الحشد

وإن يدرك العليا همام بقومه
فنفسى تناجينى بادراكها وحدى
وانى لبدر ريع بالنقص فاستوى
كمالا وبحر يعقب الجزر بالمد^(٩٥)
وأول ما يخطر بذهن قارئ هذه
الابيات ، روح أبى الطيب ، ونفسه
العظيمة ، ولم لا ففيه من أبى الطيب
شموسه وإبائه ، وعلوهمته ،
وسموأمله ، وكلاهما من أنصار القوة
فى الحياة ، ولم يكونا من أصحاب
الحظوظ السعيدة ، حاربتهما
المطالب ، وحاربهما المجتمع ، بل فى
كل دار ينزلها ابن المقرب عدو
يحاربه :

أفى كل دار لى عدو أصاوله
وخصم على طول الليالى أزاوله^(٩٦)
وقد كان أعجاب أبى الطيب
الشديد بنفسه ، واعتداده بها ، أحد
العوامل التى حالت دون تحقيق
ما كان يطمح اليه^(٩٧) ونستطيع أن
نقول مثل هذا عن ابن المقرب فى
اعجابه المتناهى بنفسه . والمجال هنا
لا يسمح بالمقارنة بين الشاعرين ،
ولكنه تداعى الخواطر ، « والشئ
بالشئ يذكر » .

وكما كان شديد الاعجاب بنفسه ،
فقد كان مزهوا بشاعريته ، ويرى أن
نظمه الغريب ييز شعر معاصريه ،
ويتردد على اللسان فى كل مكان ، وهو
مغبوط على مدائحه :

وغريب نظم فاق أشعار الورى
فيكم بساحة كل أرض ينشد
واليكها يابا على مدحة
من فضلها أنى عليها أحسد

جاءت نسيجة وحدها في عصرها
أذ أنت في هذه البرية أوحدها^(٩٨)
بل ربما دفعه هذا الإعجاب الى
نوع من الغرور، فيرى أن فحول
الشعر العربي - كالفرزدق،
والاعشيين، والحطيئة - أعجز من أن
ينافسوه فيما يرصعه من عقود
الجواهر :

اليك كمال الدين عقد جواهر
أضن بها عن سواك وأبخل
يقصر عن ترصيعها في عقودها
أخو دارم والاعشيان وجرول^(٩٩)
وقد يتجاوز هذا الحد، فيدفعه
إعجابه بشاعريته، الى التطرف
والإسراف في تقدير تفوقه، فيرى أى
نظم دون نظمه، وكأنه يأبى إلا أن
يكون أوحده عصره :

ودونك من تيار بحر اذا طمى
أراك بحار الأرض جمعا صلاصلا
وانفذتها في حكمة وبلاغة
كست حلة من بعد عهدك عاقلا^(١٠٠)
ولم يرض بهذا القدر من المبالغة،
بل يرى أن المعانى الطريفة كلها من
إبداعه :

لى النباهة طبع قد عرفت به
وكل معنى من الالفاظ مخترعى^(١٠١)
وليس في صنع ابن المقرب
ما يشينه، فهو كما يقول :

هل جاء قومي وأخذاني الذين هم
إن أرم من قبل الرامين لأقبل
بأننى لم أرد ورداً أعاب به
ولم أقف ذات يوم موقف الخجل^(١٠٢)
فعلى الرغم من شيوع الغزل
بالمذكر في عصره، وقبل عصره، إلا

أننا لا نجد له سوى ثلاثة أبيات^(١٠٣)
ضمن مقدمة خميرية قالها ببغداد عام
٦١٤هـ وربما أراد اظهار البراعة
والقدرة على النظم في هذا الباب،
الذي افتن فيه شعراء بنى العباس،
ومثل هذا شعر الخمرة في مطالع
قصائده، فهو مجرد تقليد لا أكثر .

أما قصيدته اللتان هجا فيهما ابن
الدبيثى، واللذان تزرخان ببذىء
اللفظ وفاحشه، بل حوتا من نابى
اللفظ ما ينفر منه السمع، وتشمنز
منه النفس، مما لا يليق بابن المقرب،
« فنحسب أنه قد نظمهما، وهو في
حالة انفعال حاد، وثورة نفسية
هائجة، ضد المهجو، لم يستطع
معهما تمالك أعصابه، ولا مسك زمام
نفسه، علاوة على أنه قد توفر في
المهجو من الاسباب، ولو في نظر
الشاعر على الأقل، ما يوجب مثل هذا
القول ».^(١٠٤) بالإضافة الى سوء
أحوال ابن المقرب، وضغط الحياة
عليه من كل صوب، حتى حين جرب
حظه في التجارة، واشترى بعض
الحديد بما ناله من عطايا العراقيين،
وانحدر به الى واسط قاصداً
الاحساء، طلب منه عامل واسط
مكسا عليه، خرج منه صفر اليدين،
فكانت تلك القشة التى قصمت ظهر
البعير، فانطلق في ثورته العنيفة، دون
أن يتمالك نفسه :

وما بين أيدينا من أخبار قليلة عن
الشاعر، لا تنفعنا في تصور ملامحه
وسماته، لإغفالها أوصافه، وشعره

وانكار مجتمعه له ، فالنحول صفة لازمة له ، أما الصفرة التى بدت على محيا شاعرنا عام ٦١٤هـ فلعلها أثر لهما الذي لا يزايه ، حتى وان بدا ساكنا :

إن ترى شخصى لأمر ساكنا
فلعمري ان قلبي في طراد^(١٠٩)
فهو هم مقلق ومقض لمضجعه :
قليل الكرى ماض على الهول مقدم
على الليل والبيداء والحر والبرد^(١١٠)
وربما كان اصفراره ناجما عن مرض مزمن قد أصابه ، وبدأت أعراضه تظهر عليه ، وأدى إلى وفاته في سن مبكرة ، فقد توفى وهو في السابعة والخمسين من عمره .

حياته ... (٤)

حين ظهر ابن المقرب كانت أوضاع الدولة العيونية أخذه في التردى ، وكانت الدولة العربية الكبرى من حولهم تزداد سوءا وبدأت عوامل الوهن والجمود تنخر في عظامها . وأخذت تتعرض لأخطار عديدة أهمها الغزو الصليبي لفلسطين والشام ومصر .

وكان العصر الذي ظهر فيه ابن المقرب من الناحية الحضارية ، يمثل بداية عهود الانحطاط للحضارة العربية ، فلقد ضعف الحكم العباسى ، وبدت على خلافتهم علامات الشيخوخة ، فتعرضت الدولة للتجزئة والتفكك ، وتوقف الابداع الفكرى

أيضا لم يسعفنا بشئ من ذلك اللهم الا اشارته في موضعين من ديوانه لنحوه ، والذي كان - كما يبدو - سمة ظاهرة ، ملفنة للنظر ، بل للتساؤل والتوهم :

يظن نحوى ذو السفاهة والغبا
غراما بهند واشتياقا الى دعد
ولم يدر أنى ماجد شف جسمه
لقاء هموم خيلها أبداً تردى^(١١٥)

وتتكرر هذه الاشارة ، وبالمعنى نفسه ، في قصيدة له يمدح فيها الخليفة الناصر لدين الله عام ٦١٤هـ ولكن صفة النحول هنا تصاحبها صفة « الاصفرار » :^(١١٦)

ظننت نحوى واصفرارى من الهوى
وذلك مما يقتضيه التوهم
ولا يترك ابن المقرب من يعنيه
أمر نحوله واصفراره ، يخطبون في وهمهم كما يشاءون ، بل يفصح لهم عن علة ذلك :

لعمر مابى من هوى غير اننى
بغر المعالى يا ابنة القوم مغرم
وقد عرضت من دون ذاك فأعرضت
أمر لها يستهلك اللحم والدم^(١١٧)
بل أمور وهموم ، مصت مخ العظم ، فوهن وهزل :

إذا قلت جلى بعض همى أتت له
نوائب امضى من حدود نصال
وقد مص مخ العظم حتى ازاله
وبدله من نيه بهزال^(١١٨)

ومن كان على شاكلة ابن المقرب من حدة طبعه ، ورهافة حسه ، وسمو هدفه ، وعانى مثله اضطهاد ذويه

« الاخطار المحدقة بوطنه وقومه ، وهو لا ينفك يكرر في ثنايا نقده مبادئ الحياة الصحيحة التي يجب أن يتبعها ، كل من يريد ازالة الظلم ، ومحاربة الفساد ، وطمس الزيف »^(١١٣) ولما لم يجد نقده نفعا ، أعلنها ثورة عارمة ، فقد كانت نفسه الكبيرة « تمنعه من الوقوع في شباك الزيف التي لفت بخيوطها حياة المجتمع ، والاستسلام لحياة التقليد والانحطاط ، والفساد التي كان يعيشها أبناء عمه وبقية قومه »^(١١٤) ولقد أثار هذا التفات الناس ودهشتهم وخاف أمراء الاسرة العيونية على ملكهم من هذا الشاعر الفارس ، ونقم عليه الحكام مواهبه .^(١١٥) فما كان من أمير الاحساء أبى ماجد محمد بن أبى المنصور على بن عبدالله بن علي بن عبدالله بن علي العيوني ، الا أن اضطهده ، واجتاح أمواله ، ولم يبق له شيئا منها ، متجاهلا حق القرابة والنسب ، ولم يكفه هذا بل ضيق عليه في السجن ، وبالع في أذاه .^(١١٦) وقد احتفظ لنا ديوانه بهذه المعاناة .

وذى اربة اهدى لي اللوم ناصحا
وذو اللب أحيانا يبيع الى العدل
يقول بتأنيب أنسيت ماجرى
عليك من الاغلال والسجن والكبل
واحرار ما أوتيته واكتسبته
على غير ذنب من فراخ ومن نخل
وتفريقه في كل شاو وخارب
وذات هن كالماء في ردع الوحل

وأصبح الفكر خاضعا للتقليد والمحاكاة . وتعرض المجتمع بدوره للفساد ، والتفسخ الخلقي ، ولم يبق من ظواهر الاصاله في الحضارة العربية ، غير نفوس أبيه حرة ، وفئات فكرية واعية ، تثورين وقت وآخر ، هنا وهناك في اجزاء الوطن العربي الكبير محاولة مقاومة الظلم والانحطاط والعودة الى حياة الخلق والابداع والطهارة . وكانت هذه الظواهر الفردية المنعزلة بمثابة مشاعل تضيء طريق الحياة العربية ، بعد ان طغت عليها عوامل الجمود والتخلف والزيف . وكان ابن المقرب من هذه الظواهر الفريدة فقد مثل في ذلك الوقت تمرد الاديب العربى في منطقة الخليج والجزيرة ضد الاوضاع السيئة . المتحجرة ، التي أخذت تفرض نفسها على حياة المجتمع العربي فتقتل فيه كل بذرة من بذور الخير والخصب والابداع والاصالة .^(١١٧)

فقد تهيأت لابن المقرب كل مقومات الشخصية الراضية الثائرة من حدة في المزاج ، ورهافة في الحس ، وعلو في الهممة ، وشجاعة في الرأى ، اليس هو القائل :

قد تساوى في مضاء صارمى
وسنانى ولسانى وفؤادى^(١١٨)
فأخذ على عاتقه مهمة تصحيح
ما فسد من أوضاع مجتمعه ، فوقف منه أول الامر موقف الناقد الناصح الشفيق ، صريحا فيما ينتقد ، مبينا

وسلب الحسان المكرمات تهالونا
بهن ودمع الاعين النجل كالويل
وماكان من اخراجهن صوارخا
من الضيم من بعد القصارة والشكل
وسكنى البوادی دارهن وانها
لدار امرىء لا بالحصور
ولا الخطل^(١١٧)

ولم يكن هذا لأمر جنته يداه ،
وانما وشى به حساد بيته ، حرصا
منهم على اطفاء صيته :

وصاحبت اقواما الا ليت أننى
تبدلت زنجبا منهم وصقالبا
ظننتهم ظلا ظليلا وجنة
فكانوا سموما يوم صيف وحاصبا
سعوا في دمی بالجهد حتى كاننى
من الروم قد أعلمت جيشا محاربا
ولم يكفهم قيد ثقيل وخشبة
برجلى في دهاء تنسى المصائب^(١١٨)
وظلم القوى للقوى أمر بالغ الألم ،
وظلم القريب للقريب أشد وأقسى :

بلى أن ضيم الاقربين وجدته
أشد على الاحشاء حرا ولاهبا^(١١٩)
ويخرج ابن المقرب من سجنه
شعلة من الثورة ، ضد الأوضاع
الفاسدة ، فحاربوه ، وأوصدوا في
وجهه كل سبل العيش الشريف ،
واصطلح على حربه العدو ، والصديق
والقريب فاستحالت حياته شقاء
وعذابا :

إذا كنت اخشاكم واخشى عدوكم
فإن حياتى شقوة وغرام^(١٢٠)
واضطر ازاء هذا للهجرة عن
وطنه ، ميمما شطر العراق ، بل قل
نفى نفسه اختياريا الى هناك :

لا تحسبوا بغضى الاوطان من ملل
لا بد للود والبغضاء من سبب
قل وذل وخذلان وضيم عدى
مقام مثلى على هذا من العجب
مالى وجسمى وسمعى منهم وفمى
وناظرى عد ومحل الفكر في تعب^(١٢١)
فليس لمثله أن يبقى على حال
كهذه ، بأرض يدبرها امراء سوء ،
وبين قوم الشر ، والوقية ديدنهم ،
ويعلن عن عزمه للارتحال عنهم ،
ولقطع كل صلة بهم حتى المعاد :

سارحل لامستوحشا لفرانكم
ولا أسفا يوماً ولا متندما
فإن حن قلبى نحوكم أو شكا جوى
فصادف من زرق الاسنة لهزما
وان دمعت عيناي شوقاً اليكم
فعوضتها من ذلك الدمع بالعمى
وان عارض الركبان يسأل عنكم
لسانى فوافيت القيامة أبكما
ولا جمعتنا آخر الدهر نية

الى أن يضم البعث عاداً وجرحهما^(١٢٢)
وهكذا تمضى الحياة بشاعرنا بين
حل وارتحال دائمين ، بين الاحساء
وسائر مدن البحرين ، وبين الاحساء
والعراق ، ويجوب العراق من بصرته
الفيحاء الى موصله الحدياء ، وفي كل
مرة يعود فيها الى وطنه ، يؤمل ان
يجد الصورة قد تغيرت ، ولكن سرعان
ما يكتشف أن الاحوال تزداد سوءا ،
وأن موقفهم منه لم يطرأ عليه جديد :
أيجمل أن أجفى وأنفى وعندكم
لمن ليس مثلى عيشه ومقام ؟
وتقطع ارحامى وتلغى مودتى
ويقعد بى ما بينكم ويقام^(١٢٣)

فيلوم نفسه على أوهامها ،
وجريها ، وراء سراب خادع ، ويعجب
لنفسه أن ترضى المقام في مثل هذا
المجتمع ، وعلى مثل هذا الحال :

أقيما على حز المدى أو ترحلا
فلست براض منزل الهون منزلا
فقد سئمت نفسى المقام وشاقنى
ركوب الفيافي مجهلا ثم مجهلا
وكيف مقامى بين أوباش قرية
أرى الرأس فيها من بها كان
اسفلا(١٢٤)

وهكذا تصبح الإقامة على مثل هذه
الحال ضربا من الخطل والجهل :
سقى ولو ذهب السرى بسراتها
كم ذاترد النفس عن عزماتها
طال امتراؤك خلف كل رذيلة
اكدى لدى الإساس من ثفنائها
أو ليس جهلا أن تسيم بمرتع
أكلت به المعزى لحوم رعاتها(١٢٥)
ويفصح الشاعر غير مرة عن
مصدر المله ، وبكل الصدق يصور
معاناة النفس الكبيرة ، وهو انكى
عليها من ضيق ذات اليد ، ووفرة في
العدى ، وجهل من يسوسها ،
ولا معين لها من أحد :

فاذا رمت نهوضا قعدت
بى أمور أنا منها في جهاد
قلة المال وكثر في العدى
وابن عم رأيه غير السداد
لامعين لى من قومى ولا
جدتى تحمل جدى واجتهادى(١٢٦)
وقبل أن نتابع الشاعر في رحلاته
الى العراق ، لا بد من أن نسأل ، لماذا
اختار العراق دون غيرها ؟ والاجابة

على هذا السؤال ميسورة ، اذا
ما علمنا ما بين العراق ومنطقة
الخليج العربي من وشائج متينة
موغلة في القدم ، والعراق اقرب
الامصار العربية لتلك المنطقة ، واذا
ما أخذنا في أذهاننا أن الخلافة
العباسية كانت ما تزال تتمتع
بزعامتها الدينية ، وبشيء من مكانتها
السياسية وكانت الدولة العيونية تدين
لها بالولاء ، كما ذكرنا آنفا .

أما مدن العراق ، كبغداد ،
والموصل ، والبصرة ، فكانت -
آنذاك - محط أنظار الشعراء والعلماء
واليها تشد رحالهم . هذا الى جانب أن
منطقة الجزيرة والموصل ، كانت تابعة
للدولة الأيوبية آنذاك ، مما يغني عن
الارتحال الى الشام أو مصر .

والغريب أن العراق لم ترد ضمن
الاسماء المرشحة للرحلة عنده ، حين
أفضى بها لمدوحه ، الامير الفضل بن
محمد بن أبى الحسين العيونى ،
فقال له :

فلا تحملنى والمنادىح جمة
على مورد يستعذب الموت ناهله
أريتك ان أضرتنى وجفوتنى
وذا الدهر قد أربى وبان تحامله
وجازت قرى البحرين عيسى وأصبحت
عمانية واستبهرتها سواحله
وأصبح فى الحى اليمانى رحلها
وحفت به أقياله ومقاله(١٢٧)
أو استقبلت ارض الحجاز فيممت
بنى حسن(١٢٨) والفضل باد شواكله
أو انتجعت آل المهنا ففهم(١٢٩)
حمى آمن لا يهرب الدهر نازله

أو اعتمدت القوم الذين احلهم
نرى كل مجد جعفر (١٣٠)
وفواضله (١٣١)

وهناك اشارة أخرى ، في قصيدة
له ، يمدح فيها الأمير عماد الدين
محمد بن مسعود بن أبي الحسين
العيوني : (١٣٢)

فلم يبق الا أن تزعم ركائبى
ويصبح كيد بيننا ومنام
فخير من الاحساء ان دام عتبكم
أشئ (١٣٣) ووادى منهم (١٣٤)
ونعام (١٣٥)

ويفهم من هذا أن ابن المقرب قد
خطرت بباله كل من اليمن ، واليمامة ،
وبلاد الشام والمدينة ، ومكة ،
وعمان . ويبدو أنه قد استعرضها ،
وقدر موقفه منها جيدا ، ووجد أنها
لا تليق به ، وسيكون وضعه فيها
محرجا له ، فهو ابن بيت الامارة
العيونية ، التى دانت لها أرض
البحرين ، من البصرة الى عمان .

وقد أبان عما دار بنفسه ، وهو
يستعرض هذه الاسماء المرشحة ،
وعن موقفه اذا ما ألقى عصا الترحال
على أرضها فيقول مخاطبا الامير عماد
الدين الفضل بن محمد بن أبي
الحسين :

فقل لى عماد الدين ماذا أقوله
وكل امرئ قدامه من يسأله
اذا قيل لى من أين أقبلت وارتمت
بك العيس او من كنت قدما تواصله
ومن رهطك الادنى الذي لك فخره
ونابه قدر لا يساويه خامله

هناك يكون الصدق نقصا عليكم
ولا يتحرى الكذب الا أراذله (١٣٦)
وربما كان اخفاؤه العزم على
الرحلة الى بغداد ، ورحلته الى الخليفة
الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ)
ينم في ظننا عن هدف سياسي ، فلعله
كان يبغي تأييدا ومدا من رجالات
العراق . وعلى رأسهم الخليفة الناصر
ليستخلص الحكم لنفسه ، بعد أن
فقدت الخلافة بمقتل الامير محمد بن
أبي الحسين العيوني شخصية قوية
ساهمت في الضرب على أيدي العصاة
والعابثين بالامن ، وقامت بتأمين
قوافل الحجاج ، فسارت من عمان الى
حلب ، ومن بغداد الى مكة دون حاجة
الى خفارة .

ثم يقع اختياره على العراق ، ويزم
ركائبه ميمما شطرها ، ويحدو عيسه
اليها ومنها ، ولم يتحول عنها الى
سواها حتى آخر العمر . وبهذا يكون
قد قدر فأحسن التقدير ، وأجاد
الاختيار ، فليس في التوجه الى العراق
ما يشينه ، أو يخرجه ، فهي موئل
الشعراء ، وطالبي العلم ، وقصاد
الثراء ولا يحط من قدره أن يمدح
خليفة المسلمين ، ويجأ بالشكوى
اليه من أبناء عمومته وما فعلوه به :
فها أنا قد القيت رحلى عائداً
بنعمك من أيدي الزمان الغواشم
وقد كنت ذا مال حلال وثروة
يضاعف اكرامى وترجى مكارمى
فاعرانى الوالى المشوم وفاتنى
بما حزته من ضيعة ودراهم

فمال على حالى ومالى وثروتى
مالى وأصغى لاختلاق النمائ
وبت عزائى السجن فى مدلهمة
تجاوبنى فيها ثقال الاداهم
وأخرجنى من بعد يأس وقد أتى
على تشبى أشكو الى غير راحم^(١٣٧)
ولنستمع الى مناجاة نفسه ، التى
سبقت قراره الاخير :

فناجيت نفسى خاليا حيث لم أجد
من القصد بدأ واستشرت عزائى
وملت الى بعض الملوك فاجهشت
إلى وجاشت فوق ملء الحيازم
فمسكتها بالشدد منى برحلة
الك فابتدت ثغر جذلان باسم^(١٣٨)

ولكن مادواعى اضطهاده ؟ وهل
كان طامعا فى الحكم ، متطلعا اليه ؟
حين نستعرض النزر القليل مما كتبه
الباحثون المعاصرون عن حياة ابن
المقرب ، نجد أن بعضهم^(١٣٩) اكتفى
بالإشارة الى اضطهاد قومه له ،
لا نتقاده أفعالهم ، واشتداده فى
عزلهم ، والبعض الآخر^(١٤٠) رأى
أن ما حل به ، إنما هو رد فعل لميله
« لآل الفضل » دون غيرهم من فروع
أسرته ولم يكن صاحب قضية
سياسية ، ولكن العامل فى كتابه
« أعيان الشيعة »^(١٤١) يرى أنه كان
متطلعا الى الحكم ، ولم يتجاوز هذا الى
ذكر الادلة . أما الدكتور شوقى ضيف
فيظن ظنا « أن ذلك لم ينزل به لندبه
الامير محمدا ولز قاتليه ومن خلفوه ،
بل أيضا لأنه فكر فى أن يستخلص
الامر لنفسه »^(١٤٢) .

ولم يبق أمامنا سوى ديوان
الشاعر حكما وفيصلا فى هذه
القضية ، فديوانه زاخر بشعر الثورة
والرفض ، والنقد العنيف ، وهذا
لملح بارز فى شعره ، مما حدا بباحث
معاصر^(١٤٣) ان يطلق عليه « الشاعر
الثائر » ولكننا لانكاد نجد فى شعره -
على وفرته - ما يؤمىء الى طمع فى
الحكم ، او تطلع اليه ، الا بيتين من
قصيدة له نظمها فى أخريات أيام
دولتهم - فى زمن الامير أبى القاسم
مسعود بن محمد - ولهما دلالة
كبيرة ، اذ يقول :

فقوموا بعزم واجعلونى مقدما
فأى حسام لم ترصع حمائله^(١٤٤)
ومن القصيدة ذاتها يقول :

سأضى على الايام عزمى وان أبت
لاظفر منها بالذي أنا أمله
ففى البيت الاول إشارة صريحة
الى نوايا ابن المقرب ، وما يخفيه وراء
نقده العنيف ، ونصحه المتواصل ،
ودعوته الى الثورة على مافسد من
أوضاع ، فيرى نفسه الرجل المناسب
لقيادتهم فى هذا الطرف العصيب ،
وكأن ابن المقرب - قبل اليوم - كان
يهيئ النفوس للثورة ، وهو يفتح أعين
القوم على مناحى الفساد من حولهم ،
والاخطار المحدقة بهم . ولكن لماذا
لا نجد عنده مثل هذا التصريح او
التلميح من قبل ؟ لعل هية الحكام
وقوة نفوذهم - آنذاك - قد حالت دون
ذلك ، أما اليوم فهو زمن حكام
ضعاف ، فقدوا هية السلطة ولم يعد

لهم نفوذ يذكر على رعيّتهم .

كما أن البيت الثاني تأكيد لما
جهر به في البيت السابق ، فما الذي
يتمناه ويبيغى الظفر به من هذه الدنيا
أيا كانت العقبات ، غير الوصول الى
منصب الامارة ؟ وبهذا نستطيع أن
نفهم ما يعنيه بالحق المضيع في قوله :
سأطلب حق آبائي وحقى
ولو من بين أنياب الأفاعى^(١٤٥)

والآن أصبح من اليسير علينا
تفسير حبه لآل الفضل ، وسكوّتهم ،
ورضاهم لما أصابه من أبناء عمهم
« آل على » ، وكيف سمحوا ان يذهب
ضحية ميله اليهم ، وهم قادرون على
مكافأته ، وانصافه ، والحد من
جبروت الآخرين ، عليه ، وسبق ان
أشرنا الى اعجاب الشاعر بابن عمه
الامير محمد بن أبى الحسين ، فقد
مدحه بعدد من القصائد ، سجل فيها
مآثره وبطولاته ، ويبدو أن هذا
الاعجاب بآل الفضل ، والانحياز
اليهم ، عاد عليه بالنقمة والعداوة من
سائر فروع البيت العيونى ، وجرح
بسببه الصاب والعلقم ، فقال مخاطبا
الامير الفضل بن محمد بن أبى
الحسين :

ولا قيت من جرائم ما علمته
وهل أحد من سائر الناس جاهله
وكم مبغض لى فى هواكم وشانىء
على بنار الحقد تغلى مراحله^(١٤٦)
وفى مدحه أخرى يذكر الامير
نفسه :

ولا تنسين مانالنى فى هواكم
وقد ظفر الساعى وقل المساعد^(١٤٧)
ويتكرر مثل هذا المعنى فى مدح غير
هذا الامير ، كالامير أبى على محمد
بن محمد بن الفضل :

وكم غصص جرعتها فى هواكم
ولم أصغ سمعا للذى جاء عاذلا
وفارقت أهلى غير قال وأسرتى
وولدى وخلان الصبا والمنازلا^(١٤٨)
وفى موضع آخر ، يفصح أكثر عن
هذا الحب ، والانتماء لآل الفضل ،
على الرغم مما ناله بسببهم ، فما زالوا
بالنسبة اليه أملا يتعلق بأهدابه :

وانى لمنكم سؤتم او سررتم
الى أن يوارينى ثرى ورجام
أليس أبى فى الانتساب أباكم
على أننى عبد لكم وغلام
أما اجتبح مالى فى هواكم وأسهرت
بذا السجن عينى والعيون نيام
وانكم درعى وسيقى وساعدى
وترسى اذا ضم الكمأة زحام
ومن أجل قرباكم حسدت وسددت
الى نصال للعدى وسهام
فبوركتم يا آل فضل فانكم
ضياء وبعض المالكين ظلام^(١٤٩)
وفى الحقيقة لم يكن ابن المقرب على
وفاق تام مع « آل الفضل » ، والا لما
ألح على تذكيرهم بحبه لهم ، وما ناله
من ميله اليهم :

ولولا هواكم ما شقيت ولا غدا
يصك برجلى القيد من لا أشاغبه
ولا اجتاحت الاعداء مالى ولا انبرى
يطاولنى من ليس تحصى معائبه^(١٥٠)
ولكن « آل الفضل » وان لم

يجاهروه العداء فانهم لم يدافعوا عنه
بازاء عداوة أبناء عمه الآخرين التي
ساموه فيها ألوان الظلم ، ولنستمع
اليه مادحا ومعاتبا الأمير أبا علي ابن
مسعود من آل الفضل :

يا آل فضل أمات الله حاسدكم
بغيفظه وكفاكم زلة القدم
كم يمزغ الدهر فيما بين أظهركم
لحمي ويشرب شرب الهيم فضل دمي
أفي المروءة أن أظلمى وحوضكم
للكلب والسذنب والجردان والبهيم
ويصطفى من أبوه كان عبد أبي
دونى وتقطع فيما بينكم رحمى^(١٥١)

ونستطيع الآن القول بأن
الفضلين كانوا على بينة بما يدور في
خلد ابن المقرب ، ولكن ميله اليهم ،
واخلاصه لهم - ولو في الظاهر - حال
دون بطشهم به ، ورضوا أن يكون هذا
بيد غيرهم من العيونيين ، « وان كانت
مدائحهم للفضلين قد ساهمت أيضا في
زيادة التوتر فيما بينه وبين بنى عمه
الآخرين »^(١٥٢) وعلى ضوء هذا الفهم
لنوايا ابن المقرب ، وتطلعه الى
الحكم ، يمكننا ان نفهم عنفه في نقده
لحكام أسرته ، كما يمكننا ان نقف على
دواعي رحلته الى العراق ، وعودته الى
الاحساء بين الحين والآخر ، ولنقرأ
الآبيات التي قالها قبيل رحيله الى
العراق ، لنقف منها على ما كان يساور
نفسه من ثورة لم يكن في مقدوره
الجهربها في موطنه :

عدمت يميني ان اقمتم على القلي
نعم ويليها عن قريب شماليا

وفض فمي أن لم أسير غرائبها
تمزق احسابا وتبدى مساويا
يشق على القوم اللثام سماعها
ويظهر منها بعض ما كان خافيا
فإن عقلت قومي لسانى بأرضها
فليس بمعقول اذا كنت نائيا
سأرسل منها بالدواهي شواردا
تنبه ذا عقل وتفهم واعيا
ولو أن قومي انصفوني لأطلقوا
يدى ولسانى فيهم والقوافيا^(١٥٣)
اذا فنقده لحكام الاسرة العيونية
ليس الا تعرية لمساوئهم ، وتآليا
للرعية عليهم ، واعدادا للثورة
ضدهم . ومثل هذه الشخصية
النابهة - وفي أى مجتمع - يكثر
حسادها ، وفي مثل تلك الظروف
المضطربة ، يكثر سعاة الشر
والوقية ، حتى أصبح البيت العيونى
كله ساخطا عليه ، وامتد هذا السخط
بالتالى لمجتمعه . ارضاء للحكام ،
فتجافى عنه محبوه ، وربما عادوه :

فليت أخلائى الذين ادخرتهم
جلاء لهما لاهمى لا على ولا ليا
وأعجب ما يأتى به الدهر أننى
أرى القوم ترمينى بأيدى رجاليا^(١٥٤)
ولكن متى بدأت تلك الخصومة بين
الشاعر وأسرته ، والتي ترتب عليها
رحيله الى العراق ؟ هناك اشارة لها
دلالتها ، جاءت في مقدمة قصيدة
له^(١٥٥) يمدح فيها الأمير محمد بن
أبى الحسين العيونى سنة ٦٠٢ هـ ،
مفادها أن النيات قد فسدت على
الشاعر مبكرا ، وأن البعض قد
استطاع تشكيك ممدوحه في قدرته

قد مقتته وسخطت عليه ، بعد المعاهدة التي أبرمت مع حاكم جزيرة قيس ، وأن رحلته الأولى الى العراق كانت ما بين عام ٦٠٢هـ و٦٠٦هـ والمرجح انها كانت عام ٦٠٤هـ ، كما جاء في صدر لاميته التي مطلعها :

سمالك من ام العبيد خيال
ودون لقهاها أجرع وسيال^(١٥٨)
وأنة قد امتدح بها شمس الدين
باتكين عند انحداره من مدينة السلام
عام ٦٠٤هـ . وقد ذكر شارح نسخة
لندن (تسلسل ٧٢٨٨) ان قصيدته
التي مطلعها :

ظننت حسودي حين غالت غوائله
يريع الى البقيا وتطوى حباله^(١٥٩)
قد نظمها في مدح الامير الفضل بن
محمد بن أبي الحسين ، بعد سفره
الأول الى العراق ، ووروده على الامير
أبي ماجد محمد بن علي بن عبدالله
بن علي ومدحه له سنة ٦٠٥هـ ببيائته
التي يستعطفه فيها برد بعض
ما أغتصب منه ، ومطلعها :

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركب
لنسال ذاك الحي ما صنع السرب^(١٦٠)
وهذا ما يجعلنا نظمئن إلى التاريخ
الذي رجحناه ، لأولى رحلاته
العراقية .

لم يسجل لنا كاتب مقدمة ديوانه
سوى رحلات ثلاث للشاعر ، ولكن
باحثا معاصراً^(١٦١) استطاع ان
يستردك رحلتين أخريين له ، فقد
استهل رحلاته الخمس الى العراق ،

على نظم الشعر ، فأوعزوا اليه أن
يطلب منه ارتجال قصيدة بداهة ،
فاستجاب ابن المقرب لطلبه ، وقد
أهمه هذا الاقتراح .

ثم ينجح المتأمرون على الدولة
والامير من قتله غيلة ، ويتسنى ابنه
الفضل بن محمد سدة الحكم ، فيأتيه
ابن المقرب راثيا مادحا ، ومن هذه
المرثية قوله :

ولا بد لن من وقفة قبل رحلة
أذيل بها دمعى فينهل وابله
على جدث أضحى به المجد ثاويا
بحيث يرى شط المزار مقابله^(١٥٦)

وفي سنة ٦٠٦هـ وقع صلح بين
الامير الفضل بن محمد ، وبين ملك
جزيرة قيس غياث الدين شاه ، وفي
هذه المعاهدة تنازلات عيونية كبيرة ،
ولس منها ابن المقرب في هذه الآونة
بأن الضعف قد بدأ يدب في كيان
الدولة ، وهذا الضعف لا يتواءم مع
نفس ابن المقرب ، فأخذ ينظم
القصائد الحماسية ، منددا بسياسة
الهنون واللين ، حتى مقتته الاسرة
المالكة .^(١٥٧)

ونستطيع الآن القول بأن خيوط
المؤامرة ، قد بدأت تحاك ضده ، في
اخريات عهد الأمير ابن ابي
الحسين ، وأن بداية اصطدامه
بأسرته كان في عهد امير الاحساء أبي
ماجد محمد بن أبي المنصور على
بن عبدالله بن علي بن عبدالله ابن
علي العيوني ، الذي نكبه واجتاح
ماله ، وسجنه ، وأن الأسرة العيونية

بتلك الرحلة التي ذكرنا عام ٦٠٤هـ ، حيث ودع الشاعر بلده ، وترك فيها الاحباء من أهله وولده ، وفصد العراق بطريق البحر ، وحل في البصرة . وهناك يجد الفتى الأبي الخارج من ظلام السجن ، وثقل القيد ، المصاب بمصادرة ماله ، وتشريد عياله ، ما ترتاح له نفسه ويبتهج به قلبه . وتستقبله في البصرة الفيحاء بواكير الخير وطلائع الأمل ، ويبتسم له الزمان بعد عيوس ، ويسيطر عليه أمير البصرة ظلاً (١٦٢) من رعاية ، ويمد اليه يداً من اعزاز ، وينطق الشاعر بقصائد عديدة - سيأتي الحديث عنها - من عامر الشعر ، يمدح بها هذا الأمير ، أو يكتب بها اليه . (١٦٣) واستهلها بلامية مطلعها :

ما شئتُما يا صاحبي فقولاً
هيهات لن نجداً لدى قبولا (١٦٤)

ثم يمضى الشاعر قاصداً بغداد ، وتلقاه بغداد ، مثلما لقيته البصرة ، بالاعزاز والمودة ويمدح في هذه الرحلة والرحلات التي تلتها الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) بثلاث قصائد ، كان أولها حائية مطلعها :

أرتها المأقى ما تكن الجوانح
فبح فالمنى بالصباية بائح (١٦٥)
وأشار في هذه القصيدة لدوافع الرحلة الى بغداد ، من ذكر طيب لأمير المؤمنين ، ومن رغبة تفريغ همه ، وتحقيق رجائه :

فلولا أمير المؤمنين وذكره
لما قطعت بى البید هوج مشانح
هو البحر والناس الذين ترونهم
سواق طمت من فيضه وهو طافح (١٦٦)
ومن القصيدة ذاتها يقول :

الیک رمت بى عزمة لم أجد لها
سواک وهم لم تسعه الجوانح
ومن كنت يا ابن المستضى ماله
رجاه وحاشاه محب وكاشح
ولم یکن ابن المقرب فى علاقته
بالخليفة شاعرا فحسب ، بل كان
أيضاً سفيرا سياسيا ، أوفده سنة ٦٠٦هـ الامير الفضل بن محمد بن أبى الحسين العيوني من البحرين الى بغداد ، ليلقى الخليفة ، ويطلب منه مدداً من المال ، يستعين به في حرب له بالقطيف ، وقد لبى الخليفة الطلب ، وانحدر ابن المقرب بالمال الى القطيف .

وفى قصيدة له رثى فيها ابن عمه
مذكور بن عبدالله بن منصور
مطلعها :

اظنک خلّت الشوق والنای أبکانی
فأقبلت نحوی یابس الدمع
تلحانی (١٦٧)

أشارة الى هذه السفارة السياسية ، والى « الركب العراقى » الذي رحل من بغداد ، ووصل الى « الخط » و « فرقان » البحرين ، (١٦٨) وكانت هذه رحلته الثانية الى العراق .

تم نجد الشاعر فى الاحساء بعد هذه الرحلة بعدة سنوات ، يلقي أميرها أباً ماجد محمد بن على (١٦٩)

مؤملا زوال الشحناء فينظم فيه
قصيدة بائية مطلعها :
خذوا عن يمين المنحني أيها الركب
لنسأل ذاك الحي ما صنع السرب^(١٧٠)

ثم يستخبره وعده بكافيته التي
مطلعها :

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع
السوافك^(١٧١)

ولكنه لم يحظ منه بشيء ، فقد أوجر
عداته صدر أميرهم عليه ، فخاف على
نفسه ، وخرج الى القطيف ، يرجو
خيرا عند واليها الأمير فضل بن محمد
الذي استطاع بمساعدة الخليفة
الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ)
وما أمده به من الجند والسلاح ان
يستولى على القطيف وأن يفتك بغرير
وقتله أبيه ، فأخذ ابن المقرب يذبح فيه
مدائح كثيرة ، مثنيا فيها على أبيه
مترجما ، غير أنه لم يحظ منه بطائل ،
الا قليلا ومقدارا حقيرا .^(١٧٢)

وزادت القطيعة بين الشاعر
والفضل وغيره من أبناء عمومته حين
وقع صلحا مع أمير جزيرة قيس
(كيش) عام ٦٠٦هـ تنازل له فيها
عن بعض جزر البحرين ، وبعض
مقاسيمها ، وفرض على نفسه إتاوة له
سنوية : خمسمائة دينار مما جعل
الناس في القطيف والاحساء يسخطون
عليه سخطا شديدا^(١٧٣) وينجح
الامير علي بن ماجد بن محمد بن أبي
الحسين في الثورة على عمه الفضل بن

محمد ، ويفرح به الشاعر وأهل
البحرين ، فيمتدحه ببائيته :
صدت فجذت حبل وصلك زينب
تيها وأعجبها الشباب المعجب^(١٧٤)

غير أن فرحتهم لم تدم طويلا ، إذ
ثار عليه مقدم بن غرير بن الحسين بن
شكر بن علي بن عبدالله بن علي
العيوني بمساعدة ابن أبي جروان
أحد رؤساء قبيلة عبد القيس . ولم
يكن مقدم على دراية بشئون الامارة ،
فضعفت أداة الحكم ، وعاث فيها
المفسدون ،^(١٧٥) ويتجه ابن المقرب
الى ابن أبي جروان باللوم العنيف ان
يكون أداة من أدوات الخراب في
الامارة العيونية . ثم يأخذ في
استعطافه ، حتى يكف عن ظلم
الناس ، إذ كان مقدم بن غرير لعبة في
يده^(١٧٦) وتظلم الدنيا في عين ابن
المقرب ، فيخرج من البلاد الى العراق
في ثالث رحلاته اليها قاصدا بغداد ،
ولا تذكر لنا المصادر تاريخ هذه
الرحلة ولكننا نستنتج مما هو مؤرخ
من قصائد الديوان أنها كانت في
سنتي ٦١٣ ، ٦١٤هـ ، فقد جاء في
صدر مطولته «الميمية» التي يفخر
فيها بأبائه وأهل بيته ومطلعها :

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارم النجاج بها فالخطب قد فقما^(١٧٧)

أنه قد نظمها ببغداد عام ٦١٣هـ .
وامتدح عام ٦١٤هـ الخليفة العباسي
الناصر لدين الله بميمية استهلها
بقوله :

نهض هو واخوته وجنوده الى لقاء
الافرنج في دمياط سنة
٦١٦هـ (١٨٢).

وكان قد أعد له مدحة مطلعها :
أبر شهودي أننى لك عاشق
سهادى وسقى والدموع الدوافق

وفيها وصف لما عاناه الشاعر في
رحلته اليه من مصاعب ، وما
استغرقة قطع الطريق من وقت :
شهور تباع سبعة وثلاثة

أرافق لا ألوي بها وأفارق (١٨٣)
ويقول أنه كان يسير مجداً أربع
ليال ، ولكنه كان يتوقف عن السفر
ثماني ليال بسبب الحمى والخوف :
أسير مجداً أربعاً ويعوقني

ثمان من الحماء والخوف عائق
وقد وصل الشاعر الى الموصل في
سنة ٦١٧هـ (١٨٤) فامتدح واليها
بدر الدين لؤلؤ ، فأجازه ، وخصه
بفنون التقدير والاكرام ، ورجع عنه
شاكرًا . (١٨٥)

ويذكر لنا ابن الشعار الموصل في
كتابه (قلائد الجمان في شعراء
الزمان) أن الشاعر كان في بغداد سنة
٦٢٣هـ ، قال : «شاهدته بمدينة
السلام سنة ثلاث وعشرين وستمئة ،
وأنشدني الكثير من قوله ، ومعظم
شعره يحفظه ويردده» .. (١٨٦) ويؤيد
ماذكره ابن الشعار أن لابن المقرب
قصيدة مطلعها :

اليوم سر العلا واستبشر الأدب
وأحمدت سيرها المهرية النجب (١٨٧)

أمارات سر الحب مالا يكتف
وأبين شيء مايجن المتيم (١٧٨)
ويبدو أن ابن أبي جروان قد نزل
على رغبة ابن المقرب بخاصة وأهل
البحرين بعامة ، فنحى الأمير مقدم
بن غرير وولى الأمير محمد بن ماجد
أخا الأمير على بن ماجد ، غير أن
الأمير عماد الدين أبا على محمد بن
مسعود بن أبي الحسين أحمد بن أبي
سنان محمد بن الفضل بن عبدالله بن
على العيوني (١٧٩) قد قام بقتله ،
ونصب نفسه أميراً على البحرين ،
ويعود ابن المقرب الى موطنه في زمن
هذا الأمير (١٨٠) ، فيمتدحه
بقصيدتين : دالية وميمية ، كما
امتدح ابنه مسعوداً بقصيدتين :
لامية وميمية . ويتولى إمارة البلاد
أخوه الفضل على بن مسعود فيمتدحه
بلامية يشيد فيها بحكمه وحسن
تدبيره ولكنه يلوح له بالاغتراب
والهجرة عن الوطن لأن أسرة
(مسعود) لم تكن تسبغ عليه مودتها
وعطاءها ، فيقول :

ولى عن مكان الذل منأى ومرحل
وذا الناس في الدنيا غريب وأهل (١٨١)
ثم يخرج قاصداً العراق في عزمه
المسير الى الموصل وديار بكر بغية لقاء
الملك الأشرف بن العادل ، وكانت هذه
رابع رحلات ابن المقرب الى العراق .
وبعد رحلة شاقة يصل ابن
المقرب ، مع همومه وطموحه وآماله الى
الموصل ، ولم يتيسر له لقاء الملك
الأشرف (ت ٦٣٥هـ) ، لأنه كان قد

الى العراق ، ولم لا وقد قرت فيها عينه ، بعيدا عن الحسدة والحاقدين . كما وجد فيها ما افتقر اليه في موطنه ، مما سهل عليه فراقهم ، غير نادم لفقدهم :

لقد نأيت فلم أسف لفقدكم
ولا تداخلني من نايمكم ضجر
والله ما طال ليلى وحشة لكم
ولا عراني من وجد بكم سهر
وانني لقرير العين مذ شحطت
بي النوى عنكم واخروط السفر^(١٩١)

حياته .. (٥)

هل يعني رحيل ابن المقرب بعيداً عن موطنه الاحساء ، أنه قد تخلى عن القضية التي ناضل دونها ، وسجن وشرذ في سبيلها ؟

ليس من شك أنه «في البداية كان يشغله واقعه الذاتي ، وما لقيه من ظلم أقربائه وبنى عمه الذين عاملوه - كما عومل طرفة بن العبد من قبله - ولكنه عندما نضج وتأمل في واقع بلاده ، رأى أن المصيبة شاملة ، والظلم منتشر في كل مكان ، فنسى مشكلته الذاتية ، وأخذ يبكي مشكلة اخوته جميعا وشعبه وموطنه^(١٩٢) .

كنت قبل اليوم أبكي بشجي
هم نفسي وطريفي وتلاذي
ثم قد أصبحت أبكي ناسياً
شجو اخواني ورهطي وبلادي^(١٩٣)
وقد صاحبت هذه النغمات الحزينة في أخريات حياته ، وهو يرى أموالهم نهبا للدخلاء فبعد أن كان يشكو الفقر

وفي هذه القصيدة مايدل على أنها قيلت في مدح الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ) الذي ولى الخلافة عام ٦٢٣هـ بعد الخليفة العباسي الظاهر (٦٢٢هـ) وهي السنة التي ذكر ابن الشعار أنه رأى فيها ابن المقرب ببغداد ، وفي هذه القصيدة ما يشير الى أن الشاعر قد قصد بغداد من البحرين في رحلته الخامسة ليلقي الخليفة الجديد ، وليشكو اليه الولاة الذين أودوا بثروته ، وليستعين به على أستردادها^(١٨٨) وربما ليكسب تأييده في استخلاص الحكم لنفسه .

وهكذا تمضى به الأيام بين حل وترحال ، فلا يكاد يستقر به المقام ، حتى يزم ركابه ميمما شطر مدينة جديدة ، والملاحظ أن «الزوراء قد رحبت به ، والحدباء استقبلته بحرارة ، فأرفدوه مالا ، واحترموه مقاما ، وعاد لوطنه مقدراً ، غير أن الحساد والخصوم في بلاده لم يفسحوا له مجالا :^(١٨٩)

ماعذر حر في المقام ببلدة
أسادها ضرب من المعزاء
وبجانب الزوراء لي مستوطن
ان شئت أو بالموصل الحدباء
في حيث لا ألقى الحسود أذا شجي
تغلي مراجله على الخلطاء
وبحيث اخوان الصفاء يضمها
حسن الوفاء وشيمة الأدباء^(١٩٠)
لذا لانكاد نراه يصل الاحساء ، حتى نجده يعتسف الصحراء عائداً

وضيق ذات اليد ، أصبح يراه خيراً
ونعمة من الله ، تدرأ عن صاحبها شر
الطامعين :

والفقر في أرضنا خير لصاحبه
من الغنى والقليل النزر يرضينا
لما يعانیه رب المال من تعس
في أرضنا لا لأن المال يطغينا
وكم غنى عندنا قد جر داهية
دهياء تترك فحل القوم عينا^(١٩٤)
ومن القصيدة نفسها يقول :

كنا نضج من الحرمان عندهم
ونطلب الجاه فيهم والبساتينا
فاليوم نفرح أن يبقوا لموسرنا
من ارث جديه سهماً من ثمانينا^(١٩٥)

وفي التزام ابن المقرب بقضية قومه
وبلاده ، يرى الدكتور محمد زغلول
سلام أن هناك تقارباً في الروح
والطريقة بينه وبين الأبيوردي^(١٩٦) ،
فكل منهما صاحب نفس طموح ،
يسعى الى المجد وبلوغ أمل بعيد ، ظل
طول حياته يعمل لبلوغه ، وتعرضه
الصعاب ، ولكنه يكافح ويغالب ولا
يستسلم . وإذا كان الأمل البعيد
للأبيوردي هو إعادة خلافة أجداده
بنى أمية ، فإن ابن المقرب كان يأمل
في استرجاع السلطة للعرب ، بعد أن
رأى غيرهم من الأعاجم والمولدين
يسلبونها منهم ، ونرى ابن المقرب
يجاهد ليخلص بلاده الأحساء من
سلطان الدولة العباسية ، وحولها
الأعاجم من الترك والفرس ، وشعره
يموج بهذا اللون القاتم الساخط ..
^(١٩٧)

حقاً ان ابن المقرب كان يجاهد
ليدفع عن بلاده خطر الأعاجم
وأطماعهم ، وكانت عروبه وعيونيته
تأبيان عليه ذلك ، ولكن شعره يخلو
من جهاد يهدف لتخليص بلاده من
سلطان الدولة العباسية ، فقد سبق
وأن أشرنا الى العلاقة الطيبة بين
خلفاء الدولة العباسية وحكام الدولة
العيونية ، ثم لاحظنا الصلة الطيبة
للشاعر بالخليفة الناصر لدين الله ،
وبالمستنصر بالله من بعده ، وبولاة
الدولة العباسية في البصرة
والموصل .. حيث شد اليهم رحاله
ليجأرلهم بشكواه ، مما ناله من حكام
أسرته .

وابن المقرب في سعيه الدائب كان
صاحب همة عالية ، ونفس طموح ، لم
تكن تقف به عند حد (الري والشبع) :
ولا أكون كمن يسعى وغايته
ومنتهى سعيه للري والشبع^(١٩٨)
ولم يعد يلتفت - في أخريات
حياته - الى مشكلته الذاتية ، وهي
فالقضية الكبرى في وطنه أهم ، وهي
قضيته أيضاً كأمر عيوني ومواطن
مخلص :

سأطلب حق أبائي وحقى
ولو من بين أنياب الأفاعي^(١٩٩)
”فهو أشبه بالأمير الشجاع أبي
فراس الحمداني ، ومن استعرض
حياتهما ، لوجد أن بين الاثنين قرابة
في المقصد ، وروحاً في المنهج (كذا)
واباء في النفس وصراعاً مع الخصوم ،
وثورة على الظلم ، ودعوة للسيادة

العربية ، التي تأتي تسلط الأجنبي .
فأبو فراس لأقي من خصوم العرب
الروم مالاقي ، وابن (الخليج العربي)
وجد عدوان الاعاجم على العرب فتأثر
وتمرد (٢٠٠) فقال عينيته الرائعة:

روى مر الحثوف ولا تراعي
فما خوف المنية من طباعي (٢٠١)

حياته .. (٦)

سبق لنا القول إن طفوله ابن
المقرب مجهولة كال كثير من الشعراء ،
وزاد أنها مجهولة تماما ، فالمصادر
التي بين أيدينا لا تسعفنا بكثير أو
قليل عن أيام صباه وتعلمه ، ومن
حضر عليهم ، وتتلذذ لهم من العلماء
والرواة .. وأين تلقي علوم عصره ؟
وممن أخذ علم الأنساب ؟ وكيف وعي
أيام العرب ؟ وقبل هذا كله ، على من
تلقي العربية ، حتى شهد له أبو البقاء
العكبري بأنه على رأس متقدمي
عصره :

كسوت قومي والبحرين ثوب علا
يبقي جديداً بقاء الحوت والحمل
لقد تقدمت سبقاً من تقدمني
سنا وادرك شاوي فارط الأول
بذاك قدوة أهل العلم قاطبة
أبو البقاء محب الدين يشهد لي
ولم يقل وحده ما قال بل شهدت
به الأفاضل من بغداد عن كمل (٢٠٢)

وهل لقن هذا في مدرسة ؟ أم لقنه
على استاذ خاص ؟ لا سيما وأنه من
أبناء الأسرة الحاكمة في البحرين . كل

هذا ممكن ، وإلى جانب هذا فقد كانت
ثقافة العصر وعلومه آنذاك موجودة في
الكثير من حواضرنا ، من كتب لغة
وفقه وانساب وفلك ، أضف إلى هذا
أن شعر الفحول - بما فيه من زاد
ثقافي - كانت تغنيه الركبان ، وتتناقله
الألسن ..

ولاننسى رحلاته الخمس إلى العراق
«وماكان لهذه الرحلات من ثمار قومية
(كذا) وثقافية وأدبية (٢٠٣) فقد جال
في مناطق العراق العباسي بين بغداد
وبصرة والموصل ثم عاد مرة أخرى
إلى موطنه الأول حيث قضى الحياة
المتنقلة الحافلة ، ولا يمكننا أن نختار
بيئة ضيقة معينة لنتخذها خلفية أو
مستندا لدراستنا لشخصية الشاعر
وحياته وشاعريته ، لذا فإن نسبته إلى
منطقة الخليج العربي كلها هي العمل
الذي يرتضيه المنهج العلمي والدقة
التاريخية ، خاصة وأن تلك المنطقة في
تلك الحقبة من التاريخ كانت تمثل
وحدة واحدة من جميع الجوانب ...
أن التفاعل القوى المتشابك هو
القاعدة الأولى للحركات الأدبية التي
شهدتها سائر أجزاء الخليج العربي
في جميع الأزمان ، وأن هذا التفاعل
العضوي هو دليل وحدة في الفكر
والشعور والألم والأمل .. (٢٠٤) وقد
رأينا كيف جاب ابن المقرب الخليج
العربي ، وشرقي الجزيرة العربية ،
وكيف استهوت حواضر العراق ، فمره
يقصدها سفيرا ، وأخرى نراه يهبط
منها تاجرا ، وفي هذه وتلك وغيرهما

القت اليك مقادها الايام
وامدك الاجلال والاعظام
ومنهم النقيب العلوى تاج الدين
اسماعيل بن جعفر بن يحيى العلوى ،
وقد مدحه بقصيدة طويلة
مطلعها: (٢٠٩)

تخفى الصباية والألحاظ تبديها
وتظهر الزهد بين الناس تمويها
ومنهم الرئيس محمد بن عبدالله
بن سنان ، وقد مدحه بقصيدة طويلة
أولها: (٢١٠)

أتعبت سمعى بطول اللوم فاقتصر
ماذا أهلك من نومى ومن سهرى
وفى البصرة طاب له المقام فى كنف
أميرها شمس الدين باتكين ، وكان من
الولاة الشعراء العلماء . وفى الموصل
مدح بدر الدين لؤلؤ مقرب الشعراء
ومدنيهم ، « وكان النشاط الثقافى فى
الموصل يحظى باهتمام بدر الدين لؤلؤ
ورعايته ، فاخذ بيد العلماء والفقهاء ،
وبذل لهم الأموال الكافية ، وسد
نفقاتهم المختلفة » (٢١١) وأنشأ
المدارس وعين لها المدرسين من أشهر
العلماء ، حيث كانوا يقومون بتدريس
العلوم الاسلامية ، فى الفلسفة والأدب
والعلوم العقلية ، فوفد الطلاب الى
الموصل من البلاد الاخرى للتفقه
والتعلم والدراسة » (٢١٢)

« ولم يقتصر نشاط بدر الدين على
ذلك ، بل كان يتخذ لنفسه الندماء من
العلماء والادباء والشعراء ، ويقربهم
من بلاطه ، ويأمرهم بملازمة مجلسه ،
الذي كانت تجرى فيه المناظرات

نراه شاعرا مادحا يقصد قصر
الخلافة ودور الامارة ، ورجلا محبا
للعلم وأهله ، يسعى اليهم ، ويسعد
بلقائهم بل ويمدحهم ، واذا مات
أحدهم رثاه . ففي بغداد النقى
باللغوى الأديب أبى البقاء العكبرى
وقد ذكره مادحا فى قصيدة لامية قالها
ببغداد عام ٦١٤هـ ، وعارض فيها
لامية الطغرائي ، وشهادة العكبرى له
بالسبق ، لدليل على صلة علمية وطيدة
بينهما ، جاءت بعد كثرة تردد على
مجالسه .

وممن التقى بهم من أهل العلم
والفضل ، تاج الدين ابراهيم بن
محمود الطباخ ، فقد نظم مهنئا فى
شفائه قصيده مطلعها: (٢٠٥)

بمعاديك لابسك الأسواء
ولحسادك الثرى لا الثراء
ومنهم القاضي محمد بن ابراهيم
المستوري ، والذي رثاه بقصيدة
أولها: (٢٠٦)

غرام أثارته الحمام السواجع
ونار جوي أذكت لظاها المدامع
ومنهم فخر الدين أبو عبدالله
المحسن بن هبة الله الدوامي ، الذي
أسدى اليه معروفا عام ٦١٤هـ ،
فحياه بقصيدة مطلعها: (٢٠٧)

دعوه فخير الراى لا يعنف
فلو كان يشفى داءه اللوم لاشتفى
ومنهم العالم الجليل محب الدين
عبدالقادر بن داود بن محمد
الواسطى ، وقد نظم فى توديعه عند
خروجه للحج قصيدة أولها: (٢٠٨)

وقراءة الكتب» (٢١٣).

« ومن الشعراء الذين كانوا يختلفون الى بلاطه أبو الطيب بن الحلاوى الموصلى ، وجمال الدين يحيى بن مطروح ، وكمال الدين حيدرة بن عبدالله الحسنى الموصلى » (٢١٤).

وكانت له علاقة من نوع مختلف مع ابن الديبثى الواسطى المؤرخ والمحدث ، فقد مدحه بسبعة أبيات ، لم أعثر عليها في ديوانه مخطوطا ومطبوعا ويبدو أنه رفعها من الديوان بعد أن ساءت العلاقة بينهما ، ثم هجاه غير مرة ، وأشار في هجائه الى تلك الأبيات السبعة ، مبديا أسفه لنظمها فيه :

والعذرلى فيما هذيت به
ان كانت الحمى من العذر
الا فمئلك لا أجود له
بالمدح في نظم ولا نثر
هى سبعة تاتيك سبع مئى
تنسيكها والحصد للبذر (٢١٥)

ولم يكن ابن المقرب حبيبا الى نفوس الولاة والخلفاء فحسب ، بل كان صاحب منزلة لدى العلماء والادباء .

وبعد هذا يبقى ديوان شعره مصدرا ثرا للتعرف على ثقافته ، فقارئ ديوانه يخرج منه وهو موقن باستبحار ناظمه فى اللغة واحاطته بغريب مفرداتها واشتقاقها وتصريفها ، وان كان هذا ملمحا عاما فى ديوانه ، الا أنه قد أوغل فى الاغراب

فى حائته ، وثائيته ، وكافيته ، والاولى نظمها فى مدح الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ومطلعها : (٢١٦) .

ارتها المأقى ماتكن الجوانج
فبح فالمعنى بالصبابة بائج
والثانية قالها فى مدح النقيب
العلوى تاج الدين اسماعيل ،
وأولها : (٢١٧)

أعيزك ان تسمو اليك الحوادث
وأن تتغشاك الخطوب الكوارث
والاخيرة وقد نظمها فى مدح الامير
أبى ماجد محمد بن على العيونى
ومطلعها : (٢١٨)

أمن دمنة بين اللوى والد كادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك
كما يخرج قارئ ديوانه منه بأن
ناظمه ملم بعلم الفلك ، ولعل نشأته
اشارات الفلكية ، ولعل نشأته
البدوية ، وحياته الحافلة بالرحلة ،
كان لهما أثر فى ذلك . فمن أسماء
النجوم والكواكب التى دارت فى
شعره ، « السها » .

فلولا أقول الشمس لم يبين السها
ولولا الدجى ملاح ضوء ذبال (٢١٩)
ومن ذلك « زحل » :

أبو سنان حليف المكرمات ومن
أناف سؤده السامى على زحل (٢٢٠)
ومن الاسماء التى كثر ورودها
« السماك » :

غر بنى لهم الاغر اسوهم
بيتا أناف على السماك الأعزل (٢٢١)
وقد يرد أحيانا أكثر من اسم فى
البيت الواحد ، ومن ذلك قوله :

غدا به الملك بالجوزاء منتطقا
وراح وهو بظهر الحوت منتعل^(٢٢١)
وغير هذا ، فابن المقرب صاحب
علم واسع بانساب القبائل ، وله دراية
كبيرة بايام العرب وأبطالها ، وبخاصة
ما يتعلق منها بقبيلته « ربيعة » ، في
الجاهلية والاسلام وقد ورد في شعره
كثير من أعلامها ومشاهير رجالاتها ،
ونونيته^(٢٢٢) التي مطلعها :

الا رحلت نعم واقفر نعمان
فبح باسمها ان عز صبر وسلوان
تعد دليلا على ثقافة الشاعر ،
وبخاصة علمه بالانساب والايام
وحوادث التاريخ ، ومشاهير الرجال
وما امتازوا به . وقد سجل فيها مفاخر
قومه في الجاهلية والاسلام مما
سنعرض له في فخره بقومه وقبيلته ،
ومثله نونيته التي مطلعها :

كم بالنهوض الى العلا تعداني
ناما فما لكما بذاك يدان^(٢٢٣)
ففى هذه القصيدة كثير من
الاشارات التاريخية القديمة في فخره
بقومه وقبيلته :

كما أن ميميته في رثاء صديقه
الحسن بن عبدالله ، لا تقل عنهما
دلالة على علمه بالانساب ، لما حشده
فيها من اسماء أبطال بكر وتغلب
وساداتهما ، ومنها قوله :

اين الملوك وأرداف الملوك ومن
ساد القبائل من عاد ومن إرم ؟
وأين طسم وأولاد التبابع من
أولاد حمير والسادات من عمم ؟
وأين آل مضاض في قبائلها
من جرهم ساكني بحبوحة الحرم ؟

نوهمة صعدت وأصبح دونها
زحل وأوج عطارد والمشتري^(٢٢٢)
وهناك كثير من الاسماء التي لم
ترد سوى مرة واحدة ، ومن ذلك
قوله :

أحيى جريا في السماحة وابتني
شرفاً أناف على بهرام^(٢٢٣)
ومن ذلك قوله :

فأمر به ذنب التنين^(٢٢٤) يخسفه
حتى يصير كقرص الأرض الخاسي^(٢٢٥)
وغير هذا في شعره كثير ، وما ذكرناه
كان على سبيل المثال لا الحصر .

ومن الظواهر الفلكية التي وردت في
شعره ، قوله :

وقد يأمن النقص السها لا حتقاره
ويخشى الخسوف البدر والبدر
كامل^(٢٢٦)
ومنه قوله :

ضحوك اذا ما العام قطب وجهه
عبوسا وخوى كل نجم وأخلفا^(٢٢٧)
ومنه قوله :

ولو قال للافلاك في سيرها قفى
لبانت ركودا لا تدور ولا تجرى^(٢٢٨)
ومنه قوله :

ولولا أياديهم وفضل حلومهم
لزلزلت الأرضون وأنقضت
الشهب^(٢٢٩)

ومن أسماء الابراج التي تكرر
ورودها في شعره : « الحوت » و
« الحمل » .

كسوت قومي والبحرين ثوب علا
يبقى جديداً بقاء الحوت والحمل^(٢٣٠)
ومن ذلك « الجوزاء » :

أفناهم وإدار الكأس مترعة
في وائل فسقاها غير محتشم
أردى ابن مرة هماما وكان له
عقد الرئاسة عن أبائه القدم
ومانع الجار جساسا أتيح له
سهم المنون على عمد فلم يرم
والحوفزان الذي كانت تنوء به
بكر سقاها بكاسات من النقم^(٢٣٤)
ومنها يقول :

وقد أذاق شبيبا في شبيبته
كأس الحتوف بلا سيف ولا سقم
والمزيديين غالتهم غوائله
واجتاحهم مزبد من سيله العرم
ولم تدع هائنا وهو الذي انتصفت
به الاعاريب واستولت على
العجم^(٢٣٥)

ومن القصيدة ذاتها يقول :
وفارس العرب العربا وسيدها
أعنى كليباً قريع العرب والعجم
لم يحمه عدد مجر ولا دفعت
عنه المنية إذ جاءت بنوجشم
ولم يكن لعدى بعده عصم
منه وكان عدى أى معتصم
وال كلثوم سادات الارقم لم
يترك لهم من حمى حام ولا حرم^(٢٣٦)
ولا بن المقرب علم واسع بأنساب
الابل والخيول لا تكاد تخلو منها
قصيدة ، كقوله :

اليك خدت بى عوهج شد قمية
لها السوط عن رعى الخميم كعام^(٢٣٧)
وقوله :

ذرينى فإن الحر لا يالف الاذى
وقد أكثر النسل الجديل وشدقم^(٢٣٨)
وقوله :

نهد على نهد المراكل سابح
رحب اللبان محجل للأرجل
تمطر سامى التليل مقابل
بين النعامة والحرون وقرزل^(٢٣٩)
وقوله :

عل كل محبوبك القرى شنج النسا
تجىء وعالا من وراء وعال
نتاج ابن حلاب وقيد ولا حق
وغل المذاكى كامل وعقال^(٢٤٠)

كما أن قارىء ديوانه - لاسيما
قصائد المدح والفخر فيه - يخرج منه
بحصيلة من الامثال العربية
السائرة . فله فيها حافظة واعية ،
فاذا ما فخر أو مدح ، تدفقت على
لسانه المثل العليا للسماحة والجود ،
والوفاء ، والبأس ، والاقدام
والفصاحة ، والفقه ، والعدل .. الخ
ومنها أسماء مألوفة تطالعنا في شعر
الكثرين من شعراء العربية ،
كسماحة حاتم ، وحلم أحنف ووفاء
السموأل ، واقدام عمرو ، وذكاء
اياس ، وعدل كسرى ، وفصاحة
قس ، وبلاغة سبحان ، وعى باقل ..
ومنها أسماء لانكاد نجدها في غير
شعره ، كاتخاذ لقييلة (هتيم) مثلاً
للضعة والتحقير ، وهى من القبائل
التي لانكاد نجد لها ذكراً في معاجم
اللغة وكتب الانساب ، فيقول في
معرض شكواه وهجوه لقومة :

وكيف مقامى بين أوباش قرية
أرى الرأس فيها من بها كان أسفلا
بنى عم من أمسى كثيراً سوامه
وإن كان أدنى من هتيم وأرذلا^(٢٤١)
ويذكرها في موضع آخر مشيراً الى

شيء من وضيع عاداتها ،
وما اشتهرت به ، فيقول :

فإن هتيما لوحوت مال هاشم
هتيم فلا يغريك طيف خيال
سترجع فيما عودت من حميرها
ومن خرق أشنان وخصف نعال^(٢٤٢)

ولا تزال بعض أحياء هتيم معروفة
عند قبائل العرب بالخمول وسوء
القدر ، وضعة الحال^(٢٤٣) ومن
الاسماء التي لانكاد نجدها في غير
شعره « أبو غبشان » ، ويتخذ
شاعرنا مثلاً للحماقة ، فيقول حاثاً
قومه - بعد أن تصدع أمرهم - على
التلاحم تحت راية أميرهم العيوني :
وارضوا رضاه فإن ساخط أمره
منكم لأخسر من أبي غبشان^(٢٤٤)
وتشيع الروح الاسلامية في الفاظه
ومعانيه ، ويقتبس أحياناً من القرآن
الكريم والسنة النبوية الشريفة ، مما
يدل على أخذه بحظ من الثقافة
الاسلامية ومنه قوله :

أبعد اشتعال الرأس شيبا تعرض
لوصل الحسان البيض ام أنت
مازح^(٢٤٥)

فهو يقتبس هنا معنى الآية الكريمة
« واشتعل الرأس شيبا »^(٢٤٦) .
وقوله :

وصل واحتمل واخض جناحك رحمة
لهن ولا تقطب عليهن حاجبا^(٢٤٧)
فهو متأثر هنا بقوله تعالى
« واخض لهما جناح الذل من
الرحمة .. »^(٢٤٨) .

فإن ساءنى منهم على القرب معشر
وأصبح من تلقائهم ما أكابد

فقد باعت الاسباط قبلى أخاهم
ببخس وكل منهم فيه زاهد^(٢٤٩)
فالبيت الثاني يشير الى قوله تعالى
« وشروه بثمن بخس دراهم معدودة
وكانوا فيه من الزاهدين »^(٢٥٠) .
وفى قوله :

وعف فلم يمدد الى مسلم يداً
بسوء ولا باتت له عقرب تسرى^(٢٥١)
يقتبس معنى الحديث الشريف
« المسلم من سلم المسلمون من لسانه
ويده »^(٢٥٢) وقد يضمن شعره حكماً
فقهياً كقوله :

وماذاك منى باختيار ولا رضا
ولكن يحل الشيء وهو حرام^(٢٥٣)
فهو يضمن هنا الحكم الفقهي
القائل بأن « الضرورات تبيح
المحظورات » .

كما كانت تشيع الالفاظ الاسلامية
في شعره وبخاصة في مدائحه للخليفة
الناصر لدين الله ، كقوله :

وحسبهم بالناصر المهتدى به
فخراً اذا ما الناس للحج وسموا
به يرفع الصوت الملبى وباسمه
على الله في دفع الملمات يقسم
تقر منى والمأزمان بفضله
ويشهد جمع والمصلى وزمزم
وكعبة بيت الله تعلم انها
له وكذا البيت المقدس يعلم
وكل بقاع الارض قد جعلت له
حلالاً فيعطى من يشاء ويحرم^(٢٥٤)
ونخلص من هذا وذاك بالقول أن
ابن المقرب قد ألم من ثقافته عصره ،
بما يعينه على أن يكون شاعراً متمكناً
من أدوات الفنية ، من ثراء في

الألفاظ ، وقوة في الصياغة وسلامة في البناء ، وغنى في الموسيقى ، بالإضافة الى ثقافته الدينية ، والفلكية ، وعلمه بالأنساب واحاطته بأيام العرب ، ويتاريخ قبيلته في الماضي والحاضر ، ووقوفه على دقائق تاريخ دولتهم منذ نهوضها ، وحتى تقوض سلطانها . وهل ثم من ثقافة قد تضاف الى هذه الحصيلة الغنية ؟

وهل يراد من أى شاعر مثقف في عصره - أو غير عصره - فوق ذلك ؟ فالشعراء ليسوا علماء ، وليسوا مطالبين ان يكونوا كذلك ، فالعلم آفة الشعر ، ومما لا شك فيه أن ابن المقرب كان شاعرا مثقفا في عصره .

حياته ... (٧)

نظرا لما لمذهب الشاعر من أثر على نفسه وخلقه وتفكيره وابداعه ، فقد وجدت لزاما على أن أقف عند معتقد ابن المقرب وقفة مستأنية ، عارضا فيها لأراء بعض أصحاب التراجم المحدثين ، محاولا أن أخلص من خلالها الى رأى أطمئن اليه ، بعد استقصائى لشعره ، ووقوفى على خصائصه .

وقد اختلف المترجمون في هذه القضية ، فمنهم من قال انه شيعى امامى ، كدائرة المعارف .^(٢٥٥) ومنهم من ترجم له في كتب تراجم أدباء الشيعة وعلمائها ، كصاحب «أعيان الشيعة»^(٢٥٦) او صاحب أنوار

البدرين^(٢٥٧) فقد ذكر الأخير ان ابن المقرب من شعراء أهل البيت ومادحيهم المتجاهرين ، ويضيف أن جامع ديوانه وشارحه من المخالفين له في المذهب ، ولهذا حذف من أشعاره المراثى والمدائح ، وجرّد منها ما هو الأولى والأحرى بالذكر ، وتحتل التقية في حقه ، ويذكر أنه قد وقف له على مراث كثيرة في الحسين بن على (رضى الله عنهما) منها المربعة في مقتل الحسين ، ومنها قصائد من جملتها المشهورة التى أولها :

من أى خطب فادح نتالم
ولأى مرزئة ننوح ونلطم
الى أن يقول في آخرها :

قمنا بسنتكم وحطنا دينكم
بالسيف لانالوا ولانتبرم
وعلى المنابر صرحت خطباؤنا
جهرا بكم وانوف قوم ترغم
لاتسلمونى يوم لامتاخر
لى عن جزا عملى ولا متقدم
ومنهم من يرى أنه سنى المذهب كعمران العمران .^(٢٥٨) وقد اعتمد من قالوا بتشيعه على عينيته التى يبكى فيها الحسين بن على (رضى) ، ثم على الأبيات التى نسبها صاحب أنوار البدرين اليه ، ومدحه لآل البيت ، ومنه قوله مادحا للنقيب العلوى تاج الدين اسماعيل :

وكل علياء فى الاسلام فهى بهم
تبني وقطب الرضى منهم وهاديا
يامن يسامى الى مجد بنى حسن
عدمت رشك هل خلق يساميا ؟

قبيلة من رسول الله عنصرها
ومن على فتى الدنيا ومفتيها
ان القروم السوامي من بني حسن
يحصى التراب ولا تحصى أياديها^(٢٥٩)
ومنها قوله :

لكننا لم نزل طوعا لامرکم
هوى وحرمة أنساب نراعيها
كما يعتمد على قصيدة أخرى مدح
بها النقيب تاج الدين اسماعيل
العلوي الحسني ،^(٢٦٠) ولا شيء غير
ذلك فالمصادر التي بين أيدينا ليس
فيها ما يشير الى ذلك من قريب أو
بعيد ، وما زال تاريخ الدولة العيونية
بحاجة الى من يكشف غوامضه ،
ويحسم أمر معتقدها ، أسنية كانت أم
شيعية ؟ ولكن يمكن الائتناس الى
سنيتها بالنظر الى دورها البارز في
القضاء على القرامطة وعقيدتهم من
بعدهم^(٢٦١) .

إذا فليس أمامنا سوى شعر
الشاعر ليسعفنا في هذه القضية فهل
قصيدته المذكورة تشبه شعره ،
وتحمل روحه ، وخصائصه ، وهل في
غيرها من قصائده ما يشير الى
تشيعه ؟ أما عينيته المشار اليها ،
والتي تتسم بمظاهر التشيع ، وتزخر
بصور شتى منه ، فالناقد الفاحص
لا يمكنه الجزم بصحة نسبة هذه
القصيدة الى ابن المقرب للأسباب
التالية :^(٢٦٢)

١ - ان روح ابن المقرب الشعرية
والفكرية ، وطابعه اللغوي
والاسلوبي ، أمور تنعدم تماما في

القصيدة ، وان لاح لنا شيء من ذلك
فيها ، فهو لا يزيد عن مجرد تقليد
له .

٢ - وأن هذه القصيدة فيها من
الأخطاء ما لانجده في غيرها من
قصائد ديوانه لننظر مثلا الى
قوله :^(٢٦٣)

لهفي له ورأسه في ذائل
كالبدر يزهي في أتم مطلع
والصحيح كالبدر يزهو .. ومثل
هذا الخطأ قوله :^(٢٦٤)

يحدى بنا حاد عنيف سيره
لو قيل إرتع ساعة لم يرتع
والصحيح ، يحدوبنا حاد .. كما
قطع في الفعل (ارتع) وكان ينبغي
الوصل .. وهذه الأخطاء لم يحدث ان
وقع فيها الشاعر في سائر شعره .
ولننظر الى البيت التالي :^(٢٦٥)

نهدى الى الطاغى يزيد لعشا
شعثا بأسوا حالة وأبدع
ولا يخفى أن كلمة (أبدع) ليست
في محلها ، وأفضل منها وأقل قلعا
كلمة « أبشع » بل هي الكلمة التي
يتطلبها السياق .

وبعد هذا لنقرأ البيت التالي^(٢٦٦)
، لنرى ما فيه من خلل في الوزن
والاسلوب :

هل لكم أن تفوا ببيعتي
ان تسمحوا لي عنكم بمرجع
والصحيح :

فهل لكم من أن تفوا ببيعتي
أو تسمحوا لي عنكم بمرجع
ولندع هذا البيت لنمعن النظر في

البيت التالى : (٢٦٧)

فخروا لهفا له كأنما
عليه ردع أو خلوق أو دع
ليس من الافضل قوله : عليه درع
من خلوق أودع :
ومثل هذه الابيات المضطربة يندر
وجودها فى ديوانه .

٣ - وأن بحر الرجز الذي اتخذه
وزنا لقصيدته من الأوزان الخفيفة
والحديثه ، والنادرة عنده والنغم فيها
قلق ، وأشبه ما يكون بالنغم الذي
يقال فى الأذكار ، ويستربعض العيوب
العروضية فى الشعر ، فلو أمعنا النظر
فى قوله منها :

قالوا له هيهات ذاك انه
مالك فى سلامة من مطمع
لوجدنا أن كلمة (ذاك) كان حقها
أن تكون ذلك .

ومثل هذا قوله منها :

تسبى ذرارى المصطفى محمد
رضا لشانيه الزنيم الدكع
فصدر البيت فيه خلل عروضى .
أما فى قوله :

فعندها جرد سيفاً لم يضع
نجاهه منه على أى موضع
فنجد ان حركة طويلة قد زادت فى
كلمة (أى) .

٤ - وأن القصيدة قد انفردت بها
نسختان خطيتان ، احدهما بدار
الكتب المصرية ، والاخرى بمكتبة
الاسكوريال بمديرى ، علما أن
مخطوطات الديوان يصل عددها الى
ست وعشرين مخطوطة .

٥ - وأن القصيدة قد ختمت بهذه

الابيات : (٢٦٨)

اليكم نفثة مصدور اتت
من مقحم الشعر الى مصقع
مقربى عربى طبعه
ونجرة وليس بالمدرع
ينمى الى البيت العيونى الى
أجل بيت فى العلى وأرفع
ونسبة القصيدة اليه بهذه الطريقة
تزيد من الشك فيها ، وفى كونها من
شعر ابن المقرب حقا : (٢٦٩)

ونذكر فى هذا الصدد ما وقع فيه
ناسخ ديوانه فى النسخة الخطية
بalfاتيكان (تسلسل ١١٥٠) من
لبس حين الحق بديوانه قصيدة ميمية
لشاعر آخر يعرف بعلوى البصرة وهو
جمال الدين على محمد بن زايد بن
على ، ولعل تشابه اللقب والاسم
(جمال الدين على) بين الشاعر
والمذكور كان وراء هذا الخلط
واحتفظت بالقصيدة ذاتها خمس
نسخ أخرى نسخة كانت الفاتيكان
أصلا لها ، وسيأتى تفصيل ذلك فى
حينه .

لذا فلا أستبعد أن يكون هذا
الخلط وراء ما نسب من شعر التشيع
الى ابن المقرب .

وشعر ابن المقرب على سعته وكثرته
ليس فيه أية صورة من صور التشيع .
اللهم الا تلك الاشارة التى وردت فى
نونيته التى مدح بها الأمير العيونى
محمد بن أبى الحسين واستهلها
بقوله :

الا رحلت نعم واقفر نعمان
فبح باسمها ان عز صبر وسلوان (٢٧٠)

ففى معرض فخره بقومه فيها ،
وتعداده لمناقبهم المشرفة فى الجاهلية
والاسلام ، يقول :

وهم نصروا بعد النبى وصيه
ولا يستوى نصر لديه وخذلان
ولا نستطيع ان ننكر دلالة هذا
البيت على احتمال تشيعه ، وتقف هذه
الاشارة شاهد النفى الوحيد لسنيته ،
ازاء الأدلة الكثيرة والمقنعة على نفى
تشيعه .

وفيما يتعلق بهذا البيت فلا
أستبعد أمرين :

اولهما : أنه ربما قصد بكلمة
(وصيه) أبا بكر (رضى) لا عليا
(كرم الله وجهه) . مشيرا بذلك الى
الدور الذى نهض به قومه فى مساعدة
الخليفة لا خماد فتنة الردة بالبحرين
بعد وفاة الرسول ﷺ .

وثانيهما : أن يكون هذا البيت
مقحما على قصيدة الشاعر ، لأنه غير
موجود فى المطبوعة المكية لديوانه ،
كما أن الأبيات التى تسبقه ، والأبيات
التي تليه يتحدث فيها الشاعر عن
مفاخر قومه فى الجاهلية . وابن المقرب
فى فخره القبلى حريص على التسلسل
الزمنى للأحداث ، فما الذى يدفعه
اذا الى الحديث عن مفاخرهم
الاسلامية ولما يئته بعد من حديثه عن
مفاخرهم فى الجاهلية ؟ وتفسير هذا
التداخل أن من اقحم هذا البيت كان
على جهل بطريقة ابن المقرب فى عرضه

لمفاخر قومه بعامة ، كما أنه لم يلتفت
الى التسلسل الزمنى للأحداث داخل
هذه القصيدة بخاصة .

أما الأبيات القليلة التى أوردها
صاحب أنوار البدرين ، فلم يذكر لنا
مصدرها .

وقد عاصر ابن المقرب الخليفة
العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ -
٦٢٢هـ) « الذى أطلق العنان
للشيعة ، وأعاد احتفالاتهم الدينية ،
حتى أصبحت تقام أمام حجرة
الخليفة مباشرة » (٢٧١) وهذا شيء
عرف به الناصر فى سياسته الداخلية ،
منعا للفتن والقلقل ، فلو كان ابن
المقرب شيعيا لما احتاج الى الحيلة
والميل الى التقية ولصرح بذلك فى
قصائده الكثيرة التى نظمها فى
العراق . بل هناك ما هو أشد لفتا
للنظر ، وأدل على عدم تشيعه ، أن
عراقياته بخاصة ، وسائر قصائده
بوجه عام ، قد خلت من ذكر للأماكن
المقدسة عند الشيعة فى العراق ، وهى
كثيرة ، ومنتشرة فى مدن العراق فلو
كان شيعيا لسجل لنا إحدى تلك
الزيارات ، ولوصف لنا أحد تلك
الأماكن ، ونحن نعلم أن شعره صورة
صادقة لحياته وبيئته ، « والشعراء
اذا تشيعوا كانوا شيعة حقا كغيرهم
من الناس ، وربما أفرطوا فزادوا فى
ذلك على غيرهم من عامة
المتشيعين » (٢٧٢) .

ولو أمعنا النظر فى الظروف التى
جاءت فيها دولتهم ، ودواعى قيامها ،
لوجدنا أنها جاءت لتستأصل شأفة

الوجود القرمطى - ومذهبهم كان شيعيا متطرفا - ولا حياء ما اندرس من معالم السنة ، ويرى الاستاذ العمران ، أنهم يسيرون في معتقدهم وفي أحكامهم وتطبيقهم لحدود الشريعة ، وفق مذهب السنة^(٢٧٢) .
اما مدحه لأهل البيت فهذا ليس دليلا على تشيعه ، فإن السنة يجلون أهل البيت ، ويكونون لهم صادق الحب ، وعظيم التقدير ، ولهم في أهل البيت شعر كثير .

أما مدحه للنقباء العلويين ، وتردده على مجالسهم ، فهذا ايضا دليل واه على تشيعه ، كما يرى البعض ، لأن صلة ابن المقرب بعلماء السنة وبخاصة الحنابلة والشافعية ، ومدحه لبعضهم ، ثم ثناؤهم عليه ، وكذلك مديحه للأمير شمس الدين باتكين لأنه أحيا سنن مالك وأبى حنيفة والشافعى^(٢٧٤) ، كل هذه الامور تنفى الشك في معتقده .

وتحتفظ لنا نسخة الظاهرية بخبر له أهميته ، ويضيف دليلا آخر على عدم تشيعه ، فقد جاء في صدر مدحته التى استهلها بقوله :

القت اليك مقادها الايام
وأمدك الاجلال والاعظام^(٢٧٥)

مودعا بها الشيخ محب الدين عبدالقادر بن داود محمد الواسطى الشافعى « وكان بينهما مودة وصداقة ، ومحب الدين يومئذ متولى سبيل الفقير للخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وكان أيضا معيدا

بمدرسة نظام الملك ، وكان ابن المقرب يقرأ عليه » .^(٢٧٦)

فلا يعقل - ان صح هذا الخبر - أن يتلقى ابن المقرب العلم وقد قارب الاربعين من عمره على يدى فقيه سننى شافعى ، وهو شيعى المعتقد ، ولا سيما أن بغداد كانت تعج - حينئذ - بعلماء الشيعة ، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أطلق العنان للشيعة ، حتى أن بعضهم قد رماه بالتشيع .

وحين مدح الخليفة الناصر ، اطلق عليه صفة (امام الهدى) ، فقال فى مدح الناصر :

امام هدى بطحاء مكة مولد
لأبائه الشم الذرى لا البطائع^(٢٧٧)

ومن القصيدة ذاتها يقول :
أمامته الحق اليقين وغيرها
إذا ما استبينت ترهات صحاصح
ومن قصيدة أخرى يقول :

ففى شاطئ الزوراء من آل هاشم
إمام هدى يؤدى اليه فيعصم^(٢٧٨)

ومن المعروف ان الشيعة الامامية لا تطلق مثل هذه الصفة على غير أئمتهم ، كما أنه قد أشار الى أحقية هذا الخليفة العباسى بالخلافة ، وهذا مخالف لمبادئهم .

وبعد هذا وذاك أرى أن ابن المقرب سننى المعتقد فى حدود ما بين أيدينا من شعره ، اللهم الا اذا كشف البحث العلمى عن قصائد أخرى للشاعر غير التى بين أيدينا ، تحمل فى ثناياها اشارات ، دالة على تشيعه ، فعندئذ

سيكون للمهتمين بهذا الشاعر ودولته موقف آخر من معتقدتهم .

حياته ... (٨)

كان لا بد لرحلات ابن المقرب المتلاحقة ، من أن تختم برحلة أخيرة ، رحلة لا يملك من أمرها شيئا ، سوى الاستسلام لارادة القدر .. وفي البحرين ، وعلى أرض الاحساء ، التي ناضل دونها ، وارتحل عنها من أجلها ، لفظت تلك النفس الكبيرة أنفاسها الأخيرة مشيعا بما أخلص من نية ، وأحسن من عمل ، وبذل من جهد وأبدع من قول ، في مواقف الاباء والنضال والقومية » (٢٧٩) .

ومن المؤلف في حياة السابقين ، الاتفاق على سنة وفاتهم ، والاختلاف في تاريخ ولادتهم ، أما ابن المقرب ، فقد حدث عكس ذلك عند من ترجموا له ، فقد أجمع من ترجموا له - قديما وحديثا - أنه قد ولد في العيون عام ٥٧٢هـ ، أما وفاته فقد اختلفوا في تحديد زمانها ومكانها .

فمنهم من قال انه قد توفي عام ٦٢٩هـ (٢٨٠) ، وهذا ما لا نسيل الى الاخذ به ، نظرا لأن من قالوا به من المحدثين ، عدا المنذرى الذي بدأ حديثه عن وفاته بقوله « وقيل » وهذا مما يدعو الى الشك . أما ابن الشعار الموصلي (٢٨١) فقد قال ، أنه قد توفي في أواخر المحرم عام ٦٣٠هـ وهذا ما نظمئن اليه ، لأن ابن الشعار

معاصر لابن المقرب . وهناك فريق ثالث (٢٨٢) ، انه قد توفي في أواخر المحرم عام ٦٣١هـ . وهم من غير المعاصرين للشاعر .

كما قال بعضهم (٢٨٣) انه قد توفي ببغداد ، وهذا ما نستبعده ، لأنه لم يرد عن معاصر له ، وآخرون (٢٨٤) قالوا انه قد توفي بالبحرين ، وهذا ما نظمئن اليه ، لأن ابن المقرب قد اختفى من بغداد ، وسائر حواضر العراق ، منذ عام ٦٢٣هـ حيث مدح الخليفة العباسي المستنصر بالله - أبا جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله ، الذي بويع بالخلافة عام ٦٢٣هـ ببائية مطلعها : (٢٨٥)

اليوم سر العلا واستبشر الادب
وأحمدت سيرها المهريه النجب
ولعل سر اختفائه أنه كان يعاني من مرض ما ، وربما كان هذا سبب نحو له واصفراره الذي أشرنا اليه آنفا ، وحين أحس بدنو أجله ، عاد الى أهله وعشيرته وموطنه ، ليموت مطمئنا بينهم .

وهناك رأى ثالث يقول : (٢٨٦) انه قد مات في عمان وفي قرية « طيوى » من بلاد عمان جبل شاهق ، وفي رأسه قبر ، ويقول : أهل طيوى ، أنه قبر ابن المقرب والله أعلم .

وهذا قول يبعث على الدهشة ، فليس في شعر الشاعر ما يدل على رحلته الى عمان ، ولم يسبق له ذلك ، وان كان قد فكر في ذلك قبل رحيله ، الى العراق ، وهل يعقل أن يرتحل ابن المقرب وهو في نهاية العقد الخامس من

عمره ، ليجرب حظه في عمان ، بعد أن
جربه في العراق ؟! وهل كان سيجد
فيها ما لم يجده في العراق ؟! ثم أن
هذا الخبر لم يرد في غير هذا المصدر ،
وربما كان المقصود شخصا آخر غير
الشاعر ابن المقرب .

توفي ابن المقرب ، ولا نعرف كم
ترك من البنين ، فقد ورد في شعره
ما يفيد أنه كان متزوجا ، وأبا ،
يسعى لتحقيق حياة كريمة لأسرته ،
بعد أن جار عليهم الزمن ، فمن
قصيدة له يمدح فيها الأمير محمد بن
علي العيونى عام ٦٠٥ هـ يقول :
فصن حر وجهى عن سؤال فانه
على ولو عاش ابن زائدة صعب

ورد كثيرا من يسير تفتت به
فراخاً قد استولى على ربعها
الجدب (٢٨٧)

وقال من مدحة له في الخليفة
العباسى الناصر لدين الله :

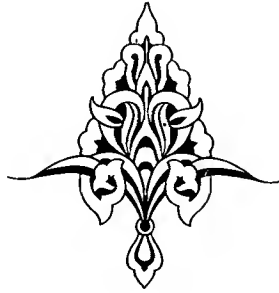
وخلفت بالبحرين أهلى ومنزلى
رجاء الغنى من سبيك المتراكم (٢٨٨)

وقال مودعا أمير البصرة أبا شجاع
باتكين :

أما الفراق فتأتينا رواحله
غدا ويحد جن للترحال بعد غد

والله يعلم أنى لا أسر به
لكن أخاف شقاء الأهل والولد

ألا ووجهك أشهى من وجوههم
عندى وأنهم الافلاذ من كبدي (٢٨٩)



المجلة



- ١ - العبدلى : نسبة الى جدهم عبدالله بن على مؤسس الدولة العيونىة ، ويطلق على عشيرتهم (آل عبدل) .
- ٢ - يقول ابن المقرب مفتخرا بقومه :
لكيزية أنسابها عامرية
يلوذ المناوى ضيمها واعتصابها
(الديوان : ٢٤٢)
- ٣ - نقلا عن الدكتور مصطفى جواد : مجلة المكتبة /بغداد / السنة الخامسة / العدد ٤١/ ١٩٦٤ «أيار» .
- ٤ - نقلا عن الديوان : من المقدمة : ٧ .
- ٥ - نقلا عن الديوان : من المقدمة : ٨ .
- ٦ - معجم البلدان ٢٥٩/٦ .
- ٧ - نقلا عن د . مصطفى جواد : مجلة المكتبة .
- ٨ - الزبيدي : تاج العروس : جـ ٣١/٣ المطبعة الوهبيية - مصر - ١٢٨٦ هـ .
- ٩ - نقلا عن الديوان : من المقدمة : ٧ .
- ١٠ - المصدر السابق نفسه : من المقدمة : ٨ .
- ١١ - الديوان : من المقدمة : ٩ ، ونقلا عن : مجلة المكتبة : بقلم د . مصطفى جواد
- ١٢ - نقلا عن : الديوان : من المقدمة : ٩ ، ونقلا عن : مجلة المكتبة : بقلم د . مصطفى جواد .
- ١٣ - نسخة مخطوطة ببرلين - تسلسل ١٩٨ .
- ١٤ - نسخة مخطوطة - بمكتبة الأوقاف العامة بالموصل تسلسل ٦٨٤ .
- ١٥ - نسخة مخطوطة بالمتحف العراقى ببغداد تسلسل ٨٩٨٩ .
- ١٦ - نسخة مخطوطة - بظاهريية دمشق تسلسل ٦٧٣٤ .
- ١٧ - نسختان مخطوطتان بمكتبة الدراسات العليا ببغداد تسلسل ٢٠٣،٦٦ .
- ١٨ - نسخة مخطوطة بمكتبة جامعة برنستون تسلسل ٤٤ .
- ١٩ - اسماعيل باشا البغدادى : هدية العارفين : ٧٠٦/١ - ٧٠٧ : مطبعة المعارف استانبول ١٩٥١ م .

- ٢٠ - انظر : هذا البحث .
- ٢١ - جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية : ٣/٣ مطبعة الهلال ١٩٣١ .
- ٢٢ - خير الدين الزركلى : الاعلام : ١٧٥/٥ : ط ٣ بيروت ١٩٧٠ .
- ٢٣ - عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ٢٤٥/٨,٧ : مطبعة الترقى بدمشق ١٩٥٩ وقد ترجم عمر رضا كحالة فى معجمه المطبوع بدار احياء التراث العربى ببيروت ، (٢٤٥/٧) مرتين لابن المقرب احدهما باسم على بن المقرب الاحسائى المتوفى عام ١١١١هـ (نقلا عن أعيان الشيعة ج ٤٢) ١٦٤ - ١٦٦ لمحسن الامين العاملى بتحقيق ولده حسن الامين ط ١٩٦٣م) .
- وثانيتها تلت الاولى مباشرة باسم على بن المقرب بن منصور بن المقرب .. المتوفى عام ٦٢٩هـ .
- وقد توهم انهما شخصيتان مختلفتان ، وكان العاملى وراء هذا الخلط ، فقد ترجم له ثلاث مرات فى كتابه :
- سماه فى الاولى على بن عبدالله المقرب العيونى المتوفى عام ٦٥١هـ (ج ٤١/٣٢٧) وسماه فى الثانية على بن المقرب الاحسائى المتوفى عام ١١١١هـ (ج ٤٢/١٦٤ - ١٦٦) .
- وجعل وفاته فى الثالثة ٦٢٩هـ (ج ٥٦/ص ٣) نقلا عن كتاب ساحل الذهب الاسود .
- ٢٤ - فؤاد البستاني : دائرة المعارف : ٦١/٤ : بيروت ١٩٦٢م .
- * - ARABISCHEN LITTERATUR BROCKELMAN : 1-460 LEIDEN 1937
- ٢٥ - انظر : رواية ديوانه المطبوع بالهند : فى هذا البحث ، ورواية : عبدالفتاح الحلوفى مقدمة ديوانه المطبوع بالقاهرة ص ٥٩ وانظر : رواية نسخة برلين ص ٥٨ ورواية هدية العارفين ٥٩ .
- ٢٦ - الديوان : ١٠٧ .
- ٢٧ - انظر : من هذا البحث : رواية ابن النجار ورواية ابن الشعار ورواية ياقوت ورواية ابن الديبثى ورواية المنذرى ورواية ابن الفوطى والصفدى .
- ٢٨ - الديوان : ٣٤٨ .
- ٢٩ - انظر : مجلة المكتبة ، العدد ٤١ .
- ٣٠ - نسخة مخطوطة بمكتبة الامبريزيانا بميلانو تسلسل (١٦٣ C) .
- ٣١ - الديوان : ٧٨ .
- ٣٢ - نفسه : ٥٥ .
- ٣٣ - نفسه : ٨٢ .
- ٣٤ - نفسه : ٣٨٩ .

- ٣٥ - ٣٦) نقلعن مقدمة الديوان : ٧ - ٨ .
- ٣٧ - الديوان : ٥٦٣ - ٥٦٤ ، وتلم : موضع بالصمان ، والثلماء : نواحي اليمامة (معجم البلدان : ٢١/٣) والجرجاء : الرملة التي لا تنبت شيئاً ، وجرجاء مالك بالدهناء قرب حزوى (معجم البلدان : ٨٦/٣) والجديد : اسم نهر أحدثه مروان بن أبي حفصة الشاعر باليمامة ، أو اسم جبل من جبال أجا ، أو اسم جبل في ديار الأزدي (معجم البلدان : ٦٨) والحصنين : في معجم البلدان أسماء لحصون كثيرة . منها بأرض اليمامة حصن عام (معجم البلدان : ٢٨٥/٣) والمصلى : موضع الصلاة : وهو موضع بعينه في عقيق المدينة (معجم البلدان : ٧٩/٨) وقبسة العجلان : مثل في الاستعجال (اللسان : مادة قبس) وعزاليتها : يقال انزلت السماء عزاليها إشارة الى شدة وقع المطر (اللسان : عزل) .
- ٣٨ - الديوان : ٦٥١ .
- ٣٩ - الديوان : ١٦٠ - ١٦١ وحجر : قصبة اليمامة وفي الصحاح الحجر (اللسان : مادة حجر) والغداف : غراب القيظ ، والجناح الاسود (القاموس : ١٧٩/٣) .
- ٤٠ - أبان : وأبانان جبلان في البادية ، وقيل هما جبلان أحدهما أسود والآخر أبيض ، فالأبيض لبنى أسد والاسود لبنى فزارة ٨ (اللسان : مادة ابن) .
- ٤١ - الديوان : ٦٢٨ - ٦٢٩ .
- ٤٢ - المصدر نفسه : ٤٠ .
- ٤٣ - الديوان : ١٣٣ .
- بنظر رثاؤه لصديقه الحسن بن عبدالله وفخره بأبطال بكر :
 ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ ، والحوقران : اسم للحارث بن شريك الشيباني ، سمي بذلك لأن بسطام بن قيس وقيل قيس بن عاصم حفزه بالرمح فخرج فسمى بتلك الحفرة حوقرانا (اللسان : مادة حفز) .
- جاء في هامش النسخة الهندية المطبوعة أن مسلمة الجعد هو مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن الدؤل بن حنيفه ، وسمى الجعد لقوته ، وهو أول من خط حجرا ونزل اليمامة ، وكان له من الأولاد عشرة ذكور ، وجاءه اعمامه يطلبون فيها الشرك فأعطى كل رجل من اعمامه قرية .
- ٤٤ - الديوان : ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .
- ٤٥ - طه حسين : حديث الأربعاء : ٢٢٢/١ : الجلبى : القاهرة ١٩٣٧ .
- ٤٦ - عباس محمود العقاد : ابن الرومي . حياته من شعره : ٧ الطبعة السادسة : دار الكتاب العربي : بيروت ١٩٦٧ م .
- ٤٧ - الديوان : ١٣٣ - ١٣٤ .
- ٤٨ - الديوان : ١٤٣ .

- ٤٩ - المصدر نفسه : ١٥٢ .
 ٥٠ - المصدر نفسه : ٦٦ .
 ٥١ - المصدر نفسه : ٤١٣ .
 ٥٢ - المصدر نفسه : ١٣٨ .
 ٥٣ - المصدر نفسه : ٦٦ .
 ٥٤ - المصدر نفسه : ١٨١ .
 ٥٥ - المصدر نفسه : ٤١٣ .
 ٥٦ - الديوان : ٤١٣ .
 ٥٧ - المصدر نفسه : ٥١٣ .
 ٥٨ - المصدر نفسه : (٣٣٩ .
 ٥٩ - د . محمد زغلول سلام : الادب في العصر الايوبي : ٢٥٤ : دار المعارف بمصر ١٩٧١ م .
 ٦٠ - المصدر نفسه : ٥٢٧ .
 ٦١ - الديوان : ٦٦ .
 ٦٢ - المصدر نفسه : ١٣٢ .
 ٦٣ - المصدر نفسه : ص ١٣٣ .
 ٦٤ - المصدر نفسه : ١٣٦ .
 ٦٥ - الديوان : ١٥٥ .
 ٦٦ - الديوان : ٦٢٦ والمصادر : الهضبة العالية وأعلى الجبل .
 ٦٧ - المصدر نفسه : ٥٢٩ .
 ٦٨ - المصدر نفسه : ٦٦ .
 ٦٩ - الديوان : ٢١٥ والعنقير : الداهية .
 ٧٠ - المصدر نفسه : ٢٧٤ .
 ٧١ - الديوان : ٢٤٨ .
 ٧٢ - المصدر نفسه : ٦٥٩ في رأسه خنزوانه : أى كبر .
 ٧٣ - المصدر نفسه : (١٦٨) .
 ٧٤ - المصدر نفسه : ١٢٣ . المرزئات : التى تصيب بالبرزية وهى المصيبة ، والضوايح : يسمع منها صوت ليس بصهيل ولا حممة .
 ٧٥ - المصدر نفسه : ٤١ .
 ٧٦ - المصدر نفسه : ٢١٨ .
 ٧٧ - ابن مقرب حياته وشعره : ٢٥ :
 ٧٨ - الديوان : ١٤٤ .
 ٧٩ - المصدر نفسه : ٤٥٠ .
 ٨٠ - الديوان : ٣١ - ٣٢ .
 ٨١ - الديوان : ٣٩٤ ، والعسل : المنع ، والبسل : الحرام .

٨٢ - المصدر نفسه : ٣١٢ . والحارك : أعلى الكاهل ، وركارك : ضعيف ،
والحوتكى : القصير اللئيم (اللسان : حتك) وراعى : ليس فيما بين يدي من
معاجم معنى لها ، وكذا المحقق .

٨٣ - المصدر نفسه : ٣٤٠ .

٨٤ - المصدر نفسه : ٤٣٣ .

٨٥ - ويعرف بصاحب الموصل ، كان مملوكا لنور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن
مودود بن زنكى اقسنقر الاتابكى ، بدأ تدبير الملك منذ وفاة مولاه نور الدين
عام ٦٠٧هـ الذي عهد بالولاية لولده عز الدين مسعود من بعده ، وطلب من
بدر الدين تدبير المملكة ، ولكنه استطاع فيما بعد أن يستقل بالسلطة ، وتوفي
عام ٦٥٧هـ ، وكان هولاء قد اقره على الموصل بعد تقديم الطاعة (انظر
دائرة المعارف : بطرس البستاني ٢٤٢/٥ مطبعة المعارف ببيروت ١٨٨١م .

٨٦ - وهو النقيب تاج الدين اسماعيل ابن النقيب جعفر بن يحيى بن النقيب طالب
بن محمد بن أبى الحسين محمد بن أبى القاسم على بن العباس محمد بن زيد
العلوى الحسنى . (نقلا عن الديوان : ٦٤٩ كما احتفظ به صدر القصيدة في
المطبوعة الهندية) .

٨٧ - الرئيس محمد بن عبدالله بن أبى سنان المقرئ شمس الدين الموصلى
الشافعى المتوفى سنة ٧٥٢هـ ، من تصانيفه الزواجر ، والكامل فى الفروع
(انظر : هدية العارفين للبغدادى ١٥٩/٦ مطبعة المعارف باستانبول/
١٩٥٥م) .

٨٨ - أبو البقاء العكبرى : هو عبدالله الحسين بن عبدالله النحوى الضرير ،
ويلقب محب الدين ، تعلم فى بغداد ومات فيها ، وكان فى آخر عمره أشهر
علمائها فى عصره وكان متضلعا فى علوم كثيرة . وانما غلب عليه النحو ،
وخلف مؤلفات كثيرة .

(انظر : تاريخ أداب اللغة العربية : ٤٤/٣ ، وانظر وفيات الاعيان :
٢٦٦/١) .

٨٩ - الديوان ١٥٧ - ١٥٨ . والرزية : الناقة المهزولة ، والوطف كثرة شعر
الحاجبين والعينين ، والمكشم : الناقص الخلق والحسب .

٩٠ - الديوان ٤٣٢ .

٩١ - نفسه : ٦٥٩ .

٩٢ - نفسه : ١٣٦ ، وعتاوتوا : استكبر وجاوز الحد .

٩٣ - نفسه : ٢٧٤ .

٩٤ - نفسه : ١٣٩ .

٩٥ - الديوان : ١٣٧ .

٩٦ - المصدر نفسه : ٣٣٤ .

٩٧ - انظر : ابن رشتيق : العمدة : ج ١/٧٥ تحقيق محمد محى الدين

عبد الحميد : دار الجيل ، بيروت ١٩٧٢ م .

٩٨ - الديوان : ١٦٧ .

٩٩ - المصدر نفسه : ٤٣٣ .

أخودارم : لعله يعنى الفرزدق فهو من دارم ، أو يعنى مسكين الدارمي وهو ربيعة بن عامر كان من أشرف تميم وشجعانها وشعرائها ، اتصل بمعاوية وزيد بن أبيه توفي عام ٨٩هـ .

والاعشيان : أعشى قيس ، ميمون بن قيس بن جندل الوائلي ، أبو بصير ، من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية ، وأحد أصحاب المعلقات ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، توفي في السنة السابعة للهجرة .

والثاني : أعشى باهله ، عامر بن الحارث وهو جاهلي ، أشهر شعره في رثاء أخيه لأمه (انظر : الديوان : ٤٣٣) ، (والجمهرة : ٢٤٦ ، ٣١٩) وجرول ابن أوس بن مالك العبسي ، الحطيفة ، أدرك الجاهلية والإسلام وضرب في الهجاء بسهم وافر . (انظر : شوقي ضيف : العصر الإسلامي : ١٥ وما بعدها دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ م) .

١٠٠ - المصدر نفسه : ٤٠٥ والصلصل : بقية في الغدير .

١٠١ - المصدر نفسه : ٢٧٨ .

١٠٢ - الديوان : ٣٨٢ .

١٠٣ - المصدر السابق نفسه : ٢٨٣ .

١٠٤ - ابن مقرب حياته وشعره ص ٢٦ .

وابن الدبيثي هو الحافظ جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد بن الدبيثي قدم بغداد وروى فيها شيئاً من شعره ، وكان قد ضمن البيع بواسط وظلم الناس وصور ومقته الناس توفي بواسط عام ٦٣١هـ . وهو ابن عم عميد الدين أبو العباس أحمد بن جعفر بن أحمد بن محمد بن الدبيثي الواسطي الأديب ، وكان من أعيان أهل بلده حشمة وتقداً وتجملاً ، وله معرفة بالأدب .

(انظر : تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب : لابن الفوطي : تحقيق :

د . مصطفى جواد : بغداد ١٩٦٥ م) .

١٠٥ - الديوان : ١٣٣ - ١٣٤ .

١٠٦ - المصدر نفسه : ٤٤٨ تردى : ترجم الأرض بحوافرها .

١٠٧ - المصدر نفسه : ٤٤٨ .

١٠٨ - المصدر نفسه : ٣٧١ .

١٠٩ - المصدر نفسه : ١٨٠ .

١١٠ - الديوان : ١٣٤ .

١١١ - لمحات من الخليج العربي : ٢٩ وما بعدها : الشركة العربية : البحرين

١٩٧٠ م .

- ١١٢ - الديوان : ١٨١ .
- ١١٣ - لمحات من الخليج العربي : ٣٣ .
- ١١٤ - لمحات من الخليج العربي : ٣٢ .
- ١١٥ - الديوان : من المقدمة .
- ١١٦ - نفسه : ٦ - ٧ .
- ١١٧ - نفسه : ٣٢١ والشاوى ، راعى الغنم والخارب : سارق الابل خاصة (اللسان : مادة خرب) والشكل غنج المرأة ودلالها وغزلها والحصور : الضيق الصدر ، والخلط : خفة واضطراب :
- ١١٨ - ديوانه : ٣٦ .
- ١١٩ - نفسه : ٣٩ .
- ١٢٠ - نفسه : ٤٨٠ .
- ١٢١ - نفسه : ٧٦ - ٧٧ .
- ١٢٢ - نفسه : ٤٧٢ - ٤٧٣ .
- ١٢٣ - الديوان : ٤٨٠ .
- ١٢٤ - نفسه : ٣٦٤ .
- ١٢٥ - المصدر نفسه : ١٠٥ .
- ١٢٦ - المصدر نفسه : ١٧٨ - ١٧٩ .
- ١٢٧ - القليل والمقول : الملك من حمير يقول ما يشاء فينفذ .
- ١٢٨ - يعنى بنى حسن بن على بن أبى طالب وهم ملوك مكة .
- ١٢٩ - يعنى الحسن بن على وهم ملوك المدينة .
- ١٣٠ - يعنى بنى ربيعة ، أمراء بلاد الشام .
- ١٣١ - الديوان : ٣٣٣/٣٣٢ .
- ١٣٢ - الديوان : ص ٤٨١ .
- ١٣٣ - أنش : موضع باليمامة بوادى الوشم ، مرصد الاطلاع ٨٦ .
- ١٣٤ - « منهم » قرية من قرى اليمامة المرصد : ١٣١٠ .
- ١٣٥ - نعام : واد باليمامة وقيل موضع باليمن ، المرصد ١٣٧٨ .
- ١٣٦ - الديوان : ص ٤٣٣/٤٣٤ .
- ١٣٧ - الديوان : ٤٩٦ - ٤٩٧ .
- ١٣٨ - المصدر نفسه : ٤٩٧ .
- ١٣٩ - انظر : لمحات من الخليج العربي : ٣٢ ومقدمة الديوان وتحفة المستفيد : ١٠٨ .
- ١٤٠ - ابن مقرب حياته وشعره : ٢٢ ، ٤٤ .
- ١٤١ - انظر : محسن العامل : أعيان الشيعة : ٣/٥٦ (بدون ذكر لمكان الطبعة) ١٩٦٣ م .
- ١٤٢ - مجلة مجمع اللغة العربية : ص ٣٣ عدد ٣٨ .

- ١٤٣ - د . محسن جمال الدين : مجلة النفط والعالم : العدد الأول : السنة الأولى عام ١٩٧٣ م ، ص ٢١/٢٠ .
- ١٤٤ - الديوان : ٣٣٩ .
- ١٤٥ - الديوان : ٢٦٩ .
- ١٤٦ - الديوان : ص ٣٣٢ .
- ١٤٧ - المصدر نفسه : ص ٤٠٥ .
- ١٤٨ - المصدر نفسه : ص ٤٨١/٤٨٢ .
- ١٤٩ - المصدر نفسه : ص ١٤٧ .
- ١٥٠ - الديوان : ٦١ .
- ١٥١ - المصدر نفسه : ٥٦٠ .
- ١٥٢ - انظر : ابن مقرب حياته وشعره : ٤٤ - ٤٥ .
- ١٥٣ - الديوان : ٦٥٧ .
- ١٥٤ - المصدر نفسه : ٦٦١ .
- ١٥٥ - المصدر نفسه : ٥٨٥)
- ١٥٦ - المصدر نفسه : ٣٣٠ - ٣٣١ .
- ١٥٧ - انظر : تحفة المستفيد : ١٠٨ - ١٠٩ .
- ١٥٨ - الديوان : ٤٣٤ .
- ١٥٩ - المصدر نفسه : ٣٢٦ .
- ١٦٠ - د . رزوق فرج رزوق - بحثه الذي ألقاه في الندوة العلمية العالمية الثانية لمركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة في آذار ١٩٧٧ م . عن « عراقيات ابن المقرب » .
- ١٦١ - المصدر نفسه : ٢٦ .
- ١٦٢ - شمس الدين باتكين الرومي .
- ١٦٣ - عراقيات ابن المقرب ص ٨ - ٩ .
- ١٦٤ - الديوان ص ٤٠٦ .
- ١٦٥ - الديوان : ١٢٠ .
- ١٦٦ - القصيدة السابقة ذاتها : ١٢٦ . والشناحي : الجسيم الطويل من الابل (القاموس ١/ ٢٣٢) .
- ١٦٧ - الديوان : ٥٩٤ .
- ١٦٨ - المصدر نفسه : ٥٩٤ وانظر عراقيات ابن المقرب ١٤ .
- ١٦٩ - وليس الامير محمد بن ماجد كما ذكر صاحب (عراقيات ابن المقرب : ١٥) ، وكما جاء في مقدمة الديوان : ص ٩ وفي صدر بانيته ص ٢٦ . وهذا خطأ بين من الناسخ ، اخذ به صاحب عراقياته لسببين : اولهما : ان البائية قالها مؤملاً زوال الشحاء بينهما ولم يكن بينه ومحمد

بن ماجد مثل هذه الشحنة لأن الأخير ولى برغبة من الشاعر بعد أن أنب بعنف أهل الحل والعقد لثورتهم على علي بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين وهو أخو محمد بن ماجد ، وتوليتهم مقدم بن غرير بن الحسين بن شكر بن علي .
(انظرا : الديوان ٦٢١ ابن مقرب حياته وشعره : ٤٧ ومجلة مجمع اللغة العربية : ٢٤) .

وثانيهما : أن الشاعر قد مدح بالبائية والكافية أميرا واحدا عام ٦٠٥ هـ ، وجاء في صدر كافيته أنه قد مدح بها الأمير أبا ماجد محمد بن علي ، ويستخبره فيها برد بعض ما اغتصبه من أمواله وعقاراته وحين نرجع الى بائيته نجد أنه يصرح بكنية هذا المدوح ، فيقول :

**أبا ماجد انظر الى ذي قرابة
بعين رضا يغضى لها الخائن الخب**
(انظر : الديوان ٣٠٥ وانظر : مجلة مجمع اللغة العربية : ٣٤) .

١٧٠ - الديوان : ٢٦ - ٣٥ .

١٧١ - الديوان ٣٠٥ - ٣١٥ .

١٧٢ - انظر : مقدمة الديوان ٨ - ٩ وانظر : مجلة مجمع اللغة العربية : ٣٥ .

١٧٣ - انظر : مجلة مجمع اللغة العربية : ٣٥ .

١٧٤ - الديوان : ٨٤ .

١٧٥ - انظر : داليته في لوم ابن أبي جروان : ١٦٧ - ١٧٥ وانظر : مجلة مجمع اللغة العربية : ٣٦ .

١٧٦ - المصدر نفسه : ٦٣١ وانظر : مجلة مجمع اللغة .

١٧٧ - الديوان : ٥٢٦ .

١٧٨ - المصدر نفسه : ٤٤٨ .

١٧٩ - جاء في مقدمة الديوان أن الأمير أبا القاسم محمد بن مسعود بن محمد بن علي هو قاتل الأمير محمد بن ماجد ، وعنه أخذ الدكتور شوقي ضيف في مجلة مجمع اللغة العربية (ص ٣٦) فذكر أن أبا القاسم كان يتولى إمارة البلاد حين عاد ابن المقرب من رحلته العراقية الثالثة وامتدحه بدالية وميمية ، كما أخذ عنه الدكتور رزوق فرج في بحثه عن عراقيات ابن المقرب (ص ١٥) وبعد الرجوع الى شعر الشاعر وفحصه ، تبين أن قاتل الأمير محمد بن ماجد هو الأمير عماد الدين أبو علي محمد بن مسعود بن أبي الحسين أحمد بن أبي سنان محمد بن الفضل بن عبد الله بن علي (من آل الفضل) وامتدحه ابن المقرب بدالية وميميتين .
(انظر : الديوان : ١٦٠ ، ٤٧٣ ، ٥٥٤ .

أما أبو القاسم فهو كنية لأمرين : أحدهما لم يحتفظ لنا صدر مدحته سوى باسمه (ابن محمد) ولكن الشاعر في قصيدته يكشف عن سلسلة أبوته فيقول :

**ومن نسل جديدك العلين غلمة
نشئت وبأبكار المعالي غرامها**

ونظن ان هذا الامير هو أبو القاسم مسعود بن محمد بن علي بن عبدالله بن علي العيوني ، وقد امتدحه الشاعر بقصيدة واحدة مطلعها :
 الى كم مداراة العدا واحترامها
 وكم يعترينا ضيمها واهتمامها

ويبدو من القصيدة أنها لم تكن في المدح بل في الحض على الحرب والقتال ، واستنكار التخاذل والخضوع (انظر : الديوان : ٤٥٦ وما بعدها) .

أما الامير الثاني صاحب كنية (أبي القاسم) فهو مسعود بن محمد بن علي بن عبدالله العيوني ، كما جاء في صدر مدحته (ص : ٦١٠) . ويبدو من القصيدة التي وجهها الشاعر اليه انها كانت عتابا ولوما وخلت تماما من المدح ، ونظن أن هذا الامير هو نفس الامير أبي القاسم مسعود بن محمد لأن القصيدتين اللتين حملتا اسميهما تتفقان في تردى احوالهما ، وخروج السلطة من أيدي العيونيين تماما ، وتعدان - كما أرى - آخر مادبجه الشاعر في أمراء أسرته . (انظر : الديوان : ٦١٠ وما بعدها) .

- ١٨٠ - انظر: مجلة مجمع اللغة العربية : ٢٦ .
- ١٨١ - الديوان : ٣٤٧ .
- ١٨٢ - الديوان : من المقدمة : ١٠ .
- ١٨٣ - المصدر نفسه : ٣٩٢ وما بعدها .
- ١٨٤ - معجم البلدان : ٢٥٩/٦ وانظر : مقدمة الديوان : ٤ .
- ١٨٥ - الديوان : من المقدمة : ١٠ .
- ١٨٦ - نقلا عن الديوان : من المقدمة : ١٠ وانظر : عراقيات ابن المقرب : ٢٢ .
- ١٨٧ - الديوان : ٩٢ وما بعدها .
- ١٨٨ - عراقيات ابن المقرب : ٢٢ .
- ١٨٩ - مجلة النفط والعالم : ٢٠ - ٢١ .
- ١٩٠ - الديوان : ١٨ .
- ١٩١ - الديوان : ٢٣٨ ، واخروط به السفر : طال وامتد (اللسان : مادة : خرط)
- ١٩٢ - لمحات من الخليج العربي : ٣٣ .
- ١٩٣ - الديوان : ١٧٧/١٧٦ .
- ١٩٤ - المصدر نفسه : ٦١٢ .
- ١٩٥ - الديوان : ٦١٦ .
- ١٩٦ - الأبيوردى : هو محمد بن أحمد أبو المظفر ، شاعر ونسابة من أصل أموي من فرع معاوية الأصغر ، وهو سليل عنيسة بن أبي سفيان ، ولد في أبيورد من أعمال خراسان ، وتوفي عام ٥٠٧ هـ . انظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٤٢٢/١ - ٤٢٣ ترجمة محمد ثابت الفندي ، وآخرون ، القاهرة ١٩٣٣ .
- ١٩٧ - الادب في العصر الأيوبي : ٢٥٤ .
- ١٩٨ - الديوان : ٢٧٣ .

- ١٩٩ - المصدر نفسه : ٢٦٩ .
- ٢٠٠ - مجلة النفط والعالم : ٢١ .
- ٢٠١ - الديوان : ٢٦٦ .
- ٢٠٢ - الديوان : ٣٨٣ - .
- ٢٠٣ - عراقيات ابن المقرب ص ٢٧ .
- ٢٠٤ - لمحات من الخليج العربي ٦٩ وما بعدها .
- ٢٠٥ - الديوان ص ٢٣ .
- ٢٠٦ - المصدر نفسه ص ٢٧٩ .
- ٢٠٧ - المصدر نفسه ص ٢٨٣ . وما وجدته في كتب التراجم أنه فخر الدين أبو عبدالله محمد بن أبي المعالي هبة الله بن الحسن بن الدوامي البغدادي الحاجب . كان أوحده دهره ، ونادرة زمانة نكاه وفطنة ، وهو من البيت المشهور بالرياسة والولاية والكتابة ، وكان ذا خلاعة ومجون تلتذذه الأسماع وتميل اليه الطباع ، وله شعر لطيف توفي عام ٦٥٢هـ . (انظر تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب : ٣/ ٣٨٣ وانظر الحوادث : وفيات ٦٥٢) .
- ٢٠٨ - الديوان ٥٦٩ .
- وعبدالقادر بن داود الواسطي كان خيرا ديناً أثنى عليه ابن النجار كثيراً ، وقال : كانت له معرفة تامة بمذهب الشافعي أصولاً وفروعاً ، وله يد باسطة في الفرائض والحساب ، ومعرفة حسنة بالآداب ، وكان ورعاً زاهداً . توفي عام ٦١٩ .
- انظر : الطبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب بن تقي الدين السبكي : ١١٨/٥ - ١١٩ . المطبعة الحسينية المصرية (بدون تاريخ) .
- ٢٠٩ - الديوان : ٦٤٩ .
- ٢١٠ - المصدر نفسه : ٢٤٠ .
- ٢١١ - نقلاً عن : سوادى عيد الرويشدى : امارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ : ١٤٧ : مطبعة الارشاد بغداد ١٩٧١ .
- ٢١٢ - المرجع السابق نفسه : ١٤٧ .
- ٢١٣ - امارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ : ١٤٧ .
- ٢١٤ - نفسه : ٢٢٣ وما بعدها .
- ٢١٥ - الديوان : ٢٢٩ .
- ٢١٦ - المصدر نفسه : ١٢٠ .
- ٢١٧ - الديوان : ١١٥ .
- ٢١٨ - المصدر نفسه : ٣٠٥ .
- ٢١٩ - نفسه : ٣٧٥ .
- ٢٢٠ - نفسه : ٣٨٥ .

- ٢٢١ - نفسه : ٤١٩ .
- ٢٢٢ - نفسه : ٢٢٢ .
- ٢٢٣ - الديوان : ٥٠٤ - وبهرام : اسم المريخ (اللسان : مادة بهر) .
- ٢٢٤ - التنين : بياض خفيف في السماء ويكون في ستة بروج ، وذنبه في البرج السابع ، دقيق أسود فيه التواء (اللسان : تنن) .
- ٢٢٥ - الديوان : ٢٥٠ .
- ٢٢٦ - الديوان : ٣٤٦ .
- ٢٢٧ - المصدر نفسه : ٢٨٦ .
- ٢٢٨ - المصدر نفسه : ٢٠٢ .
- ٢٢٩ - المصدر نفسه : ٢٩ .
- ٢٣٠ - المصدر نفسه : ٣٨٢ .
- ٢٣١ - المصدر نفسه : ٤٤٣ .
- ٢٣٢ - المصدر نفسه : ٥٨٦ وما بعدها . ونعمان : أودية ، وراء عرفة وقرب الكوفة وبالشام قرب الفرات .
- ٢٣٣ - نفسه : ٦٣٢ وما بعدها .
- ٢٣٤ - طسم ، وعاد ، وارم : من الامم البائدة ، أولاد التبايع : ملوك اليمن .
- ال مضاض هم بيت جرهم بن يقظان ، الذين تزوج اليهم النبي اسماعيل عليه السلام بابنة ملكهم الحارث بن مضاض ، وجميع أولاده منها ، وكانوا سكان الحرم قبل قريش (الديوان : ٤٨٥) وهمام بن مرة : هو همام بن مرة بن ذهل بن شيبان : أخو جساس قاتل كليب ، وهو من سادات بني شيبان (الجمهرة : ٣٢٤-٣٢٥) الحوفزان : لقب الحارث بن شريك ، وكان سيد بكر بن وائل (الجمهرة : ٣٢٦) والابيات من الديوان ص ٤٨٥ وما بعدها .
- ٢٣٥ - القصيدة ذاتها . شبيب هو شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيباني الخارجي (الجمهرة : ٣٢٧) أحد الثائرين على بنى أمية ، هزم جيش الحجاج في مواقع كثيرة ، فأمدّه عبد الملك بجيش تمكن به من هزيمته ، وتوفي عام ٧٧هـ . المزيديون : من كانوا من نسل مزيد الشيباني ، ومنهم يزيد بن مزيد ، ومعن بن زائدة الشيباني . هانيء ، بن قبيصة الشيباني ، بطل يوم ذي قار (الجمهرة : ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦) .
- ٢٣٦ - القصيدة ذاتها : ٤٨٩ . عدى بن ربيعة التغلبي : أخو كليب ، والمعروف بالمهلل ، كان عاكفا على الخمر والنساء حتى قتل أخوه ، فثار لمقتله ، وأشعل حرب البسوس .
- ال كلثوم : رهط عمرو بن كلثوم ، قاتل عمرو بن هند حمية وغيره ، وهو من تغلب الأرقام : هم أولاد بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب (الجمهرة : ٣٠٤ - ٣٠٦) .
- ٢٣٧ - ديوانه : ٤٧٩ . العوهج من الأبل : الطويلة العنق الفتية . والشدفمية :

- ناقاة منسوبة الى فحل للنعمان بن المنذر (القاموس : ١٣٤/٤) .
- ٢٣٨ - نفسه : ٤٥١ . الجديد وشدقم : فحلان للنعمان بن المنذر .
- ٢٣٩ - نفسه : ٤١٦ . النهد : الاسد ، وفرس نهد : حسن جميل جسيم مشرف ، مراكل الدابة : حيث تصيها برجلك . التحجيل : بياض في قوائم الفرس . المتقطر : المسرع ، وسامي التليل : منيع المصراع بعيدة . والمقابل : من تساوى أبأؤه من جهتي الأب والام في الشرف ، والنعامة : سبعة أفراس منها فرس قراض الأزدي (القاموس ١٨١/٤) والحرون : من خيل باهلة ، فرس مسلم بن عمرو الباهلي (القاموس : ٢١٣/٤) ، قرزل : من خيل هوازن من ولد داحس فرس الطفيل بن مالك (القاموس ٣٦/٤) .
- ٢٤٠ - الديوان : ٣٧٣ . محبوب القرى : محكم الظهر قوية . وفرس شنج النساء : لم تسترح رجلاه . ورعال : جمع رغيل . وهي القطعة من الخيل ، وحلاب : كان من خيل بني تغلب (القاموس : ٥٧/١) وقيد : كانت للملوك من ابناء المنذر بن ماء السماء ، ولا حق : من الجياد المنجبة وكان لغني بن اعصر بني قيس عيلان (القاموس ٢٨٠/٤) وكامل فرس للحوفزان بن شريك (القاموس : ٤٦/٤) وذو العقال : فرس لحوط بن ابي جابر (القاموس : ١٨/٤) .
- ٢٤١ - نفسه : ٣٦٤ .
- ٢٤٢ - نفسه : ٣٧٥ .
- ٢٤٣ - ابن مقرب حياته وشعره : ١٥٤ .
- ٢٤٤ - ديوانه : ٦٤٠ ، وأبو غبشان : هو المحترش بن حبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي ، كان صاحب البيت بعد أبيه ، وكانت العرب تجعل له جعلاً في كل موسم ، فقصروا به في بعض المواسم ، ومنعوه بعض ما كانوا يعطونه ، فغضب فدعاه قصي بن كلاب ، فسقاه ، ثم اشترى منه البيت بأزواد ، وقيل : بزق خمر انظر : القاموس : ٢٨١/٢ .
- ٢٤٥ - نفسه : ١٢٢ .
- ٢٤٦ - سورة مريم : آية : ٤ .
- ٢٤٧ - ديوانه : ٤٠ .
- ٢٤٨ - سورة الاسراء : آية : ٢٤ .
- ٢٤٩ - ديوانه : ١٤٣ .
- ٢٥٠ - سورة يوسف : آية : ٢٠ .
- ٢٥١ - ديوانه : ٢٠٤ .
- ٢٥٢ - صحيح البخاري : كتاب الايمان ص ٩ .
- ٢٥٣ - ديوانه : ٤٨٢ .
- ٢٥٤ - نفسه : ٤٥٣ .
- المازمان : مضيق بين جمع وعرفه ، وآخرين مكة ومنى ، ويوم جمع : يوم عرفة .

- ٢٥٥ - دائرة المعارف : ٦١/٤
- ٢٥٦ - أعيان الشيعة : ٣٢٧/٤١ ، ١٦٤/٤٢ - ١٦٦ ، ٣/٥٦ .
- ٢٥٧ - علي البلادى البحراني : أنوار البدرين : ٣٩٤ - ٣٩٥ مطبعة النعمان بالنجف ١٣٨٠هـ .
- ٢٥٨ - ابن مقرب حياته وشعره : ٢٦ ومن المعروف أنهم يميلون في البحرين الى القول بتشييعه ، ووجدت نفس الميل في العراق ، وبخاصة عند الشيعة منهم ، وفي الجزيرة العربية اصرار على سنيته ، اللهم الا منطقة الاحساء ، فهناك من يقول فيها بتشييعه .
- ٢٥٩ - الديوان : ٦٥٥ .
- ٢٦٠ - المصدر نفسه : ١١٥ .
- ٢٦١ - جاء في هامش النسخة الهندية ص ٤٤٤ أن بشر بن مفلح العيوني كان رئيس العسكر كله لابي البهلؤل الذي خرج على القرامطة واستقل « باوال » وهزم جموع القرامطة في « كسكوس أوال » ممن جاءوا للقضاء عليه . وكان هذا الرجل - كما يبدو - سني المعتقد لأنه بدأ تمرده ببناء مسجد سني في جزيرة أوال ، والخطابة للخليفة العباسي آنذاك . واذا فالعيونيون نصرُوا أول أمرهم رجلا سنيا ، وحين قتل أخذوا على عاتقهم مواصلة حرب القرامطة حتى النهاية .
- ٢٦٢ - ابن مقرب حياته وشعره ص ٢٨ .
- ٣٦٣ - الديوان ص ٢٦٤ وفي المصباح المنير : زها يزهو زهواً ص ٣٠٦ .
- ٢٦٤ - الديوان : ٢٦٥ ، وحدوث بالابل أحدو حدوا حثثتها على السير بالحداء (المصباح : ١٥٢) .
- ٢٦٥ - نفسه : ص ٢٦٥ .
- ٢٦٦ - نفسه : ص ٢٦٢ .
- ٢٦٧ - نفسه : ص ٢٦٣ .
- ٢٦٨ - الديوان : ٢٦٦ .
- ٢٦٩ - انظر : ابن مقرب حياته وشعره : ٢٨ .
- ٢٧٠ - الديوان : ٥٨٦ .
- ٢٧١ - الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير : ص ١٦٧ .
- ٢٧٢ - ابن الرومي حياته من شعره : ص ٢١٨ .
- ٢٧٣ - ابن مقرب حياته وشعره : ص ٢٧ .
- ٢٧٤ - انظر الديوان : ص ٤١٠ ، وانظر المرجع السابق الموضع نفسه .
- ٢٧٥ - الديوان : ٥٦٩ .
- ٢٧٦ - انظر : نسخة الظاهرية الخطية .
- ٢٧٧ - ديوانه : ١٢٥ .
- ٢٧٨ - نفسه : ٤٥١ .

- ٢٧٩ - عراقيات ابن المقرب : ٢٨ .
- ٢٨٠ - انظر : معجم المؤلفين : ٢٤٥/٨٢٧ والاعلام : ١٧٥/٥ وبروكلمان : تاريخ الأدب العربي : ٢٦٠/١ : ليدن ١٩٣٧ م .
- ودائرة المعارف : ٦١/٤ ومجلة العربي : ابريل ١٩٦٠ وتاريخ آداب اللغة العربية : ٣٣/٣ والتكملة : نقلا عن الديوان : من المقدمة : ٦ .
- ٢٨١ - قلائد الجمال في شعراء الزمان : نقلا عن الديوان : من المقدمة ٧ ونسخة برلين المخطوطة تسلسل ١٩٨ .
- ٢٨٢ - تلخيص مجمع الآداب : نقلا عن الديوان : من المقدمة : ٦ والواقف بالوفيات للصفدي نقلا عن الديوان : من المقدمة ٦ ونقلا عن « ابن مقرب حياته وشعره : ٢٤ .
- ٢٨٣ - انظر : بروكلمان : ٢٦٠/١ والعربي : ابريل ١٩٦٠ وتاريخ آداب اللغة العربية : ٣٣/٣ .
- ٢٨٤ - انظر / الاعلام ج ٥ : ص ١٧٥ / ومعجم المؤلفين ج ٧ ، ٨ : ص ٢٤٥ ودائرة المعارف ج ٤ / ص ٦١ وتلخيص مجمع الآداب لابن الفوطي ، نقلا عن الديوان : ٦ .
- ٢٨٥ - الديوان : ص ٩٢ .
- ٢٨٦ - تحفة المستفيد : ص ٣٢ ، ويرجح هذا الرأي عمران محمد العمران ص ٢٣ نقلا عن صاحب المخطوطة التاريخية الموجودة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٣٧ تاريخ ، وذكر مؤلفها - وهو من أهل القرن العاشر الهجري - أنه قد مرتلك القرية في طريقة الى الهند . ولا أستبعد ان يكون صاحب تحفة المستفيد قد نقل عن المخطوطة ايها .
- ٢٨٧ - الديوان : ٣٥ .
- ٢٨٨ - نفسه : ٥٣٠ .
- ٢٨٩ - نفسه : ١٥٩ .

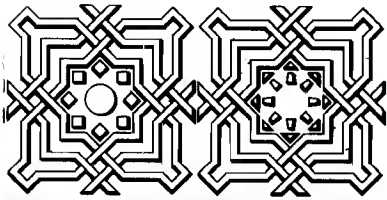
الشاعر

دراسة موضوعية

٣

بقلم : الدكتور

أحمد موسى الخطيب



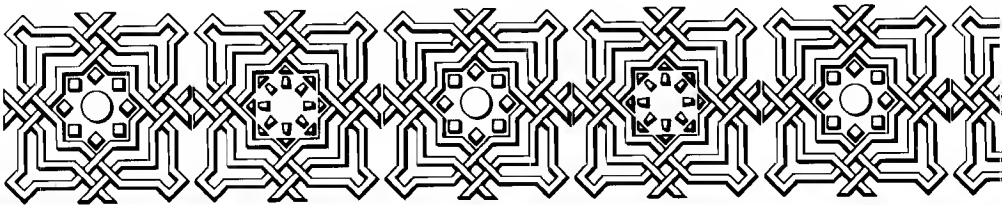
علي بن المقرب الحيوي

توفيقية

هذا
البحث

في الحلقة السابقة من هذا البحث عرض المؤلف لعصر
الشاعر وحياته وتناول في عصره ظروف الزمان والمكان أما
حياته فقسمها الى ثمانى مراحل انتهت بوفاته وفي هذه الحلقة
ينتقل المؤلف في دراسته القيمة الى ديوان الشاعر فيعرض
بالتفصيل للرحلة الطويلة التى مر بها هذا الديوان مخطوطا
ومطبوعا قبل ان ينتقل الى الدراسة الفنية للديوان نفسه .

(الوثيقة)



ديوان الشاعر مخطوطا ومطبوعا

١ (ديوانه مخطوطا :

اختلفت شهرة ديوانه باختلاف البلاد العربية ، فقد اشتهر في الاحساء ، ونجد ، والحجاز ، وسواحل الجزيرة العربية ، والعراق ، ولم يحظ بشهرة في سائر الاقطار العربية الاخرى .

وان لم تكن حياة ابن المقرب قد لقيت اهتماما من مؤرخي الادب السابقين وكان حظه من هذا الاهتمام جد يسير ، فان ديوانه كان موفور الحظ لدى الناسخين وحفظت لنا دور التراث المنتشرة في العالم العربي والغربي العديد من نسخه المخطوطة ، التي وصل عددها الى نيف وعشرين نسخة ، تفاوتت في خطها ، وتاريخ نسخها وعدد قصائدها وأبياتها وفي جودتها وقد تشابهت بعض النسخ - كما سيأتى الحديث عنها - وسنتناول نسخ الديوان بالوصف ، كلا على حدة حسب ترتيبها التاريخي ، لنخلص من هذا الوصف باظهار أعلى النسخ قدرا ، ورد ما يشترك الى الاصل ، أو ما هو مأخوذ عن غيره ووصفه في مقامه .

١ (نسخة برلين ، تسلسل

PETM : ٣٧٤

وهي عبارة عن مختارات من شعر

ابن المقرب ، لا تزيد عن مائة بيت ، انتقاها ناسخها من ثمان قصائد طويلة له ، مكتوبة بخط نسخي جيد مضبوط ، ومسطرتها (١٥ سطرا) وهي جزء يسير من هذه المخطوطة ، أولها الورقة ١٨٦ وجه ، وآخرها الورقة ١٨٩ ظهر . وهي من مخطوطات القرن التاسع الهجري وبهذا تكون أقدم نسخ الديوان الخطية في حدود ما وجدناه منها ، وهي مجهولة النسخ ، بدأها بذكر اسم الشاعر ، مع سلسلة الأبوة كاملة ، وأول القصائد بأئيته :

خذوا عن يمين المنحني أيها الركب
لنسأل ذاك الحي ماصنع السرب

٢ (نسخة برلين المشروحة تسلسل ١٩٨ : PET

بدأها ناسخها بالبسملة ، فحمد الله والصلاة على نبيه وصحبه وخلفائه ثم الشاعر على بن مقرب ، وسلسلة أبوته كاملة . وأول قصائدها :

أمارات سر الحب مالاكتتم
وأبين شيء مايجن المقيم
وقد تم نسخها على يد الفقيه جلال الدين الحسيني النجفي ، بخط شرف الدين الحسيني النجفي ، في السادس من رمضان المبارك عام ٩٠١هـ ، بمدينة حيدر آباد . وخطها نسخي واضح متقن ، جيدة الضبط ، لكن بعض قصائدها بدون ضبط ، ومسطرتها ١٥ سطرا ، وعدد أوراقها

ثلاثمائة وخمسون ورقة ، وعدد قصائدها ٧٠ قصيدة ، وعدد أبياتها ٣٧٨١ بيتا ، والقصائد غير مرتبة حسب الحروف الهجائية للقافية ومعظمها مشروح ، وبعض القصائد شرحها واف ، وفي الشروح تفصيلات دقيقة ووافية لنهاية الدولة القرمطية ، محددة بالسنين ، وأخبار كثيرة عن قبيلتي ربيعة وعبد القيس ، وكثير من أيام العرب ، وأبطالها المعروفين ، وتزيد عن سائر النسخ المشروحة ، في شرح قصيدته المشهورة :

قم فاشدد العيس بالترحال معتزما
وارم الفجاج بها فالخطب قد فقما
كما توجد فيها بعض الوثائق التاريخية النادرة ، المتعلقة بنهاية القرامطة ، ومن نهضوا لقتالهم ، كأبي البهلول ، وعبدالله بن علي العيوني .

وفيه بعض الخروم ، وقد طمست اجزاء يسيرة من بعض صفحاتها ، وخلال الشروح هناك أبيات كثيرة لشعراء معروفين ، وآخرين اكتفى بقوله (وقال الشاعر) وأحيانا يذكر قصيدة للشاعر ، كذكره لأربعة وعشرين بيتا من قصيدة الرجاز ابن هارون أحمد بن عامر بن تميم بن ثعلبة من قصيدته :

« لمن الديار عراصهـــــــــــــــــن
قفار .. »

كما توجد فيها ملاحظات هامشية ، وعلى الصفحة التي قبل الخاتمة ، تلخيص للحركة القرمطية ،

منذ قيامها عام ٢٨٩هـ وحتى زوالها على يد عبدالله بن علي العيوني عام ٤٦٧هـ ، مع ذكر أشهر زعمائها ، وسنة توليهم ووفاتهم ، والواضح ان الصفحة التالية للصفحة المذكورة قد فقدت . وهذه النسخة تعد نسخة نادرة ، فهي أقدم النسخ الكاملة - حتى الآن - وأوفاهها شرحا ، وهي بدون أخطاء ، جيدة الخط والضبط ، وبعض القصائد تحمل تاريخ نظمها ، غير الذي احتفظت به النسخ الأخرى ، هذا بالإضافة الى قيمتها التاريخية الكبيرة .

٣) نسخة دار الكتب المصرية - تسلسل ١٢٦ أدب :

وقد تمت كتابتها في رجب سنة ١٠٦٧هـ ، بقلم أمين حسن أبى القاسم ، وخطها نسخي واضح ، وعدد أوراقها ١٢٦ ورقة ، ومسطرتها ١٥ سطرا ، ويبلغ عدد قصائدها (٩٣ قصيدة) مرتبة حسب الحروف الأبجدية للقافية ، وتحوى من الأبيات (٤٨٩٢) بيتا ، وعليها تملكات ، منها : « من كتب اسماعيل بن أحمد بن الحسين ابن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد ، لطف الله به ، سلخ شهر رجب ١١٠١هـ » .

وقد كتب على صدر النسخة ، الامين جمال الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن المقرب ، ثم بيتان لأحد المملوكين للنسخة ، قبلا عام ١٠٨٧ هـ ، وهما :

إذا تباعد
من رمته
طلبت للشوق
من نظم ابن المقرب

٤ (نسخة مكتبة الفاتيكان
تسلسل ١١٥٠ :

وقد تمت كتابتها في شوال عام
١٠٧٥هـ ، بخط محب محمود
آل محمد سعيد بن صالح المالكي ،
مكتوبة بخط نسخي عادي ، ويبلغ
عدد أوراقها ٢٤ ورقة ، كما يبلغ
عدد أبياتها ، ١٠٨٠ بيتا وهي
مختارات من شعره ، يبلغ عدد
قصائدها ٣٦ قصيدة ، مرتبة
أبجديا ، ومسطرتها (١٦
سطرا) .

ومقدمتها قرابة صفحة ، أولها :
« بسم الله الرحمن الرحيم » ديوان
على بن المقرب ، ان الأمير الكبير
الاديب موفق الدين علي بن المقرب ،
كان أميرا جليلا .. ثم يوالى خلع
المزيد من الصفات النبيلة عليه .
وفي نهاية المقدمة يقول : وكانت
وفاته في حدود الثلاثين بعد ستمائة
من الهجرة ، وفيها بعض الحواشي
والملاحظات وقد انفردت هذه
النسخة بذكر لقب (موفق الدين)
للشاعر ، الذي ذكره الدكتور
مصطفى جواد^(١) ، ولم يشر الى
المصدر الذي استقاه منه .

وهذه المختارات من شعر ابن
المقرب ، هي الجزء السادس من

المخطوطة اياها ، التي ضمت
مجموعة دواوين مختارة لشعراء
مختلفين ، كأبي العلاء المعري
وقيس بن الملوح ، وعلوى
البصرة .

ويقع ديوان ابن المقرب في الجزء
السادس ، من ورقة ١٠٥ وجه الى
١٢٩ ظهر .

٥ (نسخة برلين المخطوطة
تحت رقم ٢٥٠ : PETM

وهذه المخطوطة تحوى مجموعات
شعرية ونثرية كثيرة ، كلها في باب
الغزل ، من أزمنة مختلفة ، ومن
مخطوطات القرن الحادي عشر
الهجرى ، مكتوبة بخط نسخي جيد ،
وعلى الأوراق من ٨٤ - ٨٧ مختارات
من شعر ابن المقرب أولها :

دعوه فخير الرأى ان لا يعنفا
فلو كان يشفى داء اللوم لاشتفا
وذكر منها ثمانية أبيات ، ثم تلا
هذه الصفحة ثلاث صفحات مطموسة
تماما .

٦ (نسخة مكتبة الدراسات
العليا ببغداد تسلسل (٢٠٣) :

وقد تمت كتابتها عام ١١٢٩هـ في
الثالث عشر من المحرم ، وناسخها
حسام الدين سليمان عبدالله
(النقيب الأوحد المجاهد) مكتوبة
خط نسخي واضح . وعدد أوراقها
(٣٦ ورقة) ومسطرتها ١٧ سطرا ،
ويبلغ عدد قصائدها ٤١ قصيدة

مرتبة أبجديا ، ويصل عدد أبياتها الى ١١٨٤ بيتا .

وعلى صدر النسخة بعض أسماء من أهديت اليهم وتملكوها ، على الصفحة الأولى ثلاثة أسطر مكتوبة بخط رديء مغلوط ، ويبدو أن كاتبها أعجمي ، وأرجح أن يكون تركيا ، لأنه استخدم فيها بعض الالفاظ التركية ، وهى تختلف عن خط الناسخ الأصلي للديوان .

والنسخة في حالة جيدة ، وتخلو من الخروم ، وهى بلا مقدمة ، ويبدأ القصائد بقوله « وقال رحمه الله » ولم يسجل الممدوح أو المناسبة ، والقصائد فيها مضبوطة بالشكل أما القصائد الاربع الأخيرة ، فهى بدون ترتيب أبجدى : ويبدو أن الناسخ قد تداركها بعد أن انتهى من كتابة ما بين يديه من قصائد للشاعر :

والقصيدة الأخيرة منها : وعدد أبياتها ٢٦ بيتا ، والتى مطلعها :

ليس القناعة بالتسديد من هم
ولا الخمول عن العلياء من شيم
فما جاء في مقدمتها ، يفهم منه أنها ليست لابن المقرب ، بل للسيد المقام العالى ، جمال الدين على محمد بن زيد بن على عليهم وعليه افضل الصلاة والسلام ، المعروف بعلوى البصرة .

(٧) نسخة دار الكتب المصرية - تسلسل (٩٠٩١) أدب :

وقد تمت كتابتها سنة ١١٣٠هـ ،

وناسخها مجهول . مكتوبة بخط نسخى جميل مجدول بالذهب ، والنسخة محلاة بالزخارف ، وتقع في ٤١ ورقة ، ومسطرتها ١٥ سطرا ، وفيها من القصائد ٣٩ قصيدة ، مرتبة أبجديا ، ويبلغ عدد أبياتها ١١٥ بيتا . وهى مختارات من شعر ابن المقرب .

وقد جاء في صدرها « ديوان الشيخ الرئيس السامى جمال الدين على بن المقرب النعمانى ، كافاه الله تعالى بما هو أهله ، وقد دخل تحت » تصرف ابراهيم بن عبدالله باشا بن ثنيان آل سعود « وتشبه هذه النسخة - الى حد كبير - نسخة مكتبة الدراسات العليا تسلسل (٢٠٣) .

وتكمن أهمية هذه النسخة في تسجيل بعض حوادث الجزيرة العربية ، والخليج العربى في القرون الاخيرة ، على الصفحات الأولى منها . وأقدم تلك الحوادث دخول العجم عمان في عشرين ذي الحجة عام ١١٤٩هـ .

(٨) نسخة برنستون غير المشروحة تسلسل (٤٥) :

وقد تمت كتابتها يوم الجمعة الحادى عشر من شهر جمادى الأولى عام ١١٤٧هـ وهى مجهولة الناسخ ، وتقع في ٣٦ ورقة ، ويبلغ عدد قصائدها ٤٠ قصيدة ، ويصل عدد أبياتها الى ١١٨٤ بيتا تقريبا ، ومسطرتها ١٧ سطرا ، مكتوبة بخط نسخى جميل ومضبوطة بالشكل .

سقطا من النسخة ، لأن أول الشعر فيها :

الا ليت شعري والحوادث جمة
وذا الدهر سيف ما يفل له غرب
كما سقط من النسخة همزية
الشاعر التي مطلعها :

كم أرجع الزفرات في احشائي
وإلام في دار الهوان ثوائى
والنسخة بلا مقدمة ، وبلا
هوامش ، والقصائد مذكرة بدون
مناسباتها ، ما عدا الأربع القصائد
الاخيرة ، فقد نقلت من غير الديوان
المنقول منه بقية النسخة ، لذا جاءت
بدون ترتيب أبجدي .

أما القصيدة الأخيرة وعدد أبياتها
٢٦ بيتا فقد جاء في صدرها « وهذه
القصيدة للسيد المقام العالي جمال
الدين على بن محمد بن أحمد بن زيد
بن علي والمعروف بعلوى البصرة »
ويبدو أن الناسخ قد التبس عليه الأمر
فظن (جمال الدين على بن محمد)
هو الشاعر نفسه ، فضمها الى
ديوانه ، كما حدث في نسخة مكتبة
الدراسات العليا تسلسل (٢٠٣)
ونسخة دار الكتب المصرية تسلسل
(١٠٩١) ونسخة برنستون غير
المشروحة تسلسل (٤٥) .

١٠ (نسخة ميلانو تسلسل E)
(١٣٤) (٣)

تمت كتابتها سنة ١١٦٥هـ ،
وناسخها مجهول ، مكتوبة بخط
نسخي وثلاث معا ، وخطها جميل

أولها : ديوان الشيخ الرئيس السامى
جمال الدين على ابن المقرب
النعمانى .. وبعد قصيدته :

تخفى الصباية والألحاظ تبديها
وتظهر الزهدين الناس تمويها
ورد مانصه « تم ديوان الشيخ ابن
المقرب » ثم تلاها مباشرة « ومن
ديوان ابن المقرب » ويذكر بعد هذا
أربع قصائد من شعره ، جاء بعدها
مانصه « تم بحمد الله... » .

وعلى الصفحة الأخيرة عدد من
الدوائر ، وفي مركزها كتبت البسمة
بخط فارسي ردىء . وتتفق هذه
النسخة مع سابقتها (٦ ، ٧)
تماما .

٩ (نسخة ميلانو تسلسل
(١٨٥٢) : (٢)

وتضم هذه المخطوطة مجموعات
شعرية لعدد من الشعراء ، ويقع
ديوان ابن المقرب في الجزء الثالث
منها ، من الورقة ٥٤ الى الورقة ٩٠ .
مسطرتها ١٨ سطرا ، وقد تمت
كتابتها في ١٧ جمادى الآخرة سنة
١١٥٣هـ بخط عز الاسلام والدين
محمد بن ناصر القارنى ، وخطها
نسخي واضح ، ومضبوط بالشكل ،
ويبلغ عدد القصائد ٤٠ قصيدة ،
مرتبة أبجديا ويصل عدد الأبيات نحو
١١٥٠ بيتا أولها بأئيته التي مطلعها :

خذوا عن يمين المنحنى ايها الركب
لنسأل ذاك الحى ما فعل السرب
ولكن هذا المطلع ، والبيت تاليه ،

أبجديا ، ويصل عدد الأبيات نحو ٢٩٥٩ بيتا ، وهى خالية من الشروح والهوامش ، وغير مضبوطة بالشكل ، ويلاحظ عليها عدم الدقة فى تاريخ بعض القصائد ، فقد جاء فى مقدمة قصيدته ، والتي مطلعها :

أبى الدهر أن يلقاك الا محاربا
فجرد له سيفا من العزم قاضبا
أنها قيلت ببغداد عام خمس
وستين وستماية ، وقد توفى الشاعر
على أكثر تقدير عام ٦٣١هـ .
وفى النسخة بعض التصحيف ،
وبعض الأخطاء اللغوية . وقد
احتفظت لنا هذه النسخة بقصيدتين
لم تردا فى مطبوعات الديوان ، الأولى
طائفة مطلعها .

وفى طوله المعروف طول يد الرجا
وفى بحر جدواه لآمالنا غط
والأخرى ، زائفة وأولها :
لما حدث ركائب بعيسها
مدح كمال الدين فى ارتجازها

(١٢) نسخة الموصل تسلسل
(١٦٢) :

وهى محفوظة بمكتبة الأوقاف
العامة بالموصل ، ورقمها العلمي
١٤/١٠ ، وقد تمت كتابتها عام
١١٨٦هـ وناسخها مجهول ، علما أن
النسخة لم يسقط منها شيء ، وليس
بها خروم ، أو أى تلف ، وخطها
نسخى جميل ومتقن ، ومسطرتها ١٩
سطرا ، وقد كانت ملكا للشيخ حسن
باشا الجليلي ، أحد أعيان الموصل ،

متقن ، مضبوط بالشكل ضبطا
جيدا . مسطرتها ١٥ سطرا ،
والسطر الأول والوسط والآخر من
كل صفحة مكتوب بخط أوضح وأكبر
من سائر السطور وميز الناسخ تلك
السطور الثلاثة ، بوضع كل منها فى
مستطيل ، وكذلك عنوان كل قصيدة .
ويبلغ عدد القصائد فيها ٤١
قصيدة ، مرتبة ترتيبا أبجديا ،
ما عدا القصائد الأربع الأخيرة .^(٤)
ويبلغ عدد الأبيات نحو ١١٨٤ بيتا .
والنسخة بلا مقدمة ، وعلى
الصفحة الأولى جدول زمنى لمعرفة
زمن مدخل النيروز ، الذي يعتمد عليه
البحار ، أما الصفحة التالية لها ، فقد
كتب فى صدرها « ديوان الشيخ
الرئيس على بن المقرب النعمانى »
وعلى الصفحة ذاتها بعض التملكات
وأحد التملكات مشفوع بتاريخه سنة
١١٩٣هـ والنسخة بحالة جيدة ،
وليس فيها سقط ولا تلف ، كما أنها
قليلة الأخطاء .

(١١) نسخة الموصل^(٥) تسلسل
٦٨٤ - ورقمها العلمي ١٢/٧ :

وقد تمت كتابتها سنة ١١٨٤هـ ،
وناسخها يحيى بن عبيد أغا
الموصلى ، وقد كتب فى نهاية النسخة
« تم وكمل بحمد الله تعالى ، وقد
صدرتها على نسخة سقيمة غير
صحيحة ناقصة ، ولم أقع على
تمامه » وخطها نسخى جيد واضح ،
ومسطرتها ١٥ سطرا ، ويبلغ عدد
القصائد فيها ٨١ قصيدة غير مرتبة

(١٤) نسخة المكتبة البريطانية
(المشروحة) تسلسل ٧٢٨٨ :
O.M.P

يبلغ عدد أوراقها ١٩٠ ورقة ،
ومسطرتها ١٦ سطرا ، وخطها
نسخي ، وناسخها مجهول ، وتاريخ
نسخها غير معروف ، يوجد على
الصفحة التي قبل الشعر بعض
التملكات ، أحدها « وقد ملكه حمزة
بن علي بن محمد عام ١٢٠٤هـ في
ربيع الآخر » .

وقد أصاب النسخة شيء من التلف
فالصفحات الخمس الأولى مطموسة
تماما ، كما يصعب قراءة بعض
الصفحات . وقد قلبت بعض أوراقها
اثناء الترميم .

ويبلغ عد قصائدها ٥٥ قصيدة ،
غير مرتبة أبجديا ، كما يبلغ عدد
أبياتها ٢٥٠٠ بيت ، وأول قصيدة
فيها :

بيني فما انت من جدى ولا لعبى
مالي بشيء سوى العلياء من أدب
والنسخة مشروحة ، ولها هوامش
كثيرة وتتخذ الهوامش والتعليقات -
أحيانا - أشكالا زخرفية ، وفي شرح
كافيتها ، نجد أن الناسخ قد كتب
مرادف الكلمات الصعبة فوقها مباشرة
بخط مائل .
والقسم الأخير من النسخة
مضطرب ، فقد كتبت كلمة « تمت »
بعد قصيدة :

وعليها تملكه وتوقيعه عام ١٢٣٢هـ .
وتتفق مع نسخة الموصل السابقة في
عدد القصائد والأبيات ، وفي
الأخطاء ، والضبط ، وخلوها من
الشروح ، واحتفاظها بقصيدتيه
الطائية والزائية .

(١٣) نسخة مكة المشروحة :

وتحتفظ بهذه النسخة « المكتبة
الماجدية » بمكة المكرمة ، وقد تم
نسخها في شهر رجب عام ١١٩٤هـ ،
وناسخها ناصر بن حمد بن لاحق ،
الذي كتبها بخط نسخي لشيخه صالح
العتيقي من أهالي « الجمعية » بنجد .
ويبلغ عدد قصائدها ٧٢ قصيدة ،
ويصل عدد أبياتها نحو ٣٥٥٦ بيتا
وهي نسخة مشروحة ، ويحفل شرحها
بالاشارات التاريخية ، المتعلقة بنهاية
القرامطة ، وقيام الدولة العيونية ،
وفيها أخبار مستفيضة لبعض الوقائع
العيونية ، وخاصة في شرح ميميته
المشهورة :

قم فاشدد العيس للترحال معتزما
وارم الفجاج بها فالخطب قد فقما
وكانت هذه النسخة عام ١٩٦٠م
ملكا لمحمد صادق بن الشيخ الكردي
مدير البعثات العلمية السعودية في
الاسكندرية . وهي نسخة جيدة
ومتقنة ، وعنها أخذ الشيخ محمد
عبد القادر الانصاري في كتابه « تحفة
المستفيد في تاريخ الاحساء » .

سائل ديار الحي من ماواني
ما أحدثت فيها يد الحدثان
ثم تلاها عشرون قصيدة لابن
المقرب غير مرتبة أبجديا ، أولها :

أتدري اللبالي أى خصم تشاغبه
وأى همام بالرزايا توائبه
وقد كتبت كلمة « تمت » مرة
أخرى بعد نونية الشاعر :

الا رحلت نعم واقفر نعمان
فبح باسمها إن عز صبر وسلوان
وذكر بعدها ستة أبيات ليست بخط
الناسخ ، مطلعها :

أفاطم لو شهدت^(٦) ببطن خببت
وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
ثم ذكرت مناسبة هذه الأبيات على
الصفحة التالية ، أضيف إليها أربعة
عشر بيتا ، ثم كتبت كلمة « تمت »
للمرة الثالثة . ولكننا نجد أن الناسخ
قد كتب اسم الشاعر « ابن مقرب » في
أعلى الصفحة التالية ، ثم ذكر
قصيدته :

بالسيف يفتح كل باب مقفل
وتحل عقده كل أمر مشكل
وبعدها قصيدته :

كمال الدين أنت لكل خير
وعارفة تفيد الشكر أهل
ثم ذكر بيتين لا مرء القيس ،
أتبعهما بميميه ابن المقرب في مدح
الخليفة الناصر :

إلام أناجى قلب حيران واجم
وانظر عودى بين لاح وعاجم

وقد تكررت كتابة هذه القصيدة ،
مرة بخط ناسخ المخطوطة ، وبدون
ضبط ، ومرة أخرى مضبوطة ، وبخط
أفضل وأكثر اتقانا من خط الناسخ ،
وهذا ما يجعلنا نميل الى القول بأن
هذه القصيدة من مخطوطة أخرى ،
وقد ضمت القصيدة المكررة الى
المخطوطة الأصلية عند الترميم .
وجاءت بعد مدحته في الناصر ستة
أبيات لكعب بن زهير ، دون ذكر
لاسمه ولعل شهرتها أغنته عن
التعريف بها ، ومطلعها :

بلغا عنى بجير رسالة
فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
وبعد هذه الأبيات قصيدة لابن
المقرب لم ترد سوى في الظاهرية ،
يليهما إحدى عشرة قصيدة لابن
المقرب ، مرتبة أبجديا ، آخرها لاميته
في مدح عميد الدولة :

عميد الدولة الغراءقل لي
علام جفوتنى وصرمت حبل
أتبعها الناسخ بلامية العجم ، ثم
بيتين للحطيئة ، هما آخر ما جاء في
هذه النسخة .

والقسم الاخير من هذه النسخة
بدون شرح ابتداء من لا ميته :

بالسيف يفتح كل باب مقفل
وتحل عقدة كل أمر مشكل

(١٥) نسخة خنجي المفقودة
(بايران) :

وقد كانت هذه النسخة ملكا لمحمد

كونها مختارات من شعر الشاعر، منتقاة من أربعين قصيدة له، مرتبة أبجدياً، وهي بلا مقدمة، وفيها قليل من الخروم.

وتتفق هذه النسخة مع نسخة الدراسات ٦، ونسختي ميلانو ٩، ١٠، في عدد القصائد وترتيبها، وعدد الأبيات تقريباً. واسم الشاعر في النسخ الأربع «علي ابن المقرب النعماني» والفروق بين هذه النسخ طفيفة لا تكاد تذكر.

(١٧) نسخة المتحف العراقي ببغداد ، تسلسل ٨٩٨٩ :

عدد أوراقها ١٤١ ورقة ، ولها مقدمة قصيرة ، لم تتجاوز ثلاثة الاسطر ويبلغ عدد قصائدها ٨١ قصيدة ، غير مرتبة أبجدياً ، وبعض القصائد غير مضبوطة بالشكل وعدد أبياتها ٣٥٥٩ بيتاً . مكتوبة بخط نسخي جيد ، وقد تمت كتابتها في الثالث من ربيع الأول عام ١٢٧٧هـ ومسطرتها ١٥ سطراً .

ويلاحظ عدم الدقة في تاريخ بعض القصائد فيها ، وان كنا نجد أحياناً ملاحظات على جانب من الأهمية ، في مقدمات بعض القصائد ، والنسخة بحالة جيدة .

وتتفق هذه النسخة مع نسختي الموصل ١٢، ١١ ، في عدد القصائد ، وترتيبها ومقدماتها ، وفي عدد الأبيات ، كما تتفق معهما في الأخطاء ، وقد احتفظت مثلهما بقصيديه الطائيه والزائيه .

أمين خنجي بايران ، وهي شرح لديوان علي ابن المقرب ، بخط محمد رشيد بن أبي القاسم الموسوي الدزفولي ، تاريخ نسخها ١٢٠٨هـ وخطها نسخي ، وهي حافلة بالنوادر التاريخية ، وقد اطلع عليها الدكتور حسين علي محفوظ ، في ٢٣ مارس عام ١٩٥٣م ، وأشار اليها في العدد الأول من المجلد الثالث من مجلة معهد المخطوطات ، ويقول انها نسخة جيدة ، وتقع فيما لا يقل عن ٢٠٠ ورقة من القطع الاعتيادي .

ويقول ان صاحب المكتبة المذكور قد توفي ، ثم توفي ولده ، ولا يعرف لمن آلت من بعدهما ، والعثور على تلك النسخة أمر بالغ الصعوبة .^(٧)

(١٦) نسخة مكتبة الدراسات العليا ببغداد ، تسلسل ٦٦ :

تمت كتابتها في ٣٠ شعبان عام ١٢٢٩هـ ، بخط نسخي ، وناسخها مجهول يبلغ عدد أوراقها ٣٢ ورقة ، مضافاً اليها (٨) ورقات ، جاءت متداخلة معها ، وليست من شعر ابن المقرب ، وهي عبارة عن مجموعة قصائد متبادلة بين ثلاثة شعراء على نمط النقاش ، وهم السيد الهادي بن ابراهيم بن علي المرتضى بن الوزير ، والأسلمي علي بن سليمان ، وابن العليف . وليس من شك في أن هذا خطأ عامل التجليد لا الناسخ .

مسطرتها ٢٠ سطراً ، وعدد أبياتها ١٢٠٠ بيت ، وهي بهذا لا تزيد عن

١٨) نسخة الاسكندرية ، تسلسل ٢٠٢٨ - ج :

وهي محفوظة بمكتبة بلدية الاسكندرية ، وقد تمت كتابتها عام ١٢٨٤هـ ، وناسخها مجهول ، مكتوبة بقلم عادى . وهي بلا مقدمة ، وقد كتب في صدرها : ديوان الامام بن المقرب الحماسى اليمنى البغدادى رحمه الله تعالى : وكتب في صدر الصفحة الاولى منها : « هذا ديوان الشاعر الأديب والفصيح اللبيب ، ابن معشوق البغدادى ، عليه رحمة الهادى ، وهو من كتب الادب المعتبرة في البلاغة وغيرها ، ولله دره » وهذا مما يحمل على الشك في النسخة ، لولا ان كل ما جاء فيها هو لابن المقرب ، وكان هذا خطأ من الناسخ .

ومسطرتها (١٥) سطرا وقصائدها مرتبة بحسب الحروف الابجدية للقافية ويبلغ عدد أبياتها ٤٨٣٧ بيتا . وقد أتلّف السوس كثيرا من أبياتها .

١٩) نسخة دار الكتب المصرية ، تسلسل (٥٢٢) أدب :

وقد تمت كتابتها في جمادى الآخرة عام ١٢٨٦هـ ، مكتوبة بقلم معتاد ، مشكولة بعض الشكل ، وتقع في ١٢٢ ورقة ، مسطرتها ٢١ سطرا ، وعدد قصائدها ٩٥ قصيدة ، ويبلغ عدد أبياتها نحو (٥٠٤٠) بيتا .

وقد أحتفظت هذه النسخة بقصيدة للشاعر ، يبكى فيها الحسين بن على ، رضى الله عنهما ، ويذكر بعضا من صور التشيع ، وقد سبق الحديث عن موقفنا من هذه القصيدة ، عند الحديث عن معتقد ابن المقرب .

وقد كانت هذه النسخة ملكا للشاعر محمود سامى البارودى ، وتعد خير النسخ وأكملها ، وأكثرها شمولا لشعر الشاعر ، وقد أفاد منها كثيرا المكتب الاسلامى بد مشق في طبع الديوان ، كما اعتمد عليها الدكتور عبدالفتاح الطو في تحقيقه له .

٢٠) نسخة دار الكتب المصرية - تسلسل (١٠١٧) أدب :

وقد تمت كتابتها في السابع والعشرين من جمادى الاولى سنة ١٢٩٣هـ وقد كتبت بخط نسخى ، على ورق أصفر ، في ١٢٢ ورقة ، ومسطرتها ٢١ سطرا ، وناسخها خليل الشبكثى . وهذه النسخة منقولة عن نسخة دار الكتب المصرية ، تسلسل ١٢٦ أدب . فهما متفقتان في عدد القصائد ، وترتيبها ، وعدد الأبيات .

٢١) نسخة المكتبة البريطانية (غير المشروحة) والمحفوظة تحت (٧٢٩٤) O.M.P :

وعدد أوراقها ١٣٠ ورقة ،

ومسطرتها ١٧ سطرا ، ويبلغ عدد قصائدها ٧٦ قصيدة ، مرتبة بحسب الحروف الهجائية للقافية ، وعدد أبياتها ٤٠٤٥ بيتا .

والنسخة مكتوبة بخط نسخي متقن ، مضبوطا ضبطا جيدا . ناسخها مجهول ، كما أنها لم تحتفظ بتاريخ نسخها كاملا ، فقد جاء في آخرها ما نصه « وقد وقع الفراغ منه يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة الشريفة » ، وعليها ختم تملك باسم سعد الدين .

وعلى الصفحة الأولى منها زخارف عربية ، كتبت البسملة أسفلها في إطار زخرفي جميل ، وحدها مقدمة في أربعة أسطر ، ثم بدأها بحائثته في مدح الناصر :

ارتها الماقي ما تكن الجوانح
فبح فالعنى بالصباية بائح
والنسخة في حالة جيدة ، لا تلف فيها ، ولا خروم ، كما أنها قليلة الأخطاء .

(٢٢) نسخة الظاهرية بدمشق ، تسلسل (٦٧٣٤) :

وهي نسخة حديثة سقيمة ، اضطربت أوراقها ، وفيها نقص وخروم كثيرة أصابت الرطوبة أوراقها الأولى ، والاقسام العليا من سائر الأوراق ، وخطها نسخي قريب من الجيد ، مشكول بعض الشكل ، مجهولة الناسخ وتاريخ النسخ ، ومسطرتها (١٣) سطرا .

وقد نقصت من أولها ، وأول الموجود منها البيت التالي :

لاتنسبونى الى منشئى بينكم
الترب ترب وفيه منبت الذهب
وأخر أبيات فيها قالها حين ليم على ترك المديح ، أولها :

لاموا على تركى المديح لأننى
أليت . ان لا أنظم الشعرا
وعدد قصائدها (٥٩) قصيدة ، غير مرتبة أبجديا ، ويبلغ عدد أبياتها ٢٦٢٦ بيتا .

وهذه النسخة فيها كثير من الأبيات ، وبعض القصائد التى لم ترد سوى في نسخة لندن المشروحة تسلسل ٧٢٨٨ O.M.P . ونسبة الخطأ فيها قليلة ، وهذا مادعا المكتب الاسلامي بد مشق الى وضع ملحق لطبعته الأولى ، متداركا تلك الأبيات والقصائد ، كما سهلت عليه تصحيح بعض الألفاظ ، وتقييم بعض الأبيات في الطبعة الثانية التى لم يصدر منها سوى الجزء الأول الحق الناسخ بها لا ميتى العجم والعرب .

(٢٣) نسخة المكتبة العباسية بالبصرة :

وهي مختارات من شعر ابن المقرب ، تقع في ٤٢ ورقة ، وتضم ١٢٠٠ بيت مكتوبة بخط نسخي جيد ، مجهولة الناسخ ، وتاريخ النسخ ، ومسطرتها ١٦ سطرا . وتتفق مع نسختي مكتبة الدراسات

العليا ببغداد ، ونسخة برنستون غير المشروحة ، ونسختي ميلانو (٩ ، ١٠) .

(٢٤) نسخة مدريد ، تسلسل (٥٢٤١) :

سقطت منها مقدمتها ، كما سقط آخرها ، ناسخها مجهول وتاريخ نسخها غير معروف وخطها نسخي جميل ، ومسطرتها ١٧ سطرا ، والنسخة لا خروم فيها ، وفيها من القصائد ٧٣ قصيدة ، غير مرتبة أبجديا ، وقد تداخلت بعض القصائد مع غيرها ، كما حدث في كافيته ، ثاني قصائد المخطوطة ، فقد تداخلت مع القصيدة الأولى فيها ، ومطلعها :

تجاف عن العتبي فما الذنب واحد
وهب لصروف الدهر ما أنت واجد
وكما حدث في ثانيته أيضا . أما قصيدته التي مطلعها :

منال العلي بالمرهفات القواضب
وسمر العوالى والعقاق الشواذب
فهى تحمل نفس المقدمة ، التى انفردت بها نسختا الموصل والمتحف العراقى . وهذه النسخة (نسخة مدريد) احدى نسختين احتفظتا بعينيته المنحولة عليه فى بكاء الحسين ، ولكنها لم تحتفظ بها كاملة ، فلم يبق منها سوى ٢٦ بيتا من أصل ٧٦ بيتا ، تحتفظ بها نسخة دار الكتب المصرية تسلسل ٥٢٢ ادب ، ويبدو أن الأبيات قد سقطت منها ، لأن هناك إشارة لوجودها .

والقصائد تخلص من الشروح والتعليقات ويبلغ عدد أبياتها ٣٥٩٦ بيتا ، ولو قدر لهذه النسخة أن تحتفظ بما سقط منها ، لكانت من نسخ الديوان النادرة .

وكان الدكتور محسن جمال الدين أول من أشار إليها ، بعد اطلاعه عليها .^(٨) ، ولكنه لم يصفها لنا .

(٢٥) نسخة برنستون المشروحة ، تسلسل (٤٤) :

وتقع فى ٣٥٧ ورقة ، ومسطرتها ١٨ سطرا ، مجهولة النسخ ، وتاريخ الكتابة مكتوبة بخط نسخي واضح ، مضبوطة بالشكل ، وتحوى من قصائد ابن المقرب ٧٢ قصيدة ، مرتبة أبجديا ، وفيها من الأبيات ٣٩٣٢ بيتا .

لها مقدمة موجزة فى سطور أربعة خرج منها الى الإشارة لصاحب الديوان على ابن محمد بن المقرب الاحسانى « دون ايراد لسلسلة الأبوة ، ثم دخل مباشرة فى ذكر شعره . وقد كتب على الصفحة التى تسبق صفحة العنوان » : وأجمعت العلياء على أن ليس فى شعر الاسلام مثل ثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل ، ويقال أن بيوت الشعر أربعة : فخر ومديح وهجاء وتشبيب ، وفى الأربعة فاق جرير غيره ثم يستشهد بأبيات قليلة ، على كل نوع من شعر الأخير . والخط فى المقدمة وما قبل المقدمة ، أقل جودة مما بعده ، فما يلى صفحة المقدمة

(٤٥٨٢) بيتا . والنسخة
بلا مقدمة ، وأول الشعر :

تحن الى بذل النوال أكفهم
حنينا كذات السقب فارقتها السقب
وأخرها :

فإن ضيعت حقي لكيز وانكرت
بنو عامر سعى لها واجتهاديا
ثم صفحتان خاليتان ، بعدهما
عينية ملحقة بالديوان ، تبلغ أبياتها
١٣ بيتا ، أولها :

دموع اسالتها البروق اللوامع
ووجد أهاجته الحمام السواجع
ويختلف خط الصفحة التي كتبت
عليها العينية اياها عن خط النسخة ،
كما ان مسطرتها تختلف عن سائر
صفحات النسخة ، فمسطرتها ١٣
سطرا ، وقد التزم الناسخ بوضع
فاصلة بين صدر البيت وعجزه ،
وفاصلة بعد عجز البيت ، ولكن أبيات
هذه القصيدة الملحقة لم يراع فيها
مثل ذلك ، مما يرجح أنها ليست من
ديوان الشاعر ، وانها ضمت اليه -
خطأ - عند التجليد أو الترميم .
ولا تحمل هذه النسخة جديدا ،
عدا احتفاظها بمقدمة لفائيتها التي
مطلعها :

بنى مذ غبت عن عيني ما عرفت

غمضا ولابت الا ساهرا دنفا
جاء فيها « وقال أيضا يستنهض
ولده بالوصول اليه ، وكان كثير
الاشتياق اليه ، وكثير الاشفاق عليه ،
وكان قد كبرت سنه ، وأصيب بولد

مكتوب بخط متقن .

وأخر قصيدة في المخطوطة كتب
نصفها ، ثم ذكرت قصيدة للنابغة
الجعدي ، وهذه القصيدة وسابقتها
تشبه في خطها غير المتقن خط المقدمة .
وبعد قصيدة النابغة كتبت كلمة
« تمت » ثم صفحة لم أتمكن من
قراءتها ، ثم نصف صفحة بعدها
لا علاقة لها بموضوع المخطوطة .

والمخطوطة بدون أخطاء ، ومعظم
قصائدها لها شروح ، وملاحظات
هامشية وقد ميزت الكلمات بكتابتها
بلون أحمر ، وفي الشروح نجد كثيرا
من المعلومات التاريخية عن الدولة
العيونية ، وعن قبيلة عبدالقيس .
وتنفرد هذه النسخة مع نسخة
الاسكندرية في مقدمات كثير من
القصائد ، وتزيد في مقدمات بعض
القصائد عن سائر المخطوطات .

والمخطوطة بحالة جيدة ، وقد
رست في أمريكا ، وقد كانت ملكا - قبل
ذلك - لمؤسسة (بريل) في هولندا ،
وقد اطلع عليها المستشرق الفرنسي
(دى جويا) عندما كتب مقالته عن
نهاية القرامطة في البحرين) (٩) .

(٢٦) نسخة ميلانو . (MS. AG.
XIV 47) :

مكتوبة بقلم معتاد ، وهى مجهولة
الناسخ ، وتاريخ النسخ ، ومسطرتها
١١ سطرا وعدد قصائدها (٩٠)
قصيدة ، مرتبة بحسب الحروف
الأبجدية للقافية ، ويبلغ عدد أبياتها

اسمه حسين » والملاحظ ان هذه القصيدة قد احتفظت معظم نسخ الديوان الخطية بمقدمتها ، وهي تختلف عما احتفظت به هذه النسخة ، ويفهم منها أن ابن المقرب قد كتبها على لسان رجل موصل .

وإلى جانب هذه النسخ التي تناولناها بالوصف ، فهناك نتف من شعر ابن المقرب ، تناثرت في نسخ خطية أخرى - عثر عليها حديثا بميلانو - حوت مختارات شعرية لشعراء مختلفين ، من أزمنة مختلفة ، ومع أن هذه النتف من شعر ابن المقرب لا تضيف جديداً الى ديوانه ، الا أننا سنشير إليها ، ونتناولها بوصف موجز :

أ - نسخة خطية تسلسل A) (١١٩) (١٠) :

وقد تمت كتابتها سنة ١١٣٠هـ ، مكتوبة بخط نسخي ، وناسخها غير معروف ومسطرتها ٣٧ سطرا ، وتوجد على الصفحات ٧٨ وجه - ٧٩ ظهر ، من الفصل ٣٤ مختارات من شعر ابن المقرب قليلة الضبط ، ويبلغ عدد أبياتها ٣٩ بيتا .

ب - نسخة خطية تسلسل C) (١٦٣) (١١) :

كتبت في محرم عام ١٢١٥هـ ، بخط أحمد بن حسين بن عباس بن يوسف بن المهدي ، مكتوبة بخط نسخي ، ومسطرتها ٢٩ سطرا ، ويوجد على الصفحة ٦١ منها ٢١ بيتا لابن المقرب تمثل جزءا من بانيته التي مطلعها :

اتدرى الليالي أي خصم تشاغبه
وأي همام بالرزايا توائبه

ج - نسخة خطية تسلسل D) (٤١٥) (١٢) :

وقد كتبت بخط فارسي رديء ، وناسخها مجهول ، وكذلك تاريخ نسخها ، مسطرتها ٢٣ سطرا ، وفي الفصل السادس منها ، وعلى الصفحات ٧٤ - ٧٦ توجد قصيدتان لابن المقرب ، وهناك قصيدة ثالثة مطموسة تماما ، ويبلغ عدد الأبيات الموجودة ٥٨ بيتا .

د - نسخة خطية تسلسل E) (٣٥٤) (١٣) :

مكتوبة بخط فارسي غير واضح ، مجهولة النسخ ، وتاريخ النسخ ، مسطرتها ٣٨ سطرا ، والسطور متداخلة ، مما يجعل قراءتها صعبة ، كما أن ناسخها قد كتب كل بيتين في سطر . وعلى الصفحة ٢٠٥ وجه ، من الفصل الثالث ، توجد عينية ابن المقرب ، والتي مطلعها :

إلام أورد عتبا غير مستمع
وانفق العمر بين اليأس والطمع

هـ - نسخة خطية تسلسل E) (٤٤٩) (١٤) :

مكتوبة بخط رقعة رديء ، كثيرة الأخطاء ومسطرتها ٢٩ سطرا ، وتضم ٥٦ بيتا من شعر ابن المقرب ، تمثل داليته التي مطلعها :

خلياني من وطاء ووساء
لا أرى النوم على شوك القتاد
كما تحوى ٣ أبيات من بانيته التي

أولها :

خذوا عن يمين المنحى أيها الركب
لنسال ذاك الحي ماصنع السرب
ولعلنا لاحظنا أثناء وضعنا لنسخ
الديوان الخطية ، أنه من الممكن
تصنيفها في عدد من العائلات ، بناء
على تشابهها في عدد القصائد
وترتيبها ، وما احتفظت به من
مقدمات ، وتقاربها في عدد الأبيات ،
أو تشابهها في شروح القصائد ، أو
تشابهها في الأخطاء ، والحاق بعض
القصائد للديوان .

وأول هذه العائلات ، وأكثرها
تشابها ، مجموعة النسخ المكونة من :
- نسخة الفاتيكان تسلسل
(١١٥٠) .

- نسخة مكتبة الدراسات العليا
تسلسل (٢٠٣) .

- نسخة دار الكتب المصرية
(١٠٩١) .

- نسخة برنستون غير المشروحة
تسلسل (٤٥) .

- نسخة ميلانو تسلسل (C ١٨٥) .

- نسخة ميلانو تسلسل (E)
(١٣٤) .

فقد تشابهت هذه النسخ في عدد
القصائد ، وترتيبها ، وعدد أبياتها ..
ومن الواضح أن نسخة الفاتيكان هي
أصل هذه المخطوطات ، لأنها
أقدمها ، وقد حوت من القصائد ٣٦
قصيدة ، أما سائر النسخ - من هذه
العائلة - فنجد أنها قد ختمت بكلمة
(تمت) بعد القصائد الست

والثلاثين ، ثم أورد نساخها أربع
قصائد أخرى ، وهذا مما يرجح أن
الناسخ الذي أخذ من نسخة
الفاتيكان قد عثر على هذه القصائد
الأربع ، أو اختارها وأضافها من ثم
إلى النسخة الجديدة .

ولكن نسختي مكتبة الدراسات
العليا ، ونسختي ميلانو ، ونسخة دار
الكتب المصرية ، زادت عن سائر
المخطوطات من هذه المجموعة ، أنها
قد ختمت بميمية ليست من شعر ابن
المقرب ، بل هي (لجمال الدين علي
محمد بن زيد بن علي ، المعروف
بعلوي البصرة) ولعل تشابه اللقب
والاسم (جمال الدين علي) بين
الشاعر والمذكور ، كان سبب هذا
الخلط .

وثاني هذه العائلات ، مجموعة
النسخ المكونة من :

- نسخة مكتبة الأوقاف العامة
بالموصل تسلسل (٦٨٤) .

- نسخة مكتبة الأوقاف العامة
بالموصل ، تسلسل (١٦٢) .

- نسخة المتحف العراقي ، تسلسل
(٨٩٨٩) .

وقد اتفقت هذه النسخ الثلاث في
عدد قصائدها ، وترتيبها ، وعدد
أبياتها ، كما اتفقت في الأخطاء ، وفي
مقدمات قصائدها ، كما أنها انفردت
بالاحتفاظ بقصيدتين للشاعر ، لم
نجدهما في سائر مخطوطات الديوان :
أولاهما : طائفة ، ومطلعا .

وفي طوله المعروف يد الرجا
وفي بحر جدواه لآمالنا غط

وثانيتها : زائية ، ومطلعها :

لما حدث ركاب بعيسها
مدح كمال الدين في ارتجازها
وأقدم نسخ هذه المجموعة ، هي
نسخة الموصل تسلسل (٦٨٤) .
أما ثالث هذه العائلات ، فتتكون
من :

- نسخة دار الكتب المصرية تسلسل
(١٢٦) - نسخة الاسكندرية ،
تسلسل (٢٠٢٨ - ج) .
- نسخة دار الكتب المصرية ، تسلسل
(٥٢٢) .
- نسخة دار الكتب المصرية ، تسلسل
(١٠١٧) .
- نسخة مدريد ، تسلسل
(٥٢٤١) .

وتمتاز النسخ الأربع الأولى من
هذه المجموعة . بأنها أو في النسخ ،
وأشملها لشعر الشاعر ، وهي متقاربة
في عدد قصائدها ، وترتيبها ، وعدد
أبياتها ، وقد زادت عنها النسخة
(٥٢٢) بقصيدتين .

أولاهما : العينية المنحولة .

وثانيتها : يائيتها والتي مطلعها :

تخفى الصبابة والالفاظ تبديها
وتظهر الزهد بين الناس تمويها
ولكنها فيما عدا ذلك تتفق معها الى
حد كبير .

أما نسخة مدريد ، فلولا ما قد
سقط منها ، لكانت متماثلة تماما مع
نسخة دار الكتب (٥٢٢) لأنها
النسخة اليتيمة التي تشاركها

الاحتفاظ بالعينية المنحولة .

ولولا سقوط البائية - التي أشرنا
اليها أنفا - من نسخة دار الكتب
المصرية (١٢٦) لكانت أفضل
النسخ على الاطلاق ، لأنها أقدم هذه
المجموعة ، وأجودها خطأ ، وأوفرها
ضبطا ، ولكن ضياع هذه القصيدة
منها ، هو الذي قدم عليها لدينا نسخة
دار الكتب المصرية (٥٢٢) .

ورابع هذه العائلات ، تتكون من :
- نسخة برلين المشروحة ، تسلسل
(Pet 198) .

- نسخة برنستون المشروحة ، تسلسل
(٤٤) .
- نسخة الماجدية المشروحة بمكة
المكرمة .

وهي عائلة واحدة من حيث
الشرح ، وتعد نسخة برلين أصل هذه
المجموعة ، لأنها أقدمها ، بل أقدم
النسخ الخطية والكاملة للديوان ،
وتكاد نسخ هذه العائلة تتفق في
شروحها ، وخاصة في المادة التاريخية
المتعلقة . بنهاية القرامطة ، وقيام
الدولة العيونية ، والأحداث الهامة
التي تمت ابان حكم العيونيين ، ولكن
يلاحظ على نسخة برلين أن قصائدها
غير مرتبة أبجديا ، في حين التزمت
نسختا برنستون ، ومكة المكرمة
الترتيب الأبجدي للقصائد .

وخامس هذ العائلات ، تتكون من
نسختي :

- المكتبة البريطانية ، تسلسل
(٧٢٨٨) .
- ودار الكتب الظاهرية ، تسلسل

(٦٧٣٤) .

وتنفرد هاتان النسختان
باحتفاظهما بعدد من القصائد
والأبيات ، التي قد خلت منها سائر
النسخ الخطية للديوان ، وأرجح أن
يكون ناسخ الظاهرية ، قد أخذ
قصائد النسخة البريطانية المشروحة
دون شرحها ، محتفظا بترتيبها ، ثم
أضاف بضع قصائد للشاعر من
مصدر آخر . لذا فعدد القصائد
والأبيات متقارب في كليهما ، وقد
الحقت بهما لامية العجم ، ولكن
نسخة الظاهرية قد أتبعها بلامية
العرب .

ومع أن هاتين النسختين قد احتوت
كل منهما على ما يقرب من نصف شعر
ابن المقرب الا أن قيمتهما مردها الى
القصائد التي انفردتا بها من شعر
الشاعر دون سائر النسخ الخطية .
أما نسخة «خنجي» المشروحة
والمفقودة ، فيمكن ادراجها - حسب
ما توفر لي من معلومات عنها - ضمن
العائلة الرابعة .

وبالنسبة لنسخة المكتبة
البريطانية غير المشروحة ، تسلسل
(٧٢٩٤) فقد اختلفت في عدد
قصائدها ، وترتيبها ، وعدد أبياتها
عن سائر النسخ ، مما جعلني أتحرز
في ادراجها ضمن أي العائلات
الخمس ، وقد التزمت مثل هذا الحذر
بالنسبة لنسخة ميلانو (MS. AG. 47).
XIV .

أما بقية النسخ فهي لا تزيد عن
كونها مختارات يسيرة من شعر ابن

المقرب .

الديوان مطبوعا :

تم طبع ديوان ابن المقرب بخمس
طباعات ، في أربعة أقطار مختلفة ،
تفاوتت في الجودة والاتقان ، وعدد
القصائد والأبيات ، والضبط ، والشرح ،
وتخريج الأبيات كما اختلفت في
الأصول التي اعتمدت عليها ، وأقدم
هذه الطباعات الخمس هي :

الطبعة المكية :

وقد تم طبعها طبعة حجرية بمكة
المكرمة في أواسط شهر ربيع الثاني
سنة ١٣٠٧ هـ أيام العثمانيين ، ولكن
هذه الطبعة رديئة وسقيمة وغير
محقة ، خالية من الشرح والضبط ، لذا
فقد حفلت بكثير من الأخطاء المطبعية
والاملائية ، وكثير من الأبيات معناها
مضطرب ، وتفتقر للمزيد من الدقة
والاتقان في اخراجها ، وعدد قصائدها
٨٣ قصيدة ، وعدد أبياتها ٣٨١٢ بيتا ،
والقصائد فيها مرتبة بحسب
الحروف الهجائية للقافية ، ولا تخلو
قصيدة فيها من سقوط أبيات منها ،
وقد تداخلت بعض القصائد مع غيرها
كما حدث في قصيدته ، والتي أولها :

تجاف عن العتبي فما الذنب واجدٌ
وهب لصروف الدهر ما أنت واجدٌ
فقد تداخلت مع كافيته . وهذا ما
لاحظناه وسجلناه أثناء وصفنا
لمخطوطة اسبانيا .

كما ان هذه المطبوعة لم تلتزم
الترتيب الهجائي في بعض القصائد .

بن ابراهيم بن جغيان، وقام بجمع الشعر الشيخ حمد بن خليفة العيوني الاحسائي، ولا نعرف أهو بهذه النسبة ينتمي الى (العيونيين) الذين منهم الشاعر، أم انها مجرد نسبة الى بلدة العيون، وكانت المطبوعة بخط رئيس المحررين بالهند آنذاك ملا محمود بن الشيخ آدم المقدم الكوكيني الشافعي فقد تم الطبع بواسطة الحجر حسبما هو شائع في الطباعة بالهند يومذاك.

وقد جاء في صدرها مقدمة مفيدة، لا نعلم كاتبها، ألفت بعض الضوء على حياته وأخلاقه ورحلاته وعلاقاته بحكام عصره. وهي تتفق مع كل النسخ المخطوطة - التي احتفظت بهذه المقدمة - في الجزء الأول منها، وفي صدر النسخة «ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا». هذا ديوان أفصح الفصحاء، وأبلغ البلغاء، صاحب الحماسة المرتوي من مورد الشرف بهنى كاسه، المتغذي بلبان المجد، والمزري بسقط الزند، ذي الخطر الكبير، علي بن مقرب بن علي العيوني الأمير، صب الله على قبره سجال الرحمة، وأكرم نذله، وسائر الأمة، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، وكل ناسج على منواله».

وهذه النسخة محلاة بالضبط الخفيف في بعض المواضع، والكثير من قصائدها مشروح، وهي تعد مصدرا هاما بالنسبة لتاريخ البحرين بعامة، والعيونيين بخاصة، إلا أن الشارح

وقد كتب في مقدمة النسخة: «هذا ديوان الشاعر اللبيب الفاضل الأديب أبو عبدالله محمد بن علي بن المقرب بن المنصور بن مقرب بن علي بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم بن محمد القيولي الاحسائي، بل الله ثراه.

وفي الصفحة الأخيرة من الديوان، وبعد أن انتهى من شعر الشاعر، ذكر سبعة أبيات للفقيه النسابة أحمد بن محمد الأشعري، ثم ذكر خمسة أبيات أخرى ولم يذكر صاحبها. وهذه اضافات تخرج بها عن موضوع الديوان.

وقد تم طبعها على نفقة الشيخ عبدالله بن سعيد باخطمه، بالمطبعة الميرية بمكة المكرمة. ولكن هذه المطبوعة لا يمكن للباحث أن يعول عليها وحدها، لكثرة أخطائها، واضطرابها، واغفالها الكثير من شعر الشاعر، وعدم ضبطها، وخلوها من الشروح والتعليقات، وهي نادرة الوجود، ولعل أحد الباحثين كان يقصدها حين وصفها بقوله «وهناك طبعة مصرية صفراء مغلوطة غلطا فاحشا»^(١٥).

الطبعة الهندية :

وكانت الطبعة الثانية طبعة حجرية في صفر ١٣١١هـ، بمطبعة د ت برسار في «بمبي»، وعلى نفقة الشيخ عبدالعزيز بن أحمد العويصي، وعقب عليها الشيخ عبدالله بن محمد بن صالح الزواوي المدرس بالمسجد الحرام آنذاك، وصححها الشيخ محمد

المجهول قد جنح به الخيال في بعض الأحيان، فسجل أوهاما لا يقبلها العقل، ولا يقرها المنطق.

وفي هذه النسخة بعض القصائد والأبيات التي خلت منها المطبوعة السابقة والملاحظ ان جامع الديوان، ومصححه ومن عقب عليه، لم يطلع أحدهم على النسخة المكية، علما أن ما بينهما من الزمن لا يزيد عن سنوات أربع، لأن هناك قصائد وردت في الأولى، وخلت منها الثانية، فبائيته التي مطلعها:

أبى الدهر أن يلقاك إلا محاربا

فجرد له سيفاً من العزم قاضيا وبائيته التي أولها:

دع الكاعب الحسناء تهوى ركابها

وتبلى لها في حيث شاءت قبابها وبائيته التي مطلعها:

منال العلى بالمرهفات القواضب

وسمر العوالي والعقاق الشواذب خلت منها كلها مطبوعة الهند، كما خلت من لاميته التي مطلعها:

يا ساهر الطرف من خوف ومن وجل

نم في جوار الهمام السيد البطل وعدد قصائد هذه النسخة ٩٢ قصيدة، وعدد أبياتها ٤٧٦٦ بيتا، والقصائد فيها مرتبة بحسب الحروف الأبجدية للقافية، ولم يحدث اضطراب في ترتيبها الا في موضع واحد، حين تداخلت داليتها مع قافية الراء، الأولى ومطلعها:

طما بحر الهموم به فماذا

وعوضه من الغمض السهادا

والأخرى وأولها:

كره الله ما أحب الاعادي

وأبى ما أراد أهل العناد وهذه المطبوعة أقل من سابقتها خطأ، وتفوقها في عدد القصائد والأبيات، وامتازت عنها بالشرح والتعليق، وبالمقدمة الكاملة في صدرها. وهي أيضا نادرة الوجود كسابقتها.

مطبوعتا المكتب الاسلامي بدمشق:

الأولى: فبعد أن أصبحت نسخ الديوان نادرة الوجود، أمر صاحب السمو الشيخ علي آل ثاني - حاكم قطر الأسبق - باعادة طبعه وتوزيعه على نفقته الخاصة وكان هذا دأبه في نشر كل نافع مفيد من كتب العقيدة، والسنة، والفقه، والأدب، وتمت طباعته بالمكتب الاسلامي بدمشق عام ١٣٨١هـ، وقد اعتمد المكتب عند الشروع في طبعه على نسخة من المطبوعة الهندية، وجدنا انها تحتوي على القصائد التي خلت الأخيرة منها، وهذا يعني انه قد اعتمد أيضا على نسخة من المطبوعة المكية، لذا فقد احتفظت هذه النسخة بصفات المطبوعة الهندية، التي ذكرناها أنفا عند حديثنا عنها، ولكن نسخة المكتب الاسلامي تزيد عنها في عدد القصائد والأبيات، نظرا لاعتمادها على مصدر آخر، كما انها تقل عنها في الأخطاء، وقد وضع مع ديوان ابن المقرب، ديوان الشاعر فتح الله بن النحاس، في مجلد واحد، وجاء بعد ديوان ابن النحاس ملحق خاص بديوان ابن

أشارت أن المذكور قد طبعها على نفقته، وليس شارحها، فشارحها مجهول.

وهذه النسخة ذات طابع تجاري، لأن المكتب لم يتوخ المنهج العلمي في إخراجها، ومقابلتها على ما بين يديه من نسخ خطية أو مطبوعة، وهي خير من سابقتها.

الثانية : ثم نهض المكتب الاسلامي بدمشق، بطبع الديوان مرة أخرى عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، تلافيا لما جاء في الطبعة الأولى من أخطاء، وتنفيذا لأمر صاحب السمو الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني، ولكنه لم يصدر حتى الآن سوى الجزء الأول منه، ويقع في ٥١٣ صفحة، وآخره كافيته التي مطلعها:

أَمِنْ دِمْنَةٍ بَيْنَ اللَّوَى وَالدَّكَادِكِ

شَغِفَتْ بِتَذْرَافِ الدَّمُوعِ السَّوَاكِ وَيُضْم ٥٣ قصيدة من ديوان الشاعر، ويبلغ عدد أبياتها ٢٥٧٥ بيتا. وفي صدر الديوان مقدمة أكثر إجازا من مقدمة الطبعة الأولى، يليها إشارة لمخطوطات الديوان المصرية، والسورية، واثنتين من المخطوطات العراقية، ولم يتعد ذلك الى وصفها.

وقد حاول المكتب في هذه الطبعة أن يستوفي جميع ما ورد لابن المقرب من شعر فيما بين يديه من مصادر، فشملت القصائد والمقطوعات والأبيات التي لم ترد في الطبعة الأولى، مرتبة بحسب مواضعها، وقد استغنت هذه الطبعة عن ملحقات الطبعة

المقرب. فقد عثر المكتب الاسلامي بدمشق على نسخة خطية لديوان ابن المقرب، بالمكتبة الظاهرية، بعد أن تم طبع الديوان، فبادر الى مقابلة مطبوعته عليها، وعند الانتهاء من المقابلة تبين له:

أ - وجود أكثر من قصيدة في المخطوطة خلت منها مطبوعته.
ب - سقوط بعض الأبيات من القصائد المطبوعة.

ج - تصويب كثير من الألفاظ المحرفة التي جاءت في الديوان المطبوع في الهند، ولم يستتب وجه الصواب فيها.

لذا بلغ عدد أبياتها ٥٣٢٩ بيتا، في الملحق منها ٣٤٩ بيتا، وبهذا فقد زادت في عدد أبياتها عن نسخة الحلو - التي اعتمدها أساسا لدراستنا - ٦٧ بيتا، وعند مقابلتها على نسخة الحلو، وجدنا أن هناك أبياتا فيها لم ترد في نسخة الحلو وعددها ٢٢٢ بيتا، كما ان هناك أبياتا في نسخة الحلو لم ترد فيها وعددها ١٦٥ بيتا، وعدد قصائدها ٩٧ قصيدة، فقد نقصت عن نسخة الحلو قصيدة واحدة، هي عينيته في بكاء الحسين، المشكوك في نسبتها اليه.

وقد جاء في صدر النسخة تعريف موجز بالشاعر، مأخوذ من مقدمة النسخة الهندية، ولكن من قدم لها، ذكر أن النسخة مشروحة من قبل الشيخ عبدالعزيز بن أحمد العويصي، وهذا خطأ بَيِّن، لأن النسخة السابقة

الأولى.

وقد ضمن المكتب طبعته هذه عينية ابن المقرب في بكاء الحسين، ومصدره في ذلك النسخة الخطية الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٢ أدب، وهذا ما اعتمد عليه الحلو أيضاً، وقدم لها المكتب بقوله «هذه القصيدة موجودة في مخطوطة واحدة من مخطوطات الديوان، وهي ان صحت تثبت تشيع الشاعر»^(١٦).

كما قام بتصحيح ترتيب الأبيات تقديمًا وتأخيرًا، وأثبت مقدمات بعض القصائد التي لم تتوفر له مقدماتها في الطبعة الأولى، وصحح بعضها الآخر أو أكمله، وانتفى من روايات الأبيات أصلها معنى ومبنى ووزنًا، وصحح أخطاء الشرح وتصحيقاته. كما شرح بعض ما أهمله شارح الديوان من المفردات الغريبة الضرورية، وضبط النص بشكل أفضل من النسخة السابقة. لكنه سار على المنهج السابق في إخراجها، ولم يلتزم منها علميًا في ذلك، فاستغنى عن ذكر أسماء النسخ المختلفة عند تصحيح بعض الكلمات أو التعابير، واستبدال بعضها ببعض،^(١٧) هذا بأنه حرص على راحة القارئ، وعدم إرهاقه بالروايات المختلفة وتشويقه، لذا اعتمد في تصحيح التصحيف والتحريف الكثير على اجتهاده الخاص، ولم يذكر اختلاف روايات النسخ الا حينما عجز عن الوصول الى رأي قاطع. كما ذكر أنه قد اعتمد على نسخة

المتحف العراقي الخطية، وأثبت في مقدمة الديوان صورة للصفحة الأولى منها، ولكن هناك قصيدتان فيها، لا وجود لهما في طبعته، الأولى طائيته التي مطلعها:

وفي طول المعروف طول يد الرحا
وفي بحر جدواه لآمالنا غط
والثانية زائيتها والتي أولها:
لما حدث ركائب بعيسها

مدح كمال الدين في ارتجازها
ولو تم انجاز الجزء الثاني من
الديوان، لكانت هذه الطبعة أفضل من
سابقتها، ولكن من المؤسف أن يتوقف
هذا العمل الجليل عند هذا الحد.

نسخة الحلو :

وهي رابع طبعات الديوان في الترتيب الزمني، وأسبق من الطبعة الثانية للمكتب الاسلامي، قام بتحقيقها الدكتور عبد الفتاح الحلو، وسلك في تحقيقها منهجاً علمياً، واعتمد في ذلك على المخطوطات المصرية للديوان، واتخذ من النسخة الخطية - المخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٢ أدب - أصلاً. كما اعتمد على مطبوعتي مكة والهند، فأنثت الروايات المختلفة للبيت، أو للكلمة، أو لمقدمات القصائد، وقام بعمل مقدمة مناسبة له، استفاد فيها كثيراً من مقالة^(١٨) للأستاذ حمد الجاسر.

وهي طبعة مشروحة، اعتمد في شرحها على الشرح المذيل به الديوان

تيسر له الاطلاع على مطبوعة المكتب، وبعض المخطوطات الأخرى، لأمكنه بذلك أن يحقق لمطبوعته قدرا أكبر من الكمال، ولكن ما بذله فيها من جهد كبير، يستحق عليه الثناء والتقدير.

أغراض الشاعر الشعرية

بعد أن تتبعنا ديوان ابن المقرب، وما اشتمل عليه من شعر يبلغ خمسة آلاف وأربعمائة وواحد وعشرين بيتا وجدنا أن أغلب شعره ذاتي، وأن ذاته متضخمة فيه الى حد كبير، لذا رأيت - في تناولي لأغراض شعره - أن تكون الذاتية هي الأساس، فشعر ابن المقرب يصدر في معظمه عن ذاته، وانفعاله بالأحداث من حوله، وأما الغيرية عنده فهي أمور اضطرارية.

ومن أجل هذا سنتناول موضوعات شعره بناء على مدى قربها أو بعدها من نفسه، إن غرضا كالممدح يتأخر عن الكثير من أغراضه، علما بأنه أوفرها - من حيث الكم على الإطلاق.

(١)

الفخر

يأتي الفخر في المرتبة الاولى بين سائر أغراضه، من حيث قربه من نفسه، وبلغت ابيات الفخر في ديوانه تسع مائة وستين بيتا، تناثرت خلال اثنتين وخمسين قصيدة، واستقل الفخر في خمس قصائد منها.

ويرى ابن رشيق ان الافتخار

المطبوع في الهند، ولكنه بذل جهدا كبيرا في شرح ألفاظ غفل شارح النسخة الهندية عن شرحها.

وقد تمت طباعتها في القاهرة عام ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م، وتولت نشرها مكتبة التعاون الثقافي بالاحساء، لصاحبها عبدالله عبدالرحمن الملا.

وتعد هذه النسخة أفضل نسخ الديوان المطبوعة، وأكملها، وأوفاهها لشعر الشاعر وهي النسخة الوحيدة المحققة تحقيقا علميا، ولذلك اتخذتها المصدر الأساسي في دراستي لشعر ابن المقرب، وهي تضم ٩٨ قصيدة، مرتبة بحسب الحروف الأبجدية للقافية، ويبلغ عدد أبياتها ٥٢٦٢ بيتا. وتفوقها طبعة المكتب الاسلامي الأولى في عدد الأبيات - كما أشرنا سابقا - ولكنها - طبعة المكتب الاسلامي الأولى - مضطربة كثيرة الخطأ، وخاصة في ملحقها، حيث يجد القارئ صعوبة في رد الأبيات الى مواضعها من القصائد، فليست هناك اشارة ما الى مكان هذه الأبيات أو تلك من الديوان.

وقد أخذ البعض^(١٩) على الدكتور الحلو أنه ضمن طبعته عينية الشاعر في بكاء الحسين، مع أنه يشك^(٢٠) في صحة نسبتها الى الشاعر. ولكنه أثر أن يثبتها في الديوان حفاظا على الأصل المخطوط.

ولكن ما يؤخذ عليه حقا، اغفاله لنسخة المكتب الاسلامي المطبوعة ١٣٨١هـ واعتماده على النسخ الخطية المصرية وتجاهله سواها، ولو

القربى ، ومناهضة الحساد ، ما جعله
يعمد الى الفخر تقريبا وتعزية
للنفس ، وتعويضا لما يحسه من مهانة
واحباط .. هذا الى جانب نشأته في
بيت امارة وفروسية ، بالاضافة الى
عراقة الاصل ، ومكانة الآباء الذين
سجلوا صفحات ناصعة من البطولة في
جاهليتهم واسلامهم .

وفخر ابن المقرب في معظمه فخر
ذاتي ، يدور حول العقل والقلب
واللسان والساعد ، كما يدور حول
القبيلة والآباء ، والاجداد . والى
جانب هذا اللون من الفخر يوجد قليل
من الفخر الحربي .

فقد فخر بقومه ، وفخر بنفسه ،
اما فخره بقومه ، فهو فخر العزة
والاعجاب ، وكانت مدائحه الكثيرة في
امراء اسرته العيونية ميدانا رحبا
لفخره بقومه . ففي قصيدته التي
مدح فيها الامير ابا ماجد محمد بن
علي بن عبدالله بن علي العيوني ، حين
ملك الاحساء ، يقول مفتخرا بقومه :

فقال: ارى البحرين دارك والسهوى
بنيك ^(٢١) وهذا ما ارى فمن الشعب
فقلت: سلى حى نزار ويعرب
باعظمها خطبا اذا استبهم الخطب
وامنعها جارا واوسعها حمى
واصعبها عزا اذا استرحل الصعب
وانهرها طعنا وضربا ونائلا
اذا اغبرت الأفاق واهتزت الحرب
واقتلها للملك صعر خده
قديم انتظام الملك والعسكر اللجب
فقال: لعمري انها لربيعة
بنات المعالي لا كلاب ولا كلب ^(٢٢)
ثم يضيق دائرة الفخر لبعض قومه
(آل ابراهيم) من ربيعة ، وكان هذا

ضرب من المديح ، الا ان الشاعر
يخص به نفسه وقومه ^(٢٣) . ويأتي
فخر ابن المقرب - غالبا - خلال
قصائده ، في سائر فنونه الشعرية فهو
لا ينسى نفسه اذا مدح او هجا ، او
تغزل ، او شكا ، وقد يتقدم الفخر على
المدح في قصائده ، فحين مدح الامير
العيوني مسعود بن محمد بن علي بن
عبدالله بن علي ، استهل مدحه بقوله :
اتدري الليالي اي خصم تشاغبه
واي همام بالرزايا توابه ^(٢٤)
وبعد ثلاثين بيتا من الفخر بالنفس
يخلص الى ممدوحه ، وقد كان الفخر
- احيانا - سببا في تأخير المدح في
قصائده .

ولكن ما دواعي الفخر عند ابن
المقرب ؟

ولماذا كانت له هذه المكانة في شعره؟
لقد تواضع الدارسون على ان
«العربي نزوع من فطرته الى العلاء ،
ميل الى التعالي والمباهاة ، شديد
الاندفاع بما في نفسه من نزعات ،
والتغني بما فيها من حسنات ، شديد
التطلع الى ما مضي من الزمان ، والى
مآثر الآباء والاجداد .. كما ان
الاخلاق والعادات التي فخر بها
العرب كانت ثمرة حاجاتهم ، وصور
معيشتهم وقد فخروا بكرم العنصر ،
وقوة العصبية ، ومنعة الجانب ،
والشجاعة ، والكرم ، والآباء ،
والوفاء ، والمروءة» ^(٢٥) .

وقد كان لنشأة ابن المقرب البدوية
ما مكن فيه النزعة المفاخرة ، حتى
اصبحت طبعا فيه ، كما كان
لمعاكسات الزمان ، وظلم ذوي

دأبه ، فيقول من القصيدة ذاتها :
ولو سئلت يوما ربيعة من بهم
لها خضعت وارتجت الشرق والغرب
ومن خيرها طرا قديما وسالفا
وانجبها عقبا اذا اخلف العقب
لاخبر اهل العلم ان ربيعة
رحى آل ابراهيم في سرها القطب
هم الناس كل الناس والناس فضلة
اذا ناب أمراؤ من حمله الصلب
بهم يدرك الشاؤ البعيد وعندهم
للمتس المعروف ذو مربع خصب
وفيه رباط المكرمات وراثـة
يورثها المولود والده الذنب
ولولا اياديهم وفضل حلومهم
لزلزلت الارضون وانقضت الشهب
خفاف الى داعي الوغى غير انهم
ثقال اذا خفت مصاعبها الهلب^(٢٦)
وتضعنا هذه الابيات وسابقتها
امام صورة واضحة من صور الفخر
القبلي عنده ، والتي يردد فيها معاني
السابقين ، ولا سيما عندما افتخر
بأرومته من ربيعة ، فخلع عليها
صفات المنعة ، وسعة الحمى ،
والعزة ، والشجاعة ، والاقدام ،
مستخدما «افعل التفضيل» للتعبير
عن مطلق التفوق لقبيلته في هذه
الصفات والاخلاق .

وحين افتخر بقومه (آل ابراهيم)
خلع عليهم صفات عصره المألوفة ،
والتي استقرت في وجدان شعرائنا ،
من العقل ، والحلم ، وحسن
السياسة ، والشجاعة ، والكرم .
وتبدو من فخره بقومه ثقافته
والمامة بتاريخ قبيلته في ماضيه
وحاضرها ، ومن ذلك قوله في قصيدته
التي يمدح فيها الامير محمد بن ابي

الحسين العيوني :
فقومي الأولى اجلسوا قضاة^(٢٧) عنوة
ودانت لهم كلب^(٢٨) ونهد^(٢٩) وخولان^(٣٠)
وهم فلقوا هام التباع اذ طغت
يقربه وادي خزازي^(٣١) وسلان^(٣٢)
غداة تولت حمير في جموعها
وذاق الردى في ملتقى الخيل صهبان^(٣٣)
وهم ضربوا عبد المدان^(٣٤) بمنعة
وقد شرعت فيهم سيوف وخرسان
وجاءت بزيد الخيل^(٣٥) قسرا خيولهم
اسيرا لها والجو بالنقع ملان
وهم نصروا بعد النبي وصيه
ولا يستوي نصر لديه وخذلان
ومن القصيدة ذاتها يقول :
وعادت بهم من دهرهم آل منذر
فصانهم حامي الحقيقة صوان^(٣٦)
ولم يحم كسرى من حدود سيوفهم
ليوث لها بالجو زار وزروان
وهم ملكوا اكفاف نجد وطاطات
لعزتهم بالشام عمرو وغسان
وسارت الى البحرين منهم عصابة
مصاليات غارات مغاوير غران
فعن هجر ذابوا القرامط عنوة
وقد شرت فيها عتك وحدان^(٣٧)
والملاحظ ان هذه الامجاد القبلية
قد اخضعها لفكر منظم بعض الشئ ،
فجاءت متسلسلة زمنيا ، فمن
الجاهلية الى الاسلام الى قتال القرامط
والقضاء عليهم .

واما فخره بنفسه فهو تطلع الى
العلياء ، واعجاب بشجاعة القلب ،
وحزم في الامور وشاعرية خلاقة
متفوقة ، فمن قصيدة له يفتخر فيها
بنفسه ، يدير حوارا مع فتاة ما ارادت
ان تثنيه عن عزمه في الارتحال :
اكل الدهر نأى واغتراب
اما لدنو دارك من تدان

لمال او لعز او لعلم
تعاني ويب غيرك ما تعاني^(٣٨)
وتشير عليه ان يهدأ ويخمل ، وان
لا يجشم نفسه الاهوال ، ويعرضها
للمعاطب ، ولكنه يرفض رجاءها :

فقللت لها اليك فعن قليل
اعرف من تجاهلني مكاني
فقد شاورت يا رعاء عزمي
مرارا في الخمول وقد نهاني
وكيف يرى الخمول فتى ابوه
ابى وجنانه الماضى جنانى
سارحل رحلة تذر المطايا
وشارقها الخدمة كالإهان
فإما ان اعيش مصاد عز
لجنى عليه او لجان
واما ان اموت وما عليها
سوى من خافنى او من رجانى
فموت الحر خير من حياة
يقاسى عندها ذل الهوان
ثم يفتخر ببيته وشاعريته فيقول
من القصيدة ذاتها :

وبيتي دون محتده الثريا
وجارات السهى والشعريان
ولي بفصاحة الالفاظ قس
يقر ودغفل والاعشيان^(٣٩)

اما عينيته التي استهلها بقوله :
ردى مر الحتوف ولا تراعى
فما خوف المنية من طباعى^(٤٠)
والتي عارض فيها عينية قطرى بن
الفجاءة ومطلعها :

اقول لها وقد طارت شعاعا
من الابطال ويحك لن تراعى^(٤١)
فقد تقمص فيها روح قطرى
وفدائيته ، وتعد من اصدق شعر
الفخر عند ابن المقرب ، وقد جاءت

كلها فخرا بالنفس والقبيلة ، وسار
فيها على نهج القصيدة السابقة ، اذ
دخل الى الفخر من خلال حوار مع فتاة
عاذلة لائمة ، واخذ يتدفق في انفعال
قوي وحماسة بالغة فيقول :

أحفل بالفراق وكل شعب
تصيره المنون الى انصداع
وارهب ان اموت وكل حي
سينعاه الى الاقوام ناع
ثم يوالي فخره وتدفقه الشعوري ،
في جو حماسي متقد ، فيقول :

تقارعني الحوادث عن مرادي
وارجو ان يذلها قراعى
وانى والعلا فرسا رهان
كما انا والندى اخوا رضاع
ويصل هذا الانفعال مداه من القوة
والتدفق حين يقول :

سأطلب حق آبائى وحقى
ولو من بين انياب الافاعي
وان الموت في طلب ارتفاع
لدى ولا حياتى في اتضاع
وثوب الليث في اذا تبدت
فريسته واطراق الشجاع
يخادعنى عن العليا رجال
واين بنو الفواعل من خداعى
أبقى تابعا ولدى فضل
يسوم الناس كلهم اتباعى
ومما يسترعى الانتباه في هذه
القصيدة موسيقاها القوية والفاظها
ذات النبرة العالية التى تتلاءم
وانفجارات الغضب الشديد في نفس
الشاعر .

كما ان قوة انفعاله وصدقه كانا
وراء مبالغاته التي شاعت في
قصيدته ، فالحوادث تقارعه
ويقارعها ، والعلا فرس رهان

الاساليب الكلامية والالفاظ والحروف
اشتدادا هدارا ، يرافق انفجارات
النفوس واصطخاب القلوب .. (٤٥) .

كما يلاحظ على الفخر عنده تغنيه
بشاعريته وبلاغته ، فيقول :

وليس في الشعر من فضل يطول به
مثلي ولو فاق أعلى سبعها الطول (٤٦)

وفخره بشعره يأتي غالبا خلال
قصائد المدح . كما افتخر باغرابه في

الفاظه ومعانيه فقال في مدحه للأمير
العيوني مقدم بن ماجد بن محمد بن

ابي الحسين العيوني :

فكم سار في مدحكم من غريبة
تروق واغلى الشعر مهرا غرائبه (٤٧)

ويقول في قصيدة أخرى يمدح فيها
القيب العلوي تاج الدين اسماعيل :

فدونكها يا ابن النبي غريسة
تخبر ان العائديها هلايب (٤٨)

ومن الملاحظ على الفخر عنده ، انه
ترديد لنغمات سابقه واساليبهم :

ففي كثير من فخره يطالعنا ابو الطيب
في همته وحكمته ، وشموخه وابائه ،

واعجابه بشعره .

وحسبنا واحدا من تلك المعاني
التي اعجب بها شاعرنا ورددها في

اكثر من موضع .

فالمتنبي يقول مفتخرا بنفسه :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي
وبنفي فخرت لا بجوددي

ثم يأخذ ابن المقرب هذا المعنى ،
ويكرره مثنى وثلاث في معرض فخره

فيقول :

فان لم يكن لي ناصر من بني ابي
فحزمي وعزمي يغنياني عن الحشد

وان يدرك العليا همام بقومه

يسابقه ، والندى اخ له في
الرضاعة ... وفي الجزء الذي افتخر
فيه بقومه ، نلتقي بمثل هذه المبالغات
كقوله :

بنا يستنسر العصفور تيهها
وتخشى الاسد صولات الضباع (٤٩)

ولا يخفى تضمين الشاعر في الشطر
الاول للمثل العربي «ان البغاث

بأرضنا تستنسر» (٤٣) .

ومن مبالغاته قوله :

وارعن باذخ صعب المراقى
سكنناه فاذن بانقشاع (٤٤)

وتمثل هذه القصيدة نتوءا بارزا في
ديوانه ، بدأ فيها الشاعر متمكنا من

ادواته الفنية ، قادرا على افراغ
مشاعره في امانة وصدق ، فبدت نفسه

الكبيرة - في ظلال الفاظها وصورها -
تعانى وتتحفز ، مما احال بعض

المواقف فيها الى صيحات مدوية ، كما
بدا واضحا اثر احباطه على نفسه

وفنه ، فكان الاحساس بالفشل دافع
الشاعر الاساسي لنظم مثل هذه

القصيدة ، التي جاءت تعويضا عما
يعانيه ، ومحاولة لخلق نوع من

التوازن النفسي عنده .

ومن الملاحظ على الفخر عند ابن
المقرب انه يتسم بالمبالغة الشديدة ،

والغلو الزائد ، ولعل هذه الملاحظة
تصدق على سائر شعراء الفخر في

الشعر العربي لان الفخر من نتاج
العاطفة الشديدة والانفعال العميق ،

ولهذا فقد حفل بالمغالاة ، وانطلق فيه
الخيال مضخما مهولا ، وبرزت فيه

الحقائق التاريخية مجلبة بجلباب
العاطفة والخيال ، واشتدت فيه

فنفسى تناجينى بإدراكها وحدى^(٤٩)
وفي موضع آخر يقول :
اليس نبتكم في العز مركزه
ببتي فما كان من فخر فمن قبلى^(٥٠)
من القصيدة ذاتها يقول :

كسوت قومي والبحرين ثوب علا
يبقى جديدا بقاء الحوت والحمل^(٥١)
ونستطيع بعد هذا العرض لفخر
شاعرنا ، ان نرد هذا الكم الوفير من
شعر الفخر الى فلسفة الحرمان التي
تعد بحق اهم بواعث فخره والتي
تستدعي - غالبا - حديث المحروم عن
نفسه وهمته ، وعن سمو مكانته وكرم
محتده .. فالفخر عنده عملية
تعويض ، وضرب من التوازن
النفسى ، وستر لعذاب النفس ،
وصراعها الدفين ، ومحاولة دائبة
لاقناع شائئيه وحارميه بأنه ما زال
الاقوى ، وانهم لن يستطيعوا النيل
منه ، هذا بالاضافة الى ان الفراغ
الذي اكتنف حياته ابان حرمانه ، قد
افسح له - بالتالي - الحديث عن نفسه
بخاصة ، وعن قبيلته بشكل عام .

(٢) الشكوى

وكما كان الحرمان من اهم بواعث
الفخر عنده ، فهو يمثل الباعث الأول
والأخير لشكواه .. عاش شاعرنا
حياته تحده امال عريضة ، فلم يكن
يرى نفسه أهلا للامارة والرياسة
فحسب ، بل لم يكن يرى في أسرته
ما هو أجدر منه بها ، ولكن أبناء عمه
أحسوا بدخيلة نفسه ، وربما بدر منه
ما كشف - مبكرا - عن طويته ،
فأجهضوا احلامه وأمانيه ، وأعلنوها

حربا شعواء ضده ، وكان لهذا أثر
عميق المدى ، بعيد الغور ، واضح
المعالم ، بين السمات ، فلا نكاد نقرأ
قصيدة له دون أن نشتم منها رائحة
الحرمان ونرى ارزاء الدهر تتصاعد
من بين الاحرف وخلال الكلمات ،
ودون أن نسمع أنين البخس والتعس
يعلو عبر الاجواء في نغمات لاهثة ..
والحرمان دائما ، أصل في تدفق
الشعر ، واتقاد الشاعرية وتحريك
الحياة الراكدة الرتيبة ، « ولولا
الحرمان ، ولولا النكبات ، لما كان
هناك في عالم الشعر الحى ، طرفة
بن العبد ، أو قيس بن الملوح أو
أبوفراس الحمداني أو أبو الطيب
المتنبى أو ابن المقرب العيونى ..
مثلا »^(٥٢)

فمن غير المدهش - اذا - أن تلى
شكواه فخره ، وتحظى بهذه المكانة
بين سائر أغراضه ، فشكواه لصيقة
بفخره الى حد كبير ، وكثيراً ما كان
ينطلق في فخره من مواقف شكايته ،
وقد بلغت أبياته في الشكوى خمسمائة
وسبعين بيتاً ، جاءت متداخلة مع
سائر أغراضه في ثلاثين قصيدة ،
وأكثر ما تأتى الشكوى عنده مع
الفخر ، فالمدح فالنصح .

ولكن ما دوافع شكواه ، ومم كان
يشكو ؟

نكب ابن المقرب بأيدي أبناء
عمومته ، وظلمه ذوو قرباه ، وحورب
في ماله ، ومكانته ، وسجن وشرذ
ونبذ ، وتعالى عليه أراذل القوم ارضاء
للسلطة الحاكمة التى كان يروقها

ما يحدث أمام ناظريها ، والنفوس
الكبيرة أشد احساسا بالظلم ، وأكثر
ضيقا به .

لذا جأ بالشكوى لمن أحبهم
وأخلص لهم من الفضليين من أبناء
عشيرته الأقربين ، فكانت شكواه لهم
استهجانا ودهشة لموقفهم منه ، ففي
قصيدة له يخاطب فيها الأمير الفضل
بن محمد بن أبي الحسين العيوني
يقول :

خليلى كم أطوى الليالى وعزمتى
تنولنى الجوزاء والجذ قاعد
وكم ذا اتاجى همة دون همها
نجوم الثريا والسهى والفراقد
ويقعدنى عما أحاول نكبة
جرت وزمان عاثر الجد فاسد
وإخوان سوء ان ألت ملمة
بسوء فهم اساسها والقواعد
يسرون لى مالا أسر فكلهم
على ذاك شيطان من الجن ماردا
لقد بذلوا المجهود فيما يسؤونى
وقد كنت أرمى دونهم وأجالد^(٥٣)
ثم يفصح الشاعر عن مواطن
عجبه ، فيقول من القصيدة ذاتها :

وأعجب مالا قيت ان بنى أبى
حسام لمن يبغى جلادى وساعد
عزيزهم ان لذت يوما بظله
رايت سموما وهو للخصم بارد
وسائرهم إما ضعيف فضعه
له عاذر أو مبغض لى مجاهد
هم الحمونى النائبات وأولعت
بلحمى اسود منهم وأسود
وهم تركوا عمداً جنبابى ومربعى
من الجذب لا يرجوه الخصب رايد

وهم شمتوا بى حاسدى وذلكم
من الامر ما لا ترتضيه الا ماجد
لقد أجاد الشاعر فى هذه الأبيات
تصوير موقفه فى صراحة وصدق .
حتى ليكاد المرء يشفق عليه ، وهو
صاحب النفس الكبيرة المتمردة ،
وكيف قد غدا هدفا للضميم ، يلوذ -
مهيض الجناح - بالسادة فينكرونه
ويؤذونه ، وبقيّة أبناء عمه لا حول لهم
ولا طول . فهم أما ضعيف لا يرجى
منه خير ، أو حاقدا له ممعن فى
البغض ، فقد أذاقه أبناء عمه ألوان
الهوان وصنوف الأذى ، وكان ابن
المقرب يرى أن ماناله ، انما هو بسبب
ميله الى الفضليين من البيت
العيونى .

ولا تنسين مانالنى فى هواكم
وقد ظفر الساعى وقل المساعد^(٥٤)
لذا فلا غرابة فى شكواه لهم ، لما
أصابه فى حبهم ، وهم قادرون على
انصافه ولم تكن شكواه موجهة لآل
الفضل فحسب ، بل شكاهم نفسه
لسائر امراء العيونيين ، ممن كانت
لهم السيادة فى الاحساء أو القطيف ،
ولكن أولئك وهؤلاء كان قد وقر فى
أذهانهم أن ابن المقرب طامح الى
ما بين أيديهم من سلطة ، فصموا
أذانهم عن شكواه ، ولم يجد بدا من
أن يحمل آلامه وأماله - على مضض
منه - الى خليفة المسلمين . وحكام
العراق ، ليجأ بالشكوى بين
أيديهم ، وكأنه - على ما يبدو - كان
يأمل أن ينصفوه منهم .

وأعجب ما يأتى به الدهر أننى
أرى القوم ترمينى بأيدى رجاليا
ثم يقول :

الام بنى الاعمام نسقي نطاقها
أجأجا ويسقى الغير عذبا وصافيا^(٥٨)
ويرى الشاعر نفسه محاصرا بالشر
والوقية في وطنه وبين أهله ، بل يجد
نفسه هدفا لنبال الأذى ، فيصور هذا
الموقف في دقة وصراحة وصدق
فيقول :

أرى الشر قدما وخلفا وأتقى
نبال الاذى عن يمنة وشمال^(٥٩)
ثم يصور أثر همه المتواصل
والمتزايد ، وما خلفه من آثار سيئة في
نفسه ، وليس أدل على تأثير الهم على
نفسه من ازالته لمخ عظمه ، وما عاناه
- بالتالى - من هزال ، فيقول :

إذا قلت جلى بعض همى أتت له
نوائب امضي من حدود نصال

وقد مص مخ العظم حتى ازاله
وأبدله من ليه بهزال^(٦٠)
وكان عليه أن يحنى رأسه
للعاصفة ، وأن يسبح مع التيار ،
ويدارى هذا وذاك ، وقد صور
ما يتكلفه من معاناة في سبيل ذلك :

أداريهم حتى كانى لديهم
أسير طعان أو أسير سؤال^(٦١)
ولما أعياه الصبر ، ويئس من
مطاوله القوم ، ومداراتهم قال :

فيارب لا صبرا على ذا ولا بقا
فسق فرجاً أولا فموتا معجلا^(٦٢)

فكانت شكواه في الاحساء ،
والقطيف ، والعراق ، هي مطالبة
بحقوقه المغتصبة والمهدورة ، من
مال ، وحرية ، وأمن . واحترام ..
ففي قصيدته التى يمدح فيها الخليفة
العباسى الناصر لدين الله يقول :

وقد كنت ذا مال حلال وثروة
يضاعف اكرامى وترجى مكارمى
فاعرانى الوالى المشوم وفاتنى
بما حزته من ضيعة ودراهم
فمال على حالى ومالى وثروتى
مالى وأصغى لاختلاق النمام
وبت عزائى السجن فى مدلهمة
يجأوبنى فيها ثقال الاداهم
وأخرجنى من بعد يأس وقد أتى
على نشبى أشكو الى غير راحم^(٥٥)
وقد شكوا الايام والليالى ،
وما يحملنه اليه من مصائب متزايدة ،
وأنها هى الأخرى قد قلبت له ظهر
المجن ، وتمادت فى عدائها ، ومكنت
للشقاء من نفسه .

أبت نوب الايام الا تماديا
فوا شقوتا مال للبالى وماليا
إذا قلت يوما حان منها تعطف
رايت رزاياها تسامى كما هيا^(٥٦)
ومما كان يضاعف ألمه أن
المخلصين من أصدقائه قد انقلبوا
عليه ، ولم يكفهم أن يقفوا منه موقفا
سليبا (لاعليه ولا له) .

فليت أخلائي الذين أد خرتهم
جلاء لهمى لا على ولا ليا^(٥٧)
وأما أية عجبه فإن يكون أبناء عمه
وراء هذا الاضطهاد وتلك الحرب :

عام ، لأن تقلص ظل العصاميين
الافذاذ من البلد ، يعد حرمانا من
مجموعة قيم وأخلاق انسانية مثلى ..
وكم هى نعمة كبرى لو توفر
العصاميون الذين يقدرّون مسئولية
الواجب بين ظهرانى الشاعر ، ليعطوا
الحياة حقها . ولعلّ لا أجنب
الحقيقة اذا قلت أن حرمان البحرين
وقاطنيتها يو مذاك ، قد يفوق حرمان
أبن المقرب .

ويستمر الخط البيانى لهذه
النعمات الشاكية في الصعود ، حتى
يصل منتهاه عند ما نجح المتأمرّون -
على عهد الامير أبى القاسم مسعود
بن محمد العيونى - في الاستيلاء على
مابقى من أملاك العيونيين ، حتى
أصبح العيونيون أمراء بلا سلطة وبلا
أرض ، وهنا يتفجع ابن المقرب لما آلت
اليه حالهم ، شاكيا قسوة الدهر ،
وسوء الحظ وفساد التدبير .

بعض الذي نالنا يادهر يكفينا
فامنن ببقيا وأودعها يدافينا
إن كان شأنك ارضاء العدو بنا
فدون هذا به يرضى معاديننا
فالحمد لله حمداً لانفاد له
ان لم يكن ضعفنا الا بأيدينا^(٦٣)
ومن القصيدة ذاتها يقول :

ياليت شعرى أى الذنب كان لنا
حتى به اجتج دانينا وقاصينا
اضحت بساتيننا نفدى بأحسنها
شقصا لأدنى خسيس من موالينا
بجلة التمر والشاة الرعوم غدت
املاكنا واحتمت املاك عادينا

وبلغت شكواه في هذا البيت
قصارها ، بما حمله من معانى اليأس
والقنوط .

وقد صاحبته هذه النعمات الحزينة
طوال رحلة حياته ، ولم تكن شكواه
مقصورة على مشكلته الخاصة ، فقد
كان الى جانب النغم الحزين ، نغم
آخر لا يقل حزنا عنه ، ولكنه نغم ذو
بعد وطنى أخذ يعزفه منذ أن بدأت
أحوال قومه تسوء ، وسلطانهم
يضعف ، والاطماع فيه تتنامى ،
والمؤامرات فى الداخل تحاك ، وينجح
مخطوطها في تنفيذها . وعندئذ شغل
بواقعه العام عن واقعه الخاص ،
فشكا بحسرة ماآلت اليه أمورهم :

كنت قبل اليوم أبكى بشجى
هم نفسى وطريفى وتلادى^(٦٣)
ثم قد أصبحت أبكى ناسيا
شجو إخوانى ورهطى وبلادى
ويمضى على هذا المنوال ، حتى تبلغ
به الحسرة مبلغها ، فيلفظها صرخات
مدوية ، نادية مستجدة يائسة
فيقول :

يا للرجال ! الا فتى ذو نجدة
يحمى بمنصله على العلياء
تالله أقسم لودعوت بندقى
حيا للبنى دعوتى وندائى
لكنى ناديت موتى لم تزل
أشباههم تمشى مع الاحياء
ألفوا الهوان فلو تناءى عنهم
لسعوا لبغيته الى صنعاء^(٦٤)
فالحرمان في هذه الأبيات - كما
يعتقد عمران العمران^(٦٥) - جماعى

إننا إلى الله لا أرحامنا نفعت
ولا طعان حماة القوم يحميننا
هذا الجزاء لما سنت أسنتنا
يا للرجال وما أمضت مواضينا
يشكو الشاعر في قصيدته من
حرمان جماعى ، ويتحسر بلسان
الجماعة ، مما أشاع في كثير من
ألفاظه ضمير المتكلمين (نا) ، بل كان
هذا الضمير روى القصيدة ، وإيقاعا
مشاركاً فيها ، فلم يعد وضع الشاعر
مختلفاً عن سائر قومه ، وليس أهل
الاحساء بعامة - أحسن حظاً منه .
لذا أخذ الشاعر يردد هذه النغمات
الحرزينة الشاكية معبراً بها عن وجدان
جماعى ، أو بمعنى أصح عن حرمان
جماعى .

ويوالى الشاعر شكواه وتفجعه في
استسلام ويأس . فيقول من القصيدة
ذاتها :

يا ضيعة العمر يا خسران صفقتنا
يا شوم حاضرننا الاشقى وباديننا
كنا نخاف انتقال الملك في مضر
فمرحباً بك يا ملك اليمانيينا
فإن تولت ملوك الروم ما بلغت
معشار ما صنعتنا اخوالنا فينا
كنا نضج من الحرمان عندهم
ونطلب الجاه فيهم والبساتينا
فاليوم نفرح ان يبقوا لموسرنا
من ارث جديه سهما من ثمانينا^(٦٧)

الى أن يقول :

نال المعاند منا ما يحاوله
سراً وجهراً وتعريضاً وتعييناً

والملاحظ على الشكوى عند ابن
المقرب أنها ثمرة معاناة حقيقية ،
فجاءت صادقة الاحساس ، نقرأ
شكواه ، فنحس أنها قد نبعت من
نفس شاعر مطبوع ، ولعل هذا هو
مادفع المستشرق ، دى جويو^(٦٨)
للثناء على شعر الشكوى عنده .

كما يلاحظ على شكواه أنها جاءت
صدى لحرمانه واخفاقه ، وأن الشاعر
- في أخريات دولتهم - قد شغله واقعه
العام عن واقعه الشخصى ، فأخذ
يتغنى بالأم الجماعة ، وماعانته من
حرمان جماعى ، حين تعذر على
السلطة الحاكمة في البحرين أن تدرأ
الأذى عن رعيته ، وتشيع شيئاً من
الامن في نفوسها ، فحقق لشعره بعداً
وطنيا بهذه النغمات الجماعية .

(٣)

النصح والعتاب

يكاد شعره في النصح والعتاب يبلغ
مقدار شعره في الشكوى ، فقد بلغت
أبياته نحو أربعمائة وسبعين بيتاً ،
جاء أكثرها في ثنايا قصائد المدح ،
وخاصة مدائحه في أمراء أسرته عدا
الأمير محمد بن أبى الحسين .^(٦٩)

ولكن لماذا نجد هذا الغرض يحتل
هذه المساحة والمكانة في شعره ويتقدم
اغراضاً أكثر شهرة ، كالهجاء
والرثاء ، والغزل ..؟

إن مكانة الشاعر في قومه
وما خصه الله بن من تعقل ،
وفصاحة ، وحكمة ، وحس مرهف

ناصحا :

أهلكت قومك في رضا الواشى بها
ما أقرب الواشين منك وأبعدا
فاستبق قومك للخطوب ولا تكن
سيفا عليهم بالهلاك مجردا^(٧١)
ومن القصيدة ذاتها يقول :

فالن لذي القربى جنابك ليته
لعدوك استشرى عليك وعربدا
واعرف على حام لسام فضله
لتكون في بعض الامور مسددا
فلتندمن ولات حين ندامة
تغنى ومن سقى المدامة غردا
ونصح قومه بألا يهملوا القوة فإن
مصدر قوتهم يكمن في جندهم وحسن
تسليحهم ، فقال مخاطبا الامير
العيونى الحاكم أبا على محمد
بن محمد بن أحمد بن محمد بن
الفضل :

وجندك رشهم ما استطعت ولا تكن
وان غفلوا عن ربهم متغافلا
فما الجند الا جنة تتقى بها
غوائل مولى او عدوا مصاولا^(٧٢)
وهو اذ يحدد الداء ، يصف
الدواء ، فما هو ذا ينصحهم
بالاعتصام بالقوة ، ويشير عليهم بأن
يسودوه ويأخذوا برأيه :

فقوموا بعزم واجعلونى مقدما
فأى حسام لم ترصع حمائله
وسيروا على طير الفلاح فقد أرى
رسول الجلا وافي وقامت دلائله
فانى كفيل بالخراب لبلدة
يراعى بها من كل حى أراذله^(٧٣)
وكان يعلم يقينا أن سياسة قومه

مضافا اليها الظروف الصعبة التي
كانت تمر بها دولتهم ، كل هذا وذاك
دفع بابن المقرب إلى هذا الميدان ،
وسمح له بأن ينصب نفسه ناصحا
شفيقا ، يحدد الداء ، ويصف
الدواء .

وعلى الرغم من محاولاتهم
المستمرة بهدف ابعاده ، وحجبه عن
الظهور على مسرح الأحداث
السياسية ، الا أنه لم يكن يألوجهدا
في الزج بنفسه في معترك الاحداث ،
منتقدا سياستهم ، عاتبا عليهم
تهاونهم ، فاتحا أعينهم على الحقيقة
المررة من حولهم ، واضعا أيديهم على
مواطن ضعفهم ، فمن قصيدة له
يمدح فيها أمير الاحساء أبا منصور
على بن محمد بن عبدالله بن على يقول
ناصحا :

إيها أبا المنصور يقظة نائر
بطل لعلياه يغار ويغضب
لا تركنن الى العدو ولا تطع
أراء من في جبل غريك يحطب
واعص الذليل اذا أشار ولا تثق
فى الكافئات بكل من تستصحب
واعلم بان الناس قد جربتهم
فاذا صحيح الود منهم عقرب
واقبل نصيحة ماجد باعدته
عنكم لضعف الراى وهو الاقرب^(٧٤)

وحذر ابن المقرب سادة الاحساء
من الوشاة وما يزينونه لهم بهدف
ابعاد النابيهين من أبناء قومهم ، ففى
قصيدة له يمدح فيها أبا على
بن عبدالله ابراهيم بن أبى جروان
أحد زعماء الاحساء آنذاك ، يقول

المتهاونة مع أعدائهم ، هي سبب
بلائهم ، ولا بد لهم من وقفة قوية
صلبة :

الا يا لقومي الأكرمين متى أرى
بنا الخيل تهوى مطبقات صروعها^(٧٤)
ويتكرر مثل هذا النداء - كثيرا -
عنده ، وتتوالى تساؤلاته الحائرة
(متى أرى .. وهل أرى ..
والام ...) ومنه قوله :

الا يا لقومي من ربيعة هل أرى
لكم يوم باس يصدم الجهل بالجهل
الام تقاسون الهوان اذلة
وانتم اذا كوثرتم عدد النمل
يسوقكم كرها الى مايسوؤكم
عبيدكم سوق الاحيمره الهزل^(٧٥)
ويبدو أن تساؤلاته كانت بمثابة
حث ، وتحريض ، واثارة لقومه ،
ليصحوا من غفوتهم ، وينهضوا من
كبتهم ، ويتنبهوا لفتن المتأمرين
المبثوثة بينهم ، ومن حولهم .. ولكن
نصائح الشاعر وصرخاته ، كانت
تذهب أدراج الرياح ، وتتلأشى كأنها
« صرخة في واد » فالقوم قد تمكن
العجز من نفوسهم ، فاستسلموا
يائسين :

أرجال عبدالقيس كم أدعوكم
في كل حين للعلا وأوان
فتراكم موتى فاسكت أم ترى
خلقت رؤوسكم بلا اذا ان^(٧٦)
ولكن الشاعر لم يمل ، شأن
المصلحين المخلصين ، ويبقى الامل
يراوده ، فواصل تنديده بسياستهم ،
وما آل اليه حالهم ومنه قوله :

ايه بقايا عبد قيس انه
لا خير في ماض بكف جبان
لا تسقطن من هامكم وأنوفكم
هم الرجال وغيره الفتيان
واستيقظوا فالسيل قد بلغ الزبي
وعلت غواربه على القربان
وذروا التحاسد والتنافس بينكم
فكلاهما نزع من الشيطان
واستعملوا الانصاف واعصوا كاشحا
لفسادكم يسعى بكل لسان
وتداركوا اصلاح ما أفسدتموا
مادمتم منه على الامكان^(٧٧)

ويوالى نصحه لهم من القصيدة
ذاتها ، مشيرا الى فرقته ، وتمكن
الوشاة منهم ، وكان الاجدر ان
يقصوهم عن صفوفهم ، ليتمكنوا من
حماية أرضهم التي استوطنوها قرونا
متطاولة منذ جاهليتهم ، والا فالهجرة
خير لهم من بقائهم في ذلة وخضوع ،
قد يعرض شرفهم للاذى ، ويدفعهم
مرغين الى التفریط بأعراضهم ، كما
فرطوا بأملآكهم وأموالهم :

قد بان عجزكم وكلكم يد
عنهم فكيف وانتم حزبان
واقصوا رجالا كلهم في هلككم
وبواركم تجرى بغير عنان
واحموا دياركم التي عرفت بكم
من حين مقتل عامر الضحيان
أولا فإن الرأى أن تترحلوا
عنها لدار معرة وهوان
من قبل داهية يقول لها الفتى
منكم متى يومى فما أشقانى
لا تحسبوا شر العدو تكفه
عنكم مصانعة وحمل جفان

والله لا كف الاعادى عنكم
من دون سلب معاجز النسوان
لم يبق مال تتقون به العدى
لربيعه فيها ولا قحطان^(٧٨)
وعندما ازداد ضعف السلطة
العيونية في الاحساء ، ازداد بالتالى
نفوذ البدو وعلا شأنهم ، وأخذوا
يتحينون الفرصة لاستعراض
قوتهم ، بهدف اظهار عجز السلطة
وضعفها ، فقد حدث في زمن الامير
أبى القاسم بن محمد العيوى أن قتل
رجاله قاطع طريق من بنى عقيل ،
فجاءه بنوعقل مطالبين بدم قتيْلهم ،
امعانا منهم في اذلال أهل الاحساء ،
ويستجيب حكام الاحساء لمطالبهم
بتدبير من بطانتهم الفاسدة ، ويتلقى
ابن المقرب نبأ هذه الاهانة فينتفض
عاتبا على الامير اياه ، ناصحا قومه
بقصيدة من عامر الشعر ، تفيض
بصادق الاحساس ، استهلها بهذه
الابيات :

الى كم مداراة العدى واحترامها
وكم يعترينا ضيمها واهتمامها
أما حان يا فرعى ربيعة أن أرى
بنات الوغى يعلو الروابى قتامها
ردوا الحرب ورد الظامئات حياضها
خوامر يغتال الفصال ازد حامها
وخوضوا لظاهها باقتحام فانما
يشكف غماء الحروب اقتحامها
ولوذوا بببيض المشرفية إنها
لها عزة قعساء واف ذمامها^(٧٩)
ويعجب الشاعر للمعايير المعكوسة
على أرض الاحساء ، فكرامهم -

يقتلون غدرا ولا يودون وأما اللثام
وقطاع الطرق فإن قتل احدهم فعليهم
ان يتحملوا ديته ، ويدفعوها
صاغرين ، فيقول من القصيدة
ذاتها :

فواسواتنا ان كان يودى قتيْلها
على ذا ويدينى في حمانا مقامها
ويقتل بالغدر الصريح كرامنا
فتلغى لقد خبنا وفازت سهامها
أعيذكُم ان تقبلوا ذا وأنتم
ذؤابة أقص كلها وسنامها
وحين نقرأ شعر النصيح عند ابن
المقرب ، نجده يضطرب بين الأمل
والياس وربما كان مؤشر اليأس عنده
أقوى وأوضح :

وإن دولة ولت قفاها فولها
قفاك فاعبى كل شيء رجوعها
ولا تتعبن في نصح من غاب رشده
وهون فخفاض المبانى رفوعها^(٨٠)
ولما استبد به اليأس ، طالب قومه
بأضعف الايمان ، وكان الحد الادنى
عنده ، وعدا لا يفون به :

يا ساكنى الخط والاجزاع من هجر
هل انتظاركم شيئا سوى العطب
بححت مما أناديكم وانديكم
لخير منقلب عن شر منقلب
فسكتونى بقول لا تفون به
قد صرت أرضى بوعد منكم كذب^(٨١)
إذا فالنصح عند ابن المقرب ، ليس
مجموعة من النصائح السلوكية
والخلفية ، يكيلها الى سامعيه في
تقريرية مجوجة ، ولكن النصيح عنده
رصد لمظاهر الضعف والانحلال

السياسى فى مجتمعه ، وعرض للحلول
الممكنة لرأب الصدع ، وتلاحم
الصفوف .

وان كنا نرى فى نصحه لأبناء
عمومته ، وعتابه لهم موقفا وطنيا
يستحق عليه الثناء والتقدير ، فهذا
لا يمنع ان نرى فى نصحه وعتابه شيئا
أبعد كان يرمى اليه ابن المقرب ،
يجعلنا نتنى فيه على دهائه وولعه
بالسياسة . فالنصح عنده كان أشبه
ما يكون بتعزية لحكامهم والنفاذ إلى
الحياة السياسية ، وكأنه كان يقوم
بدور المعارضة السياسية لنظام
حكمهم ، فيحاول إثارة الناس ضدهم
بكشف مساوئهم ، وان بدا لهم فى
صورة الناصح الشفيق . ويبرر هذا
موقف أبناء عمومته منه ، الذى لم
يتغير مع تعاور العديد منهم على اماره
الاحساء والقطيف . كما يبرره موقف
الشاعر العنيد فى أن يظل قريبا من
مسرح الأحداث ، متربصا
لأخطائهم ، غير عابى بما يناله من
ضيمهم وانكارهم لحقه وقدره ، وكأنه
كان يتحين الفرصة للوثوب الى
السلطة ، بعد أن هيا النفوس للثورة .
ومما نعجب له أن شاعرنا قد التزم
بقضية قومه طوال حياته ، على الرغم
مما ناله منهم من أذى ومهانة ولكنه
ظل على أصالته ، فلم تزعه
النائبات ، ولم تحركه قيد أنملة عن
مبدئه ، فبقى منافحا عن عشيرته
وقومه حتى وافته منيته ، وصدر فى
نصحه وعتابه عن معاناة حقيقية ،
وتجربة صادقة ، وطموح لا يكل .

وهو فى هذا الميدان فارس سابق ،
وقلما نجد فى العصور الأدبية السابقة
من كانت له مثل هذه المواقف
المشرقة ، من الالتزام بقضايا
مجتمعه .

النسيب (٤)

ونعنى بالنسيب ذلك الضرب من
الشعر الذى صدر به شاعرنا ثلاثا
وعشرين قصيدة من ديوانه ، فى
(٣٠٠) ثلاثمائة بيت ، وتحدث فيه
عن حبيبته ، ووصف مظاهر الجمال
فيها ، كما تحدث فيه عن حنينه
اليها ، وشوقه الى لقاءها ووصالها ،
وما تحركه رسومها الدارسة ، ومابقى
من ديارها بعد أن عبثت بها عوامل
الطبيعة من رياح عاتية ، وأمطار
غزيرة .

وقد اختلف القدامى والمحدثون
فيما يراد بالنسيب والتشبيب
والغزل ، فمنهم من يذهب الى أنها
بمعنى واحد ، ومنهم من فرق
بينها .^(٨٢)

وقد تجاوز العرب فى التغنى بالمرأة
كل حد حتى أصبحت هى اللحن
الجميل الذى تستهل به القصائد ،
وهى الكلمة السحرية التى تفتح لها
كنوز الشعر ، وحتى أصبحت عندهم
كأله الشعر عند قدماء اليونان ،
لا يبدؤون الشعر الا بنجواها .^(٨٣)

ويأتى نسيب ابن المقرب فى معظمه
فى صدر قصيدة المديح ، ويبدأ نسيبه
أحيانا بذكر ديار الأحبة ، ويلم من
خلال وصفه لها ، بتحديد موقع

المنازل ، وسفحه الدمع الغزير عليها ،
وتعداده لما صمد من آياتها من
الأوتاد ، والاثافي ، وبقايا الرماد ،
وأحصائه لما أخني عليها من رياح
وأمطار :

أمن دمنه بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك
عفت غير أرى وأورق حائل
وأشعث مشجوج وسفع روامك^(٨٤)
ونؤى كجذم الحوض غير رسمه
وجيف الحصا بالموجنات
الحواشك^(٨٥)

وابن المقرب في هذه المقدمة يعيد
على مسامعنا مقدمات شعرائنا الأول ،
فالالفاظ فيها وعورة البادية
وخشونتها ، والصورة في قوله (ونؤى
كجذم الحوض ..) مستوحات من
البيئة البدوية .

ولا يقف الشاعر عند وصف أطلال
الحبيبة ، بل قد ينتقل منها الى وصف
الظعن وما انتابه غداة البين من هم
والم :

كان فؤداى ناطه ذو سخيمة
قليل التحنى في صدور النيازك
غداة تداعى الحى بالبين بعدما
جلا الصبح أعجاز النجوم
الدواك^(٨٦)

ثم يستطرد في وصف تلك الابل
القوية السريعة التى حملت حبيبته
ورفقتها ، وكأنه يوحى من خلال هذا
الوصف الى بعد المكان الذي أزمعوا
الرحيل اليه ، والسرعة في الرحيل :

وقد قربوا للبين كل همرجل
أمون القرى ضخم العنانين تامك

قمطر درفس قيسرى كأنما
مناكبه جلن وشي الدرانك
رعى واجفا فالصلب من أجبل الغضا
بحيث استهلكت كل وطفاء رامك^(٨٧)
وقد يستكمل عناصر الصورة
فيتناول صاحبات حبيبته المفارقة ،
فيشبههن بالطباء ، ذوات خصور
دقيقة ، وشفاه سوداء وأعجاز كأنها
مرتفع الرمل ، ويبتسمن فييدين
أسنانا كزهر الأقاحى :

وفي الجيرة الفادين لا عن ملالة
ظباء على تلك الهجان البواك
خماس الحشاحم الشفاه كأنما
يلثن مروط العصب فوق العوانك
ويبسمن عن نور الأقاحى لم يزل
يغذى بدرات الذهاب الركائك^(٨٨)
ويخلص من هذا الى وصف حبيبته
التي لا يشغله فيها سوى تلك
الانفاس العطرة ، والطيب الذي
ينبعث منها :

وفيهن من ذهل بن شيبان غادة
يطيب رباها عبر المداوك
كأن على فيها سلافة قرقف
وقد غورت أن النجوم الشوابك^(٨٩)

ونراه حينما يتوقع البين لما يراه من
تأهب صاحبه للرحيل ، فيتصدع
قلبه حسرة ، اذ يتصور ديارها وقد
أقفرت منها ، وفقدت أنسها :

غدا نغدى للبين أو نتروح
وعند النوى يبدو الغرام المبرح
غدا تقفر الاطلال ممن نوذه
ويمسى غراب البين فيها ويصبح

غدا تذهب الاطلاعان يمني ويسره
ويحدو تواليها نجاح ومنجج^(٩٠)

ولكنه يحاول أن يتجلد ، ويحتفظ
بدموعه ، حتى يصبح رحيل الأحبة
حقيقة لا مجرد توهم وتخمين ، فيقول
من القصيدة ذاتها :

فيا باكيا قبل النوى خشية النوى
رويدا بعين جفنها سوف يقرح
ولا تعجلن واستبق دمعك اننى
رايت السحاب الجون بالقطر ينزح
اذا كنت تبكى والاحبة لم يرد
ببينهم الا حديث مطوح
فكيف اذا ما اصبحت عين مالك
وحبل الغضا من دونهم والمسيح
فكف شئون الدمع حتى تحثها
غداً ثم تهمل كيف شاعت وتسفح
ويلمع البرق عن بعد فيذكره هوى
الحبيبة ، وثغرها الجميل ، وجبينها
الوضاح ، مما يجعله وشيك النطق
باسمها ، فيقول من القصيدة ذاتها :

خليلى هبا من كرى النوم وانظرا
مخائل هذا البرق من حيث يلمح
لقد كدت مما كاد ان يستفزنى
أبوح بسرى فى الهوى وأصرح
ذكرت به ثغر الحبيب وحسنه
اذا ماتجلى ضاحكا وهو يمرح
وياحبذا ذاك الجين الذي غدا
يلوح عليه الزعفران المذرح^(٩١)

وربما رحلت الحبيبة ، وأقفرت
ديارها بعدها ، فينتابه ألم كبير
لافتقادها واذ ما طاف خيالها به
هاجت ذكرياته وما تحمله فى طياتها
من أوقات سعيدة خلّت مما يعكر

صفوها ، ومنه قوله :

سمالك من أم العبيد خيال
ودون لقاءها أجرع وسيال
سما ومطايانا كأن اقتحامها
غوارب أمواج الفرات فيال
فأهدى سرورا عازبا كان قد مضى
وانسته أيام مررن طوال
وعاد فلم يلبث فواقا كأنما
عليه بتعجيل الرجوع كفال
فشايعته أقضى الذمام لأننى
لذاك أب فى الحالتين وخال
الى أن بلغنا الجسر والترعة التى
بأكتافها الحى الكرام حلال^(٩٢)

ويسرف ابن المقرب أحيانا فى هذا
النسيب الذي يبدأ به قصائده ، وقد
يمتد ليصل الى اثنين وعشرين بيتا ،
حتى ليظن أنه هو الغرض الاساسى .
كما يزخر شعر النسيب عنده بأسماء
كثير من النساء فذكر : دعد ، وزينب ،
وهند وأميم ، وسعدى ، وسلم ، ومن
دعاها « أم العبيد » وأخرى ذكر أنها
« ذات الخال » وامرأة تدعى
« شريكية مرية » وفتاة سماها
« بالكاعب الحسنة » ، وأخرى أطلق
عليها « غرة حى بنى جشم » ،
وحسنة دعاها « غادة زهل بن
شبيان » وأخرى أطلق عليها « بنت
المقاول » .

وهذه الاسماء معظمها مما جرى
على السنة الشعراء ، ورددوه فى
أشعارهم ،^(٩٣) وربما كان وجودها
لضرورة عروضية ، كقوله :

يظن نحوى ذو السفاهة والغبا
غراماً بهند واشتياقاً الى (دعد)^(٩٤)

أما الأخيرة المجهولة : فهي
كخوط البان لينا ، ذات خصر دقيق ،
وألحاظ قاتلة .^(٩٩)
وقال في غانيات بغداد :

فكم لذة قضيت في حجراتها
مع الغانيات ألمائسات النواعم
عذاب الثنايا ناهدات خرائد
حسان التدايا واضحات المعاصم^(١٠٠)
هذه هي المحاسن التي كانت تروق
ابن المقرب في المرأة وهي في مجموعها
صفات نموذجية تصور المثل الأعلى
للجمال في المجتمع البدوي ، وقد سبقه
اليها كثير من شعرائنا القدامى
ووصفوا بها حبيباتهم ، وتداولوها ،
حتى نكاد لا نلمس اختلافا بين هؤلاء
الشعراء الامن حيث التصوير لهذه
المحاسن .

وقد يتجاوز ابن المقرب - أحيانا -
تلك المحاسن الحسية ، الى الاشارة
لبعض الصفات الخلقية ، فهو في بنت
المقاول :

راتني فأبدت عن أسيل وحجبت
بذي معصم جدل يعرض به القلب^(١٠١)

فهو يريد من وراء هذه الصورة
الحسية ، أن يثنى على خلق صاحبتة ،
لما تتسم به من الحياء والدلال حتى
انها لتتقى من تخشى نظراته بيدها .
أما عواطف المرأة ، وهمومها ،
ورغباتها ، وتفكيرها فأمور لم يولها
اهتمامه ، ويتجاهلها شأنه في ذلك
شأن الكثير من أسلافه ، فلا نكاد نجد
في شعره ما اشتهر به شعراء الحجاز

وقد تكون هذه الأسماء مستعارة ،
لأنهم كانوا لا يحبون أن تذيع أسماء
صاحباتهم الحقيقية ويعرفها الناس .
وربما كانت هذه الأسماء لا تعنى
تعدد تجاربه في الحب ، ولكنها تعنى
على الأقل أنه قد أحب أكثر من
واحدة ، ولم لا فقد كانت حياته حافلة
بالرحلة والانتقال ، ما بين بادية
وحاضرة ، فليس معقولا أن تخلو مثل
شخصيته الحية المتفاعلة مع
ما حولها من تجربة حب حقيقية .
وابن المقرب يحدثنا عن أوصاف
(خمس) من صاحباته وهن : بنت
المقاول ، وغادة زهل بن شيبان ،
وذات الخال ، وسلم ، وأخرى
مجهولة .

أما بنت المقاول : فهي بيضاء
كالبدر جمالا تختال في حللها
القشبية ، بديعة الحسن ، نادرة
المثيل ، يرنحها الصبا والدلال
والاعجاب بنفسها .^(٩٥)

أما تلك الغادة من زهل
بن شيبان : فهي طيبة النشر ، ذات
أنفاس عطرة .^(٩٦)

أما ذات الخال : فالحاظها فتاكة ،
ووجهها مشرق جميل ، يضيء الدجى
من وراء خمارها ، وإذا ما سفرت بزت
الشمس إشراقا وبهاء ، لها سحر
لا يقاوم وقوام كغصن البان
لينا .^(٩٧)

وأما سلم : فهي بيضاء تنوب عن
الشمس في حال كسوفها .^(٩٨)

الشعر القليل عن تجربة حب حقيقية ،
ففى البصرة يلم به طيف حبيبته التى
فارقها فى الاحساء ، فهيج هذا الخيال
مشاعره ، وأحيا كامن الذكريات فى
نفسه :

سمالك من ام العبيد خيال
ودون لقاءها أجرع وسيال
سما ومطايانا كان اقتحامها
غوارب أمواج الفرات فيال
فأهدى سروراً عازباً كان قد مضى
وانسته أيام مررن طوال^(١٠٤)

ولكن هذا الطيف الذى ألم به ، سرعان
ما قفل راجعا :

وعاد فلم يلبث فواقا كأنما
عليه بتعجيل الرجوع كفال
وترك الشاعر غارقا فى أحلام
اليقظة ، وهو يتابع ذلك الطيف فى
رحلة العودة حتى وصل به الى
مشارف وطنه :

فشايعته أقضى الذمام لأننى
لذاك أب فى الحالتين وخال
إلى أن بلغنا الجسر والترعة التى
بأكنافها الحى الكرام حلال
فيستيقظ فجأة من حلمه الجميل ،
ليعيش آلام حبه التى حركها طيف
الحبيبة العابر ؟

وحانت لعينى يقظة بان عندها
بان الذى قد كنت فيه محال
فواها لها تهويمة بعثت جوى
حرمت له اللذات وهى حلال

الغزلون فى العصر الأموي، من رسم
عواطف الحبيبة، وتلونها بين فرح
وحزن، ولهفة وخوف من الأهل
والرقيب.. فى قصيدة له يمدح فيها
عميد الدولة، يقول فى معرض نسييه:

لولا الهوى لم أرو شعراً منسياً
يقصر عن إيراد كل ناظم^(١٠٢)
فهل أحب ابن المقرب حقاً ؟ وهل
عانى آلام العشق ، وصدر فى غزله عن
تجربة صادقة ؟

ان مانظمه شاعرنا فى هذا الضرب
من الشعر ، جاء فى صدور مدائحه
محاكاة لمعاصريه وأسلافه من
شعرائنا ، فهو يقصد اليه قصدا ،
ولا يكاد يخرج فيه عن الذوق الفنى
الموروث الذى استقر فى وجدان
شعرائنا ، ومتذوقى ابداعهم آنذاك ،
فقد « اصبح الغزل مقصدا من
مقاصد القول ، لا احساسا ذاتيا
بالمرأة ، فهو يلتصق بأول القصيدة
كنوع من التقاسيم التى يصطنعها
العازفون قبل اللحن الرئيسى ،
والشاعر عندئذ يلجأ الى استيحاء
معان مما سبق أن طرقها الأقدمون ،
فيتحدث عن غلبة الوجد عليه ،
ولجؤه للبكاء ليشفق قلبه من
الجوى ، ورويته لأطلال الاحباء .. الى
غير ذلك من المعانى التقليدية » .^(١٠٣)
ولكننا لا نعدم فى شعر ابن المقرب
غزلا يحمل فى طياته مشاعر صادقة ،
تومئ ، الى قلب متيم ، وصدر فى هذا

النسيب .

فواها لها تهوية بعثت جوى
حرمت له اللذات وهى حلال
ارقتى ديار الحى قومي ودونها
وهاد وأطواد علت ورمال^(١٠٥)
ولنستمع اليه في أبيات أخرى قالها
في حبيبة لم يسفر لنا عن هويتها ،
لنرى أنها لاتصدر الا عن خبر الحب
واكتوى بناره ، وعانى من عاذليه في
حب تمكن من قلبه ، واستحال
الانعناق منه ، فيقول في ذلك :

عذل المشوق يهيج في برحائه
ويثير نار الوجد في حوبائه
فاترك ملامته ودعه وشأنه
في نوحه وحنينه وبكائه
وان استطعت على الصباية والاسى
فأعنه تحظ بوده وإخائه
فالخل من اصفى مودة قلبه
لذوى مودته وأهل صفائه
يا عاذل المشتاق مهلا واتئد
في لومه فهو العليم بدائه
ومتى ترد يوما ملامه عاشق
فاجعل فؤادك تحت ظل حشائه
فإن استقر فلم أخاك وان نبا
فكن النديم الفرد من ندمائه
أو كيف تعذل هائما ذا صبوة
ذهب الفراق بلبه وعزائه^(١٠٦)
ثم يوالى تهالكه ، واصفا من
أحواله مع حبيبته ما يتفق وأحوال
المحبين وسلوكهم ، وما يعتلج في
نفوسهم ، من لهفة على اللقاء ، وخوف
من عيون الرقباء ، ونظرات مشبوبة
تفصح أسرارهم ، فيقول :

يتضح من الأبيات - وان صاغها في
شكل حلم قصصى - ان الشاعر
يتحدث عن تجربة حب حقيقية ، وأنها
ليست مجرد افتتاحية تقليدية
لمدحته . وأننا نجد فيها شيئا من
سلوك المحبين ، وما يحلمون به في
يقظتهم ، أو ما يتعلقون به من خيوط
الوهم . كما أن الطيف الذي ألم به
طيف حبيب الى نفسه ، عزيز عليها ،
اشاع السرور في لحظة من لحظات
الخوف والوجل ، وهم يعبرون نهر
الفرات ، ويغالبون أمواجه ، فكان
الشاعر قد استدعي طيف هذا
الحبيب ليشغل نفسه عن موقف كان
فيه بين يدي القدر .

ومن هنا نظن ظنا أن « أم العبيد »
التي ألم طيفها بشاعرنا ، وهو في
طريقه من بغداد قاصدا البصرة ،
ليست سوى زوج الشاعر التي خلفها
وراءه في الوطن ، فهو لم يصرح
باسمها وكنها بأمر العبيد ، وفي قوله
(حرمت له اللذات وهى حلال)
اشارة الى لذاته الحلال التي حرّمها ،
ولم يتعد وصفه لذلك الحلم الجميل
الذي عاشه مع طيفها الى الحديث عن
مفاتها وجمالها ، أو الحديث عن
لحظات اللذة التي قضاه معها .
وتاريخ نظم هذه القصيدة كما جاء في
مقدمتها عام ٦٠٤هـ ، وهو نفس
العام الذي بدأ فيه سلسلة رحلاته
العراقية ، وكانت هذه أولى تجارب
فراقه لتلك الزوجة التي ملأت قلبه
حبا ، فغادر موطنه مشدودا اليها ،
كما يدل على ذلك آخر بيتين من هذا

نفسى الفداء لمن غدا رقى له
 رقا ولم أسمح به لسوائه
 ولن له فى كل عضو منزل
 منى على قرب المحل ونائه
 أهوى زيارته وأخشى دونه
 خزر اللواظ من ذوى رقبائه
 وأصد عنه اذا التقينا خشية
 من كاشح طاو على شحنائه
 وأروم كتمان الهوى فيذيعه
 طرفى وطرف الصب من أعدائه
 ولا يخفى ما فى البيت الاول من
 هذه الأبيات من صنعة مقصوده ،
 وما عدا ذلك فكلها محسنات معنوية
 طبيعية لا أثر للتكلف فيها . كما يتميز
 بركة واضحة لا نلقاها فى كثير من
 نسيبه .

وفى ما عدا ذلك من شعر النسيب
 عنده ، فيفتقر لتلك العاطفة الصادقة
 القوية ، خذ مثلا قوله فيمن دعاها
 « بالكاعب الحسناء » .

دع الكاعب الحسناء تهوى ركاها
 وتبنى لها فى حيث شاعت قباها
 ولا تسالن عن عيسها أين يمت
 فسيان عندى نأياها واقترابها
 فقد كرهت جهلا مشيبي واننى
 أرى ضلة أن يزدهينى شبابها^(١٠٧)
 ومثل هذا قوله فى « زينب » :

صدت فجذت حبل وصلك زينب
 تيهأ وأعجبها الشباب المعجب
 ولطالما فعلت تطيل مرورها
 وتجيب عمدا كى تراك وتذهب
 لا تعجبين يا قلب من هجرانها
 فوصالها لو دام منه أعجب
 أغرى المليحة بالصدود ثلاثة

نأى واقلال ورأس أشيب
 فاضرب عن استعتابها صفحا فما
 ذو الشيب والافلاس ممن يعتب
 واستيق ماء الوجه فيه وكن به
 حجيا ولا تقل القلوب تقلب
 ولئن طمعت بأن تريع وترعوى
 والحال تلك فمرحبا يا أشعب^(١٠٨)
 ففي مثل هذه النماذج من شعره ،
 تفتقر لخلجات المحبين الصادقة ،
 ولوعتهم لا عراض حبيباتهم ،
 وصددهن ، وكأنا بآبن المقرب يتعالم
 ولا ينسب فى هذه النماذج
 وما يحاكيها من غزله ، فهى الى
 التعالم أقرب منها الى النسيب فهو
 يتعالم بخبرته وتجاربه فى التعالم مع
 المرأة .

ويسفر ابن المقرب - أحيانا - عن
 تلك الهمة العالية ، والنفس الأبية
 التى تحول بينه وبين المرأة ،
 ووصلها ، والخضوع لسلطانها
 الصادع ، كقوله :

فلى همة عليا ونفس أبية
 تمج وصال اللاويات المواعك^(١٠٩)
 وقوله فى موضع آخر :
 أبت لى وصال البيض همت ماجد
 بعيد الحمايا غير نكس ولا وغل^(١١٠)

وقد عاب القدماء مثل هذا المذهب
 فى النسيب ، وعدوه فاسدا ، وذهبوا
 الى أن الواجب فى النسيب أن يكون
 على خلاف هذا ، فالنسيب عند قدامة
 بن جعفر ، هو ماكثر فيه الأدلة على
 التهاك والصباية ، وتظاهرت فيه

الشواهد على افراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقّة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة ، أكثر مما يكون فيه من الالباء والعزة وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة .. (١١١) كما أوصى أبو تمام البحتري فقال : يا أبا عبادة ، « ان اردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق » . (١١٢)

وابن المقرب في أكثر نسيبه يشكو من الحرمان والهجر ، ويشيع روح الحزن ، والألم ، والهم .. فكثيرا ما يحدثنا عن صد النساء له ، واعراضهن عنه ، لما بدا في رأسه من شيب ، ومنه قوله :

وقائلة شبه الملام وراعها
بياض مشيب جلته المسائح
أبعد اشتعال الرأس شييا تعرض
لوصل الحسان البيض أم أنت مازح
فقلت : أليس الصبح أحسن منظرا
وأبهى من الظلماء والليل جانح
فمالت لهزل القول ثم تضاحكت
وقالت : لهذا فلتنحك النوائح
إذا كان شيب الرأس مما يزينه
فيا حسن ثغر سودته القوادح (١١٣)

وقد يقرن ضيق ذات اليد مع الشيب سببا في الاعراض والصدود :

أغرى المليحة بالصدود ثلاثة
نأى وأقلل ورأس أشيب (١١٤)

والنسيب تعبير عن عاطفة انسانية اجتماعية رقيقة ، لذا ينبغي أن يكون « حلو الالفاظ ، رسلها ، قريب المعاني سهلها غير كز ، ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، لين الايثار ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخف الرصين .. » . (١١٥)

فاذا نظرنا في نسيب ابن المقرب ألفينا يتراوح بين الرقة والخشونة ، يرق حيناً فيعذب لفظه ، وينأى عن الاغراب ، وتقرب معانيه ، فما نحس فيها غموضاً ، وتتدفق موسيقاه عذبة رقيقة . ولنستمع الى هذه الأبيات التي قالها فيمن كناها « غرة حى بنى جشم » :

من ذا أفلاك بسفك دمي
يا غرة حى بنى جشم
فتعالى غير مدافعة
نقصص رؤياك على حكم
ابنظرة عين عن خطأ
عرضت بالعمد يراق دمي
إن كان جنى طرفي فلقد
يكفيه مقالك لا تنم
فذكرى الواشين فقد نطقوا
زورا وهم شر الأمم
زعموا أنى بسوائكم
كلف كذبوا في زعمهم (١١٦)

فالأبيات تنساب موسيقاها رقيقة عذبة ، والألفاظ تطاوع الشاعر في يسر وسهولة لا ابتذال فيهما ، فيعبر عن معانيه بلا غموض أو التواء ، ويواصل الشاعر نسيبه بهذه الخفة والعذوبة حتى يتجاوز العشرين بيتاً .

ولكنه لا يكتفى بالمعنى عند هذا الحد ، بل نجده ينتقل الى نوع من الصنعة المتكلفة التى لا تخلو من جهد ذهنى ، اذ يقول :

إن كنت أجلت بغيركم
طرفى ابغى بدلا فعمى
أو كنت نطقت بثلبيكم
يوما في الناس ففض فمى
أو كنت نصبت لغائبكم
سمعا فبقيت أبا صمم
أو لاق لقلبي بعدكم
خل فخلقت أخا سقم
ولعل فتور العاطفة عنده - أحيانا -
في نسيه ، مردها الى هذا الجهد
الذهنى الذي لحظناه ، وإلى هذه
الصنعة الواضحة التى يسعى اليها
الشاعر عن قصد .
كما يلاحظ في نسيه - أحيانا - أثر
ثقافته الدينية ، ومن ذلك قوله :

وعل نوالا منه يحمى حشاشة
يزكى به عن حسنه وشبابه
فإن زكاة الحسن تقبيل ثغره
ورشف ثناياه وبرد رضابه
حلالا لابناء السبيل مخصص
لهم دون من قدنصه في كتابه^(١٢١)
فالشاعر في هذه الأبيات يرسم
صورة للتظرف ليس الا .

أما أسلوب النسيب في شعر ابن
المقرب - بعامه - من حيث الألفاظ
والمعاني والأخيلة ، فهو أسلوب
حسى ، ترسم فيه خطوات شعراء
الحجاز في العصر الأموى ، ولعلنا
لا نكون مبالغين اذا قلنا ان معظم

وان كنا نجد مثل هذا الأسلوب في
غير موضع من نسيه^(١٢٢) ، الا أننا
نفتقر لتلك الرقة والسهولة في بعض
نسيه ، ويصبح ادراك معانيه غير
ميسور الا لقلّة من المتذوقين ممن ألوا
بالفاظ السلف من شعراء الجاهلية ،
ومعانيهم ، وصورهم .. بل قد يغمض
المعنى ويلتوى كما في قوله :

كأن على فيها سلافة قرقف
وقد غورت أم النجوم الشوابك^(١٢٣)
اذ أراد ان يستقصى المعنى في
البيت السابق ، بأن رضابها : طيب
الرائحة ، عذب مذاق كأنه الخمرة ،
كما أن الموسيقى المنبعثة ، من هذه
الأبيات^(١٢٤) ، لهى أنسب بساحات
القتال منها الى النسيب وطبيعته
الرقيقة العذبة ، وموسيقاه الهامسة
التى لا توائمها هذه الحروف المتكررة
ذات النبرة العالية ، التى نسمعها من
هذه الأبيات .

ومثل هذه المقدمات الغزلية في شعر
ابن المقرب تضعنا أمام سمة بارزة من
سمات النسيب عنده ، وهى انطباعه
بطابع المدح ، فالمدح هو الذي يملئ
عليه موسيقى الوزن ، وموسيقا
القافية ، ويملى عليه قاموسه اللغوى ،
والمدح من الموضوعات التى تحتاج
نغما موسيقيا قويا ، وقافية جياشة .
ومما يلاحظ على أسلوبه في النسيب
ميله الى الافتتان العقلى ، والتوليد
الذهنى ، ومنه قوله :

زعموا انى بسوائكم
كلف كذبوا في زعمهم^(١٢٥)

الأدب العربي حين يقترب من المرأة يقترب منها جسداً ، ويحاول أن يجيل نظرة تفصيلية في أعضائها .. (١٢٢)

ولذا فقد عيب على شعراء الغزل في أدبنا العربي أنهم لا يلتفتون الى الجمال الروحي في المرأة ، وحتى اذا التفتوا اليه لا يطيلون الوقوف في محرابه . (١٢٣) وابن المقرب كسائر شعرائنا الغزليين الاتباعيين تفتنه المرأة البدنية ، ذات البشرة البيضاء . والخصر النحيل ، والصدر الناهد ، والرضاب الخمرى . واللحظ الأسر القاتل .. وغير هذا من الصفات الحسية كثير ، ومنه قوله :

عذاب الثنايا ناهدات خرائد
حسان الثدايا واضحات المعاصم (١٢٤)
وقوله :

فتاة كخطو البان لكن خصرها
لدقته تحويه حلقة خاتم
رمت بسهام اللحظ عن قوس حاجب
اعارض ما بين الحشا والحيازم (١٢٥)
وكقوله :

يضيء الدجى من وجهها في خمراها
وتفضح قرن الشمس ايان تخطر (١٢٦)
وقوله :

متى رمت ترشافاً لها فكأنما
لفيها فمى من خمر عانة ماتح (١٢٧)
ولكن ابن المقرب لا يقف عند حدود الصفات المثالية الحسية ، بل يتعداها الى غزل حسى فاحش ، ويذكرنا بفرسان هذا الباب أمثال أبى نواس ، وبشار ممن تفوح رائحة الجنس من

غزلهم المكشوف .

وحسبنا هذه الأبيات لشاعرنا العيوى ، لنرى مدى الصراحة في الحديث عن التصوير الحسى لعلاقة الرجل المرأة :

فكم ليلة بتنا ضجيعين في الدجى
وقد غاب واش تنقيه وكاشح
متى رمت ترشافاً لها فكأنما
لفيها فمى من خمر عانة ماتح
كذاك وإن ضاجعتها مال فرعها
على بمخضل به المسك فائح
وقد نعجب لهذا التباين بين ما عرف عن شاعرنا من خلق نبيل ، ومكانة اجتماعية ، مرموقة ، وبين هذا الشعر الذي تغنى به ، ويزداد عجبنا أكثر عندما نقرأ ما احتفظت به من مقدمات مخطوطات ديوانه من ترجمات يسيرة له ، واصرار نساخها على أن يخلعوا عليه من صفات الفضيلة والشرف والتدين الشيء الكثير .

وفي الحقيقة لم يكن الذوق العام - آنذاك - يستهجن مثل هذا النسب بل لم يكن ينفر من الغزل بالمذكر الذي « شاع في العصر الأيوبي حتى أصبح عادة للشعراء يفتتحون به قصائدهم ، بل أن المجتمع كان يسمح للمترمتمين والمعروفين بالتقوى والورع بالخوض في هذا الموضوع مجارة لذوق العصر وتقاليده » (١٢٨) ، ولا : يرون في هذا الشعر ما يحط من قدر صاحبه ، كما نظم فيه كثير من شعراء العصر العباسى الثانى ، وقد نجد باحثاً معاصراً يعلى من قدر أولئك الشعراء ،

فكم لذة قضيت في حجراتها
مع الغانيات المائسات النواعم
عذاب الثنايا ناهدات خرائد
حسان الثدايا واضحات المعاصم
أجـرـر لـهـو بـيـنـهـن ذـلـائـي*

وأضرب صفحا عن ركوب المائم
أما حظه من الغزل بالذكر فنزر
يسير ، لا يتجاوز بضعة أبيات صدر
بها مدحة لوجيه بغدادى عام ٦١٤ ،
يقول فيها :

خليلي قوما فاسقياني رعيثما
سلافة خمر مرة الطعم قرقفا
بكف نديم لو تراءى بحسنه
ليعقوب لم يأسف لفقدان يوسف
ولو أنه للبدر ليلة تمه
تجلى لابدى غيرة منه واختفى
نظل بعينيه نشاوى وثغره
فما نتحسى الكأس الا ترشفا (١٣١)
وهو في هذه الأبيات مقلد لا أكثر ،
ينحو منحى معاصريه ، ويجارى
الدوق العام السائد والذي لا يجد
غضاضة في سماع هذا الشعر
وترديده واستحسانه .

ومما لا شك فيه أن الفطر السليمة
- فى كل زمان ومكان - ترتفع عن هذا
المرض الاجتماعى ، بالغما ما بلغ من
الذبوع والانتشار بين أوساط
المجتمع .

يتبع

أصحاب شعر الشذوذ الجنى ، وذم
الدنيا ، والخمر ، فيرى أن هذه
الأبواب الثلاثة « هى لون من التمرد
النفسى على وضع اجتماعى مهين ألزم
الشعراء به ، ومعظم . الشعر العربى
هو وثيقة ثورة نفسية رائعة ،
وشعراؤه شعراء كبار ، وثوار كبار
حتى لو استبعدنا من ذخائرهم شعر
المدح البليد ، والملق المذاجى ، فلقد
كانت ثورتهم عن أنفسهم فى داخل
نطاق اجتماعى رضوا به
كارهين » (١٢٩) .

لذا فقد كان على ابن المقرب أن
يجارى هذا الذوق ، ويسترضيه ،
ولا سيما أنه قد أمضى شطرا كبيرا من
حياته فى حواضر العراق ، وكان لا بد
لتلك الرحلات المتكررة ما بين الاحساء
والعراق من أن تترك بصماتها على
ابداعه الفنى .

ففى قصيدة له يمدح فيها عميد
الدولة يقول :

سلام على الزوراء ماهبت الصبا
وما صدحت فى الايك ورق الحمام (١٣٠)

وبعد أن يدعو « للزوراء » بالسقيا ،
يقول :

المركز



- (١) مجلة المكتبة : العدد ٤١ .
- (٢) مكتبة الامبروزيانا بميلانو .
- (٣) مكتبة الامبروزيانا بميلانو .
- (٤) ينظر في وصف هذه القصائد ورأينا في القصيدة الأخيرة ، وصف مخطوطة الدراسات ٦ «ومخطوطة ميلانو ٩» .
- (٥) في مخطوطات الموصل « للدكتور داود الحلبي ، يذكر أن هناك نسخة بمكتبة المدرسة الاسلامية التابعة للنادي العلمي بالموصل وحين بحثت عن المدرسة ، علمت ان مكتبة المدرسة المذكورة ، وسائر المكتبات الخاصة هناك ، قد ضمت جميعها في خزائن مستقلة ، بمكتبة الاوقاف العامة بالموصل .
- (٦) كذا في الاصل .
- (٧) وصف هذه المخطوطة املاه على الدكتور حسين علي محفوظ/ بغداد في يوليو ١٩٧٧ م .
- (٨) مجلة الأديب البيروتية - يونيه سنة ١٩٥٥ م .
- (٩) Journal Asiatique, Serie IX t. V. (1895
- (١٠) مكتبة الامبروزيانا بميلانو .
- (١١) المكتبة ذاتها .
- (١٢) المكتبة ذاتها .
- (١٣) المكتبة ذاتها .
- (١٤) مكتبة الامبروزيانا بميلانو .
- (١٥) مجلة صوت البحرين - العدد غير معروف تسلسله وتاريخ صدوره - من مقالة بعنوان «طرفة بن العبد وعلي بن المقرب - بقلم محمد بن عبدالله المبارك» .

- ١٦) الطبعة الثانية لديوان علي بن المقرب / بالمكتب الاسلامي بدمشق ص ٤٣١ .
- ١٧) الطبعة الثانية لديوان علي بن المقرب / بالمكتب الاسلامي بدمشق من المقدمة .
- ١٨) جريدة اليمامة ، العدد الصادر في ١٣٨١/٩/٧ هـ .
- ١٩) ابن المقرب حياته وشعره ص ٣١ .
- ٢٠) الديوان - تحقيق الطلو - من المقدمة .
- ٢١) انظر : العمدة : ١٤٣/٢ .
- ٢٢) الديوان : ٥٢ .
- ٢٣) حنا فاخوري : الفخر والحماسة : ٩ ، دار المعارف بمصر : ط ٢ : ١٩٦٨ م .
- ٢٤) بنوك : هكذا بكل النسخ .
- ٢٥) الديوان : ٢٨ و كلاب و كلب : قبيلتان .
- ٢٦) الديوان : ٢٨/٢٩ واط : ان او صوت (اللسان : اطط) .
- ٢٧) كانت مساكن بني قضاة بين جدة وذات عرق (بقرب مكة) وقد اجلاهم عنها العدنانيون ، الديوان : ٥٨٨ وما بعدها .
- ٢٨) و كلب قبيلة ينسبون الى كلب بن مرة بن تغلب بن حلوان بن الحاف بن قضاة جد جاهلي (الجمهرة : ٤٥٢) .
- ٢٩) ونهد قبيلة ينسبون الى نهد بن زيد بن ليث من الحاف من قضاة ، وهو جد جاهلي (الجمهرة : ٤٤٤) .
- ٣٠) وخولان : هم بنو خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث .. بن كهلان بن سبا (الجمهرة ٤٨٥) .
- ٣١ - ٣٢) حرازي يوم لكليب بن ربيعة على مذحج وغيرهم من اليمن ، وكان يعقب يوم السلام ، فجمع كليب جموع ربيعة ، فاقتتلوا ، فانهمزمت مذحج والذين معهم من اليمن . (العمدة : ٢١٢/٢) و طغت : في الديوان طغت وما اثبتناه من نسخة الظاهرية الخطية .
- ٣٣) صهبان : هو صهبان بن سعد بن مالك النخع (الجمهرة : ٤١٤) .
- ٣٤) عبدالمدان : وهم بنو عبدالمدان بن الديان يزيد بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن كعب بن الحارث بن كعب (الجمهرة : ٤١٦) .
- ٣٥) زيد الخيل : هو ابن مهلهل بن زيد بن منهب بن عبد رضى بن المختلس بن ثوب بن كنانة بن غوث اثني عليه النبي صلى الله عليه وسلم وسماه زيد الخير (الجمهرة : ٤٠٣) .
- ٣٦) لعله يشير الى ما فعله هانيء بن قبيصة الشيباني حين دفع اليه المنذر اله واولاده وذهب الى كسرى ، وما حدث بعد ذلك من انتصار العرب على الفرس بذى قار ، وقصته معروفة (العمدة : ٢٢٠/٢ ، ٢٢١) .

٣٧) عتيك : هم بنو عتيك بن الازد بن عمران بن عمرو بن مزريقاء (الجمهرة : ٣٦٧) وحدان : هم بنو وحدان بن قريح بن عوف بن كعب بن معد بن زيد مناة (الجمهرة : ٣١٩) .

٣٨) الديوان : ٦٢٥ ، والشارف من الابل : المسن ، والخدمة : فرس مخدم : فرس جاوز البياض ارساغه او بعضها (اللسان : مادة خدم) والمصاد : الهضبة العالية او اعلى الجبل .

٣٩) والسهي : كوكب خفى من بنات نعش الصغرى ، والشعري : الكوكب الذى يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدة الحر ، ودغل بن حنظلة بن يزيد الشيباني النسابة (الجمهرة ٣١٩) والاعشيان : لعله يعنى اعشى قيس ، ابو بصير ميمون بن قيس ، واعشى ربيعة عبدالله بن خارجة بن حبيب (الجمهرة : ٣١٩ ، ٣٢٤) .

٤٠) الديوان : ٢٦٦ .

٤١) ديوان الحماسة لابي تمام : بشرح التبريزي ص ٢١ بعناية الشيخ محمد عبدالقادر الرافعي : مطبعة التوفيق بالقاهرة ١٣٢٢هـ .

٤٢) الديوان : ٢٧١ .

٤٣) اللسان : مادة بغث .

٤٤) ديوانه : ٢٧١ .

٤٥) انظر : الفخر والحماسة : من المقدمة : ٦ .

٤٦) الديوان : ٣٨٣ .

٤٧) الديوان : ٦١ .

٤٨) المصدر نفسه : ١١٩ .

٤٩) المصدر نفسه : ١٣٧ .

٥٠) المصدر نفسه : ٣٨١ .

٥١) المصدر نفسه : ٣٨٢ .

٥٢) ابن مقرب حياته وشعره : ٧٣ .

٥٣) الديوان : ١٤٤ .

٥٤) الديوان : ١٤٧ .

٥٥) الديوان : ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

٥٦) المصدر نفسه ، ٦٥٧ .

٥٧) الديوان : ٦٥٧ .

٥٨) القصيدة السابقة ذاتها : ٦٥٧ .

٥٩) المصدر نفسه : ٣٧١ .

- ٦٠ (القصيدة السابقة ذاتها ، ٣٧١ أزاله ، كذا في النسخة المكية المطبوعة للديوان ، أما المحقق فقد أثبت (أزاره) .
- ٦١ (الديوان : ٣٧٣ .
- ٦٢ (المصدر نفسه ، ٣٧٠ .
- ٦٣ (الديوان : ١٧٦/١٧٧ .
- ٦٤ (المصدر نفسه : ١٦ .
- ٦٥ (ابن مقرب حياته وشعره ، ٧٤ .
- ٦٦ (الديوان : ٦١١ .
- ٦٧ (المصدر نفسه : ٦١٦ .
- ٦٨ (JAS PAG 16 .
- ٦٩ (الذي كان يمثل في نظره صورة للحاكم الجدير بالحكم .
- ٧٠ (ديوانه : ٩٠ .
- ٧١ (الديوان : ١٦٩ .
- ٧٢ (المصدر نفسه : ٤٠٤ .
- ٧٣ (المصدر نفسه : ٣٣٩ .
- ٧٤ (المصدر نفسه : ٢٥٤ .
- ٧٥ (الديوان : ٣١٨ .
- ٧٦ (المصدر نفسه : ٦٣٢ .
- ٧٧ (المصدر نفسه : ٦٣٦ .
- ٧٨ (الديوان : ٦٣٨ وعامر الضحيان : هو عامر بن سعد بن الخزرج بن تميم الله بن النمر بن قاسط ، ساد ربعة أربعين عاما يأخذ المربع منهم (الجمهرة : ٣٠١) .
- ٧٩ (الديوان : ٤٥٦ - ٤٥٧ .
- ٨٠ (الديوان : ٢٥٢ .
- ٨١ (المصدر نفسه : ٧٥ والأجزاء : جزع الوادى قيل هو ما اتسع من مضايقه أنبت أولم ينبت (اللسان : مادة جزع) .
- ٨٢ (انظر : ابن رشيقي : العمدة : ٩٤/٢ : أمين هندية) : الطبعة الاولى : ١٩٢٥ م .
- وانظر : قدامة بن جعفر : نقد الشعر : ١٢٣ : بعناية كمال مصطفى : الطبعة الاولى : الخانجي : ١٩٤٩ م .
- ٨٣ (انظر : أبو القاسم الشابي : الخيال الشعري عند العرب : ٧١ الشركة القومية للنشر والتوزيع بتونس : ١٩٦١ م .

٨٤ (الأرى : محبس الدابة ، والأشعث المشجوج : الودد ، والسفع : الأثفية من حديد وأحدثها سفعاء ، والرملة بالضم : لون الرماد .

٨٥ (الديوان : ٣٠٥ والنوى : الحفير حول الخيمة ، والجذم : الأصل ، ووجيف الحصا : اضطرابه من مرور الريح . والحواشك : الرياح الشديدة .

٨٦ (وناطه : علقه ، والسخيمة : الحقد والضغينة ، والنيازك : الرماح القصيرة .

٨٧ (الهمرجل : الناقة السريعة ، وناقة أمون : وثيقة الخلق ، والقرى : الظهر ، والعثنون : شعيرات طوال تحت حنك البعير ، والتامك : الناقة العظيمة

السنام والقمطر : الجمل القوى الضخم ، الدرفس : العظيم من الابل القيسرى من الابل : العظيم أيضا ، والدرونك : ضرب من الثياب أو البسط ،

وواجف : اسم موضع ، والصلب : فى اللسان موضع بالعمان أرضه حجارة ، وجبل محدد لبنى مر بن عباس (مراصد الاطلاع : ٨٤٩) ، واستهل المطر .

اشتد انصبابه ، والوظفاء : السحابة المسترخية لكثرة مائها أو الدائمة السح ، والرامك : المقيمة لا تبرح .

٨٨ (القصيدة السابقة ذاتها : ٣٠٧ ، وناقة هجان : بيضاء ، وابل هجان : بيض ، وناقة بائكة : سمينة فتية حسنة ، وخماص الحشا : دقاق الخصور ، وحم

الشفاه : سودها ، ولاث المرط : لفه حول وسطه ، والمرط : كساء من صوف يؤتزربه ، وعنك الرمل : تعقد وارتفع ، والدره : المرة من الدر ، والذهبة : بالكسر المطرة الضعيفة ، والركيكية : المطر القليل أو هو فوق الضعيف .

٨٩ (المدوك : حجر يسحق عليه الطبيب ، والسلافة : ما سال وتحلب قبل العصر وهو أجود الخمر ، والقرقف : الخمرة ، وقد غورت أم النجوم الشوابك : أى شربت الخمر بحبايها المتشابك .

٩٠ (ديوانه : ١٢٩ / ١٣٠ وهذه الأبيات من قصيدة يبدو أن المدح قد سقط منها ، فاحتفظت بالنسيب فقط ، فى نسخة الاسكندرية الخطية جاء مانصه (وقال

يمدحه وأجاد) .

٩١ (القصيدة السابقة ذاتها : ١٣٠ .

٩٢ (الديوان : ٤٣٤ .

٩٣ (العمدة : ١٢٢ / ٢ .

٩٤ (الديوان : ١٣٣ .

٩٥ (انظر الابيات ٩ - ١٢ ص ٢٧ من الديوان : .

٩٦ (انظر الابيات ١٢ ، ١٣ ص ٣٠٧ من الديوان .

٩٧ (انظر الابيات (ص ١٤) من الملحق .

٩٨ (انظر الابيات : من الملحق : ٢٤ .

٩٩ (انظر الابيات : من الملحق : ٢٠ .

- (١٠٠) انظر الأبيات : من الملحق .
- (١٠١) الديوان : ٢٧ والقلب : سوار المرأة .
- (١٠٢) الملحق : ٢١ .
- (١٠٣) صلاح عبدالصبور : قراءة جديدة في شعرنا العربي : ١١٣ : دار النجاح ببيروت ١٩٧٣ م .
- (١٠٤) ديوانه : ٤٣٤ .
- (١٠٥) ديوانه : ٤٣٤ .
- (١٠٦) الديوان : ١٩ .
- (١٠٧) المصدر نفسه : ٤١ .
- (١٠٨) الديوان : ٨٥/٨٤ .
- (١٠٩) المصدر نفسه : ٣٠٨ والمعك : المطال والي في الدين .
- (١١٠) نفسه : ٣١٦ ، والنكس : الضعيف الذي لا خير فيه ، الوغل : الضعيف الدنيء المقصر .
- (١١١) نقد الشعر : ١٢٣/١٢٤ .
- (١١٢) العمدة : ١١٤/٢ .
- (١١٣) الديوان : ١٢٢ .
- (١١٤) المصدر نفسه : ٨٥ .
- (١١٥) العمدة : ١١٦/٢ .
- (١١٦) الديوان : ٥٨٠ .
- (١١٧) انظر الأبيات : ١ - ٤ : ص : ٢٨٣ .
- (١١٨) الديوان : ٣٠٧ .
- (١١٩) انظر : المصدر نفسه : ٣٠٥ - ٣٠٧ .
- (١٢٠) الديوان : ٥٨٠ .
- (١٢١) الديوان : ١٠١/١٠٠ يشير بذلك الى آية مصارف الزكاة الثمانية .
- (١٢٢) قراءة جديدة في شعرنا القديم : ٩٣ .
- (١٢٣) انظر : الخيال الشعري عند العربي : ٦٩ وما بعدها .
- (١٢٤) الملحق : ٢٢ .
- (١٢٥) الملحق : ٢٠ .
- (١٢٦) نفسه : ١١ .
- (١٢٧) نفسه : ١١ .
- (١٢٨) الأدب في العصر الأيوبي : ٢٣٨ .
- (١٢٩) قراءة جديدة في شعرنا القديم : ٢٦ .
- (١٣٠) الملحق : ٢١ .

(١٣١) الديوان : ٢٨٣ .
★ (والذلائل : أسافل القميص الطويل (اللسان : ٣ / ٣٧٩) .
والأبيات من الملحق : ٢١ - ٢٢ .

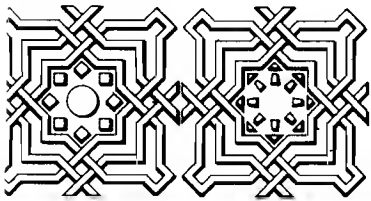
الشاعر

دراسة موضوعية

٤

بقلم : الدكتور

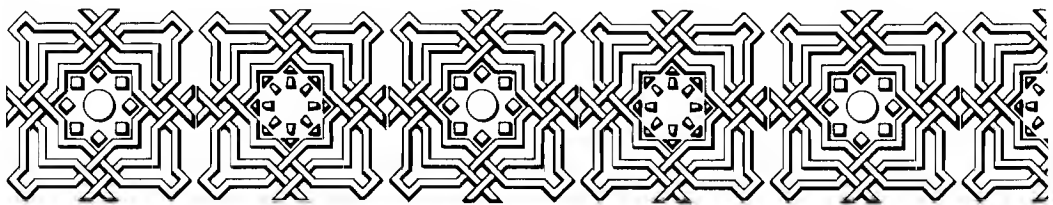
أحمد موسى الخطيب



علي بن المقرب العيوني وفسيّة

هذا
البحث

في الحلقة السابقة من هذا البحث عرض المؤلف لكل ما يتعلق بالديوان
مخطوطا ومطبوعا وتتبع النسخ الموجودة في كل من النوعين بالدراسة
الدقيقة والوافية. ثم انتقل الى أغراض الشعر عند ابن المقرب العيوني فبدأ
بالفخر وانتقل الى الشكوى ثم النصيح والعتاب ليختم الحلقة السابقة بالنسيب.
ويقدم الباحث في هذه الحلقة بقية أغراض الشعر عند ابن المقرب بادنا
بالمذح.



(٥)

المدح

طغى شعر المديح على سائر أغراضه من حيث الكم ، وإنما أخرناه هنا لأننا لم نرله مساسا بنفسه وذاته كما تقدم من الأغراض . ويبلغ المديح الخالص إذا ما نخلناه من المقدمات الغزلية وسائر الأغراض الأخرى كالفرح والشكوى والعتاب والحكمة . الخ نصف شعره في الديوان تقريبا ، وقد بلغت القصائد التي مدح بها أمراء أسرته خمسا وثلاثين قصيدة من أربع وستين قصيدة هي مجموع مدائحه ، التي بلغت أبياتها ألفين ومائتين وتسعة وثلاثين بيتا . أما سائر مدائحه وهي عراقياته فقد دبجها في مدح الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) والخليفة المستنصر بالله (٦٢٢ - ٦٤٠هـ) وولاتهما في الحواضر العراقية ، وبعض أهل الفضل والعلم هناك .

وإزاء هذا العدد الكبير من المدوحين المتفاوتين مكانة وخطرا ، وأمام هذا الكم الهائل من شعر المدح ، نجد من العسير علينا أن نستعرض كافة ديوان المديح عنده ، ويصبح الوقوف عند شخصيات بعينها لها دلالتها على حياة الشاعر وأثرها في شعره ، وعند نماذج بعينها تمثل تطور شعر المدح عنده إلى مرحلة نضجة ، هو المنهج الأدنى إلى القصد .

فأول الشخصيات التي مدحها ابن المقرب في موطنه « الاحساء » وقبل رحيله إلى العراق ، ودبج فيه باكورة غرسه ، الأمير محمد بن أبي الحسين العيوني ، وقد خصه بخمس قصائد . وكانت شخصية هذا الأمير - كما أشرنا من قبل - تستحق التقدير والاعجاب للدور الذي نهض به في المحافظة على قوة دولتهم ، وصلابتها في وجه خصومها من داخل الدولة وخارجها ، وكان آخر حكامها الأقوياء ، ذوى المهابة والسطوة . فوجد فيه ابن المقرب الشخصية العيونية والعربية المثالية ، ولا حرج إذا قلنا أنه قد وجد ذاته في هذه الشخصية . ولم لا ؟ ولا سيما إذا علمنا أنه كان يترسم خطوات شاعرنا العظيم أبي الطيب المتنبي ، فقد ارتاحت نفس الأخير عند « سيف الدولة » وقرت بلابله ، إذ وجد ذاته في تلك الشخصية العربية الفذة ، وسره أن يصبح « شاعر الأمير » و « ليس بالقليل ذا القلب » فنظم فيه أروع مدائحه . وهذا ابن المقرب يخلص لأميره صاحب الهيبة والسطوة ، فيصف حملاته ، ويسجل الدور الكبير ، الذي نهض به . وقد كان أميره عربيا عيونيا فضليا ، وابن المقرب مفتون بقومه . متعصب لأسرته ، ميال لآل الفضل محب لهم . والقصائد التي نظمها في الأمير المذكور ، تمثل باكورة ابداعه الفني ، فأول قصائده التي مدحه فيها بأبيته

التي مطلعها :

منال العلا بالمرهفات القواضب
وسمر العوالى والعقاق الشواذب^(١)

فهى أصل شعره ، وأقدم قصيدة
يحتفظ بها ديوانه ، نظمها عام
٥٩٩هـ .^(٢) وقد بدأها بعدد من
الحكم ، ثم خلس منها الى المدح ،
فوصفه بالشجاعة في شن الغارة ،
والدفاع عن الحمى :

يشن بها الغارات أزوع ماجد
سريع الى الجلى بعيد المطالب
شجاع اذا ما أصبح الحى لم يكن
صبوحهم الا رواق المضارب
ازاح الاعدادى عن حماها وحازه
فاضحت له أسادها كالثعالب^(٣)
ثم وصف وقعته مع بنى مالك ،
وأهل الشام ، وكيف مزق صفوفهم ،
ودفع خطرهم ، وختم مدحته بالدعاء
للممدوح :

فلا عدمت يوما ربعة مثله
لتشييد عز أو لبذل مواهب
ولا برحت أيامه في سعادة
ولا زال محروس الحمى والجوانب^(٤)
وجاءه عام ٦٠١هـ مادحا بلاميته
التي مطلعها :

صداق المعالى مشرقى وذابل
وسابغة زعف وأجرد صاهل^(٥)
فقد بدأها بعدد من الحكم ، ولعله
متأثر بأبى الطيب في افتتاح بعض
سيفياته بأبيات من الحكمة تدور حول
موضوع المدح ،^(٦) وخلص منها الى

المدح ، فوصفه بأنه صبح الوجه ،
كريم الأصل ، شجاع ، وكال له عدداً
من التشبيهات في الحاح مبالغ فيه ،
بأسلوب يعتمد على التتابع والتكرار
والتدفق فيقول :

هو البحر لكن مده غير جازر
هو البدر الا انه الدهر كامل
هو الشمس في جو السماء ونورها
على كل من فوق البسيطة شامل
هو المزن الا انه فوق سابح
وفي كل أرض منه سح ووابل
هو الليث إلا أن عرينه القنا
وصيداته الصيد الملوك العباهل
هو النصل لكن لا يحس غراره
بنان وبلايدى تحس المناصل^(٧)
وهى - كما نلاحظ - صور حسية
مطروقة ، وقد انتقل بعدها الى وصف
وقعة له مع بنى مالك ، وأخرى مع بنى
طىء وزيد .
ثم امتدحه عام ٦٠٢هـ بنونيته
التي مطلعها :

الا رحلت نعم واقفر نعمان
فبح باسمها ان عز صبر وسلوان^(٨)
وخلع عليه فيها كثيرا من صفات
الكرم ، والعفو ، وحسن الرأى ،
واصلاح ذات البين فقال :

وأغنى ذوى الحاجات منكم بماله
فاضحى لكل من عطايه ديوان
وكم راجل أمسى بنعماء فارسا
وكانت صفايا ماله المعز والضان
وكم من حريب راح نهبا سوامه
فراح عليه للكابة عنوان

فما أتاد شاكيا من زمانه
غدا من عطايا كفه وهو جدلان
وكم مذنب قد خاف منه عقوبة
تلقاه منه حسن صفح وغفران
وكم من قبيل راح يزحف بعضه
لبعض وقد شبت بواديه نيران
تلافاه منه حسن رأى وسطوة
فراح وقد ماتت حقوق واضغان
وكانت رابع مدائحه له ، رائيته
التي مدحه بها عام ٦٠٢هـ ،
واستهلها بقوله :

رماح الاعادى عن حماك قصار
وفي حدها عما تروم عشار
وكل امرئ ليست له منك ذمة
يضام على رغم له ويضار^(٩)
وبعد هذا الدعاء للممدوح ، ينتقل
الى الحديث عن تحالف عامر عليه ،
فحذرهم من عاقبة تأمرهم عليه ،
وخلص من تبكيته لهم الى المدح ،
فخلع على أميره صفات الشجاعة ،
والحلم ، والحدب على الرعية ،
والكرم ، والعفو ، فقال :

فمن مثله يرمى عداكم ويتقى
أذاكم ويحمى دونكم ويغار
ويرعيكم المرعى ولو ان دونه
عثر دماء بالسيف تمار^(١٠)
ويعطيكم الجرد الجياد تحفها الـ
موالى وكوم لاتذم عشار
ويعفو عن الجانى ولو شاء هلكه
لما عصمته من قناه ظفار
أما آخر مدائحه له ، فنونيته التي
مطلعها :

سائل ديار الحى من ماوان
ما أحدثت فيها يد الحدثان^(١١)
ومدحه فيها بعفة اللسان ،
والتواضع وعلو الهمة ، ومضاء
العزيمة ، والطهر .. ومنها قوله :

لم ينطق العوراء قط ولادرى
ما الكبرياء على عظيم الشأن
ومنها قوله :

ذوهمّة من دونها القمران
وعزيمة أمضى من الحدثان
لو أن للعضب المهند عزمه
لفرى الجماجم وهو فى الاجفان
ولو أن للشمس المسيرة بشره
تاهت فلم تطلع مدى الأزمان
عف الازار كريمة أخلاقه
ناء عن الفحشاء والشنان^(١٢)
وجدير بالذكر ان أسلوب الشاعر
فى البيتين الثانى والثالث يتكرر بنفس
المعنى والالفاظ ، والصور فى مدائح
اخرى ، لممدوحين مختلفين ، فكأن
هذه الأساليب مجرد قوالب جاهزة قد
استقرت فى نفس الشاعر ، يفرغها لمن
شاء ، ومتى شاء .^(١٣)

وقد انتقل بعد ذلك الى وصف
احدى جولاته مع آل حجاب
وآل شبانة من أهل القطيف ، ثم عاد
ثانية ليخلع عليه مزيدا من صفات
الكرم ، والشجاعة ، وسمو الشرف ،
والفصاحة .

كما خص الأمير «الفضل»
بن محمد بن أبى الحسين بأربع
قصائد ، وكانت صلته به استمرارا
لصلته الطيبة بوالده ، ووفاء منه لتلك

الوشائح المتينة بينهما . فقد سفر له
لدى بلاط الخليفة الناصر لدين الله
(٥٧٥ - ٦٢٢هـ) ، ليستعين به على
حرب القطيف ، عندما أطلت الفتنة
برأسها بعد مقتل أبيه .

وفي عهد هذا الأمير نكب ابن
المقرب ، وسجن ، ثم ارتحل إلى
العراق ، ومع هذا بقى على حبه له ،
وتقديره لآل الفضل .

فقد جاءه بعد مقتل أبيه ، راثيا
مادحا بلاميته ومطلعها :

ظننت حسودى حين غالت غوائله
يربع الى البقيا وتطوى حباله^(١٤)
ويمضى الشاعر في قصيدته متنقلا
بين أغراض عدة ، ولم يشر إلى
ممدوحه الا فى البيت الثامن والأربعين
بقوله :

أيافضل لازالت لنعماك تلتقى
بمغناك سادات الملا وعباهله
وبدل أن يشغل بمدحه ، أخذ
يعاتبه ، ومضى في عتابه له حتى نهاية
القصيدة عندما توقف ليسأله الرد ،
أو قل حقه في أن يرفد ، فالممدوح
والشاعر منصبهما في الفخر سواء ،
وكذا رابعهما ، فيقول في ختام
قصيدته :

ومنصبك السامى الى الفخر منصبى
وربعك ربعى والعلی انت آله
فجد بالذي تحوى يداك على الورى
وضن عليهم بالذي أنا قائله
فما المسك الا من عقابيل نشره
ولا الجوهر المكنون الا خصائله

ورأيك أعلى والرضا مارضيته
وكل امرئ غول المنيه غائلة
ونلاحظ أن الشاعر يهدد ممدوحه
فى البيت الثانى بأسلوب غير مباشر ،
فهو اذا لم يحظ بنيله ، فانه سيتحول -
مضطرا - بعقود نظمه الى غيره من
الممدوحين . وقد خلت القصيدة - كما
لاحظنا - من المدح ، فلم يخلع
الشاعر على أميره شيئا من الأوصاف
التي اعتاد أن يكيلها لوالده . ولعل
انشغاله بالفقيد في الشطر الاكبر من
القصيدة كان وراء هذا الاهمال
لمدوحه .

وقد أتبع هذه القصيدة بنونيته ،
ومطلعها :

ما أنصف الطلل العاقى بما وانا
لم نشجه يوم سلمنا وأشجانا^(١٥)

وبعد واحد وستين بيتا يخلص إلى
ممدوحه ، فيصفه بالحزم والعزم ،
والبأس الصادق والندى الغامر ،
والحلم ، والعقل ، والهيبة ، .. ومنها
قوله :

حزم وعزم وبأس صادق وندى
غمر وحلم وعقل فاق لقمانا
ومنها قوله :

أنت الذي ترك الاعداء هيبتة
كل يجمع ما يلقاه حيرانا
يا بى لك المجد والطبع الكريم بأن
تدعى على المال للاحداث خزاننا
يا من يرى بذله الاموال فائدة
تبقى له ويرى الامساك خسرانا^(١٦)
اما رأيته التي استهلها بقوله :

فسما بأعراف الجياد الضمر
وبما اثرن من العجاج الاكدر^(١٧)
فقد بدأها بالمدح مباشرة ، مفيضا على
مددوحيه عديد الصفات المتوارثة في
المدح ، مستعينا بثقافته الفلكية ،
وبما يحفظه من مآثور القول .
وأخر قصيدة بدجها في مدحه كانت
عام ٦٠٦ هـ ، ومطلعها :

أبت لك العزة القعساء والكرم
أن تقبل الضيم أو ترضى بما يصم^(١٨)
وقد بدأها بالمدح مباشرة ، واصفا
اياها بالحزم ، والعزم ، والفروسية ،
واللباقة السياسية والقيادة الحكيمة ،
ثم يشير الى تأييد الخليفة العباسي له ،
وامداده بالمساعدة اللازمة له في حربه
لخصومه :

مما حباه أمير المؤمنين به
لما أنته به الوخادة الرسم
مستعصما واثقا بالنصر منه وهل
يخيب من بالامام البر يعتصم
أجابه حين ناداه وقربه
أشم في راحتيه للندى ديم^(١٩)
وقد مدح عددا من أمراء أسرته ،
غير من ذكرنا ، وكانت أكثر مدائحه
لال الفضل من البيت العيوني ، ممن
أحبهم ، وأخلص لهم الود ، ولم
تخرج مدائحه لهم عن الاطار الذي
حدده في مدائحه للأمير محمد بن أبي
الحسين ، وابنه الفضل . وقد كان
مشغولا - في الغالب - عن مددوحيه
بالفخر ، والشكوى ، والنصح ، وطلب
الانصاف ، والنسيب ولم يبق

للممدوح الا مساحة ضئيلة من
مدحته ، ونظرا لتلك الاهتمامات التي
كانت تشغل فكره ، فقد كان المديح
يتأخر في قصائده ، وقد يؤخره حتى
البيت الخمسين او الستين ، علما بأن
القدماء قد عابوا هذا المنهج في قصيدة
المدح ، كما عابوا الاطالة في مدح
الملوك ، فان للملوك سامة وضجرا ،
وحكى عن جرير أنه قال : « يا بني ،
اذا مدحتهم فلا تطيلوا الممادحة فانه
ينسى أولها ، ولا يحفظ آخرها »^(٢٠).
ويمضى شاعرنا الى العراق تحدوه
آمال كبار ، بأن يجد لدى خليفة
بغداد ، ورجالات العراق سوقا رائجة
لبضاعته .

والجدير بالذكر ، أن ابن المقرب
ما كان ليلج باب التكسب ، لولا
ما اصطاح عليه من مصائب في وطنه ،
وبين أهله ، وبأيدي رجاله ، فجعلته
يتجاوز مبادئه التي اختطها لنفسه
حين قال :

وانى لأشنا المدح في غير سيد
ابوه أبى لوزاحم النجم كاهله^(٢١)
وقد كرر هذا المعنى ، وأكد هذا
المبدأ في مواضع كثيرة من ديوانه ،
وحسبنا كافيته التي يقول فيها :

ولست وان اودى الزمان بثروتى
وزاحمنى منه بخصم مماحك
بمهد ثنائى والمناديح جمه
الى حوتكى ابشع اللؤم راعك^(٢٢)
ومن القصيدة ذاتها يقول بأنه لن
يمدح أحدا سوى أمراء أسرته :

فيلاحظ أن حائيته ، التي استهلها بقوله :

أرتها المأقى ماتكن الجوانح
فبح فالمعنى بالصباية بانح (٢٣)
وكذلك ميميته التي أنشدها إياها
عام ٦٤١ هـ ومطلعها :

أمارات سر الحب مالا يكتم
وأبين شيء ما يجن المقيم (٢٤)
قد تأخر المدح فيهما بعد ثلاثين
بيتاً من النسب ، والشكوى ،
والفخر ، والحكمة وخلع عليه فيهما
من الصفات ما يليق بزعامته الدينية ،
وكرم عنصره ، وفضل بني العباس
وحقهم في الحكم ، وإمامة المسلمين .
ولانجد في القصيدتين تصريحاً
بطلب نوال الخليفة واستعطافه ،
واكتفى بالتلميح كقوله في ختام
حائيته :

إليك رمت بى عزمة لم أجد لها
سواك وهم لم تسعه الجوانح
ومن كنت يابن المستضىء ماله
رجاء وحاشاه محب وكاشح (٢٥)
أما ميميته ، فقد ختمها بقوله :

إليك سمى المصطفى وابن عمه
تخطت بى البيداء وجناء عيهم
وخاض بى الرجاف عار عنانه
يبيت بيمنى فارس لا يوهم
وحسن اعتقادي والولاء أجاى
إليك وود خالص لا يجمم
وأفضل ما يرجى ثواب زيارة
يؤم بها أكناف دارك مسلم (٢٦)
وأما ثالث مدائحه في الخليفة

ولست بمفراح بمال أفيد
لعمري ولا أس على اثر هالك
ولامداح إلا سراً بنى أبى
جمال المعالي بل ليوث المعارك
وهكذا كان للضرورة حكمها على
شاعرنا ، ولكن همته العالية أثبت له أن
يمدح في العراق ، إلا من يستحق - في
نظره - ثناء واطراءه .

ويبدو أن سوق المديح في العراق ،
قد خلّت من الشعراء الفحول آنذاك
بالإضافة إلى كونه أميراً من أسرة
معروفة ، كل هذا سهل عليه أن يتصل
بالخليفة ، الناصر لدين الله (٥٧٥ -
٦٢٢ هـ) وأن يخصه بثلاث قصائد ،
وأن يتصل بالوزير شرف الدين عميد
الدولة ، وأن يخصه بأربع قصائد
ومقطوعة ، وبوالى البصرة ، شمس
الدين باتكين ، وأن يمدحه بثمانى
قصائد . كما اتصل ببدر الدين لؤلؤ
أمير الموصل ، ومدحه بأربع قصائد ،
ومدح الملك الأشرف الأيوبي بأرض
الجزيرة . كما مدح بعض وجهاء
الموصل ، مثل كمال الدين ومدح في
بغداد عدداً من علمائها ، ونقبائها ،
كأبى البقاء العكبرى ، والنقيب تاج
الدين اسماعيل ، والعالم تاج الدين
ابراهيم بن الطباخ ، ومحّب الدين
الواسطى ، وفخر الدين الدوامى ،
كما مدح الخليفة المستنصر بالله
(٦٣٢ - ٦٤٥ هـ) ، وبلغت قصائد
المديح التي دبجها في العراق ثلاثين
قصيدة :
أما مدائحه للخليفة الناصر

الناصر لدين الله فميميته التي
مطلعها :

الام أناجي قلب حيران واجم
وانظر عودي بين لاح وعاجم^(٢٧)
فبعد مقدمة لم تجاوز ثلاثة أبيات ،
خلص منها الى المدح ، وقد أفاض فيها
بمدح أبيائه من بنى هاشم ،
وفضلهم ، وتقدمهم ، وأحقيتهم في
الخلافة :

فقل لدعاة الشرق والغرب أقصروا
وكفوا والا تقرعوا سن نادم
فما الحق الا دعوة هاشمية
هى الحق لادعوى غوى وغاشم
بها أصبح الاسلام فى كل موطن
ينوء بركن منه عقد الدعائم
أقام له فى كل ثغر كتائبها
ترى الشرك من شداتها فى ماتم
تبنت طواغيت النفاق لهمه
كان حشاياها ظهور الشياهم^(٢٨)
ثم يصف الرحلة الى الخليفة ،
ويبدو أنها رحلة بحرية برية لقوله :

فكم متن ساج تحت ساج قطعته
على ظهر ساج غير واه العزائم
وكم جبت من خرقا تموت بها الظبا
بهمة مضاء على الهول حازم^(٢٩)
ولا يخفى ما فى البيت الاول من
صنعة متعمدة ، فى الجناس التام
الناجم عن تكرار كلمة (ساج) مرة
بمعنى البحر ، وأخرى بمعنى الليل ،
وثالثة بمعنى السفينة .
وبعد عرض مفصل ، وصادق
لمنبته ، يتجه الى الخليفة طالبا نواله

صراحة هذه المرة :

وبشرت أهلى بالغنى حيث مرجعى
اليهم على أنف من الدهر راغم
فجئت وقد نالوا السماء وايقنوا
بأن الغنى أضحى كضربة لازم
ولم امتدح خلقا سواك لما له
فأحظى بنيل أو ببيعض الأباهم
وانى لأرجو من أياديك نفحة
على الدهر يبقى ذكرها فى المواسم
أفيد بها مجدا وأكبت حاسدا
وأعلو بها هام الملوك الغوانم^(٣٠)
والملاحظ على مدائحه فى الخليفة
الناصر - خاصة - ميله الى الاغراب
والصنعة ، وكأنه قد أراد أن
يستعرض امكاناته الفنية ، وابداء
مقدرته اللغوية ، فى موقف لا يخلو من
منافسين ، وإلى جانب هذا الاغراب ،
وتلك الصنعة ، نلاحظ فيها ثقافة
واسعة فى علم الانساب ، وحوادث
التاريخ ومأثور القول .

اما الشخصية العراقية التى أقام
شاعرنا فى بلاطها ، وحظيت بأكبر قدر
من مدائحه فهو شمس الدين باتكين
أمير البصرة . فقد خصه بثمانى
قصائد . ويبدو أن ابن المقرب بعد
فقداه للأمير محمد بن أبى الحسين
العيونى ، كان بحاجة الى شخصية
بديلة ، يجد فيها ما ينشده ، من مثل
عليا ، وكأنما قد وجد ضالته فى الامير
باتكين ، لما عرف عنه من عزم ،
وحزم ، وعلم ، وتقدير للعلماء ،
وصلابة فى وجه أعدائه ، وحرص على
النهوض بالبصرة ، فكان الملع ولاية

العراق ، وأكثرهم تقديرا لدى الخليفة
الناصر . وقد كان الاعجاب متبادلا
بين الشاعر والامير ، فقد أكرمه باتكين
وقدمه ، وحنا عليه ، وألقى عليه ظلا
من رعايته ، مكبرا فيه كرم الأرومة
والشاعرية ، فانقطع له مادحا ،
ومسجلا لماثره ، وكأنه اراد ان يجدد
لنا ذكرى تلك الصلة الحميمة بين
المتنبى وسيف الدولة ، فمدح شمس
الدين قريبا منه ، وبعيدا عنه .
ومن الواضح ان ابن المقرب كان
بدون منافس عنده ، فشعره لا يحمل
الينا ، ولا يومىء لنا بمثل ذلك ، بل
لا نظن شاعرا في الحواضر العراقية -
أذاك - كان يفضل شاعرنا ، فهذه
الفترة لم تحمل الينا أسماء شعراء
نابهيين ، ولعل هذا ما يفسر لنا هدوء
نفسه ، بالاضافة الى رتبة شعره
وعدم تلوينه .

ومما يميز مدائحه لشمس الدين
« أنها من المدائح التى لا تصلح الا
لمن قيلت فيه ، فالشاعر لا يكتفى فيها
- كما يكتفى الكثيرون من شعراء
المدح وكما فعل هو في مدائح أخرى -
باسباغ نعوت الحمد على ممدوحهم ،
مما هو عام شائع يصح قوله في كل
ممدوح ، ومما لا يميز ممدوحا عن
غيره ، بل نراه يلحظ بعين الاهتمام
والتقدير ، ويسجل بقلم المؤرخ
الصادق ما تتصف به حكومة الممدوح
أو سيرته من قيام بالعدل ، وحنو على
الرعية ، وماله من أيايد في ميدان
العمران » وحسبنا لاميته التى

أولها » .

ماشئتما يا صاحبي فقولا
هيهات لن تجدا لدى قبولا^(٣١)
وهى أول ما نظمه فيه ، فالشاعر
يذكر من سمات الممدوح وصفاته ،
ومن أعماله وأفضاله ما هو حقيقى
تاريخى ، ولعل ولع الشاعر بالتاريخ -
وهو ما تكشف عنه اشعاره - قد وجه
اهتمامه الى ذكر هذه الحقائق
والاعمال التى غفلت عنها كتب
المؤرخين . فهذه القصيدة تطوف بنا
أرجاء البصرة ، وتطلعنا على مناحى
النهضة الحديثة ، التى تحققت على
يدى واليها الصالح المصلح ، فقد
أحاطها بسور محكم ، وابتنى فيها
المدارس والمشاهد والربط ، وأنشأ
سوقا تنافس سوق بغداد ، ورمم
مسجدها ، وأدخل عليه تعديلا :

كانت سواداً قبله فأعادها
مصرا تروكك ممسأ ومقيلا
بالمبرم الاسواق والسور الذى
منع الاعادى ان تميل ممىلا
والربط بين مدارس ومشاهد
شرفت وفضل اهلها تفضيلا
أحى بها للشافعى ومالك
وأبى حنيفة أحرفا وفصولا
وبجامع ند الجوامع كلها
حسنا وعرضا فى البناء وطولا^(٣٢)
وقد سلك نفس المنهج فى داليتيه ،
الاولى ومطلعها :

طما بحر الهموم به فمادا
وعوضه عن الغمض السهادا^(٣٣)

والثانية ومطلعها :

كره الله ما أحب الاعادى
وأبى ما أراد أهل العناد^(٣٤)
وكذا سلك في لاميته التى استهلها
بقوله :

سمالك من ام العبيد خيال
ودون لقاءها أجرع وسيال^(٣٥)
أما الامير بدر الدين لؤلؤ صاحب
الموصل ، فقد قصده ابن المقرب عام
٦١٧هـ ، وهو فى طريقه لمذح الملك
الأشرف ، الذى وجده قد برح ديار
بكر عام ٦١٦هـ لقتال الفرنجة فى
دمياط ، ويذكر لنا يا قوت الحموى أنه
قد لقيه بالموصل عام ٦١٧هـ ، وأن
أهل الموصل قد أكرموه ، وأحسنوا
وفادته .^(٣٦)

وكان بدر الدين لؤلؤ (٦٥٧هـ)
من الأمراء الذين رعوا الحركة العلمية
والأدبية فى الموصل ، وأكرموا
الشعراء ، وأجزلوا لهم العطاء ، ومن
هؤلاء الشعراء الذين كانوا يختلفون
الى بلاطه ، أبو الطيب بن الحلاوى
الموصلى ، وجمال الدين يحيى
بن مطروح ، وكمال الدين حيدرة
بن عبد الله الحسينى الموصلى .^(٣٧)
كما كان ابن المقرب واحدا من
هؤلاء الشعراء المختلفين الى بلاطه ،
ممن أحسن بدر الدين وفادتهم ،
وأكرامهم ، وخلع عليهم :

ما كنت أمل من نداء انالنى
فأناله رب العلى ما أملا
ألفا مصمتة أجاز وبغلة

تشأى النعامة والحرون وقرزلا
ومن الملابس خلعة لو قابلت
روض الحمى أنفا لكنت أجملا
ووراء ذلكم اعتذار أنه
لولا أمور جمه ما قللا
وأحب من هذا الى لقاءه
لى مسفرا عن بشره متهللا
وسؤاله لى كيف أنت وقوله
أهلا آتيت وزال نحس وانجلا^(٣٨)
فقد خصه ابن المقرب بأربع
قصائد ، مطلعها :

خطوا الرجال فقد أودى بها الرجل
ما كلفت سيرها خيل ولا ابل^(٣٩)
انزل لتلثم ذا الصعيد مقبلا
شرفا واجلالا لمولى ذا الملا^(٤٠)
بسر القنا والمرهفات الصوارم
بناء المعالى واقتناء المكارم^(٤١)
أبا الفضائل يا من فى مفاضته
بدر وبحر وشعبان ورثبال^(٤٢)
واذا نحن تركنا جانبا عقود المدح
التى صاغها الشاعر لمدوحه ، من
لآلى ، العلا والكرم ، والنجدة ،
والندى ، والبأس ، والهمة ،
والفضل ، والسعادة ، والفروسية ،
والشجاعة ، والحلم ، استوقفنا من
هذه القصائد الجانب التاريخى من
سيرة الممدوح ، وهو جانب عرفنا ،
نظائرہ فى مدائح الشاعر لشمس الدين
باتكين والى البصرة ،^(٤٣) وللامير
محمد بن أبى الحسين العيونى أمير
الاحساء ، وابنه الفضل .

وقد استرعى هذا الجانب من شعر
ابن المقرب انتباه المؤرخين

المعاصرين ، وبدى دراسة احد الباحثين - المعنيين بتاريخ الموصل في عهد بدر الدين - لمدائحه في الأمير المذكور ، أمكنه التوصل الى تأكيد بعض الحقائق التاريخية التي أوردها المؤرخون كالرخاء الاقتصادي ، والتقدم الحضاري ، الذي كانت عليه الموصل آنذاك :^(٤٤)

طابت به الموصل الحدياء واتسعت لساكنيها بها الأرزاق والسبل وأصبحت جنة لا يبتغي حولا قطنانها لوالى دار البقا نقلوا^(٤٥) كما تحدث عن جهوده المثمرة في ارساء قواعد السلطة ، وإعادة الاستقرار السياسي :

أرسي قواعد ملك لويديبره كسرى واسكندر أعيتهم الحيل من بعد أن قيل ضاع الملك وانقصمت منه العري واستوى الرئبال والورل^(٤٦)

كما قدم الشاعر في هذه المدائح ما يلقي ضوءاً على الاحوال السياسية والادارية ، ووضح الاخطار التي تعرضت لها امارة الموصل في هذه الفترة ، من جراء تهديدات الاتابكيين والوقوف بوجه بدر الدين لؤلؤ ، ثم يتعرض لدوره في محاربتهم ، وصد اعتداءاتهم المتكررة على امارته ،^(٤٧) ومن ذلك قوله في الميمية :

وجيشا يوارى الشمس ريعان نقعه الى الترك اذ جاءوا لهتك المحارم

اذا التتر الباغون ذاقوا لقاءه تمنوا بأن كانوا دما في المشائم^(٤٨) ومن ذلك قوله من مدحة أخرى :

قد كنت وحدك لا جند ولا عدد وقد أتوك فقل لي ما الذي نالوا هل غير احراق غلات وقد شقيت بهم عجائز همات واطفال وكل ذا ليس يشفى غيظ ذي حنق وكيف يشفى غليل الحائم الآل وأنت لوشئت أضحت كل ناحية من أرضهم وبها نوح واعوال لكن أبى لك حلم راسخ وتقى ما لا توهمه غوغاء جهال^(٤٩) كما يشير ابن المقرب في ميميته الى سياسة بدر الدين الداخلية ، فوصفها بالحزم والعدل :

وأولى الرعايا عدل كسرى وساسها سياسة ميمون النقيبة حازم ومنها قوله :

ويمسى قرير العين من في جنبابه وان كان نائي الدارجم الدراهم^(٥٠) اما نغمة السؤال في مدائحه لبدر الدين ، فكانت خافضة في أول الامر ، الى التلميح أقرب منها الى التصريح ، كقوله في ختام مدحته الأولى له :

وكم تخطأت في قصدك من ملك لي عنده لو أردت النهل والعلل أفنيت زادي ومركوبى وشيبنى على عتو جناني الخوف والوجل وقد بلغت الجناح الرحب بعد وجي وليس الا على عليك متكل^(٥١) ولكن مايلاحظ على (ميميته) التي

مدائح بعامة ، لرجحنا ان هذا العمل منوط بالناسخ لا الشاعر . ولكن ما يرجح رأينا أن الأبيات اياها ليست مرتبة ، فقد أسقط الشاعر بعض الأبيات من مدحة الخليفة التي لا تناسب الممدوح الجديد ، كقوله :

فما الحق الا دعوة هاشمية
هي الحق لا دعوى غوى وغاشم^(٥٥)
وليس من شك في دلالة هذا الكم المتكرر على افلاس الشاعر في معاني المدح ، وعدم مطاوعتها له ، كما تطاوعه ألفاظه ، وتسلم زمامهاله .
ومما يبعث على الدهشة بيتان من الهجاء ، ختم بهما ابن المقرب مدائح لبدر الدين لأولئ ، هما :

تسلطن بالحدباء عبد بلؤمه
بصر بلى عن نيل مكرمة عم
إذا أيقظته لفظه عربية
الى المجد قالت أرمنيته نم^(٥٦)
وقد جاء في مقدمة البيت ما نصه « وله يهجو بدر الدين صاحب الموصل ، وقد سأل أن يهجو »^(٥٧)
اما نسخة برنستون الخطية فقد جاء فيها ما نصه : « وقال يهجو بدر الدين صاحب الموصل ، وقد سأل أن يهجو »
يهاجوه ، فأبى ، ولما لم يربدا من اجابة سؤاله ، قال هذين البيتين ، وذلك من غرائبه .^(٥٨) ولكن الناسخ فاته أن يسجل البيتين بعد التقديم لهما .
وهذا أمر غريب حقا ، اذ كيف يطلب شخص كبدر الدين من شاعر أن يهجووه وهو الحريص على

مدح بها بدر الدين ، تكراره لأبيات بعينها ، وردت في (ميميته) التي مدح بها الخليفة الناصر لدين الله ، وقد بلغت هذه الأبيات أربعة عشر بيتا ، كرر بعضها دون تغيير كقوله :

فإن هومت أهدت لها سنة الكرى
سراياه تردى بالقنا والصوارم
فتزعجها حتى كأن قد أصابها
من المس مالا يتقى بالتمائم
فليس لها في نومها منه راحة
إذا النوم أسرى الهم عن كل نائم^(٥٩)
والبعض الآخر من الأبيات ناله حظ يسير من التغيير ، كأن يستبدل لفظه بأخرى أو يضع اسم بدر الدين بدلا من اسم الخليفة ، ومن ذلك قوله في مدح الخليفة الناصر لدين الله .

إليك أمير المؤمنين تجشمت
بى البعد همت النفوس الكرائم
فكم متن ساج تحت ساج قطعته
على ظهر ساج غير واه العزائم
وكم جبت من خرقا تمون بها الظبا
بهمة مضاء على الهول حازم^(٦٠)
وقوله في مدح بدر الدين لأولئ :

إليك (طوت يابا الفضائل وامتطت)
بى البعد همت النفوس الكرائم
فكم متن ساج تحت ساج قطعته
على ظهر ساج غير واه العزائم
وكم جبت من خرقا تموت بها الظبا
(بعزيمة) مضاء على الهول حازم^(٦١)
وكذا كان شأنه في سائر الأبيات الاربعة عشرة ، ولولا أن تكرر بعض معانى المدح ظاهرة ملموسة في

استهلها بقوله :

عميد الدولة الغراء قل لي
علام جفوتني وصرمت حبل^(٦٢)
ويلاحظ على مدائحه فيه ، ان
الشاعر لا يولي الجانب التاريخي
اهتمامه ، كما هو الحال مع سائر
ممدوحيه . كما يبدو منها ان صلته
بالممدوح كان يشوبها شيء من النفور
وخاصة من جانب عميد الدولة الذي
تخلي عن نصرة ابن المقرب حين
استعداه. على بعض خصومه.

رجوتك يوما ما لدفع عزيمة
ومثلك من يدعى لدفع العظام
وفوفت من مدحي لمجدك حلة
يقصر عن تفويها كل راقم
وما انا بالباغي عن المدح نائلا
وانت فمعروف نبيل الكرائم
فقلت مديحي عند مجدك حرمة
فضيعتها لما اعنت مخاصمي^(٦٣)
ولم يتناول الدكتور رزوق فرج هذه
المدائح في عميد الدولة ، في بحثه عن
« عراقيات ابن المقرب » ظنا منه ان
النسخة المحققة قد ضمت شعر
الشاعر بأكمله .

وبعد أن استعرضنا ألوانا من
مدائح الشاعر ، حاولنا فيها أن
نوضح المنهج الذي أثره ، والصفات
التي خلعتها على ممدوحه ، ووقفنا عند
شخصيات بعينها نظرا لمكانتها
وخطرهما ، وتقديرهما لشاعرنا ،
واعجاب الشاعر نفسه بها ، تجدر
الاشارة الى أن مدائحه التي وجهها

استقطاب الشعراء حوله ليمدحوه ،
ويسجلوا مآثره ؟! وحتى لوطلب
لا أظن ابن المقرب سيوافقه ، وان
وافقه فلن يكون بمثل هذه الجدية في
هجائه . ولكن ما يقبله العقل ،
ويستسيغه ، المنطق ، ان ابن المقرب
قد استطاع ان يسبر أغوار بدر
الدين ، وأن يقف على ما تنطوى عليه
نفسه من زيف وخداع . فهاهو ذا
مؤرخ معاصر وأحد أبناء الموصل ،
يصفه بأنه من دهاة عصره ، ميكيا فيلي
السياسة ، يقدم على كل أمر في سبيل
توطيد ملكه .. وان اظهر الاسلام ،
وحب آل البيت ، الا أن الاسلام لم
يجد الى قلبه سبيلا ، قاسى القلب ،
كثير القتل والتشويه ، نكل بكثير من
رجال الموصل الذين أنكروا أفعاله ،
وأوجس منهم خيفة ، ثم أراد ان
يستميل نصارى أهل الموصل ، فأمر
بالاحتفال بعيد الشعانين ، وأظهر فيه
من أسباب الخلاعة والمجون ، ما نفر
أهل البلد منه .^(٥٩)

أما مدائحه في شرف الدين عميد
الدولة^(٦٠) ، فقد احتفظت بها نسخة
الظاهرية الخطية تسلسل
(٦٢٣٤) ، كما احتفظت بها نسخة
لندن الخطية تسلسل (٧٢٨٨) وخلت
منها نسخة الحلو المطبوعة .
وقد خصه الشاعر بأربع^(٦١)
قصائد ، تقليدية في منهجها
ومعانيها ، وان كان قد عمد الى
ممدوحه مباشرة دون تمهيد بالنسيب
في قصيدتين منها ، كلاميته التي

الى الشخصيات الأخرى ، كالخليفة المستنصر ، وفخر الدين الدوامي ، والنقيب تاج الدين اسماعيل ، وكمال الدين احد علماء الموصل ووجهائها ، وأبى البقاء العكبرى ، وعدد من أمراء أسرته العيونيه ، لا تختلف في كثير أو قليل عن تلك القصائد التي استعرضناها ، من حيث المعاني ، وتعدد الموضوعات ، وطلب النوال تلميحاً وتصريحاً ، واستحقاق ممدوحة - في نظره - لثناؤه واطرائه . ويمتاز مدحه - في الكثير منه - بالصدق وبحرارة العاطفة:

المعروف عن ابن المقرب أنه قد مدح أناساً ، يستحقون - في نظره على الأقل - ثناءه واطرائه ، وقد ترفع عن أن يمدح بعض الأمراء العيونيين ممن لم تعجبه سيرتهم ، ليس هو القائل :

بل فضل مثلي ان يسمو بهمته
عن مدح قدم عن العلياء في شغل^(٦٤)

ومدائحه في الامير محمد بن أبى الحسين وابنه الفضل ، تفيض بصور البطولة والرجولة ، ونبيل الخلق ، ويتضح فيها اعجاب الشاعر بممدوحيه ، كذلك كان الخليفة العباسي ، في نظره شخصية جديرة بالاحترام والتقدير ، لمكانتها الدينية وأرومتها الطاهرة ، وكان في نظره أمل الامة الإسلامية . وصاحباً البصرة والموصل كان كل منهما يتمتع بشخصية قوية مهابة ، تقدر العلماء والادباء وترعاهم ، وقد حفلت

قصائده فيهما بمناحي النهضة التي حققها لا مارتيهما ، والشخصيات الأخرى التي مدحها ، اما عالم فاضل مشهود له بالتقدم ، أو وجيه مرموق كالنقيب تاج الدين اسماعيل في العراق . وكانت تربطه بالعديد من ممدوحيه^(٦٥) وشائج تجاوزت الصلات المحدودة بين أكثر شعراء المدح وممدوحيه ، تلك الصلات التي كانت تنتهي فور حصولهم على مبتغاهم من الخلع والعطايا والوظائف .

وكان يصور في معانيه المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه الانسان ، فمدح بكريم الخصال ، والأفعال الحميدة ، والمناصب العالية ، محافظاً بذلك على شرف المعنى الذي أوصى به القدماء ، وهى نفس المعاني التي كان يشيد بها الشعراء في زمنه ، والسابقون له . كما أنه قد بالغ فيها الى حد الغلو ، كقوله في مدح أبى على بن عبدالله ابراهيم بن أبى جروان :

ذاك الذي لو سار اعمى في الدجي
بضياء غرته لابصر واهتدى^(٦٦)
ومن القصيدة ذاتها يقول :

لو قسمت في الأسد نجدته لما
رضيت لأشبلها العرينة مولدا
لو أن للعضب المهند جوهراً
من عزمه لفرى الجماجم مغمدا
وقد يخرج - أحياناً - الى ذلك النوع الممجوج ، من المبالغات ، كقوله في ممدوح مجهول :

الدين باتكين :

فأمر به ذنب التنين يخسفه
حتى يصير كقرص الآرز الخاسي^(٧١)
وفي مدح فخر الدين الدوامي
يقول :

ضحوك اذا ما العام قطب وجهه
عبوسا وخوى كل نجم وأخلفا^(٧٢)
كما ينعكس في شعره أثر الثقافة
الدينية:

ويتجلى ذلك واضحا في ألفاظه
ومعانيه ، ففي مدح الخليفة العباسي
الناصر لدين الله يقول :

وحسبهم بالناصر المهتدى به
فخاراً اذا ما الناس للحج وسموا
به يرفع الصوت الملبى باسمه
على الله في دفع الملمات يقسم
تقر منى والمأزمان بفضله
ويشهد جمع والمصلى وزمزم
وكعبة بيت الله تعلم أنها
له وكذا البيت المقدس يعلم^(٧٣)
وهذه المعاني والألفاظ المشبعة
بالروح الدينية ، تكثر في مدائح
الشاعر للخليفة العباسي الناصر لدين
الله بخاصة ، وفي مدح ولاته بعامه
وحسبنا هذه الأبيات في مدح الشيخ
محب الدين الواسطي :

أحييت (بشرا) (والجنيد) (وعامراً)
زهداً وكل اذ يعد إماماً
واقمت (للقرشي) في أرائه
حججا يقصر دونها (النظام)
لورادك (الثوري) أعلن قائلاً
أنت الغمام ومن سواك جهام

ملك الزمان وأهله وتصرفت
أحكامه في أرضه وسمائه^(٧٤)
ومن الملاحظ على المديح عنده، أن
تشبيهاته فيه مادية تقليدية:

فهو يشبه الممدوح الكريم بالبحر ،
أو بالسحاب الماطر ، وقد يشبهه في
شجاعته . بالأسد ، أو بالنصل
الحاد ..

كما لا حظنا ذلك في الأبيات التي
مدح بها الأمير محمد بن أبي الحسين
العيوني^(٧٥) ، ومن الجلي ان هذه
التشبيهات المتتابة ، التي شفعتها
الشاعر باستدراكاته ، مستخدما
«لكن» تارة و « الا » تارة أخرى ، انما
يراد منها رسم صورة لمثله الأعلى ، لما
ينبغي ان يكون عليه الممدوح .

ومن الظواهر الهامة التي نلمسها في
مدائحه تأثرها بشكل ملموس بثقافة
عصره.

فقد تأثرت ألفاظه ومعانيه ،
وتشبيهاته ، وأخيلته تأثرا واضحا
بتلك الثقافة ، فهو يستمد من النجوم
والأفلاك والابراج ألفاظه ، وصوره ،
ففي مدح أمير الاحساء علي بن ماجد
العيوني يقول :

ولو قال للأفلاك في سيرها قفي
لبانت ركودا لا تدور ولا تجرى^(٧٦)
وفي مدح أمير الموصل بدر الدين
لؤلؤ يقول :

غدا به الملك بالجوزاء منتطقا
وراح وهو بظهر الحوت منتعل^(٧٧)
ويقول في مدح أمير البصرة شمس

لله درك أى موضح مشكل
أضحى ومن شبه عليه ختام^(٧٤)
ونجد ابن المقرب يقتبس - أحيانا -
معنى آية كريمة ، أو حديث شريف
كقوله في مدح شمس الدين باتكين
معرضاً بأعداء الأمير :

وأراهم أعمالهم حسرة
والله للظالمين بالمرصاد^(٧٥)
فقد ضمن في هذا البيت قوله تعالى
« كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات
عليهم وماهم بخارجين من
النار »^(٧٦) . ومنه قوله في مدح
ال خليفة الناصر لدين الله :

فإن أنتم أمطرتموها تحدثت
وجادت وأتت أكلها كل طاعم^(٧٧)
فضمن في هذا البيت قوله تعالى
« كمثل جنة بربرة أصابها وابل فأتت
أكلها ضعفين ... »^(٧٨)
ويكثر الاقتباس في شعره ، ومنه
قوله في مدح الخليفة الناصر لدين
الله :

وأتاكم فصل الخطاب ومحكم الـ
كتاب وملكا زاهياً غير زائم
فأوضحتم سبل الهدى وكشفتم
عن الحق أغشاء العمى المتراكم
وقومتم بالسيف من مال خده أصر
عراراً ولم يشمخ بأنف لخاصم^(٧٩)
ولا يخفى أن الشاعر قد اقتبس
قوله تعالى^(٨٠) وشددنا ملكه وأتيناه
الحكمة وفصل الخطاب « وقوله
تعالى « ولا تصعزذك للناس »^(٨١) .
وقد يقتبس معنى أحد الأحاديث

النبوية ، كقوله في مدح الأمير الحاكم
على ابن ماجد بن محمد العيونى :
وعف فلم يمدد الى مسلم يداً
بسوء ولا باتت له عقرب تسرى^(٨٢)
فقد اقتبس قوله صلى الله عليه وسلم
« المسلم من سلم المسلمون من لسانه
ويده »^(٨٣) .

كما ينعكس في مدائحه أثر ثقافته
التاريخية:

ففى مدائحه لامراء أسرته تسعفه
حافضة واعية بأيام وأبطال ربيعة ،
ومن انحدر منها من القبائل ولا سيما
قبائل عبدالقيس وحين كان يمدح
أحدا سواهم ، كان يعنى بتسجيل
مآثر قوم الممدوح في الجاهلية وصدر
الاسلام ، أما اذا كان ممدوحه
متحدرا من أصول غير عربية ،
فنلاحظ أنه كان يعوض هذا بالاهتمام
بمآثر الممدوح الحاضرة ، كما فعل مع
شمس الدين باتكين ، وبدر الدين لؤلؤ
ففى مدحه للخليفة الناصر لدين الله
يقول :

سمى النبى المصطفى وابن عمه
ومالك أعناق الملوك الخضارم
نماه أبو الفضل الذي لم تزل به
بنو الجذب تسقى في السنين العقائم
وحل الذرى في (شبية الحمد)^(*) وارتقى

الى ضئضء العلياء من صلب هاشم
وأحيا خلالا سنهها في زمانه
(قصي)^(٨٤) أبو ساداتها والبراجم^(٨٥)
ليالى يدعى في قریش مجمعا
بجمع ذويها في فنون المحارم^(٨٦)

ومن القصيدة ذاتها يقول :

إذا الحرب العرباء يوماً تفاخرت
بذى العز من ساداتها والقماقم
وجاءوا (بقيس)^(٨٧) وابنه (وبمعبد)^(٨٨)
(وكعب)^(٨٩) و (أوس)^(٩٠) و (ابن
سلمى) و (حاتم)
وأى كريم ليس ينسب جوده
إلى جود بحر منكم متلاطم ؟
ومثل هذا قوله في مدح فخر الدين
الدارمي :

لكل امرئ ممن له الفضل خلة
بها قومه صاروا رؤوسا وأنفا
(فكعب)^(٩١) جواد (والزبيدي)^(٩٢) فارس
(وقيس)^(٩٣) حليم (والسموال)^(٩٤) ذووفا^(٩٥)

ومظهر آخر في مدائح ابن المقرب هو
نغمة السؤال :

وقد شاعت هذه النغمة بين شعراء
المدح في هذا العصر ، «وأصبح لكل
شاعر أن يطمح في أن يسافر إلى أمير
يكفيه ، أو ملك يليه ، أو قائد
يحميه»^(٩٦) ولكن هذه النغمة تكاد
تختفي من مدائح ابن المقرب في أمراء
أسرته ، ونستطيع القول أن سؤاله
لأبناء عمه الأمراء حكام الاحساء ،
والقطيف ، لم يكن طلبا لرفدهم ، بل
كان مطالبة بحقه المضيع ، وما له
المغتصب ، ولم تكن تسمح له مكانته
بينهم أن يسألهم الرfid ، ويستجدي
نوالهم ، فيقول للأمير علي بن ماجد بن
محمد العيوني :

وانى لصوان لمدحي وان نبا
بى الدهر واجتاحت نوائبه وفري^(٩٧)
ولكنه حين ارتحل إلى العراق ، لم
يجد حرجا في طلب النوال ، وان كفاه
البعض مؤونة السؤال ، تقديرًا
لمكانته ، وهمته ، ونفسه الكبيرة ، وكنا
نجدّه يلوح - غالبا - بمطالبه
ولا يصرح بها ، فيقول :

فدونك عقدا صاغه الفكر من فتى
يرى أن مدحا في سواك خيال
ولست بمهد للرجال مدائحى
وان قل مال أو تغير حال^(٩٨)
ولكن هذه النغمة قد تأخذ شكلا
أوضح في مدائحه للخليفة الناصر لدين
الله ، والأمير بدر الدين لؤلؤ ، كما
أشرنا أنفا .

أما تلك الصورة المزرية للتكسب
التي نجدّها لدى بعض الشعراء ،
ففى مدائح ابن المقرب لعميد الدولة
نماذج قليلة منها ، كقوله :

أعرنى قبولا واصطنعنى واصف لى
جميلك كيلا يشمت الحاقد الملط^(٩٩)
وكقوله :

وبالبيت العتيق ومن يلبي
من الهجد فيه ومن يصلى
بقربى مع رجاء ووسع شكرى
لمجدك أن يضيق على سبلى^(١٠٠)
ولهذا قد اختلف مع الدكتور رزوق
فرج الذي يرى أن أسفار الشاعر
الشاقة المضنية المتلاحقة ، التي
حملت الشاعر من بلده الاحساء إلى
القطيف والبصرة وواسط وبغداد

والموصل وأربل وسنجار وغيرها من البلدان ، لم تكن أسفار شاعر مداح يجرى وراء المال أو يلهث خلف الهبات^(١٠١) ، معتمدا في رأيه على ما جاء في مقدمة الديوان « من أنه لم يك يبغى على الشعر العطايا ، ولا يضع نفسه لشيء من الدنيا »^(١٠٢) .

فاذا لم يكن ابن المقرب - في رأيه - يبغى نوالا من وراء ذلك ، فما الذي يبغيه اذا ؟ ولا سيا أنه (الدكتور رزوق) قد أغفل دواعي اضطهاده ، ودوافع رحلته . وكيف نفسر اشارات التكسب العديدة في عراقياته بخاصة ؟

كما يلاحظ على مدائحه طول نفسه فيها : وهي ظاهرة تكاد تشمل سائر قصائد الديوان ولعل هذا النفس الطويل مرده إلى :

- تمكن الشاعر من لغته .
- لجوئه الى الاسلوب - التقريرى -
أحيانا - في تسجيل مآثر الممدوح ، واصلاحياته ، وحروبه ان وجدت .

- استقصائه لصفات الممدوح التقليدية ، التي استقرت في الوجدان العام ، بعد مضي الفحول من شعراء المدح في العصر العباسي .

- حفظ الشاعر لقوالب معينة ، يكررها في مدائحه ، على اختلاف ممدوحيه ، مع تغيير طفيف في بعض الألفاظ ، وربما ردها كما هي دون أدنى تغيير وحسبنا هذان النموذجان من شعره ، فقد مدح الملك الأشرف

الأيوبى فوصف موقعة له فقال :

ويوم يوارى الشمس ريعان نقه
ويحول قبل الطرف فيه الحمالق
وتمشى نسور الجو فوق عجاجه
وتبنى به أوكارهن اللقالق
كان العجاجة عارض وكأئما
به المشرفيات المواضى عقائق
وتحسب من رأى الأسنة انها
قواذف قذف صوتت وصواعق
وقد ابطل الضرب القسى وألقت
فل يبق الا ضارب ومعانق
مشى نحوهم مشى السبنتى فداحض
بشكته أو طائش اللب زاهق
فصك به الابطال صكا به التفت
لقاء قلى أقدامها والعناق^(١٠٣)

ثم مدح بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ، ووصف موقعة له بقوله :

ويوم نحس يوارى الشمس غيره
حتى يخال الضحى قد غاله الأصل
كأئما البيض راحت وهي مصلته
فيه بوارق غيث رعد زجل
والسمر قد جعلت تحكى أسنتها
كواكب القذف والفرسان تنتصل
سما له مشية الرئبال لاخور
يشينه في تهاديه ولاكسل
بصارم لو علا ضربا به حضنا
لقليل كان قديما هاهنا جبل
اذا بدا ضاحكا في يوم معركة
بكفه بكث الاعناق والقلل
فصك هام العدى صكا مقل
قرت لأن سخنت من وقعه مقل^(١٠٤)

والتأمل لمعانى وأخيلة هذه الأبيات وسابقتها ، لا يحتاج الى كبير عناء

السياسي للإسلام في ظلمات
داجيه» (١٠٧).

(٦) الهجاء

يرى الأستاذ عمران محمد
العمران (١٠٨) أن ابن المقرب قليل
الهجاء ، ولم يهج سوى اثنين ، وليس
له سوى قصيدتين ومقطوعة من
بيتين . ولكنه أغفل تماما نوعا آخر من
الهجاء غير هذا الهجاء الفردي ، وهو
هجاء ابن المقرب للجماعة ، وهذا
النوع من الهجاء أكثر أنواعه
تعقيدا ، وأعمقها ، تجربة ، ونجده في
عشر قصائد عنده ، أربع منها كان
غرضها المدح ، وخمس منها تنازعها
الهجاء والفخر ، واستقل هذا النوع
بقصيدة منها . وقد بلغ مجموع أبياته
في هذا الغرض مائتين وثمانية عشر
بيتا .

إذا فابن المقرب لم يكن كثير الهجاء
ولا قليله ، غير أنني أرى أنه من
الهجائين ، أو أن في مقدوره ما يجعله
في مصافهم ، لأنه يملك أدوات
الهجاء ، من لسان سليط حاد ، وقدرة
على السخرية والاستهزاء ، كما أن له
قدرة على النقد الاجتماعي ، وهو وإن
ذكرنا بروح جرير في هجائه
الاقذاعي ، وبروح ابن الرومي في
هجائه (الكاريكاتيري) الساخر ، إلا
أنه لم يبلغ مبلغهما .
ولعله كان يكبح جماح امكاناته في

ليدرك مدى التشابه بينها ، ومدى
الحاح الشاعر على الصورة ،
واستقصائه لجوانبها ، تلك الصورة
التي أوجزها «بشار» في بيت واحد
بقوله :

كان مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه (١٠٩)
والصورة العامة للمديح عند ابن
المقرب:

هي تلك الصورة العامة لقصيدة
المديح التي طرقت مرارا وتكرارا في
العصور التي سبقت شاعرنا ، وعرفها
عصره ، معانيها معان موروثة ،
والممدوح شخص تتمثل فيه طائفة من
القيم والمثل ، تغنى بها شعراء العربية
على مدى العصور كالكرم ،
والشجاعة ، وسداد الرأي ، والتقوى ،
والحياء ، والعدل ، والاحساس ،
والعفو ، والحلم ، ونصرة الدين :

حياء واقدام وحلم وقدرة
وحزم وجود ليس فيه مطال
وعلم وايمان وعدل ورافة
ونسك ورهبانية وجمال (١١٠)

بهذه المعاني مدح باتكين أمير
البصرة ، وبمثلها مدح سواه .. « فقد
ألم اخوانه قبله بكثير من المعاني ،
فضاقت سبل الاختراع ، فأعادوا
الصور والتراكيب ، وتضاءلت ينابيع
المديح ، وجف معينه ، وهكذا ألح
المتأخرون على القديم ، وبدلوا في
مبانيه وصوره ، وأعادوا وكرروا حتى
سقط المديح البليغ ، كما سقط العالم

الهجاء من الانطلاق في هذا الميدان ،
لأنه لا يتلاءم مع نفسه المترفعة ،
فالهجاء في حقيقته « تجسيد للامح
الشر والاختلال والشعور بالنقص
والاختلاف »^(١٠٩) ولم يعرف عن ابن
المقرب انه كان يعاني شيئاً من ذلك .
وكان ابن الدببى صاحب الحظ
الأوفر من هجائه الاقذاعى ،
وسخريته اللاذعة فقد خصه
بقصيدتين طويلتين ، تزيد أبيات كل
منهما عن الأربعين .

وابن المقرب حين يهجو ، هجاء
فرديا يفحش أيما فحش ، ولا يتورع
عن ايراد العبارات المخجلة ، والالفاظ
الناابية ، كقوله من رأيته في هجاء ابن
الدببى :

بع واسطاً بالنأى والهجر
ودع المرور بها الى الحشر
أرض يدبرها ابن صابئة
شابت مفارقها على الكفر
قد سد واسع قبلها عظم
فجميع ماولدت من الدبر^(١١٠)

وليس من شك في بشاعة هذا الهجاء
وفحشه ، ولولا موضوعية البحث
العلمي لما أوردت شيئاً من مثل هذا
الفحش .

وبعد أن نال من أم مهجوه بهذا
السيل من فاحش اللفظ والمعنى ،
يتحول اليه ساخرا منه ، في قول
مسف ، وعبارة لازعة :

لك لحية كالتيس ما برحت
من بوله في ناطف تجرى

وبها اذا حاضت حليتك الر
رعناء تعرف أول الظهر
ولسوف يحلقها أخو كرم
زاكى الأرومة طيب النجر
وهى التى غرتك فابغ لها
بيتا يحصنها من الظهر
 واجمع حوالىها ليمنعها
ما استطعت من مستحكم الجعر^(١١١)
فلقد أتاها ماسيتركها
مرداء خالية من الشعر
ولعل ذلك فيه مصلحة
لك يالئيم ونحن لاندري
تمسى كما قد كنت محترما
عند الزناة معظم القدر
يعطيك حكمك كل ذى شبق
يهوى العلوق مضبر عفر
ولكن مادوافع ابن المقرب الي هذا
الفحش في الهجاء ؟ يرى أستاذنا
العقاد - رحمة الله - أن « الافحاش
وليد الحضارة ، والغلو في الافحاش
وليد التهلكة في الحضارة ، ومتى غلا
الشاعر في القذف بأدناس التبذل
والخلاعة ، فهناك عيان محققان
أحدهما ولا شك عيب البيئة التى
أشاعت تلك الأدناس ، أوجعلت الذم
بها ذما هينا على الاسماع ، فلا بد فيه
للشاعر من المبالغة والاغراق .
والثانى : نبحت عنه في قائل الهجو
ومدمنه ... »^(١١٢) وحذا لو كان قد
أضاف اليهما أمرا ثالثا ، نبحت عنه
في شخص المهجو نفسه ، لكى
نستطيع أن نفهم تطرف شاعرنا في
هجو شخص بعينه . فلم يعرف عنه
أنه هجا أحدا غير ابن الدببى بمثل

هذا اللون من الهجاء ، أو بما هو أقل منه . فلم يكن من مدمنى الهجاء كالحطيئة وابن الرومى مثلاً .

لذا يصبح البحث في شخص المهجو في هذا المقام أجدى وأدنى الى القصيد وحسبنا في هذا المقام شهادة مؤرخ معروف عاصر الشاعر ومهجوه ، فقال في ترجمته لابن الديبثى « وكان قد ضمن البيع بواسط وظلم الناس وصودر ومقته الناس » (١١٣) .

وبعد هذه الشهادة ، أصبح موقف الشاعر من ابن الديبثى امراً لا يستدعى الدهشة ، ولا سيما اذا ما علمنا ان نفس الشاعر ، وأحواله المادية لم تكن تسمح له بأن يقبل ذلك الظلم الديبثى ، ويدفع تلك الضريبة الباهظة التى اشتط رجال المكوس في تقديرها ، وكان تصرف ابن الديبثى ورجاله لهو أقرب الى سلوك الشطار وقطاع الطرق منه الى عمل رجال الضرائب والجمارك ، وفي هذا يقول ابن المقرب :

أنكرتنى ولسوف تعرفنى
فتقر أنى واحد العصر
فاذهب فراراً كيف شئت فما
تنجو بأجنحة القطا الكدر
قد يمهل الله الظلوم الى
حين ويجزى المكر بالمكر
أسرفت في ظلم العباد أما
للبعث في ناديك من ذكر
وأعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السفر

نصف البضاعة حين تظفرها
مكس لقد بالغت في النكر
خنت الخليفة في رعيته
وعصيته في السر والجهر (١١٤)

فالشاعر حين نظم هذا القريض ، كان في حالة شديدة من السخط والغضب والهياج ، فجاءت قصيدته غضبة حلیم لا ترحم . ولكن مهما كانت دواعى الهجاء ، وأيا كانت عيوب البيئة ، والمهجو فلا يليق بشاعرنا ان يتدنى الى مثل هذا المستوى ، من السباب الرخيص ، وتناول الأعراض .

أما قصيدته الثانية التى هجا بها ابن الديبثى ، فقد بلغ فيها حداً من الاسفاف ، وقذف الأعراض ، يجعلنا نتحرج من الاستشهاد بشيء منه . (١١٥)

وقبل أن ننتقل الى لون آخر من هجاء شاعرنا ، لابد من أن نشير الى مذهبه في هجائه الفردى الاقذاعى ، الذى يبدو أنه سلك فيه طريقة جرير وابن الرومى من بعده « فجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب الا جريراً فإنه قال لبنیه : « اذا مدحتم فلا تطيلوا المماححة ، واذا هجوتهم فخالفوا ، وقال أيضاً اذا هجوت فأضحك » (١١٦)

وان كنا لا ننكر على جرير ، وابن الرومى فحولتهما ، واستاذيتهما ، فهما علمان شامخان في عالم الشعر ، الا أننا لا نستطيع أن ننكر أن الهجاء

الاقذاعى الفاحش يعد أقل منزلة من هجاء التعريض والتلميح ، فيروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : « خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها »^(١١٧) ثم جاء ابن رشيقي ففصل هذا الرأي بقوله : « ان التعريض اهجى من التصريح لا تساع الظن في التعريض ، وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فاذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً ، وقبلته يقيناً في أول وهلة ، فكان كل يوم في نقصان لنسيان أو ملل يعرض ... »^(١١٨).

ومن هجائه الفردى بيتان هجابهما أمير الموصل بدر الدين لؤلؤا ، وختم بهما عدداً من مدائحه فيه ، وحاولنا تفسير موقف ابن المقرب الفريد من هذا الممدوح المهجو .

كما نجد في هجائه بيتين من ذلك اللون (الكاريكاتيرى) الساخر الذي اشتهر به ابن الرومى ، هجا بهما شخصاً مجهولاً ، فقال :

وابكم مثل حب القرع مبسمه
واحذب وجهه الخازى من السفن
يرغو اذا هر في قول مشافره
مثل الثمامة اذ تعلقو على اللب^(١١٩)
ومثل هذين البيتين عبثه بلحية ابن
الدبيثى ، وهذا الكم القليل جداً ينبى
عن مهارة وقدرة في التصوير ورسم
الحركة وانتزاع الاعجاب .
أما الهجاء الاجتماعى أو

الايجابى ، فهو أعمق أنواع الهجاء تجربة ، وأعلاها رتبة ، وهو الغالب على شعر الهجاء عند ابن المقرب ، وكان هذا النوع عنده أقرب الى النقد الاجتماعى . ومن ذلك قوله :

ومن الشقاء اقامتى في بلدة
لله جد عدوها ما أسعدا
لو حلها كسرى لقال لما يرى
نفسى لمن يبغى الخراب لها الفدا
ما بين قوم لا يسان لجارهم
عرض ولا يرجى لغيرهم هدى
سوداء مومسة أجل لديهم
من عالم حبر وادنى مقعدا
وبمصلح لابل بالفى مصلح
لا يعلنون خبيث اصل مفسدا
لوقيل كن هوداً لأشرف رتبة
منهم ودونك درهمها لتهودا
ينزل الشاعر سياط هجائه على
قومه . منتقداً ماتفشى في مجتمعهم من
أمراض اجتماعية ، مبيناً كيف انقلبت
المثل والقيم رأساً على عقب حتى
أصبح مجتمعهم في حالة من الانحطاط
والفساد لا يحسد عليها . وفي مثل
هذا النوع من الشعر نحس ان
الشاعر قد انفصل عن مجتمعه . ولم
يعد واحداً منهم . ولكن الحقيقة كانت
غير ذلك ، فابن المقرب لم ينفصل عن
مجتمعه . وشعره شاهد على صلته
الحميمة به ، وانما اتخذ من هذا
(النقد الاجتماعى) والقسوة فيه
سبيلاً لاصلاح قومه .
وكلما ازدادت أوضاع قومه
تردياً ، ازداد حدة وقسوة في

هجائهم :

تكلتهم الأعداء إن حياتهم
غم الصديق وفرحة الأعداء
أموالهم لذوى العداوة نهبه
وعن المكارم في يد الجوزاء
لا يعرف المعروف في ساحاتهم
الا كما يحكى عن العنقاء
جلد الجمال على الهوان وفيهم
ضعف الدبا وتلون الحرباء
واذا ابتدوا بحثوا البذا فكانهم
دجج تباحت عذرة بفضاء
عمى عن الاحساس الا أنهم
أهدى الى لؤم من الزرقاء
صم عن الحسنى ولكن طالما
سمعوا كلام الحكل في العوراء
جعلوا المحال الى المحال ذرائعا
تغنى عن البيضاء والصفراء^(١٢٠)
الا ترى بداوة صوره ومعانيه في
هذه الأبيات ، ومطاوعة المعجم
البدوى ، له ، واستقصائه لجوانب
المعنى بسيل من الكنايات العفوية
ذات الدلالات التراثية الدقيقة ، وان
كانت الصنعة - أحيانا - قد اعترضت
سبيل التدفق العفوى ، فألبست
المعنى كالتجنيس بين (المحال
والمحال) في البيت الأخير .
وأكثر ما يأتى هذا اللون من
الهجاء عنده ، في قصائد الفخر « لأن
الهجاء وبخاصة الوجدانى منه ، ليس
في الواقع سوى وجه آخر من الفخر ،
انه الفخر السلبي^(١٢١) لذا فإن هذين
النوعين الأدبيين يتجاوران في شعره ،
ويمتد أحدهما في الآخر ويتكامل به ،

ومن ذلك قوله :

سأمضى على الأيام عزم ابن حرة
يرى العود فيما تكره النفس احمدا
فأما حياة لا تدم حميدة
يحدث عنها من أغار وأنجدا
أنال المنى فيها ، وأما منية
تريح فؤادا أح من غلة الصدى
وأهجر داراً لويحل ابن (قاهت)^(١٢٢)
بها راح مسحوتا من المال محجدا
يدبرها أوباش قوم تنكبوا
عن الرشد حتى خلت ذا الغى أرشدا
اذا رضى الأعداء منهم مهانة
بأخذ الجزى عدوه نصراً مؤيدا
أقاموا الأغاني بالمغانى وضيعوا
كرام المساعى والثناء المخلدا
فلو أحسن التصفيق والرقص فيهم
ورفع المثانى والغناء المهودا
لعشت عزيزا فيهم ولما اجترا
يمد الى الضيم باعاً ولا يدا^(١٢٣)
وقد تصل به القسوة في هجاء قومه
الى حد التشكيك في صحة نسبهم :
نسبوكم فعزوا بيوتا منكم
مشهورة لسواد خوزستان
نقلت أوائلهم الى البحرين كى
يبينوا مشقرها (أنو شروان)
قد كنت أكذب ذاكم وأظنه
من داعيات البغض والشنان^(١٢٤)
وبعد هذه النماذج التى تناولناها
من شعر الهجاء عنده ، نستطيع ان
نقول :
- أن الهجاء الفردى عنده لون من
السباب والشتم ، ويذكرنا ببشار بن
برد في هجائه .

- وأنه يتناول العرض والشرف ،
بلا وازع من دين أواناه من خلق ، كما
فعل مع ابن الدببثي .

- أما تصويره الساخر
(الكاريكاتيري) فالقلة القليلة من
أبياته فيه تدل على استطاعة ومهارة .
- وأنه يتخذ من هجائه لقومه
وسيلة للنقد الاجتماعي .

- وشعره في الهجاء الاجتماعي
امتداد لشعره في النصح والعتاب ،
ولا يختلف عنه في النوع . ولكن
يختلف عنه في الدرجة .

(٧)

الحنين

الحنين إلى الأهل والرفاق ،
والمنازل ، والديار ، وملاعب الطفولة ،
ومرابع الصبا ، وأيام الهوى
والشباب ، من اصدق الموضوعات
التي ضمها ديوان الشعر العربي ،
وأشدّها وقعا في النفس ، وتحريكا
للمشاعر الانسانية المشتركة . فقد
صدر فيها الشعراء عن معاناة
حقيقية ، بلا رياء او تملق ، فجاءت
زفرات حري ، وأحاديث نفس تفيض
باللوعة والشوق ، تنفيسا عن ضغط
مشاعر الغربة ، والانفراد ،
والوحشة . وقد بلغت أبيات ابن
المقرب في هذا الغرض ثمانين بيتا ،
جاءت كلها في ثنايا عراقياته .

وكما نعلم فقد نزع الشاعر عن
وطنه مثقلا بهموم نفسه ، تحدوه آمال
عريضة تكاد لاتتسع لها حواضر

العراق وبواديه . وسرعان مايشده
حنين الوطن الجارف ، على الرغم
ممالقيه فيه من اذى حتى من أقرب
الناس اليه ، فيقول :

ياحبذا وادي الحساء فإنه
- لوساءنى - واد الى محب
بل حبذا درب السليم وحبذا
ذاك القطين به وذاك الملعب (١٢٥)

يبدو من هذين البيتين مدى صدق
الشاعر في حنينه الى موطنه ، ولاسيما
في قوله (لو ساءنى) وهذه الموسيقى
التي نستشعرها من تكرار فعل المدح
«حبذا» .

وقد كانت هجرته الى العراق هجرة
جسد فحسب ، لاهجرة قلب وروح
فقال في صدر كتاب الى اهله من بلاد
البصرة :

كتاب مشوق ماتغتت خُمامة
من الورق الا حن شوقا اليكم
مقيم بارض المجزى وقلبه
رهين بجرعاء الشمال لديكم (١٢٦)

وقد يتوهم مسافرا ميمّا شطر
الاحساء ، فيستوقفه ليحمله رسالة
حب الى وطنه ، مفعمة بمشاعر الشوق
والحنين :

فياراكبا وجناء تستغرق البرى
ويطوى الفياق خطوها وانجذابها
اقم صدرها قصدا الى الخط واحتقب
رسالة ود انت عندى كتابها
فحين ترى الحصن المعلى مقابلا
ويبدو من الدرب الشمالى بابها
فلج بسلام أمانا تلق بلدة
مقدسة الاكناف رحبا جنابها (١٢٧)

ويتكرر هذا الأسلوب في شعر الحنين عنده ، ومنه قوله :

فيأركبا تطوى به البيد جسرة
وتغتال غيطان الفلا والأخاشبا^(١٢٨)
وقد تحرك «رياح الشمال» حنينه،
وكانها رسول الشوق بينه وأهله:

يحن اذا هبت شمال لانها
تؤدى اليكم او تمر عليكم^(١٢٩)
ويستبد به الشوق والحنين ذات
يوم ، وقد أوغل في أرض العراق
قاصدا ديار بكر ، فيتمثل بقول
الشاعر مالك بن الريب :

ألا ليت شعري هل أبیتن ليلة
بجنب الغضا أزجي القلاص النواجبا
فيقول :

ألا ليت شعري هل أبیتن ليلة
بحيث التقى سقط اللوى والابارق^(١٣٠)

وكان كلما طال مكثه في العراق ،
تعظم شوقه وحنينه لى وطنه ، وأيام
لهوه وصباه وعلت نبرة حسرته :

يامنزل الحى بالجرعاء لا برحت
تهمى بك المزن منهلا عزاليها
كم لى بمغناك من يوم نعمت به
وليلة تعدل الدنيا وما فيها
واهالها من ليال لو تعود كما
كانت واى ليال عاد ماضيها؟
لم انسها مذ نأت عنى بهجتها
وأين غر من الأيام تنسيها^(١٣١)

بدأ الشاعر هذه الأبيات بالدعاء
لموطنه بالسقيا على عادة أسلافه ثم أخذ
يتحسر على أيامه التي قضاه على تراهه،
والتي تعاوده ذكرها بين الحين والآخر،

وقد أشاع الشاعر في ألفاظه، وصوره،
ومعانيه جوامن الحسرة والألم، بل
والياس الذي نحسه لاستخدامه لأداة
الشرط (لو)، وفي الاستفهام الذي ختم
به البيت الثالث كما أن الاستفهام في
البيت الأخير بما فيه من
دلالة الاستبعاد ، ففيه دلالة أخرى
على أحوال الشاعر في غربته ، والتي
يبدو أنها لم تعوضه عزه الذاهب في
الاحساء .

وتعد قصيدته التي قالها وهو عابر
في (دجلة) ، وقد سمع حماما
يسجع ، من أجمل ما قاله من هذا
اللون ، بل من أجمل قصائد ديوانه ،
وأكثرها صدقا ، وعذوبة ، وأشدّها
تأثيرا في النفس بموسيقاها المناسبة
ذات النبرة الهادئة ، وقد استهلها
بقوله :

صبا شوقا فحن الى الديار
ونازعه الهوى ثوب الوقار
وهاج له الغرام غناء وريق
هواتف في غصون من نضار
صدحن غندية فتركن قلبي
وكان الطود كالشئ الضبار
رويدا ياحمام بمستهام
مشوق منه طول السفار
براه الشوق برى القدح جدا
فغادره بقلب مستطار
لقد فجرت تجربة الغربة ينبوع
شعره ، فتدفقت رؤاه ثرة عذبة ،
وانطلق يعبر عن هذا الموقف الشعري
الخالق ، فأجاد تصوير صراع نفسه

فكيف يكن لو نيطت شجونى
بكن ونار وجدى وادكارى^(١٣٢)
ويمتاز شعر الحنين عند ابن
المقرب :

- بأنه يأتى فى ثنايا عراقياته .
- وأنه يغلب عليه الصدق فى
العاطفة لانه صادر عن معاناة
حقيقية .
- وأنه يحسن اختيار ألفاظه
وتنسيقها ، ورسم صوره الموحية
بجوه النفسى .
- كما يظهر فيه - أحيانا - أثر
الثقافة والقراءة .

(٨)

الحكمة

عرف الشعر العربى كثيرا من
شعراء الحكمة ، وافتن بعضهم فى
ترصيع قصائدهم بها ، حتى اقترنت
أسمائهم بها كزهير ، وأبى الطيب ،
وأبى العلاء ، وأبى تمام وغيرهم .
والحكمة عند الشاعر العربى هى
محصلة خبرات حياته ، وثقافته ،
وهى - بحق - تمثل موقفه من أحداث
الحياة ، وصروف الزمان ، فهى
فلسفة حياة عندهم ، ومنها نستشف
الكثير من جوانب شخصياتهم ،
ونستجلي مكنونات نفوسهم .
فقد أدرك كبار شعرائنا رسالة
فنهم ، فأوجزوا تلك التجارب الخاصة
التي لقنوها فى مدرسة الحياة ،
ليقدموها فى إطار فنى جميل مقنع

الداخلى فى مطلع هذه الابيات ، كما
استطاع التعبير فيه عن موقف
انسانى عام ، بدا فيه رقيق المشاعر
والألفاظ والموسيقا ، وكأنى ببغداد
وقد أنسته شيئا من وعورة باديته ،
وهيأت له مثل هذه التجارب الحية
الخلاقة .

واننا لنشفق عليه من غربته وشدة
وجده فى هذه الصورة الحسية المنتزعة
من بيئته «براه الشوق برى القدح
جدا» التى توضح ذلك المصير الذى
انتهى اليه؟ كما أن لفظة (جدا) قد
ضاعفت احساسنا به ، واشفاقنا
عليه .

وان كان ابن المقرب قد اتفق مع
بعض شعرائنا فى اتخاذها من غناء
الحمام تجربة شعرية ، يتجاوب فيها
مع الحمام بكاء بيبكاء ، مفضيا اليهن
بأسراره ، لكنه زاد عليهم بابداء
دهشته وعجبه لشدهن الباكى ،
وليس فى حياتهن - كما فى حياته -
ما يوجب البكاء :

فواعجبا لكن تنحن خوف ال
فراق وما بدت خيل المعار
ولم تصدع لكن عصا بيبين
ولم تعبت لكن نوى بعار
وانتن النواعم بين بان
وخيرى يرف وجلنار
وبين بنفسج يزداد حسنا
كلون القرص فى وجن الجوارى
تردن نعيم دجلة لالغب
بطانا من بواكير الثمار
لدى أوكاركن بحيث تاج ال
خليفة لا باجواز البرارى

مسلم به ، لها طابع النصح غير المباشر ، ووجد الناس فيها ترجمة لمواقفهم من الحياة وصروف الدهر ، فحفظوها ورددوها فأصبحت أقوالا مأثورة ، وأمثالا سائرة .

«ولو كان حظ ابن المقرب كبيرا لدى الدارسين لعدوه أحد المبرزين فيها ، فهو بحق شاعر حكمه^(١٣٣)» فقد رصع شعره بمائتي حكمه وردت فيما يقرب من ستين قصيدة ، ولم يكن له منهج محدد فيها ، فقد يجعلها في مقدمة قصيدته ، او في ثنائياها وهو الغالب عنده .

وقد كانت تجاربه الشخصية في الحياة مصدرا ثرا ، ومعينا لا ينضب ، فحياته كانت رحلة حافلة بصنوف المعاناة . وأخصب تلك التجارب ، وأشدّها معاناة ، وأبعدها أثرا في نفسه ، هي علاقته بقومه ، واضطهادهم اياه ، وانكارهم حقه ، واعراضهم عن نصحه ، وتقريبهم للشائئين ، وابعادهم لذوى الرأى والخطر من قومهم .. فها هو ذا يزهد في الوطن ، ويزعم الرحلة لينأى عن دار الاذى ، فيقول :

ومن لم يفارق منزل الضيم لم يزل
يروح ويغدو موجد القلب باكيا
ومن يثو في دار الهوان يعيش بها
أخا مضض لا يبرح الدهر شاكيا
ومن لم يوف النصف في دار قومه
ويولى الاذى فالرأى ان لاتلاقيا
ومن يبيغ عزابالبلايا ودولة
يكن مثل من أمسى على الماء بانيا^(١٣٤)

واذا ماأصبحت الغربة أمرا لا بد منه في حياته ، او أمراه مايبيرره ، فهو يفلسف الغربة ، فيقول :

وماغربة عن دار ذل بغربة
لو أن الفتى اكدى وغثت مأكله
ورب غريب ناعم وابن بلدة
تبيكه قبل الموت فيها ثواكله^(١٣٥)
وتهتز القيم في موطنه ، وتنقلب المعايير الاجتماعية ، فتقدم بغاث الطير على نسوره فيقول :

واعلم بأن الشر يسقط ريشه
حينما فيقعه عن الطيران
والصعو ينفضه وفور جناحه
حتى يحوز مواكن الغربان^(١٣٦)
ويتمكن الشائنون من الايقاع به لدى أمراء قومه ، ويتظاهرون بصدق نواياهم في نصحهم لهم فيفسح أبناء عمه لاولئك النفر المغيظين ، ويمكنوا لهم من أمور دولتهم ، ويركنوا الى خططهم الاستسلامية ، ولكن ابن المقرب كان واعيا لكل مايدور حوله ، وللمؤامرات التى تحاك في غفلة من السلطة الضعيفة في الاحساء ، فيقول :

ومن يستمع في قومه قول كاشح
اصيبت كما شاء المعادى مقاتله
وماكل من يبدي المودة ناصح
كما ليس كل البرق يصدق خائله
وقد يظهر المقهور اقصى مودة
واوفاقه مبنوثة ومناجله
ومن لم يقابل بالجلالة قومه
اتاه من الاعداء مالايقابله^(١٣٧)
ومن لم يبيح زرق الا سنة لحمه
أبيح حماه واسترقت حلائله

ومن لم يدبر أمره ذو بصيرة
شفيق بكته عن قريب ثواكله^(١٣٨)
أما طريق المجد والعلا فيراه غير
ميسور إلا لمن احتاط لوسائله ، وأجاد
استخدامها :

منال العلا بالمرهفات القواضب
وسمر العوالى والعنقاك الشوازب
وطعن اذا ما النقع ثار وأقبلت
بنو الحرب أمثال الجمال المصاعب
وضرب يزل الهام عن كل ماجد
على الهول مقدم كريم المناسب^(١٣٩)
كما حذر قومه من مغبة التفريط
به ، في تصوير حى مؤثر ، ودال أيضا
على فلسفة القوة عنده ، فيقول :

ومن ضعف رأى المرء اكرام ناهق
وقد مات هزلا فى الاواخى صاهله
ومن ضيع السيف انكالا على العصا
شكا وقع حد السيف ممن ينازله
وليس يزين الرمح الا سنانه
كما لا يزين الكف الا انامله^(١٤٠)
ونجد فى حكمة ابن المقرب تصويرا
حيا لفلسفة الحياة عنده ، فهو - كما
المحنا فى حياته - من أنصار القوة فى
سياسة الناس ، وكان مؤمنا بالقول
الشائع « اذا لم تكن ذئبا أكلتك
الذئاب » ومنه قوله :

من سالم الناس لم تسلم مقاتله
منهم ومن عاث فيهم بالاذى سلما
لا يقبل الضيم الا عاجز خرع
اذا رأى الشر تغلى قدره وجما
وذو النباهة لا يرضى بمنقصة
لو لم يجد غير اطراف القناعصا^(١٤١)
كما كان يرسم من خلال حكمه ،
خطوط السياسة الناجحة ، فالحاكم

الحازم هو من لا يأخذ بمشورة النساء
أو زعانف الناس :

وأخسر الناس سعيا رب مملكة
اطاع فى أمره النسوان والخدم^(١٤٢)
والحاكم الفاشل من يسلم سلاحه
لخصمه ، ويكل الى عدوه تدبير أمره :
ومن يعط خصما درعه وحسامه
وسابقه فليلبس الذل مشملا
ومن ملك الاعداء تدبير أمره
فذاك الذى يدعى العديم المتكلا^(١٤٣)
واذا لم تكن للدولة هيبتها فى نفوس
أعدائها ، فلتنتظر من النتائج أوخما
ومن لان يوما للعدى هان واصطلى
على الكره من نيرانها شر مصطلى^(١٤٤)
وقد يوجز نظراته فى تدبير دفة
الحكم ، فيقدمها ضمن مدحة للأمير
أبى شكر مقدم بن ماجد بن محمد بن
أبى الحسين العيونى ، فيقول :

لا تركنن الى من لاوفاء له
الذئب من طبعه ان يقتدر يثب
ولا تكن لذوى الالباب محقرا
ذو اللب يكسر فرع النبع بالغرب
واحسب لشر العدى من قبل موقعه
فربما جاء امر غير محتسب
وغر على الملك من لعب الرجال به
فالملك ليس بثبات على اللعب^(١٤٥)
ويرى ببصيرته النافذة أن ما آلت
اليه أحوال دولتهم آخر الامر ، هو
حتمية تاريخية ولا فائدة ترجى من
اصلاحها ، فكما علت ذات يوم فلا بد
لها من نهاية :

وان دولة ولت قفاها فولها
قفاك فاعى كل شئ رجوعها

ولا تتعبن في نصح من غاب رشده
وهون فخفاض المباني رفوعها
لعل ذرى تهوى فتعلوا أسافل
لذاك فرفاع البرايا وضوعها^(١٤٦)
وقد يوظف الحكمة في الدعوة الى
الثورة على جهاز الحكم الفاسد في
الاحساء فيقول :

ولا تتكل عجزا ولؤما وذلة
على قولهم بغى الرجال صروعها
متى صرع الباغي فعاش قتيله
بلى طالما أردى النفوس هلوها^(١٤٧)
وعاش ابن المقرب يشكو حرب
الدهر ، وتقلب الاصدقاء ، وطالما هذا
شأن الدهر وبنيه معه ، لذا فلا بد له
من موقف منهما فيقول :

ولا تلقه مستغيثا من ظلامته
فما الدهر سمعا لمن جاء عاتبا
وجانب بنيه ما استطعت فإنهم
عقارب ليل لاتزال ضواربا^(١٤٨)
كما أوحى اليه عبر الايام بأن
الناس يخضعون ويسلمون قيادهم
للأقوياء وهم ابداء مع الغالب :
أرى الناس مذ كانوا عبيدا لغاشم
وخصما لمغلوب وجندا لغالب^(١٤٩)
وقد أدرك ابن المقرب في ختام
تجربته مع أبناء عمه ، أن عز الفتى
من عز قومه ، وهي نتيجة ذات مدلول
اجتماعي على عصره :

ولا يعز الفتى الا بأسرته
لو كان في البأس عمرا والندى هرما^(١٥٠)
وقد كان له من تجارب الآخرين
مصدر آخر لحكمته ، فنجده -
أحيانا - يضمن حكمه تجربة شاعر
آخر ، فيقول من قصيدته التي عارض

فيها عينية الشاعر الخارجي قطري
بن الفجاءة :

فما للمرء خير في حياة
إذا ماعد من سقط المتاع^(١٥١)
وقد يصوغ حكمة لشاعر آخر
صياغة جديدة مع المحافظة على
روحها ، كقوله :

ومن هاب المنية أدركته
ومات أذل من فقّع بقاع^(١٥٢)
فلا يخفى أنه متأثر بقول زهير :
ومن هاب أسباب المنيا ينلنه
وان يرق أسباب السماء بسلم^(١٥٣)
وقد كانت ثقافته معوانا له على
ترصيع شعره بالحكمة ، ومن ذلك
قوله :

من استخف بأرباب العلى سفها
وسامها الخسف أدمى كفه ندما
الا فسل عن (كليب) كيف جدله
جساس هل كان إلا أن حمى فرمى^(١٥٤)
ومنه قوله :

ومن طلب العلياء جرد سيفه
وخاض به بحر الردى غير واجم
فما عظمت قدما قریش ووائل
على الناس الا بارتكاب العظائم^(١٥٥)
كما كان المامه بعلم الفلك يسعفه
ويلببه في هذا اللون من شعره ،
كقوله :

وقد يأمن النقص السها لاحتقاره
ويخشى الخسوف البدر والبدر كامل^(١٥٦)

كما كان لماثور القول دوره في
حكمته ، كقوله :

إن المنية فاعلم عند ذى حسب
ولا الدنية هان الامر او عظما^(١٥٧)

فقد ضمن في هذا البيت القول المشهور «المنية ولا الدنية» .

وتمتاز الحكمة عند ابن المقرب :

- بأنه لا يلتزم فيها منهاج محدد ، فقد يفتح بها قصائده ، وحينئذ تكون لها دلالتها على الغرض العام للقصيدة . وقد تأتي متناثرة في ثنايا قصائده .

- وأن مصادرها تتعدد عنده ، فمنها ما كان نابعا من تجاربه الشخصية وهي الاوفر عددا ، والاصدق احساسا ، ومنها ما استقاه من تجارب الآخرين ، ومنها ما أمدته ثقافته به . - وأنه يختار لحكمته لغة فصيحة سليمة ، في أسلوب سهل ممتنع مقنع مؤثر ، جريا على عادة الحكماء والمصلحين .

- وأنه يستخدم أسلوب الشرط في كثير من حكمه ، لتعليق الجزاء على العمل في التجربة الانسانية .

(٩)

الثناء

الثناء شعبة من المدح* ، لأنه ثناء على الراحل ، وخلع حميد الخصال ، ونبل السجايا عليه ، مع اظهار الوفاء للفقيد ، واظهار الحسرة والحزن على اخترام المنون له ، وسيبقى الموت لغزا يعز على المنطق ، وتحار فيه العقول . لذا فكثيرا ما يتحاور العقل والاحساس في هذا اللون الشعري ، فيتخذ بعض الشعراء من تجربة الموت

فرصة لابتداء رأيهم في لغز الحياة والموت المحير ، ليكسبوا شعرهم بذلك طابعا انسانيا خالدا ، وحسبنا مرثية ابي العلاء المعري لصديقه ، فأينا لا يحفظها او لم تعلق معانيها في نفسه . وقد بلغت ابيات الرثاء عند ابن المقرب مائة وستة وستين بيتا ، جاءت في ست قصائد ، استقل الرثاء في ثلاث منها ، واشترك الرثاء مع المديح في الثلاث الاخر .

ولكن ما مقدار تجويده في هذا الفن ، ومدى تعبيره عن واقعه النفسي او الفكري ؟ ومن الذين رثاهم ؟ وهل كانت تربطه بهم مطامع واهواء ؟ وهل كان يصدر عن نفسه ، وعاطفته ، ومشاعره ، او كان التيار الفكري هو الغالب ؟ .

لقد رثى ابن المقرب ثلاثة امراء عيونيين ، ووجيها وائليا ، وعالما تغلبيا .

وكان الامير محمد بن ابي الحسين العيوني اول من فجع به ، وقد سبق ان تحدثنا عن وشائج القربى ، والصداقة ، والاعجاب بين الشاعر والامير الفضلي ، فابن المقرب كان شاعره الاثير ، وصفيه المقرب . كما وجد فيه شاعرنا ما يستحق التقدير والاعجاب ، فخصه بعدد من مدائحه ، وخذل مآثره ، وحين قتل غيلة حزن لموته كقريب وصديق ، فجاء ابنه الفضل راثيا مادحا بقصيدتين لا ندري ايهما اسبق ، فكلاهما ضمنا عتابا ، ورثاء ، ومدحا ، ونكاد لا نحس

فرقا في ارتفاع نبرة الاسى والاسف
فيهما .

ففي (التائية) يعبر الشاعر عن
حزن الجماعة وما فقدته في الامير
الراحل ، فيقول :

يا سوء حظ بني نزار بعده
وشقاء حاضرها وشؤم بداتها
من للمكارم والصوارم والقنا
والمرملات ومن لفك عناتها
رجفت لمهلكه البلاد وزلزلت
وغدا مناخ الذل في حجراتها
ان نبك مصرعه اسى فلقد بكت
جزعا عليه الجن من ستراتها
ويحق أن يبكي عليه بحرقة
وحش الفلا والطير في وكناتها(١٥٨)
فالالفاظ والعبارات في هذه الابيات
توحى بالالم العميق ، والاسف البالغ
وترسم صورة مؤثرة لهذا المصاب
الجلل واثره البالغ في نفوس الجماعة ،
كما ان تعظيمه للفقيد ، واستبعاد ان
يملاأ احد الفراغ الكبير الذي خلفه ،
يضيف على الموقف قدرا كبيرا من
التفجع . والمبالغة في البيتين الاخيرين
دليل آخر على حزنه الغامر .

ثم يسجل بعد ذلك بعض فضائله ،
فيقول من القصيدة ذاتها :

كانت به البحرين جنة مأرب
ايام بهجتها وطيب حياتها
حتى اذا ما الترب وارى شخصه
ابدت يد الايام عن سواتها
ويعرف هذا اللون من الرثاء
بالتأبين ، «الشاعر فيه لا يعبر عن
حزنه هو ، وانما يعبر عن حزن
الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم

من افرادها ، ولذلك يسجل فضائله ،
ويلج في هذا التسجيل ، وكأنه يريد ان
يحفرها في ذاكرة التاريخ حفرا لا ينسى
على مر الزمن»(١٥٩) .
ثم يختتم رثاءه ببيت من التأمل في
الحياة فيقول :

تبا لدنيا كلما وهبت ثنت
فاسترجعت منا نفيس هباتها
اما لاميته ، فبعد شكاية وعتاب
طويلين خلص الى الرثاء ، فقال :

ولا بد لي من وقفة قبل رحلة
اذيل بها دمعي فينهل وابله
على جدث اضحى به المجد ثاوبا
بحيث يرى شط المزار مقابله
لأسأل ذاك القبر هل غير البلى
محاسن مجد غيبتها جنادله(١٦٠)
ثم يتحدث في الابيات التالية عن
مآثر الفقيد وفضائله ، وهي - كما
نعلم - من لوازم الرثاء ، فيقول :

فيا عجا من ملحد ضم فيلقا
وبحرا وطودا يركب المزن عاقله
مضى طاهر الاخلاق والخيم لم يمل
الى سنه يوما ولا خاب أمله
فيالك من مجد تداعت فروع
ومال ذراه وانقعرت اسافله
ليبك العلي والمجد والبأس والندى
لقد صل وادبها وجفت مسايله
وتندبه البيض الصوارم والقنا
لما انهلتها كفه وانامله
اما الشخصية العيونية الثانية
التي خصها برثاءه ، فهو امير القطيف
ابوشكرمقدم بن ماجد العيوني ، وقد
اقتصر رثاؤه له على الاشادة
بفضائله :

عيوني يخصه برثائه ، وذلك حين بلغه
خبر مقتله ، وهو قادم من بغداد على
مشارف القطيف ، فرثاه بقصيدة بلغ
فيها الذروة انفعالا ، وصدقا ،
وحرقة ، وقد استهلها بقوله :

اظنك خلت الشوق والنأى ابكاني
فأقبلت نحوي يابس الدمع تلحاني
فقم فالتمس خلا سوى فما ارى
صحابة من لم يتبع شأنه شانى
كانك ما شاهدت ما قد اصابنى
به الدهر من صياب قومي واخواني^(١٦٢)

ويبدو من هذا الاستهلال تأثره
بعادة الاقدمين في استيقاف صاحب
للبياء ، اذ نراه يتوهم رفيقا يخاطبه ،
ولكن رفيقه - على غير العادة - لا
يشاركه آلامه واحزانه ، فيقول له :

فيا بارد الانفاس دعنى فإنه
قليل لهم من معشر فيض اجفانى
فلو جاءك الناعى بما جاءنى به
لما عشت الا لابسا ثوب اسفان
لطاب لديك النوح واستسمع العزا
واصبحت في شأن البكا بعض اعوانى
ثم يفصح الشاعر عن وشائج
القربى التي تصله بمرثيه :

اتلحى على فيض الدموع وقد ثوى
اخى وشقيقى وابن عمى وخلصانى
ثم يصور لنا مشاعره لحظة تلقيه
خبر نعيه ، فيقول :

أقول لناعيه وقد كظنى البكا
وقد أن من صدرى تاجج نيران
وقد اشرف الركب العراقي قاصدا
الى الخط اعلا ذى الشقيقة فرقلن
احقا ثوى في اللحد واستوطن الثرى
وجاور فيه كل ذى نازح دان

ومقدم لا شك طود باذخ
يعلو على الهضبان والأكام
ولقد فقدنا منه اروع ماجدا
سهل الجنب مؤدب الخدام^(١٦١)
والملاحظ ان رثاءه لهذا الامير
يفتقر لمشاعر الحزن الصادقة
والعميقة التي نحسها في رثائه للامير
محمد ابن ابي الحسين . ولعل
الغرض الاساسي للقصيدة وهو
المدح ، قد استدعى تجنب الشاعر
لتلك الاحزان قدر الاستطاعة ، او
الحد من فيضانها وتدقيقها ، ولنسمع
الى هذه الابيات التى حاول فيها ان
يخلص الى المدح ، لنرى فتور
احساسه تجاه الفقيـد :

ان كان ذاك العرش ثل فقد رسى
في اثره علم من الاعلام
او كان ذاك السيف قل فقد اتى
سيف اذا ما سل غير كهام
في اي يوم لم نصب بمتوج
ضخم الدسيعة صادق الاقدام^(١٦٢)
وما نفهمه من البيت الثالث ان
اخرام المنون لأحد زعمائهم ، قد
اصبح امرا مألوفاً ومتوقعا ، بل غدا
امرا لا ينطوي على الم كبير ، وحزن
عميق . فالفقيـد لم يترك فراغا كبيرا ،
لأن نظيره وخليفته يساويه في الخطورة
بل ربما فاقه وزاد عنه . والمألوف في
الرثاء غير ذلك ، فالفقيـد شخصية
مثالية ، ورحيله يعنى فراغا يتعذر
ملؤه بسهولة ، وفقده نازلة عظيمة
تضطرب الحياة لهول المفاجأة فيها .

اما ابن عم الشاعر مذكور بن
عبدالله بن منصور ، فهو ثالث امير

فقال نعم لم أت حتى تناوحت
على يومه بيض الخدود بالحان
وحتى رأيت القوم حول سريريه
حفاة ينادون العويل بإعلان^(١٦٤)
ويوالى الشاعر تفجعه وتلفه
فيقول من القصيدة ذاتها :

الا شقيت قومي لقد غالها الردى
بمقدام غارات وفلال اقران
بماذا اصببت ويلها يوم سددت
اليه المنيا سهم صفراء مرنان
لقد كان غيظا للاعادي وباذخا
يلوذ به جان ويأمله عان
فمن بعده من للرماح يعلها
وينهلها من كل اشوس مطعان
ومن لتوالى المرهقين اذا غدت
تعاطى وابدى الشر صفحة عريان
ثم يتوجه بالحديث الى عمه ليعزيه
في مصابه الجلل ، فيقول :

ايا عم لا تجزع فكل الى البلى
يصير ولا خلد لإنس ولا جان
ولا يخفى انه قد ضمن معنى الآية
الكريمة «كل من عليها فان»^(١٦٥) ،
كما ضمن في البيت التالى معنى قوله
تعالى «اينما تكونوا يدرككم الموت ولو
كنتم في بروج مشيدة»^(١٦٦) فقال :

فلو لم يمت قتلا لمات بعة
وليس بمنج من ردى رأس غمدان
ويمضى الشاعر في عزائه لعمه ،
فيضرب الامثلة - على عادة
القدماء -^(١٦٧) بمن لقوا حتفهم من
الابطال غيلة على ايدى من هم دونهم ،
فيقول من القصيدة ذاتها :

وما قتله مما يعاب به الفتى
اذا عد يوما بين شيب وشبان
فقد مات بسطام بطعنة عاصم

وكان المرجى في معد بن عدنان
وحمزة عم المصطفى ذاق حتفه
بطعنة عبد من سلالة عبدان
وفي حدود ما بين ايدينا من شعره ،
فقد خلا ديوانه من رثاء اي من افراد
اسرته كأمه وابيه ، او اخوانه ، او
احد ابنائه ، كما خلا ديوانه من رثاء
الخليفة الناصر لدين الله .

اما اصداقؤه فلم يفعل الا بموت
اثنين منهم ، احدهما الرئيس حسن
بن عبدالله من بنى بكر ، وثانيهما
القاضى محمد بن ابراهيم المستورى
التغلبى .

فالأول (كان بينه وبين اهل بيته
مودة وصداقة وخلطة)^(١٦٨) وقد رثاه
بقصيدة بلغت سبعة واربعين بيتا ،
استهلها بعدد من الابيات يغلب عليها
الطابع الفكري التأملى في الحياة
والموت ، ويظهر منها اثر القراءة
والثقافة .
كقوله :

ايدى الحوادث في الايام والامم
امضى من الذكر الصمصامة الخدم
فلا يظنن من طالت سلامته
ان المقادير اعطته عرى السلم
ولا يخفى انه قد ضمن البيت
الثانى قول كعب ابن زهير :

كل ابن انثى وان طالت سلامته
يوما على آلة حدباء محمول^(١٦٩)
كما ضمن في البيت التالى معنى
الآية الكريمة «كل من عليها
فان»^(١٧٠) ، فقال :

كل بما تحدث الايام مرتهن
وكل غاية موجود الى عدم

فما اللذاذة في عيش وغايته
موت يؤديك من قصر الى رجم
فهو متأثر بقول ابي العتاهية :
وقد كنت اغدو الى قصره
فقد صرت اغدو الى قبره (١٧١)
ثم اخذ في تعداد مناقب المرنسي ،
وبعدها انتقل الى تعزية ابيه (ابى
حسن) فقال :

ويا ابا حسن صبرا فكل فتى
مفارق وحياة المرء كالحلم
والموت كل امرئ لا بد ذائقه
تقاصر العمر او ادى الى الهرم
اين الملوك واردا الملوك ومن
ساد القبائل من عاد ومن ارم
فقد ضمن البيت الثاني معنى قوله
تعالى «كل نفس ذائقة الموت» (١٧٢) ،
كما انه متأثر في البيت ذاته بقول كعب
بن زهير «كل ابن انثى ... الخ» .

ويخلص الشاعر من عزائه الى
حديث مسهب عن سادة بكر وتغلب ،
وابطالهما ممن طوتهم يد الردى ،
وكان موتهم عظة لكل متدبر .
والملاحظ على رثائه لهذا الصديق
سيطرة طابع الهدوء والرزانة عليه .

ومثل هذا الطابع الرزين الهادئ
ما نحسه في رثائه للقاضي المستورى ،
وان كانت الابيات الاولى منها تحمل
شحنة عاطفية تنم عن الم وحزن ، لم
نحسها في مرثيته الاولى اذ يقول :

غرام اثارته الحمام السواجع
ونار جوى اذكت لظاها المدامع

وقلب اذا ما قلت يعقب راحة
ابت حرق تأتي بهن الفجائع
ا في كل يوم للحوادث عدوة

لها في سويدا حبة القلب صاعد (١٧٣)
ولنستمع الى هذه الابيات ، لنرى
ما فيها من رزانة وهدوء نفس :

فصبرا بني مستور فالدهر هكذا
وكل عليه للمنايا طلائع
ففيكم بحمد الله حصن ومعقل
ونور مبين يملأ الافق ساطع
فمن كان عبدالله منه خليفة
فما مات الا شخصه لا الطبايع
فتى لم يزل مذ كان قبل احتلامه
يدافع عنكم جاهدا ويصانع (١٧٤)
فقد خلت الابيات - كما يبدو - من
جو الحسرة ، والتلهف الذي لمسناه في
مرثيته لابن عمه .

ويمتاز رثاء ابن المقرب :
- بأن الحزن الحقيقي والاسى العميق
يتجلى في رثاء ذوي قرباه ، وان افتقر
رثاؤه - احيانا - لذلك .

- وبأننا نحس في رثائه لاصدقائه بجو
الاسف والحزن الهادئ الرزين الذي
ينتحي به الى اعمال الفكر في الحياة
والموت .

- وبأن رثاءه الذي جاء في ثانيا قصائد
المدح ، قد تأثر بروح المدح ، وافتقر
لنبرة الحزن الحقيقي .

- كما ينعكس على أسلوبه اثر الثقافة
والقراءة ، كما بدا ذلك جليا في رثائه
لصديقه الحسن بن عبدالله البكري .

(١٠)

الوصف

ترددت قبل ان افرد الوصف في
غرض مستقل عند ابن المقرب، لأن

الاشعار كلها وصف . فمثلا الغزل هو وصف عواطف الرجل نحو المرأة ، والمدح ليس الا وصفا لعواطف الشاعر نحو الممدوح ، وما الرثاء الا وصف لعواطف الشاعر نحو الفقيد ... الخ ولكنني اعنى بالوصف هنا ما جاء في موضوعات جانبية خلال قصائد الشاعر ، ووقف ازاءها وجلالها ، فلم يكن يقصد الى هذا الفن قصدا ، ولم يخصه بقصائد منفردة ، فكل وصفه جاء تابعا لمدائحه ، لذا فقد وصف الرحلة الى الممدوح ، على عادة القدماء ، في التقديم بهذا الوصف بين يدي مدائحهم ، وبالمعنى على طريقتهم - في وصف احوال الطريق ، والمشقة التي تجشّمها في الوصول الى الممدوح ، استدرازا لعطفه ، واستزادة لرفده ، وقصر عنهم ، فلم تستوقفه مشاهد الطريق ، من طبيعة حية وصامتة ، بالرغم من حياته الحافلة بالارتجال والتنقل ، برا وبحرا . فلم يستلهم من البوادي العربية لوحات حية جذابة كتلك التي ابدعتها مخيلة ذى الرمة من قبل . كما اختفت من شعره صورة حمرها وظبائها ، وتلصص الصيادين لاقتناصها ، كما افتن في هذا زهير والشماخ .. حتى فرسه وناقته لم تحظيا بكثير او قليل من شاعريته المصورة ، كما حظيتا باهتمام اسلافه ، امثال امرئ القيس وطرفة بن العبد .

والحواضر العراقية بكل ما حفلت به - آنذاك - من مظاهر الحضارة

والعمران ، لم تحرك ملكة التصوير عنده ! وقد كان فيها ما يعجب ويدهش بدويا طارئا عليها . ولعل عدم الاستقرار الذي عاشه ابن المقرب هو الذي شغله عن استجلاء مشاهد الطبيعة من حوله والوقوف ازاءها ، والتعاطف معها ، والاندماج فيها ومناجاتها .. فقد كانت نفسه متنازعة بين الوان شتى من القلق النفسي :

اعاذك الله من وجدى ومن قلقى
ومن غرامى ومن همى وووساى^(١٧٥)
ففي قصيدة له يمدح فيها الخليفة
المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠) يقول
واصفا رحلته اليه :

فكم لذا اليوم من دوية قذف
قطعت والقلب في احوالها يجب
تبدو بها الجن لى حيناً وأونة
تبث اضواءها حولي وتنتحب
فحين اكثرت التهويل قلت لها
هذا التهول جد منك او لعب^(١٧٦)
ان صورة الفلاة الموحشة التي
تتنازف سالكها ، فتضطرب نفسه ،
ويخفق قلبه ويتوهم انه يرى فيها
اشباح الجن ، ويسمع اصواتهم ،
ليست بجديدة .

ولابن المقرب بضعة ابيات يصف
فيها مركبا شراعيا ، تنم عن خبرة
بركوب البحر ، ولكنه يسوق وصفه لها
سوقا تقريريا ، يفتقر للحس الصادق
والخيال البارع فيقول :

ارى المعالى تقتضى عزمى
تعسف البيد وخوض الظوام
بكل مطلى الملاطين لم
يجرب ولم يرع بمرعى السوام
تسوقه الريح وتحتته الجل

وفي الوجعاء منه الزمام
لا يعرف الاعياء في سيره
ولا يبالي امضى ام اقام
وقد تساوى عنده في المدى
يوم واسبوع وشهر وعام
اذا يمس الارض في جريه
خيف على راكبه الاصطلام^(١٧٧)
ثم يتبع هذا الوصف ببيتين ،
يصف في الاول منهما ناقته :

او كل روعاء عزيزية
تزف بالرحل زفيف النعام^(١٧٨)
فهي قوية كريمة الاصل ، سريعة
كالنعامة . ويصف في البيت الثاني
حصانه :

يصحبها اجرد عرض النسا
قصير الارساغ طويل الحزام^(١٧٩)
فيخلع عليه عددا من الصفات
المعروفة والتي استقرت في الوجدان
العربي العام ، كدليل على الاصاله ، من
شعر قصير ، وصلابة ، وارساغ
قصيرة ، وصدر عريض ، واين هذا
الوصف من قول امرئ القيس في وصف
حصانه :

له ايطلا ظبي وساقا نعامه
وارحاء سرحان وتقريب تنقل^(١٨٠)
ولاين المقرب بضعة ابيات يصف
فيها المزن وهطول المطر ، في صدر
مدحته للخليفة العباسي الناصر لدين
الله (٥٧٥ - ٦٢٢) ، وجاءت بعد
مخاطبته لعرضات الدار ، والدعاء لها
بالسقى ، فيقول :

سقاكن من نوء السماكين عارض
من المزن محلول النطاكين دالح
ملث يظل الجأب في عنفوانه
على النشر وهم السحسح المتمايح
وتسمى الرعان القود فيه كأنها

يعاليل في اذى بحر طوافح^(١٨١)
فالشاعر يصف لنا صورة المطر
الغزير المتواصل ، الذي حبس الغليظ
من الحيوانات ، فلم تبرح مكانها ،
كأنها فرس سابق ذل وقد فاجأته
المهالك . والبيت الاخير صورة مبالغ
فيها ، توحى بغزارة المطر ، الذي
اغرق الارض ، واحالها بحارا ، قد
غرقت فيها مقدمات الجبال ، وبدت
كأنها فقاقيع تعلو امواج البحر . ولكن
ايثار الشاعر لهذه الالفاظ المعجمية ،
يحول دون الاستمتاع بما ابدعته
مخيلته من صور بدوية طريفة لهطول
المطر .

اما ابياته القليلة التي وصف فيها
الخمر ، فليس فيها ما يدل على المام
بصفاتها ، وقدره على وصف
مجالسها ، وقد استهل بها مدحته
لأمير البصرة شمس الدين باتكين
فقال :

قم فاسقنيها قبل صوت الحمام
كرمية تجمع شمل الكرام
صهباء مما عتقت بابل
مزاجها الارى وماء الغمام
مما ادير الكأس منها على
كسرى نمرود بن كوش بن حام
لو احتساها بن الزبير اغتدى
اكرم من كعب واوس بن لام
تذهب بالياس وتدنى المنى
وتنشر اللهو وتطوي الغرام
لو ذاقها المنزوف ضربا لما
هاب ابن ذي الجدين يوم الزحام^(١٨٢)
فالشاعر يصف الخمرة بأنها معتقة
من العصر البابلي ، ومما شرب منه كسرى
ونمرود ، وانها ذات اثر قوي في النفس ،

الطيب :

اتوك يجرون الحديد كأنما
سروا بجياد ما لهم قوائم^(١٨٤)
وينحو ابن المقرب منحى سابقه في
وصف جيش العدو ، اذ يبالغ في كثرته
وقوته ، وتسليحه .. ليوحى لنا
بشجاعة ممدوحه ، وعظمة الانتصار
على مثل هذا الجيش .

وبعد وصفه لجيش الصليبيين ،
وصف مقدم الاشرف بمفاجئا
جموعهم ، وقد حفت به رايات
المسلمين خفاقة ، فقال :

فما كان الا ان احسوا قدومه
تحف به تلك البنود الخوافق
يهز حساما لم يكن من دمائها
له صابح منهم برى وغابق^(١٨٥)
ثم نجد ابن المقرب - على غير
عادته - قد تجنب وصف لحظات
القتال ، فانتقل بنا الى وصف نهاية
المعركة ، وما اسفرت عنه من نتائج :

ومالوا لقذف المال في اليم بالضحي
وبالليل ثارت في الرجال الحرائق
وازعجهم من ذاق للجرح بعدهم
بأمس وهل يستعذب الموت ذائق
قولوا فمكعب على ام رأسه
لذن ذاك لم ينفق وآخر نافق
ومستعصم بالبحر منه وعائذ
بأخلق تنبو عن صفاء المطارق
ولم يبق يخنى من عنان جواده
اب لابنه والموت للقوم خائق
فسال دم لو سال في الارض لاستوى
بها ردغ ما عمرت ومزالق
جرى منه فوق البحر بحر فموجه
الى الآن من بعد الاقاصي شقائق^(١٨٦)
لقد اتسعت الصورة في هذه

فلو شربها من هو كابن الزبير بخلا
وحرصا لغدا اكرم من كعب واوس ، ولو
شربها الرعديد لما هاب اشجع الرجال .
ولا يخفى ان الشاعر مشغول باستعراض
ثقافته عن وصفه .

اما وصف المعارك ، فقد حظي
باهتمامه دون سائر موضوعات وصفه ،
ونجد ان نفسه فيه اطول ، وخياله فيه
اطوع ، فكانت الصورة تمتد فيه لترسم
لنا لوحة حية موحية بالحركة واللون ..
معتمدا على التصوير المجازي تارة وعلى
التصوير الواقعي المباشر تارة اخرى ،
ولا شك ان وصف المعارك من اكثر
الموضوعات مواءمة لنفس ابن المقرب
وطبعه ، تلك النفس المتمردة الثائرة
والتي تؤمن بالقوة مبدأ في سياسة
الناس ، وفي التعامل مع الاعداء ..
وحسبنا تلك الابيات التي وصف فيها
«معركة دمياط» مشيرا الى دور ممدوحه
الملك الاشرف (٥٧٨ - ٦٣٥) في صد
الهجمة الصليبية عن السواحل
المصرية ، فقال واصفا جموع
الصليبيين :

وقد جاءت الافرنج من كل وجهة
كان تداعبها السيول الدوافق
كتائب ملء البر والبحر من بدت
له قال ذا جنح من الليل غاسق
تسير بسد من حديد لو انه
هو السد لم يخرقه للوعد خارق
له لجب كادت مرارا لهوله
تقطع بين المسلمين العلائق^(١٨٧)
فقد وصف الشاعر جموعهم
بالكثرة ، والكثافة ، وتمام التسليح ،
وان كانت صورته في البيت الاول وتاليه
مطروقة ، فان الصورة في البيت الثالث
لا تخلو من طرافة ، وتذكرنا بقول ابي

الابيات ، فصور الشاعر فزع العدو ويأسه ، وما حل به من اذى ، وفي البيت الثالث رسم الشاعر بالتصوير الواقعي صورة طريفة لجند الافرنج وهم في صراع مع الموت ثم يستقصي جوانب الصورة لنهاية المعركة ، وكيف لاذت جموعهم الناجية من سيوف المسلمين بالبحر ، فاعتصموا بسفن كأنها الصخور القوية الملساء . وكيف حاق بهم الموت ، وشغل كل منهم بنفسه ، وذهل عن اعز الناس اليه . ويعطي الصورة من ثم لونها ، مبالغاً في تجسيم هذا اللون ، ولا سيما في البيت الاخير ، اذ علا البحر بحر آخر من دماء الصليبيين ، ولا يكتفى الشاعر بهذه المبالغة ، بل يذهب الى نوع من الغلو في قوله (الى الآن) من الشطر الثاني .

ولقد كانت المبالغة سمة غالبية للشعر العربي الذي صور الصراع الاسلامي الصليبي ، نظرا لصدق الاحساس وقوته .

كما لا يخفى ما في البيت الاخير خاصة - من صنعة عقلية ، فقد شبه الشاعر موج البحر كأنه شقائق النعمان لكثرة الدماء التي سالت فوقه ، وبعد ان كان موجه بزبد الابيض - قبل اليوم - يشبه الاقاحى في لونها .

ويمتاز وصف ابن المقرب :
- بأنه يأتي دائماً في ثانيا قصائد المدح عنده .
- وبأن ديوانه قد خلا من مقطوعات او قصائد مستقلة في هذا الفن .

- وبأن موضوعات وصفه - عدا وصف المعارك - تفتقر للخيال البارع ، والصور المبتكرة .

- وبأن معجمه التصويري والتعبيري في وصف الرحلة ، والمطر ، والناقة ، والفرس متأثر بمن سبقوه الى حد بعيد .

- وبأن وصف المعارك عنده ، غني بالاحساس ، والتصوير البارع ، ويحفل برسم الصورة الممتدة والمتحركة .

- وبأنه يميل الى المبالغة في معانيه عندما يصف المعارك ، لأن هذا الموضوع يلائم طبعه ، وفلسفة حياته ، هذا الى جانب اعجابه بممدوحيه ، ممن وصف وقائعهم تلك .

(١١)

الشعر التاريخي

يرى الدكتور شوقي ضيف «أن المدحة في تراثنا الشعري تعد كنزا تاريخيا كأنما ضاع منا مفتاحه ، وعلينا أن نجده ، ونفتح بابه ، ونستخرج منه ما يحويه من وثائق تاريخية تضيف اضافات خطيرة الى تاريخ أسلافنا المدون^(١٨٧) . كما يرى «ان من يدرس تراثنا الشعري يعرف انه يصور حياة أسلافنا من جميع أطرافها السياسية والاجتماعية والعقلية ، فقد مثلوا فيه جوانب حياتهم ، ولم يقصروه على وصف

مشاعرهم الوجدانية الخالصة ، بل وسعوا من قديم جنباته ليصور بيئتهم ومجتمعهم وحروبهم أو أيامهم^(١٨٨) . لذا تنبه مؤرخونا قديما الى أهمية الشعر ، فاستعانوا ببعض الاشعار التي نظمت في الاحداث السياسية والحربية ، وكأنما قد هداهم حسهم التاريخي من قديم الى ان الشعروثيقة تاريخية ينبغي أن تضاف الى وثائق الاخبار المروية .. ثم يقول الدكتور شوقي ضيف : «ولارتاب في انهم تنبهوا الى انه وثيقة أكثر نبضا بالحوية والحياة من الروايات الشفوية» .. فنحن حين نفتقد التاريخ الدقيق لدولة من دولنا في العصور الغابرة ، ينبغي أن نلجأ الى دواوين الشعراء الذين عاصروها ، لعلنا نجد فيها ما نفتقدناه » .^(١٨٩) فسيفيات أبي الطيب ، ورأية أبي فراس في الفخر بأسرته ، والشعر الذي حفل به كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي ، وديوان الشاعر علي بن المقرب العيوني .. كل هذا وذاك وما أشبهه انما يمثل وثائق تاريخية هامة بل ونادرة ، فلولا أن قيض الله للدولة العيونية ، شاعرا كابن المقرب ، مولعا بأحداث التاريخ وسير أبطاله ، لما استطعنا ان نستجلي هذه الفترة المعتمدة من تاريخ شرق الجزيرة العربية ، ولما أمكننا الوقوف على هذه الدولة ، وما يتصل بها ، فالمصادر التاريخية لم تسعفنا بكثير او قليل عنها ، وكأن الشاعر كان يدرك

بحسه المرفه ماتعانيه هذه المنطقة - آنذاك - من عزلة ، فسجل لنا الدور الحاسم الذي نهضت به أسرته في القضاء على القرامطة ومن حالفهم من قبائل الازد وعامر :

فغن هجر زادوا القرامط عنوة
وقد شركت فيها عتيك وحدان^(١٩٠)
وهو اذ يسجل قضاءهم على القرامطة لا ينسى ان يسجل شرعية استئصال شأفتهم لما استحدثوه من بدع ، وما هدموه من فرائض وسنن :
وأبطلوا الصلوات الخمس وانتهكوا
شهر الصيام ونصوا منهم صنما
ومابنوا مسجدا لله نعرفه
بل كل ما أدركوه قائما هدمنا^(١٩١)
وحين يحدثنا ابن المقرب عن تلك المسيرات الظافرة لقومه على القرامطة ومن والاهم ، لا يعمد الى الاسلوب التقريري الملل ، بل نراه يلجأ الى أسلوب الحكاية والقص المشوق ، في تفصيل واستقصاء للحدث التاريخي ، ويسعفه في هذا خيال بارع قادر على رسم الصور المتحركة الممتدة ، كقوله :

وقلدوا الامر منا ماجدا نجدا
يشفى ويكفى اذا ما حدث دهما
ماضى العزيمة ميمون نقييته
أعلا نزار الى غاياتها همما
فصار يتبعه غر غطارفة
لو زاحمت سد ذى القرنين لانتلما
اذا ادعوا يال ابراهيم ظل لهم
يوم يشيب من هام العدى اللما
حتى أناخ بباب الحصن يصحبه
عزم يهد الجبال الشم والاكما

فشنها غارة شعواء ناشئة
كسى بها العم من حيطانها قتما
فأقبلت ورجال الازد تقدمها
كالاسد قد جعلت سمر القنا أجما
فصادفت كل ليث لو يحس به
ليث بعثر أو خفان مازحما
فكم صريع هوى عفصا بشكته
منهم وآخر ولى الدبر منهزما^(١٩٢)
كما احتفظ ديوانه بأسماء عدد من
الطامعين في ملكهم إبان قيامه ، أمثال
ابن عياش^(١٩٣) والقاروني^(١٩٤) ،
وحمار النائي^(١٩٥) ،
والشركسية^(١٩٦) ، وقد وصف وقائع
قومه مع كل منهم .

كما يرجع الفضل لديوانه في الاحتفاظ
بأسماء أمراء الدولة العيونية ،
والادوار التي نهضوا بها في قيام
الدولة ، أو المحافظة على هيبتها ، أو
غير هذا من أدوار سلبية أدت الى
ضعف الدولة وسقوطها من ثم .

وحسبنا ميميته التي بلغت أبياتها
مائة وخمسين بيتا ، واستهلها بقوله :

قم فاشدد العيس للترحال معتما
وارم الفجاج بها فالخطب قد فقما^(١٩٧)
وجاءت كلها في هذا الغرض ، عدا
سيل الحكم الذى استهلها به ، ولكن
يلاحظ عليه عدم ترتيبه للاحداث
التاريخية ، فقد يعود الى صراعهم مع
القرامطة بعد ان سجل قضاءهم
عليهم ، كما لم يلتزم الترتيب
التاريخى عند حديثه عن أمراء أسرته
وأبطالها .

فكان يسجل مآثرهم حسبما
تتداعى اليه من الذاكرة ، وقد لجأ في

ذلك الى أسلوب خطابى تقريرى ذى
نبرة عالية ، وموسيقى صاخبة
كقوله :

منا الذى جاد بالنفس الخطيرة في
عز العشيرة حتى استرحل العجما
منا الذى قام سلطان العراق له
جلالة والمدى والبعد بينهما^(١٩٨)
فقد تكررت صيغة (منا الذى ..) في
ثلاثين بيتا من هذه القصيدة .

أما أمجاد ربعة ، فكما ألم
بمآثرها في حاضرها ، فقد ألم بأيامها
الناصعة في ماضيها .

فقومى الاولى أجلوا قضاة عنوة
ودانت لهم كلب ونهد وخولان
وهم فلقوا هام التبايع إذ طغت
يقربه وادى خزازى وسلان
غداة تولت حمير في جموعها
وذاق الردى في ملتقى الخيل صهبان
وهم ضربوا عبد المدان بمنعة
وقد شرعت فيهم سيوف
وخرصان^(١٩٩)

ويمتاز هذا اللون من شعره :

- بأنه لايلجأ فيه الى أسلوب بعينه ، بل
نراه تارة يعمد الى الاسلوب التقريرى
الخطابى ، وتارة أخرى يستخدم أسلوبا
أدبيا حافلا باللفظة الموحية ، والخيال
المثير .

- وأنه يأتى في ثنايا قصائده ، عدا
مطولته الميمية التى خصصها لهذا
الغرض .

- وأن أثر القراءة والثقافة يبدو جليا في
هذا اللون من شعره .

(يتبع)

(الهوامش)

- ١ (الديوان : ص ٤٧ ، والشواذب : الضامرة .
- ٢ (نسخة المتحف العراقي الخطية : تسلسل (٨٩٨٩) ، فقد جاء في مقدمة هذه القصيدة ، انه قد نظمها عام ٥٩٩ هـ ، وهي أصل شعره .
- ٣ (الديوان : ص ٤٨ .
- ٤ (القصيدة ذاتها : ص ٥١ .
- ٥ (المصدر نفسه : ص : ٣٥٠ . والمشرقي : السيف ينسب الى مشارف الشام ، او الى مكان باليمن ، والذابل : الرمح الدقيق الضامر ، والسابغة : الدرع والزعفة : الدرع اللينة الواسعة المحكمة أو الرقيقة الحسنة السلاسل .
- ٦ (كقول أبي الطيب في مدح سيف الدولة :
الراي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حرة
بلغت من العلياء كل مكان
انظر : ديوان المتنبي : ٢٧٣ : دار المعرفة ببيروت (بدون تاريخ) .
- ٧ (القصيدة ذاتها : ص ٣٥٣ والعباهل : واحداها عبهل وهم الاقيال المقرون على ملكهم .
- ٨ (ديوانه : ٥٨٦ وحريب الرجل : ماله الذي سلبه أو ماله الذي يعيش به .
(اللسان : مادة حرب) .
- ٩ (ديوانه : ٢٠٧ .
- ١٠ (العثيرة : شاة كانوا يذبحونها في رجب لآلهتهم ، فكان العرب اذا طلب احدهم امرا نذر لئن ظفر به ليذبحن من غنمة في رجب كذا وكذا (الديوان : ٢٠٧) .
- ١١ (ديوانه : ٦١٨ .
- ١٢ (القصيدة ذاتها : ص ٦٢٠ .
- ١٣ (انظر : نفسه : ص ٣٣ ، ٣٥٣ ، ٥١٥ ، ٥١٦ .
- ١٤ (نفسه : ٣٢٦ .
- ١٥ (ديوانه : ٦٠١ .
- ١٦ (نفسه : ٦١٠ .
- ١٧ (نفسه : ٢١٩ .

- (١٨) الديوان : ص ٥٢٠ .
 (١٩) القصيدة السابقة ذاتها : ص ٥٢٤ .
 (٢٠) العمدة : ١٢٨/٢ .
 (٢١) الديوان : ص ٣٤٠ .
 (٢٢) المصدر نفسه : ص ٣١٤ .
 (٢٣) الديوان : ١٢٠ .
 (٢٤) نفسه : ٤٤٨ .
 (٢٥) المصدر نفسه : ١٢٩ .
 (٢٦) المصدر نفسه : ٤٥٥ ، وفاقة وجناء : شديدة مبنية الخلق ، والعيهم : الناقة السريعة ، والرجاف : البحر المضطرب ، والعارى فرس عرى أى لا سرج عليه ويعني هنا المركب والعنان يعني به سكان السفين ، ولا يجمجم لا يخفي ولا يستر في الصدر .
 (٢٧) المصدر نفسه : ٤٩٠ .
 (٢٨) الديوان : ٤٩٤ - ٤٩٥ والشياهم : مفردا شيهم وهو ذكر القنفذ
 (٢٩) المصدر نفسه : ٤٩٦ .
 (٣٠) المصدر نفسه : ٤٩٨ .
 (٣١) الديوان : ٤٠٧ .
 (٣٢) الديوان : ٤١٠ .
 (٣٣) المصدر نفسه : ١٨٢ .
 (٣٤) المصدر نفسه : ١٩١ .
 (٣٥) المصدر نفسه : ٤٣٤ .
 (٣٦) انظر : معجم البلدان : ٢٥٩/٦ .
 (٣٧) انظر : الرويشدي : امارة الموصل في عهد بدر الدين : ٢٢٦/٢٢٣ .
 (٣٨) الديوان : ٤٢٣ .
 (٣٩) المصدر نفسه : ٤٣٩ .
 (٤٠) المصدر نفسه : ٤٢٢ .
 (٤١) المصدر نفسه : ٥١١ .
 (٤٢) المصدر نفسه : ٣٩٣ .
 (٤٣) انظر : عراقيات ابن المقرب : ص : ١٩ .
 (٤٤) انظر الرويشدي : امارة الموصل في عهد بدر الدين لأولئ : ٢٢٩ وما بعدها .
 (٤٥) - الديوان : ٤٤٥ .
 (٤٦) المصدر نفسه : ٤٤٢ والرئبال : الاسد ، والورل : حيوان يشبه الضب وهو أعظم منه طويل الذنب دقيقة .

- (٤٧) انظر : الرويشدي : ٢٢٩ وما بعدها .
- (٤٨) الديوان : ٥١٨ .
- (٤٩) الديوان : ٣٩٢ والهم والهمة : الشيخ الفاني (المصباح ٧٩١) .
- (٥٠) نفسه : ٥١٦ .
- (٥١) نفسه : ٤٤٧ .
- (٥٢) الديوان : انظر : ص ٤٩٥ ، وانظر : ٥١٩ .
- (٥٣) نفسه : ٤٩٤ .
- (٥٤) نفسه : ٥١٩ .
- (٥٥) نفسه : ٤٩٤ .
- (٥٦) الديوان : ٥٠٥ .
- (٥٧) نفسه : ٥٠٥ .
- (٥٨) نسخة برنستون المشروحة : تسلسل (٤٤) .
- (٥٩) انظر : سعيد الديوه جي : اليزيدية : ٨٢ - ٨٤ : مؤسسة دار الكتب بالموصل ١٩٧٣ م .
- (٦٠) لم نهدد الى اسمه الحقيقي : ولذا لم نعثر له على ترجمة .
- (٦١) وفي الملحق قصيدتان نظن ظنا أن الشاعر قد مدحه بهما ، وهما : رائية مطلعها :
- يابن الذين بنوا لأنفسهم
مجداً على العيوق والنسر
وطائفة مطلعها :
- وفي طوله المعروف طول يد الرجا
وفي بحر جدواه لأمالنا غط
- (٦٢) الملحق : ١٩ .
- (٦٣) الملحق : ٢٢ .
- (٦٤) الديوان : ٣٨٣ .
- (٦٥) ودفعاً للبس ، فقد بدأ من مدائحه لعميد الدولة ان العلاقة بينهما لم تكن قائمة على الاحترام المتبادل ، ولاسيما من جانب ممدوحه ، وقد حفلت سائر مدائحه فيه الا واحدة منها بالعتاب والرجاء والاستعطاف .
- (٦٦) الديوان : ١٧٢ .
- (٦٧) نفسه : ٢١ .
- (٦٨) الأبيات : ص : ٣٥٣ من الديوان .
- (٦٩) الديوان : ٢٠٢ .
- (٧٠) نفسه : ٤٤٣ .

- (٧١) نفسه : ٢٥٠ .
 (٧٢) نفسه : ٢٨٦ وخوت وأخوت النجوم : أمحلت فلم تمطر (المصباح : ٢٢١ .
 (٧٣) نفسه : ٤٥٣ .

(٧٤) ديوانه : ٥٧٠ ، وبشر : هو بشر بن الحارث بن علي بن عبدالرحمن المروزي ، أبو نصر المعروف بالحافي ، من كبار الصالحين ، وهو من ثقات رجال الحديث من أهل (مرو) ت ٢٧٧هـ (الأعلام : ٢٦) .

والجنيد : هو محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز أبو القاسم ، صوفي من العلماء بالدين ، قال أحد معاصريه : ما رأت عيناى مثله . وقال ابن الاثير في وصفه امام الدنيا في زمانه ، ت ٢٧٧هـ (الأعلام : ١٣٧/٢) .

وعامر : لعله يعني أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي بن عبد ذي كبار الكوفي وعداده في همدان (الجمهرة : ٤٣٣) .
 والقريشي : أبو عبدالله الشافعي محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع ابن المطلب بن عبد مناف رضي الله عنه ت ٢٠٤هـ (الجمهرة : ٧٣) .

الثوري : الفقيه أبو عبدالله سفيان بن سعيد والذي يرجع نسبه الى ثور بن عبد مناه (الجمهرة : ٢٠١) .

والنظام : ابراهيم بن سيار بن هاني النظام ت ٢٣١هـ ، طالع كثيرا في كتب الفلاسفة ، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة ، واليه ينسب اتباعه من المعتزلة النظامية . (الملل والنحل : لابي الفتح الشهرستاني : ج ١/ ٥٣ ، مؤسسة الحلبي بالقاهرة ١٩٦٨م) .

- (٧٥) ديوانه : ١٩٤ .
 (٧٦) سورة البقرة : ١٦٧ .
 (٧٧) ديوانه : ٤٩٣ .
 (٧٨) سورة البقرة : ٢٦٥ (٣) ديوانه : ٤٩٤ .
 (٧٩) المصدر نفسه : ٤٩٤ .
 (٨٠) سورة «ص» آية ٢٠ .
 (٨١) سورة لقمان : ١٨ .
 (٨٢) الديوان : ٢٠٤ .

- ٨٣ (صحيح البخاري : كتاب الايمان : ٩ .
 * (شيبه الحمد : هو عبدالمطلب بن هاشم وفيه العمود والشرف ولم يبق لها شمس عقب الا منه فقط (الجمهرة :
 ٨٤ (قصي بن كلاب : من سادات قريش . وعظماؤها ، وفيه البيت والشرف . (الجمهرة : ١٤) .
 ٨٥ (البراجم : وهم بنو حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة (العمدة : ١٩٥/٢) وقد سمي قصي مجتمعا لانه جمع قومه من الشعاب والادوية واسكنهم مكة لتقوى بهم عصيته ، وكانت له السقاية والرفادة والندوة واللواء (الديوان : ٤٩٢) .
 ٨٦ (المصدر السابق نفسه : ٤٩١ - ٤٩٢ .
 ٨٧ (ولعله يعني قيس بن معد يكرب الكندي صاحب مرباع حضر موت في الجاهلية وولده الأشعث بن قيس (الجمهرة : ٤٢٥) الذي مدحه الاعشى وأجزل له العطاء (الديوان : ٤٩٢) .
 ٨٨ (أبو القعقاع معبد بن زرارة الدارمي (الجمهرة : ٢٣٢) .
 ٨٩ (ولعله يعني كعب بن أود بن صعب بن سعد العشيرة (الجمهرة : ٤١١) .
 ٩٠ (أوس : لعله يعني أوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقاء بن ماء السماء واليه تنسب الأوس (الجمهرة : ٣٣٢) .
 ٩١ (كعب : لعله يعني كعب بن مامة الجواد الابادي (الجمهرة : ٣٢٧) وقال أبو عبيدة : أجواد العرب ثلاثة كعب بن مامة . وحاتم الطائي ، وهرم بن سنان (الاعلام : ٨٦/٦) .
 ٩٢ (الزبيدي : هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، فارس اليمن (الأغاني : ٢٠٨/١٥) .
 ٩٣ (قيس : لعله يعني قيس بن عاصم بن سنان بن خالد المنقري ، ولاء الرسول (ص) صدقات قومه ، وهو جد (مئة) صاحبة ذي الرمة . (الجمهرة : ٢١٦) .
 ٩٤ (والسموال بن حنا بن عادياء ، وكان يهوديا وهو الذي يضرب به المثل في الوفاء وهو صاحب تيماء . (الديوان : ٢٨٨) .
 ٩٥ (الديوان : ٢٨٧ - ٢٨٨ .
 ٩٦ (المديح : سامي الدهان : ١٢ : دار المعارف بمصر : ١٩٦٨ م .
 ٩٧ (ديوانه : ٢٠٦ .
 ٩٨ (نفسه : ٤٣٨ .
 ٩٩ (الملحق : ١٨ .
 ١٠٠ (نفسه : ١٩ .
 ١٠١ (عراقيات ابن المقرب : ٢٣ .

- (١٠٢) مقدمة الديوان : ٥ .
- (١٠٣) الديوان : ٢٩٨/٢٩٩ ، والسبنتى : الجرىء والنمر ، والأسد (اللسان : مادة سبن) .
- (١٠٤) الديوان - ٤٤٤ - ٤٤٥ وحضن : اسم جبل في أعالي نجد (اللسان : مادة حضن) .
- (١٠٥) الأغاني : ابو الفرج الاصبهاني : ١٩٦/٣ (مصور عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٨ م .
- (١٠٦) نفسه : ٤٣٨ .
- (١٠٧) فن المديح : ١٢ - ١٣ .
- (١٠٨) انظر : ابن المقرب حياته وشعره : ١٢٦ .
- (١٠٩) ايليا حاوى : فن الهجاء : ٨ دار الثقافة : بيروت (بدون تاريخ) .
- (١١٠) الديوان : ٢٢٤/٢٢٥ .
- (١١١) والجعر : ما يبس من العذرة في المجعر : اللسان : مادة جعر) .
- (١١٢) ابن الرومى حياته من شعره : ٢٢٦/٢٢٧ .
- (١١٣) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب : لابن الفوطى : ٨٩٣/٢ .
- (١١٤) الديوان : ٢٢٧ .
- (١١٥) انظر القصيدة ص ٥٥ وما بعدها (من الديوان) .
- (١١٦) العمدة : ١٧٢/٢ .
- (١١٧) المصدر نفسه : ١٧٠/٢ ويرى ايليا حاوى في كتابه فن الهجاء ص ٩ : ان الهجاء الاقذاعى المباشر يعدم القيمة الفنية ، اذ لا ينطوى على عمق في الرؤيا أو الأداء .
- (١١٨) المصدر نفسه ١٧٢/٢ - ١٧٣ .
- (١١٩) الملحق : والثمارة : نبت معروف في البادية ولا تجده النعم الا في الجدوبة (اللسان : مادة ثمم) .
- (١٢٠) الديوان : ١٤ ، والدبا : الجراد يتحرك قبل ان تنبت أجنحته (المصباح المنير : ٢٢٥) وابتدوا : اجتمعوا والبذا : الفحش ، والمحال : الكيد والمكر .
- (١٢١) فن الهجاء : ٥٩١ .
- (١٢٢) ابن قاهث : هو قارون بن يصهر بن قاهث ، وهو من يضرب به المثل في كثرة المال (انظر : نهاية الأرب : النويرى ٢٣٢/١٣ : دار الكتب المصرية ١٩٣٨ م .
- (١٢٣) الديوان : ١٥٦/١٥٧ .
- (١٢٤) المصدر نفسه : ٦٣٥ ، والمشقر : حصن بهجر من البحرين .

- ١٢٥ (الديوان : ٨٥ .
 ١٢٦ (نفسه : ٤٦٥ والمجزرى : لعله
 نسبة الى الجزيرة ، موضع
 بعينه ، وهى أرض
 بالبصرة (اللسان : مادة : جزر) .
 ١٢٧ (الديوان : ٤٢ ، والبرى :
 التراب .
 ١٢٨ (نفسه : ٣٨ والأخشب : جبال
 الصمان وهى جبال اجتمعن فى
 محلة بنى تميم ليس قريبا اكمة
 ولا جبل (اللسان : خشب)
 ١٢٩ (نفسه : ٤٦٥ .
 ١٣٠ (نفسه : ٢٩٣ وسقط : ناحية
 واللوى : مالتوى وانعطف من
 الرمل او مسترقه والابارق : جمع
 أبرق وهى أرض غليظة مختلطة
 بحجارة ورمل فاذا ضاقت فهى
 البرقة (اللسان : برق) .
 * (الشعر والشعراء : ٣٥٤/١ .
 ١٣١ (الديوان : ٦٥١ .
 ١٣٢ (الديوان : ٢١٤ - ٢١٥ ،
 والخبرى : نوع من النبات أو
 الزهور ، ويقال للمنتور خبرى .
 كما يقال للخزامى خبرى البر لانه
 اذكى نبات البادية
 ريحا (المصباح : ٢٢٢)
 والجلنار : زهر الرمان .
 ١٣٣ (ابن مقرب حياته وشعره : ١٢٣ .
 ١٣٤ (الديوان : ٦٦٠/٦٦١ .
 ١٣٥ (نفسه : ٣٣٠ .
 ١٣٦ (نفسه : ٦٤١ .
 ١٣٧ (نفسه : ٣٤٧ .
 ١٣٨ (الديوان : ٣٣٨ .
 ١٣٩ (نفسه : ٤٧ .
 ١٤٠ (نفسه : ٣٣٩ .
 ١٤١ (نفسه : ٥٢٧ .
 ١٤٢ (نفسه : ٥٢٩ .
 ١٤٣ (ديوانه : ٣٦٩ .
 ١٤٤ (القصيدة ذاتها : ٣٦٩ .
 ١٤٥ (ديوانه : ٨٣ .
 ١٤٦ (نفسه : ٢٥٢ .
 ١٤٧ (القصيدة السابقة ذاتها : ٢٥٣ .
 ١٤٨ (ديوانه : ٣٥ .
 ١٤٩ (نفس الديوان : ٦٦ .
 ١٥٠ (نفسه : ٥٢٨ ، وعمرو : هو عمرو
 بن معد يكرب الزبيدى فارس
 اليمن ، وهو مقدم على زيد الخيل
 فى الشدة والبأس . (الآغانى :
 مصور عن طبعة دار الكتب : ١٥/
 ٢٠٨) وهرم : هو هرم بن سنان
 الذى مدحه الشاعر زهير بن أبى
 سلمى (الجمهرة : ٢٥٢) .
 ١٥١ (الديوان : ٢٦٨ .
 ١٥٢ (نفسه : ٢٦٦ .
 ١٥٣ (مختار الشعر الجاهلى : تحقيق
 د . مصطفى السقا : ص ٢٣٤ :
 مطبعة الحلبي بالقاهرة : الطبعة
 الثانية : ١٩٤٨ م .
 ١٥٤ (الديوان : ٥٢٨ .
 ١٥٥ (نفسه : ٥١٣ .
 ١٥٦ (نفسه : ٣٤٦ .
 ١٥٧ (نفسه : ٥٢٧ .

- ★ يقول ابن رشيقي : ليس بين الرثاء والمدح فروق ، الا انه يخلط بالرثاء شيء يدل على ان المقصود به ميت . (العمدة : ١٤٧/٢) .
- ١٥٨ (الديوان : ١١٠) .
- ١٥٩ (د . شوقي ضيف : الرثاء : ٦ : دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٥ م .
- ١٦٠ (الديوان : ٣٣٠ - ٤٩٩) .
- ١٦١ (المصدر نفسه : ٤٩٩) .
- ١٦٢ (القصيدة السابقة ذاتها : ٤٩٩ - ٥٠٠ والد سبعة : العطية الجزيلة ، والمائدة الكريمة .
- ١٦٣ (الديوان : ٥٩٤) .
- ١٦٤ (ديوانه : ٥٩٥ ، وكظه البكا : ملأ الدمع عينيه وضايق الحزن صدره حتى ما يطيق التنفس ، واضه الامر : بلغ منه المشقة . وفي هامش النسخة الهندية : الركب العراقي الذين كانوا عند الخليفة نصره للامير (الفضل محمد بن ابي الحسين) ، وفرقان : ارض بالقطيف من البحرين ، وفي المراسد ١٠٣٠ : ذات فرقين هضبة بين البصرة والكوفة لبني اسد .
- ١٦٥ (سورة الرحمن : ٢٦) .
- ١٦٦ (سورة النساء : ٧٨) .
- ١٦٧ (العمدة : ١٥٠/٢) .
- ١٦٨ (نسخة برنستون المشروحة : تسلسل ٤٤) .
- ١٦٩ (الديوان : ٤٨٣) .
- ١٧٠ (سورة الرحمن : ٢٦) .
- ١٧١ (ديوان ابي العتاهية : ص ٢٠٦ : دار صادر للطباعة والنشر ببيروت ١٩٦٤ م .
- ١٧٢ (سورة آل عمران : ١٨٥) .
- ١٧٣ (ديوانه : ٢٧٩) .
- ١٧٤ (ديوانه : ٢٨١) .
- ١٧٥ (الديوان : ٢٤٨) .
- ١٧٦ (الديوان : ٩٣) .
- ١٧٧ (الديوان : ٥٧٣ ، والطوامي : البحار العالية الموج ، والملاط : ما يطلى به الحائط ، ويعنى هنا جانبى السفينة ، والجل : الشراع ، والوجعاء : مؤخر السفينة ، والاصطلام : الاستئصال .
- ١٧٨ (الروعاء : الناقة الحديدية الفؤاد ، وعزيزية : في هامش الهندية : بنو عزيز : قبيلة من العرب تنتسب اليهم كرام الابل ، ولعل شارحها يعنى بنى عزيز بن عنس ابن مذحج (الجمهرة : ٤٠٥) ، وزفيف النعام : اسراعه في عدوه .

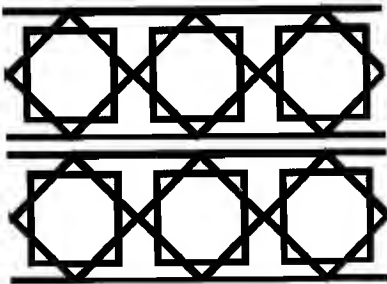
- ١٧٩) عرض النسا : قوية صلبة ، والنسا : عرق من الورك الى الكعب .
- ١٨٠) ديوان امرئ القيس : ص ٢١ : دار المعارف بالقاهرة : ١٩٦٤ م .
- ١٨١) ديوانه : ١٢١ - ١٢٢ والسماكان : كوكبان نيران يقال لاحدهما السمك الرامح ، ولآخر السمك الاعزل (اللسان : سمك) ، ومحلول النطاقين : كناية عن تدفق مائه ، وسحاب دالح : غزير المطر . الملت من المطر : الدائم الشديد ، والجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش ، والجمع جؤوب (اللسان : جأب) ، والنشز : المكان المرتفع ، والسحسح : الشديد من المطر ، والتمايح : التمايل والمسترفع من الخيل : الذي يتقدمها ويسبقها ، واحذى : الحرز السرعة وقيل السرعة والخفة (اللسان : حذى) ، ودنح : ذل وطأ رأسه ، واستبدته المطاوح : فجأته المهالك ، والرعان : انوف الجبال ومفردها الرعن ، والقائد انف الجبل ، وكل مستطيل من ارض او جبل ، واليعلول : الحباب وضاحات الماء ، وأذى البحر : موجه .
- ١٨٢) ديوانه : ٥٧١ ، وبابل : موضع بالعراق ، وقيل موضع ينسب اليه السحر والخمر (اللسان : ببل) والارى : العسل ، وكسرى : لعله يعني كسرى ابرويز : ملك ساساني ٥٩٠ - ٦٢٨ م (المنجد : فهرس الاعلام : ٥٨٩) ونمرود بن كنعان بن كوش وهو من ملوك الدنيا الاربعة الذين ملكوا شرقها وغربها ، صاحب القصة مع ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام (نهاية الارب : ٩٦/١٣) ، وابن الزبير : هو عبدالله بن الزبير بن العوام (١ - ٧٣هـ) وامه اسماء كبرى بنات ابي بكر الصديق (رضى) ، ثار على ولاة الامويين في الحجاز ، وعارض خلافة يزيد بن معاوية ، واعلن نفسه خليفة ، قضى عليه الحجاج (المنجد : فهرس الاعلام : ٤٥٢) وكعب : لعله يعني كعب بن مامه الايادى الجواد (الجمهرة : ٣٢٧) ، واوس بن لام : هو اوس بن حارثة بن لام الطائي (الجمهرة : ٣٩٩) .
- ١٨٣) الديوان : ٣٠٠ .
- ١٨٤) ديوان المتنبي : ٢٥٢ .
- ١٨٥) الديوان : ٣٠٠ ، والاخلق : الاملس المصمت ، والردغ الماء والطين والوحل الشديد .
- ١٨٦) القصيدة السابقة

- ١٨٧ (د. شوقي ضيف : فصول في الشعر ونقده : ١٩ : دار المعارف بمصر ١٩٧٧ م .
- ١٨٨ (مجلة مجمع اللغة العربية : عدد ٣٨ ص ٢٤ .
- ١٨٩ (المرجع نفسه : ص ٢٤ .
- ١٩٠ (الديوان : ٥٩٠ .
- ١٩١ (المصدر نفسه ٥٣٢ .
- ١٩٢ (الديوان : ٥٣٢ - ٥٣٤ وسد ذى القرنين : سد ياجوج ومأجوج .
- وعثر : قال أبو منصور وعثر موضع وهو مأسدة ، وقال الهمذاني بلد باليمن . (معجم البلدان : ٦ / ١٢١) .
- وخفان : موضع كثير الاسد ، وقال الجوهري هو مأسدة (اللسان : خفف) .
- ١٩٣ (ابن عياش : انظر الديوان : ٥٣٨ - ٥٣٩ .
- ١٩٤ (القاروني : انظر الديوان : ٥٣٨ .
- ١٩٥ (وحامد النائي : انظر الديوان : ٥٤٦ .
- ١٩٦ (الشركسية : انظر الديوان : ٤٦٩ ، ٥٣٨ .
- ١٩٧ (المصدر نفسه : ٥٣٢ .
- ١٩٨ (الديوان : ٥٤٠ .
- ١٩٩ (المصدر نفسه : ٥٨٨ - ٥٨٩ .

الشيخ عمر علي بن

دراسة موضوعية

بقلم الدكتور :
أحمد موسى الخطيب



٥

المقرب ة وفنية العيون

في الحلقة السابقة من هذا البحث عرض المؤلف لأغراض الشعر التي تناولها ابن المقرب العيوني وينتقل في هذه الحلقة الى الدراسة الفنية للديوان مبتدئاً بقيم التعبير والتصوير والايقاع التقليدية.

لقد تميز عصر ابن المقرب «بالمحاكاة» وخلا - أو كاد يخلو - من الابداع والابتكار وأصبحت صناعة اللفظ سمة بارزة في كتب العلوم والآداب والفنون، وصار لزاماً على الشعراء المتأخرين أن يتمسكوا بالتقاليد والمقومات التي أرساها أسلافهم يستمدون منها مادتهم الفنية، فها هو ذا ابن المقرب يترسم خطاهم في بناء مدائحه ويلهج بالثناء على ممدوحيه بصفات مثالية، موروثة مكرورة، تواضع الشعراء على الكثير منها منذ العصر الجاهلي. وإذا ما التفت الى المرأة ليتغنى بجمالها في صدور مدائحه، وجدناه مفتوناً بصفات النماذجية، التي تصور المثل الأعلى للجمال في المجتمع البدوي، محاكاة لأسلافه ومعاصريه. ولعلي لم أجانب الصواب حين قلت أن المحاكاة ومجارة ذوق العصر كانت وراء أبياته القليلة في الغزل بالذكر.

ثم ألح الناقد العربي القديم على حاجة الشاعر المحدث الماسة الى الرواية والحفظ، وجاء ابن طباطبا ليفصح عن معاناة شعراء عصره بقوله: «والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم، لأنهم قد سبقوا الى كل فن بديع، ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلاصة ساحرة»^(٣).

ولعل هذا نفسه هو ما دفع شاعرا، وباحثا معاصرا، للقول بأن «للتراث الشعري سيطرة لا يكاد يفلت منها الا الشاعر العظيم. فالشعراء الأوساط يخضعون لهذا التراث خضوعا شبه مطلق، فإذا أراد أحدهم أن يصف اختار التشبيه الجاهز الذي درج عليه الأقدمون، وإذا أراد أن يمجّد انسانا اختار الأوصاف المتواترة التي وردت في محفوظه من الشعر، وحتى اللغة حينئذ تفقد فرديتها وأصالتها، وتصبح لغة عامة، لا يتميز بها شاعر عن شاعر»^(٤).

إذن فصلة المتأخرين بأسلافهم هي صلة طبيعية، وتظهر هذه الصلة عند الشعراء بعامة، ولكنهم يتفاوتون في مدى الخضوع لسلطانها. فطالما حصر الشاعر المحدث نفسه في أغراض أسلافه وموضوعاتهم، وفرض عليه أن يلتزم بأساليبهم في التعبير، فلا بد أن يضيق المجال أمامه، ولا مفر من أن

كذلك جاء دور فخره ترديدا لنغمات سابقيه وأساليبهم، سواء فخره بنفسه أم بقبيلته. أما هجاؤه الاقذاعي، فيعيد على مسامعنا نقائض جرير، والفرزدق والأخطل، مع شيء من روح ابن الرومي في سخريته اللاذعة.

وقد لاحظنا - على ضوء دراستنا لموضوعات شعره - صلة واضحة بينه وأسلافه، فقد حفظ، وفهم، ووعي شعر المشاهير بخاصة، وتأثر بهم أيما تأثر، في ألفاظه، وتراكيبه ومعانيه، وصوره، وأوزانه وقوافيه، وروح قصائده.

ولكني لا أذهب مذهب هؤلاء الذين يدينون الشاعر بما يأخذه عن الآخرين، ويعدون ذلك سرقة يحاسب عليها، «فالمسألة ليست سطوا، ولكنها ايمان بحقوق الأبناء وما خلفه لهم آبائهم»^(١) فاننا لو فعلنا ذلك، لكنا كمن يطلب من الشاعر أن يهمل موروث لغته، وأن يقطع صلته بالمبدعين من السابقين. أليس هذا التراث هو نهر الثقافة الذي منه اغترف، وبه نمت مواهبه، وعلى ضفافه ترعرعت ملكات ابداعه.

وقد أدرك هذه الحقيقة منذ أمد بعيد الشاعر الجاهلي حين قال:
ما أراننا نقول إلا معاراً
أو معاداً من قولنا مكروراً^(٢)

يسلك الشاعر أحد طريقين: إما التكرار الساذج الذي يسقط قيمته كشاعر مطالب بالابتكار، وأما التوليد الذي يخرج منه مأزق التكرار إلى أفق أوسع فيما يسمى «بحسن الاتباع»^(٥)، وهو أن يأتي المتكلم إلى معنى اخترعه غيره، فيحسن اتباعه فيه، بحيث يستحقه بوجه من وجوه الزيادات التي توجب للمتأخر استحقاق المعنى المتقدم^(٦) على أن سالك هذا السبيل - سبيل التوليد - يحتاج إلى الطاف الحيلة، وتدقيق النظر في تناول المعاني، واستعارتها، وتلبسها حتى تخفى على نقادها البصراء بها، فينفرد بشرفها، كأنه غير مسبوق إليها^(٧).

إذا هناك شعراء يمتلكون التراث، وآخرون يمتلكهم التراث، فالضرب الأول منهم يكون الشاعر فيه إنساناً متميزاً ينتج شعراً متميزاً، وذلك بعد أن هضم التراث ووعاه، واستطاع بعد ذلك أن يصل إلى أسلوبه الخاص.. والشاعر من هذا المستوى يتجاوز التراث عادة، فيضيف إليه جديداً، أما الضرب الثاني منهم، فالشاعر فيه يفرز شعراً تتوالد فيه المعاني من معان سبقه إليها شعراء آخرون، بل تتوالد فيه الأبيات من أبيات سابقة، فهو لون من التنويع أو التجويد، بل قد يصل الأمر إلى تكرار التشبيهات

والاستعارات^(٨).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، أين مكان ابن المقرب من التراث؟ وأيها قد ملك الآخر؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذا الفصل من دراستنا.

نشأ ابن المقرب في بادية الاحساء، وعلى رمالها تفجرت ينابيع شعره، واستقامت له الطريق إلى فن القول، متمكناً من أدواته الفنية، شاباً تحدوه آمال عريضة في الامارة والرياسة، وكان له من العمر نحو ثلاثين عاماً، حين جادت قريحته الملهمة بغرسة الأول الناضج في مدح الأمير العيوني محمد بن أبي الحسين، والتي افتتحها بقوله:

منال العلي بالمرهفات القواضب

وسمر العوالي والعقاق الشواذب^(٩)
ولم تكد تمضي بضع سنين - بعد تلك الملاحه - حتى طوت يد المنون صفحة ناصعة، من تاريخ الدولة العيونية بموت أميرها محمد بن أبي الحسين، وما أن رحل حتى أطلت الفتنة برأسها، وعصفت ريح الشر والوقيعه بالقوم، فأخذ يتربص بعضهم بالبعض الآخر ويتوثب عليه، وخشى حكاهم بأس الشاعر الأمير، وطموحه، فنكبوه، وضيقوا عليه، فنفر منهم، وتاقت نفسه إلى الحرية

أبي البقاء العكبري، وشهادته
بالتفوق له، فيقول مختتما مدحته
للنقيب الطالب تاج الدين اسماعيل:

فدونكها يابن النبي غريبة
تحدث أن العائبيها هلابث
جمعت بها سحر الكلام الذي اختفى

قديمًا فلم ينفث به قبل نافث^(١١)
كما يرى أن أغلى الشعر مهرا
«غرائبه»، فيقول مادحا الأمير مقدم
بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين
العيوني:

فكم سار لي في مدحكم من غريبة
تروق وأغلى الشعر مهرا «غرائبه»^(١٢)
ومع أن إيثار الغريب، ووحشي
اللفظ سمة عامة عند شاعرنا، إلا أنها
أكثر ما تكون في بعض مدائحه،
ككافيته، وثائيته، وحائيته في مدح
الخليفة العباسي الناصر لدين الله
(٥٧٥ - ٦٢٢هـ). وقد استهل كافيته
في مدح الأمير أبي ماجد محمد بن علي
العيوني، بقوله:

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك
عفت غير أرى وأورق حائل
وأشعث مشجوج وسفع روامك
ونؤى كجذم الحوض غير رسمه

وجيف الحصا بالموجفات الحواشك^(١٣)
يبدو من هذه الأبيات ميل ابن
المقرب الى التبدي، وإيثاره لغريب
اللفظ، فكأنه يطوي القرون ليتمثل
روح أسلافه الأول في جاهليتهم،

بعيدا عن موطنه، فيمم شطر العراق،
متنقلا بين حواضره، ولكن مظاهر
الحاضرة لم تشغله عن الوطن والأهل،
وكما أحس نفسه ذات يوم نبتا غريبا
في موطنه - فهو اليوم - وفي دروب
حاضرة الخلافة - يجد نفسه أكثر
غربة، وقد صور هذا الشعور في بعض
شعره الذي نظمه في العراق، خلال
حوار دار بينه وفتاة لقيته عرضا في
احد دروب بغداد.

بدت سافرا من درب دينار والصبأ
يرنحها والدل والتيه والعجب
رأتني فأبدت عن أسيل وحجبت
بذى معصم جدل يعرض به القلب
وقالت غريب والفتاة غريبة
ولا في نكاح الحل ذام ولا ذنب
فقلت لها اني ألوف ولي هوى
ومالي في بغداد شعب ولا سرب
فقلت: وأين الشعب والسرب والهوى
فقلت بحيث الكر والطعن والضرب
فقلت: أرى البحرين دارك والهوى
بنيك وهذا ما أرى فمن الشعب
فقلت: سلي حي نزار ويعرب

بأعظمها خطبا اذا استبهم الخطب^(١٤)
وما يعنينا من هذا كله أن ابن
المقرب حين بدأ رحلاته كانت بادية
الاحساء قد أشبعت ملكته الواعية،
ومكنته من لغة الأعراب الفصيحة،
ومفرداتها الغريبة النادرة، فأخذ
يصول في حواضر العراق تياها بغريبه
وبدويته، وقد شجعه على ذلك إعجاب

ويخاطبنا بقاموسهم الذي طوت
حضارة بني العباس الكثير منه، ولو
قرأ هذا الشعر من لا يعرف صاحبه
لألحقه بأسلافه القدماء دون تردد.

ومن حائيته في مدح الخليفة
الناصر لدين الله يقول:

فيا عرصات الدار من حيث تلتقي
شقائق أجزاع اللوى والأباطح
سقاكن من نوء السماكين عارض
من المزن محلول النطاقيين دالح
ملث يظل الجاب في عنفوانه
على النشز وهو السحسح المتمايح
كمسترعف احذى ودنح بعدما
غدا طلقا واستهدته المطاوح
وتمسى الرعان القود فيه كأنها

يعاليل في أذي بحر طوافح^(١٤)
ولا شك في أن قسوة صروف
الدهر عليه - الى جانب نشأته البدوية
- واتصاله بدواوين الفحول من
أسلافه، وتلمذته عليها قد أورثته
شيئا من هذه الوعورة والخسونة.
التي تجعل قارئ ديوانه غير قادر
على المضي فيه دون أن يصحب معه
أحد معاجم اللغة. وربما كان
للمنافسة في بلاط الخليفة دورها في
اithاره التبدي ونزوعه الى الاغراب.

والى جانب هذا التيار اللغوي
القديم، نلاحظ في شعر ابن المقرب
تيارا قديما آخر يتصل بالبناء المعنوي
لشعره. ويتمثل هذا التيار في كثرة
العناصر القديمة المنتشرة فيه. فمن

اليسير على قارئ ديوانه أن يتمثل
بوضوح اطاره الثقافي الذي اتسعت
دائرته لتشمل شعر الفحول في سائر
عصور الأدب العربي، وليس ابن
المقرب - في تأثره بأسلافه، وأخذه
أهم معانيهم - بدعا بين الشعراء، فقد
كان شعراؤنا - على امتداد عصورهم
الأدبية - ينظرون الى تراث أسلافهم
نظرة تقدير واكبار، ويرون فيه مثالا
تحتذى، وتراثا غزيرا يجب ألا
ينفصلوا عنه، أو يبتوا حبلهم منه،
وهبة من أسلافهم النوابغ الذين
مهدوا الطريق وأرسوا الدعائم^(١٥).

وقد تأثر ابن المقرب - على وجه
الخصوص بشاعر العربية الأكبر أبي
الطيب المتنبى تأثرا بالغا، وكما ألمحنا
من قبل فالصلة بين الشاعرين
تتجاوز هذه الصلة الفنية الى ما هو
أبعد، فلا يخفى على البصير بحياة
الشاعرين أن الأخير كان يرى في سلفه
مثلا يحتذى في الشموخ والأباء، وعلو
الهمة، وبعد الأمل.. لذا فقد تخرج في
مدرسة أبي الطيب الكبرى، وكان الفن
الشعري واحدا من أبرز علومه التي
لقنها فيها، ومن هنا راق لبعض
المهتمين بابن المقرب - وبخاصة في
الخليج العربي - أن يخلعوا عليه لقب
«متنبىء الخليج العربي»^(١٦) كما
خلعوا على ابن هانئ الأندلسي لقب
متنبىء المغرب، ومن أمثلة تلك العلاقة

الفنية بينهما، قول ابن المقرب:
وما العز الا في صهاكل سابح
وما المال الا في شباكل قاضب^(١٧)
فصدر هذا البيت يشبه قول أبي
الطيب:

أعز مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب^(١٨)
ويقول ابن المقرب:
عذل المشوق يهيج في برحائه
ويثير نار الوجد في حوبائه
فاترك ملامته ودعه وشأنه
في نوحه وحنينه وبكائه^(١٩)
ويقول المتنبي:

عذل العواذل حول قلب التائه
وهوى الأحبة في سويد أوائه
يشكو الملام الى اللوائم حره
ويصد حين يلمن عن برحائه^(٢٠)
فالبيتان متفقان في الوزن والقافية
مع قول المتنبي، ومعناهما واحد
تقريبا، إلا أن المتنبي أحاط معناه بشيء
من الفلسفة.

ويقول ابن المقرب مادحا:
بمعاديك لابلك الأسواء
ولحسادك الثرى، لا الثراء^(٢١)
وقد سبقه أبو الطيب الى هذا المعنى
في مدح سيف الدولة، فقال:
المجد عوفي إذا عوفيت والكرم
وزال عنك الى أعداك الألم^(٢٢)
ولا يخفى ما بين البيتين من تقارب
في المعنى:
ويقول المتنبي:

جود الرجال من الأيدي وجودهم
من اللسان فلا كانوا ولا الجود^(٢٣)
فأخذ ابن المقرب وقال:
جود الأكارم أخبار وجودهما
شيء تراه وليس الخبر كالخبر^(٢٤)
ويقول أبو الطيب:

حقرت الردينيات حتى طرحتها
وحتى كأن السيف للمرح شاتم^(٢٥)
فأخذ ابن المقرب، فقال:
وقد أبطل الضرب القسى وألقيت
فلم يبق الا ضارب ومعانق^(٢٦)
ويقول ابن المقرب مادحا:
وترى محياه إذا ارتفعت

سود العجاج ينير كالبدر^(٢٧)
ويذكرنا هذا بقول أبي الطيب في
مدح سيف الدولة:

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح ونفرك باسم^(٢٨)
ولكن التصوير الحسي عند أبي
الطيب يفوق التصوير الحسي التقليدي
عند شاعرنا، بالاضافة الى المقابلة
الجميلة بين شطري بيت أبي الطيب
ودورها في ربط أجزاء الصور
المتناقضة.

ويقول ابن المقرب راثيا:
تبأ لدينا كلما وهبت ثنت
فاسترجعت منا نفيس هباتها^(٢٩)
وهذا يساوي في المعنى قول
المتنبي:

أبدأ تسترد ما تهب الدنـ
يا فياليت جودها بخلا^(٣٠)

فالنظرة الفلسفية متشابهة، علما
بأن ابن المقرب - على كثرة ما أخذه
من شعراء بني العباس - لم يتأثر
بنظراتهم الفلسفية، ولم يعرف عنه
أنه كان يميل الى الفلسفة في شعره.

ويقول ابن المقرب مادحا:

ولو قال للأفلاك في سيرها قفى

لباتت ركودا لا تدور ولا تجري (٣١)

ويبدو أنه متأثرا في معناه بقول

أبي الطيب:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه

لعوقه شيء عن الدوران (٣٢)

وعندما خالف المتنبي ما رسخ في

الوجدان الفني لشعرائنا في الفخر،

بقوله:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي

وبنفسى فخرت لا بجسودي (٣٣)

يتلقف ابن المقرب هذا المعنى

فيقول:

أليس ببيتكم في العز مركزه

بيتي فما كان من فخر فمن قبلي (٣٤)

وقد يتجاوز إعجابه بأبي الطيب

ومعانيه الى حد من التقليد البغيض في

الصياغة والشكل، فالمتنبي يقول:

أقل أنل أقطع أحمل على سل أعد

زد هش بش تفضل أدن سرصل (٣٥)

ونجد عند ابن المقرب مثل هذا

النظام والحشد من الأفعال في قوله:

وارفع وضع واعتزم وانفع وضر وصل

واقطع وقم وانتقم واصفح وخذ وهب (٣٦)

ومثل هذا قوله:

وارفع وضع واقطع وصل وامنع وهب

وانفع وضر وقم وسام ورام (٣٧)

كما حاكى المتنبي أيضا في نظم

بيته:

دان بعيد محب مبغض بهج

أغر حلو ممر لين شرس

ندد أبي واف أخى ثقلة

جعد سرى نه ندب رض ندس (٣٨)

ويرى الدكتور طه حسين أن

المتنبي يكلف سامعه وقارئه شططا،

لأنه لا يزيد على نظم الألفاظ (٣٩).

ولكن الصنعة المقصودة لذاتها عند

شاعرنا تصل حدا بعيدا من التكلف،

فيقول:

نددس رددس هكدس مكس

شرس مرسس وافي الـذم

لهج بهج بفـواضله

سمح طمح عـالي الهمم (٤٠)

فزاد بن المقرب على تكلف الصنعة

ميل الى الأغراب، مما يجشم قارئه

ببيته أو سامعهما شططا مضاعفا وإن

كان لا يخلو من توفيق في إيقاعه الذي

ساعده البحر عليه. ومثل هذه الصلة

بين الشاعرين لا تزيد عن كونها تقليدا

أعمى، ومحاكاة لاظهار البراعة.

وربما كانت المبالغة عند ابن المقرب

أثرا من آثار التلمذة على ديوان أبي

الطيب الذي كان مولعا بالمبالغة

وبخاصة في صدر حياته الفنية (٤١).

فالمبالغة عند شاعرنا علامة بارزة في

شعره، وسمه غالبه عليه، صاحبتة طوال رحلته الفنية، لأنها كانت متفقة مع احساسه بالاخفاق ورغبته في تحقيق أهدافه البعيدة. وان كانت المبالغة في صناعة الشعر - بعامه - كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه ايراد معنى حسن بالغ فيشغل الاسماع بما هو محال^(٤٢).

ويذكر ابن رشيق «أن للمبالغة ضروبا كثيرة، وأن الناس فيها مختلفون: منهم من يؤثرها، ويقول بتفضيلها، ويراهم الغاية القصوى في الجودة، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان، وهو القائل: أشعر الناس من استجيد كذبه، وضحك من رديئه.. ومنهم من يعيبها وينكرها ويراهم عيبا وهجنة في الكلام، وقد قال بعض حذاق نقد الشعر: المبالغة ربما أحوالت المعنى، ولبسته على السامع، فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره^(٤٣). ويضيف ابن رشيق قائلا: ان الغلو هو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها، ويقع فيه الخلاف لا ما سواه.. ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه، وعيبت الاستعارة، الى كثير من محاسن الكلام^(٤٤).

والمتتبع لمبالغات ابن المقرب يجد أنه قد استوفى شتى أنواعها وضروبها، معتدلا حيناً، ومتطرفاً

حيناً آخر، وحسبنا أن نعرض لبعض صور المبالغة عنده، الكفيلة بالقاء الضوء على هذا الجانب من فنه الذي جاء صدق لتلمذته على ديوان أبي الطيب بخاصة.

فمن ضروب مبالغاته «التبليغ» وهو الافراط في وصف الشيء بالممكن عقلا وعادة^(٤٥)، كقوله:

والمطعمين إذا هبت شامية
نكباء تقلع كسر البيت بالطنب^(٤٦)
ومن ضروب مبالغاته «الاغراق»، وهو فوق التبليغ ودون الغلو، ويكون الوصف المدعى فيه ممكنا عقلا، وممتنعا عادة^(٤٧)، كقول ابن المقرب:
تغشى نوافله القريب محله
وينال نائله الحريد الأبعد^(٤٨)
ومنه قوله :

بنا يستنسر العصفور عزا
وتخشى الأسد صولات الضباع^(٤٩)
أما أكثر أنواع المبالغة دورانا في شعره فهو الغلو، وهو امتناع الوصف المدعى عقلا وعادة^(٥٠). وقد اختلف رجال البديع في استحسان واستهجان هذا الضرب من المبالغة، ولسنا بصدد عرض أقوالهم، وحسبنا ما اتفقوا عليه بتقسيم الغلو الى قسمين: الأول حسن مقبول، وهو ما دخل عليه أو اقترن به أداة من الأدوات التي تقربه الى الصحة والقبول من نحو: «قد» للاحتمال، و«لو»، «لولا» للامتناع

وكان للتشبيه، و«يكاد» للمقاربة، وما أشبه ذلك^(٥١). وأمثلة هذا الضرب كثيرة عنده، وقد استوفى فيها سائر أدوات التقريب، وإن كانت «لو» أوفرها حظاً.

والأبيات التالية تدل على مدى ولعه بالغلو، وحرصه على دخول أداة الامتناع «لو» عليه:

ولو قال للأفلاك في سيرها قفي
لبانت ركوداً لا تدور ولا تجري
فتى لو ليث الغاب بأس كبأسه
لأغناه عن ناب حديد وعن ظفر
ولو أن للعضب اليماني جوهر
كعزمته لم ينب عن قلل الصخر
ولو أن للأنواء جوداً كجوده
لما انتقل الأرباع يوماً إلى العشر^(٥٢)
ويندر دخول أداة الامتناع «لولا»
على الغلو عنده، كقوله:

لولا النبوة بالنبي محمد
ختمت لقلت أرى نبياً مرسل^(٥٣)
وقد يكون الغلو مقبولاً لما يتضمنه
من تخيل حسن، كقول ابن المقرب في
عجاج المعركة المنعقد حتى لتعثر
العقبان في منعقده وتحجب الشمس
من كثافته:

تعثر العقبان في عثيرها
وتظل الشمس منها في حداد^(٥٤)
ويمتنع هذا عقلاً وعادة، ولكنه
تخيل حسن، ومثل هذا التخيل
الحسن، والغلو المقبول قوله:

وتمشي نسور الجو فوق عجاجه
وتبنى به أو كارهن اللقالق^(٥٥)
أما النوع الثاني من الغلو، فغير
المقبول المتمثل في المعنى الممتنع عقلاً
وعادة، مع خلوه من أدوات التقريب
التي تدنيه من الصحة والقبول، كقول
شاعرنا مفتخراً:

وأرعن بـأذخ صعب المراقي
صككناه فأذن بانقشاع^(٥٦)
فمن غير الممكن عقلاً وعادة أن
تبلغ سطوتهم حد إزالة الجبال
العالية، فهذا غلو مفرط، ومثل هذا
الغلو الغث قوله مادحاً:

فالיום ما فوق ظهر الأرض قاطبة
إلا امرؤ وله من ماله نشب^(٥٧)
ومثل هذا الغلو الغث أقرب إلى
الهجاء منه إلى المدح، لأن المبالغة إذا
تجاوزت حد المعقول والمستساغ
كانت سخفاً وهجاء^(٥٨). ولعله يشير
إلى قول المتنبي في كافور:

تجاوز قدر المدح حتى كأنه
بأحسن ما يثنى عليه يعاب^(٥٩)
والى قول البحري:

جل عن مذهب المديح فقد كاد
يكون المديح فيه هجاء^(٦٠)
فمن مبالغات ابن المقرب السخيفة،
قوله مادحاً:

ملك كلا راحتيه قد تقسمتا
رزق العباد فتجري منهما القسم^(٦١)
ومن غلوه قوله مادحاً:

جرت المملوك فلم تشق غباره
وجرى فشق غبارها مشكولاً^(١٢)
فالشطرن الأول يوحى بسبق
ممدوحه وتفوقه، ولكنه أفسد هذا
المعنى في عجز البيت إذ ليس من الممكن
عقلاً وعادة أن يلحق بمنافسيه
ويسبقهم وهو مقيد، اللهم إلا إذا كان
منافسوه غير قادرين على الحركة.
وتعجبه مبالغة أبي الطيب في مدح
سيف الدولة:

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي
الى قول قوم أنت بالغيب عالم^(١٣)
فيتلقفها محاولاً التخفف من
غلوها المفرط، إلا أن معناه لم يخل من
غثاثة وسخف، إذ يقول مادحاً:
فقد جزت مقدار الشجاعة والندى

وتربك في لعب الصبا متشاغل^(١٤)
ومع أن مبالغات ابن المقرب تعد
أثراً من آثار تلمذته على ديوان أبي
الطيب، إلا أنه لم يوظفها مثله في
كافورياته «فكل مغالاة عند أبي الطيب
تبلغ حد إلا حالة، وكل غلو يصل الى
حد التجاوز فهو هجاء يعاب به
ممدوحه، وليس مديحاً بحال من
الأحوال^(١٥) كقوله في مدح كافور
الخشدي:

تجاوز حد المدح

.....^(١٦)

لقد لاحظنا - عند حديثنا عن اطار
ابن المقرب الثقافي - أن القرآن الكريم،

والسنة الشريفة يمثلان رافداً هاماً
وأساسياً من روافد ثقافته. فقد
شاعت الألفاظ والمعاني الاسلامية في
معظم قصائده، فكان يضمن - أحياناً
- آية كريمة، وفي أحيان أخرى يقتبس
معنى آية كريمة أو حديث شريف. أما
الألفاظ الاسلامية فهي تشكل مساحة
كبيرة من معجمه الشعري، ويميل ابن
المقرب الى تكرار بعض تلك الألفاظ،
مثل «التقى، الهدى، الغي، الرشيد،
العدل، الضلال، الزهد، الفردوس،
سقر ...» وحسبنا هذه الأبيات لنرى
مدى تأثر مدائحه - بخاصة - بالمعاني
والألفاظ الاسلامية.

والعابد الزاهد الصوام إن حميت
هواجر الصيف والقوام بالسحر
والمظهر الحق لا يبغي به عوضاً
إذ كان طالبه يغدو على خطر
والظاهر العرض من عيب ومن دنس
والسالم العود من وصم ومن خور
ذكر المظالم والآثام ان ذكرت
لديه والبخل ذنب غير مغتفر^(١٧)
وقد نلتقي - في نسيبه - بمثل هذه
المعاني والألفاظ الاسلامية:

وقولاله: يا أحسن السرب إنه
غريب فهل من رقة لا غترابه
وعل نوالاً منه يحمي حشاشه
يزكي به عن حسنه وشبابه
فإن زكاة الحسن تقبيل ثغره
ورشف ثناياه وبردرضابه

حالا لا لأبناء السبيل مخصص

لهم دون من قد نصه في كتابه^(٦٨)
ولا يخفى ميل الشاعر الى التظرف
في أبياته، وإشارته الى آية مصارف
الزكاة، واستخدامه عدداً من الألفاظ
ذات الدلالات الدينية.

لم يلزم ابن المقرب نفسه بشاعر
عمن سواه، فأساتذته كثر، ولكن
أحدهم لم يترك في نفسه وأدبه ما تركه
أبو الطيب، ومع هذا فلآخرين
بصمات كثيرة لا تنكر في شعره وقد
سبقني في الوقوف على بعضها.
الأستاذ العمران، وفيما حصرناه غناء
عن القليل الذي تركناه أو فاتنا
حصره. فمن بين العناصر القديمة التي
انتشرت في شعره قوله:

كل السيادة في السخاء ولن ترى

ذا البخل يدعى في القبيلة سيداً^(٦٩)
ولا يخفى أنه قد أخذ معنى إحدى
حكم زهير في قوله:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله

على قومه يستغن عنه ويذمم^(٧٠)
والبيتان متكافئان في المعنى، أما
زهير فمعناه لا يكتمل إلا مع نهاية
بيته، ولكن ابن المقرب قد أفرغ معناه
في الجملة الإسمية (كل السيادة في
السخاء)، ثم أردفها بجملة فعلية
منفية فصلت موجز معناه.

ويقول ابن المقرب:

ومن لم يبع زرف الأسنة لحمه

أبيع حماء واسترقت حلاله^(٧١)

وهذا يذكرنا بقول زهير:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه

يذمم ومن لا يثق الشتم يشتم^(٧٢)

يمجد كلا البيتين القوة، وينددان
بسياسة اللين مع الاعداء، ولكن القوة
التي يدعو إليها ابن المقرب هي نوع
من الفدائية، كما أن النتائج المترتبة على
التهاون والتخاذل عنده أبعد أثراً منها
عند زهير.

ويقول ابن المقرب في حتمية الموت:

ومن هاب المنية أدركته

ومات أدل من فقع بقاع^(٧٣)

فهو يضمن بهذا قول زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه

وإن يرق أسباب السماء بسلم^(٧٤)

وقول زهير أدل على حتمية الموت
وضعف الإنسان، فقد وفق أيما
توفيق في اختيار كلمة «أسباب» وفي
الاتيان بها منكراً، كما أجاد التعبير
المضارع (ينلنه) ليوحى بالاستمرار
وقد استكمل خطوط الحتمية القدرية
بقوله «وإن يرق أسباب السماء
بسلم».

ويقول ابن المقرب في مدح شمس

الدين باتكين:

هو الشمس نوراً وارتفاعاً وشارة

كما قد تسمى والملك ذبال^(٧٥)

ويذكرنا هذا بقول النابغة:

فإنك شمس والملك كواكب

إذا طلعت لم يبد منهن كوكب^(٧٦)

ولا يخفي ما بين البيتين من تكاثر،
وما فيهما من مبالغة. ويقول ابن المقرب:
بلى ان ظلم الاقربين وجدته
أشد على الاحشاء حراً ولاهما (٧٧)
ويعيد هذا على مسامعنا قول
شاعر البحرين في العصر الجاهلي،
طرفة بن العبد:

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند (٧٨)
ولا يقل ابن المقرب عن سلفه
توفيقاً في التعبير عن أثر ظلم القريب
لقريبه، ومدى وقعه على النفس، فإذا
كان طرفه قد جعله يفوق ضربة
السيف الحاد التي سرعان ما تعقبها
الراحة، فإن ابن المقرب قد لاحظ أن
اضطرام الاحشاء ولهيبها يعطى
صفة الديمومة في العذاب والشقاء.
ويقول ابن المقرب:

فإن سيوفنا ما زال فيها
شفاء للرؤوس من الصداع (٧٩)
وهذا يذكرنا بقول عنتره:
وسيفي كان في الهيجا طيباً
يداوي رأس من يشكو الصداع (٨٠)
ويقول ابن المقرب في معرض فخره
بنفسه:

والشاربون جمام الماء صافية
ويشرب الناس من طيف ومن كدر (٨١)
ويساوي هذا البيت في معناه
ومبناه قول عمرو بن كلثوم:
ونشرب إن وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدراً وطننا (٨٢)
ويقول ابن المقرب:

ولقد حلبت الدهر أشطر نابيه
وعرفت ما يبدي وما يتغيب (٨٣)
وهو متأثر في هذا البيت لفظاً
ومعنى بقول لقيط بن يعمر الأيادي:
ما انفك يحلب هذا الدهر أشطره
يكون متبعاً طوراً ومتبعاً (٨٤)
ويقول ابن المقرب:

وليس تدفع عن حي منيته
إذا أتت عوذ الراقى ولا النثر (٨٥)
وهذا يكافئ قول أبي ذؤيب الهذلي:
وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفت كل تميم لا تنفع (٨٦)
ولكن التعبير الاستعاري عند أبي
ذؤيب يفوق تعبير ابن المقرب شاعرية
وجملاً، وفي قوله (أنشبت أظفارها)
إحياء بالتأهب والقسوة، كما أنها
تضفي جواً من المهابة والوجل.
ويقول ابن المقرب:

وما بلغ العلياء إلا ابن حرة
قليل افتكار في أمور العواقب (٨٧)
وقد سبقه جعفر بن علبة الحارثي
إلى المعنى ذاته بقوله:
لا يكشف الغماء إلا ابن حرة
يرى غمرات الموت ثم يزورها (٨٨)
وقريب من هذا المعنى - أيضاً -
قول ابن المقرب:

إذا هم أمضى همه لو تساقطت
أكف وأقدام لذاك وهام (٨٩)
وشبيهه بقول ابن المقرب، وابن
علبة الحارثي قول سعد بن ناشب بن

مازن بن عمر وابن تميم:

إذا هم ألقى بين عينيهِ عزمه

ونكب عن ذكر العواقب جانباً^(٩٠)

وإذا كان ابن المقرب قد أجاد الأداء،

وبخاصة في بيته الثاني، فإنه - على أية

حال - قد قصر في التصوير البياني

الذي كان سلفه سعد بن ناشب بارعاً

فيه.

وفي حتمة الموت يقول ابن المقرب:

وأرهب أن أموت وكل حي

سينعاه إلى الأقسام ناع^(٩١)

وقد سبقه كعب بن زهير إلى المعنى

ذاته بقوله:

كل ابن انثى وإن طالت سلامته

يوماً على آلة حدباء محمول^(٩٢)

وإن كنت لا أنكر ما بين القولين من

تقارب في المعنى، إلا أنني أميل إلى

القول بأن شاعرنا متأثر - أيضاً -

بالآيات الكريمة «كل من عليها

فان...»^(٩٣) و «كل نفس ذائقة

الموت»^(٩٤) و «لكل أجل كتاب»^(٩٥).

ويقول ابن المقرب:

قوم هم الرأس من فهر وغيرهم

إذا يقاس إلى عليهم ذنب^(٩٦)

ويذكرنا هذا ببيت المدح المشهور

للحطيئة:

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم

ومن يساوي يأنف الناقة الذنبا؟^(٩٧)

فالبيتان متشابهان في المعنى،

ومتقاربان في اللفظ، ومتفقان في

الوزن والقافية.

ونجده يضمن في سينيته للحطيئة

فيقول:

ثم اندفعت خلال القوم أسمعهم

بيت الحطيئة إذ أشفى على ياس

لقد مريتكم لو أن درتكم

يوماً يجيء بها مسحى وابسائي^(٩٨)

ويقول ابن المقرب مفتخراً:

إذا السيد الجبار أبدى تعامياً

وصعر خدا واستباح حمى المظل

أضاءت له أسيفنا فهدينه

وقومنه فاستبدل الحلم بالجهل^(٩٩)

وقد سبقه بشار بن برد إلى هذا

المعنى بقوله:

إذا الملك الجبار صعر خده

مشينا إليه بالسيوف نعاتبه^(١٠٠)

فقد أدى بشار معناه بصورة

مركزة وافية موجزة، أما ابن المقرب

ففي قوله تفصيل واطناب يجعله إلى

روح النثر أقرب منه إلى الشعر. وانظر

إلى هذه الأفعال المتلاحقة في البيت

الأول (أبدى - صعر - استباح)

ومثلها في تاليه (أضاءت - هدينه -

قومنه - استبدل) ولكن قول ابن

المقرب لم يخل من توفيق، ولا سيما في

قوله (أضاءت له أسيفنا فهدينه)

فالصورة جميلة وملائمة، كما أن

استعماله لجمع القلة (أسياف) - بدلا

بدلاً من جمع الكثرة في قول بشار

«السيوف» - فيه اشارة من طرف
خفي الى أن عملاً يسيراً يقوم به قومه
الأشداء كاف جداً لارهاب مثل هذا
الجبار، وثنيه عن غيه.
ويعجبه قول أبي نواس في مدح
الأمين:

ملك إذا علقت يدك بحبله
لا يعتريك البؤس والاعدام (١٠١)
فيقول مادحاً الأمير محمد بن أبي
الحسين العيوني:

ربع إذا ربعت اليه قبيلة
علقت بحبل من غنى وأمان (١٠٢)
فالبيتان متكافئان معنى ومبنى،
ولكن في قول ابن المقرب صنعة
مقصودة في التجنيس بين (ربع
وربعت). ويبدو أن اعجابه بهذا المعنى
قد دفعه الى تكراره في موضع آخر،
فقال مادحاً:

يا خير من علقت أيدي الرجاء به
ومن سواء لديه التبر والترب (١٠٣)
ويقول ابن المقرب في مدح الأمير
مسعود بن محمد العيوني:

إذا لم أنط مستعصماً برجائه
رجائي وتروي ترب أرض سحائبه
فأي ملك أرتضى وتأمه
ركابي وأمشي نحوه وأخطبته (١٠٤)
ويساوي هذا قول أبي نواس في
مدح الخصيب أمير مصر:
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا
فأي فتى بعد الخصيب تزور؟!

فما جازه جود ولا حل دونه
ولكن يسير المجد حيث يسير (١٠٥)
وربما أعجبه معنى من المعاني
فيستكثر منه في شعره. فقد راقته
الصورة الحسية الطريفة التي رسمها
بشار بقوله:

كان مثار النقع فوق رؤوسنا
سياقنا ليل تهاوى كواكبه (١٠٦)
فكررها مراراً، فقال:

غداة أتاهم في سماء عجاجة
أسنته من تحتها كالكوكب (١٠٧)
وقال أيضاً:

تريكم نجوم الليل ظهراً إذا بدت
تكس في ليل من النقع ضارب (١٠٨)
وقال أيضاً:

والبيض في أيدي الكماة ضياؤها
يطفو مراراً في الغبار ويرسب
وكان أطراف الأسنة أنجم
شهب وداجي النقع ليل غيهب (١٠٩)
وقال أيضاً:

ويوم تشخص الأبصار فيه
ويشبه فحمة الليل اسودادا
تخال به الأسنة لا معات

نجوم القذف تطرد اطرادا (١١٠)
أما البيت الأول والثاني لإبن
المقرب فهما مسخ لمعنى بشار، وأما
البيتان التاليان لهما، فهما متفقان مع
بيت بشار في المعنى، ويسموان على
البيتين السابقين ولكنه لم يوفق توفيق
بشار في التصوير، فالصورة عند

بشار أكثر اتساعاً، أما ابن المقرب فهو يشبه مفرداً بمفرد، ولهذا فهو لم يوفق كبشار في انتزاع وجه شبه واحد لصورة تمثيلية متحدة. وكذلك البيتان الأخيران فمعناهما مكافئ لبیت بشار، ولكنهما دونه في التصوير.

كما أعجب بقول أبي فراس الحمداني:

على طلاب العز من مستقره
ولا ذنب لي إن حاربني المطالب^(١١١)
فقال:

وفي السعي عذر للفتي لو تعذرت
عليه المساعي أو جفته المقاصد^(١١٢)
وقال أيضاً:

وابذلا في العز مجهود كما
لا يلام المرء بعد الاجتهاد^(١١٣)
وقال أيضاً:

وإن أهلك فقد أبليت عذراً
أقوم به ولم أَلِ اجتهداً^(١١٤)
فقد أخذ ابن المقرب نفس المعنى، ولكنه قصر عن أبي فراس في التعبير والتصوير، ففي تقديم الجار والمجرور عند أبي فراس تخصيص يعلي من نبرة الفخر، وفي قوله (طلاب) إحياء بالالاحاح والاصرار، أما قوله (حاربتي المطالب) فيجعل التماس العذر له أمراً مقبولاً ممكناً.

ويبدو أن ابن المقرب قد قرأ لشعراء الأندلس، كما قرأ دواوين المشاركة قديمها وجديتها، فنجد في

ثنايا شعره معنى لابن عبدون في رثائه لبني الأقطس وهو قوله:
كانوا رواسي أرض الله منذ مضوا
عنها استطارت بمن فيها ولم تفر^(١١٥)
فيقول ابن المقرب:

كانوا جبالا لنجد تستقر بها
عن الزلازل أن ماجت وأركانها
حتى إذا ارتحلوا عن جوها اضطربت

وبدلت منهم خسفاً وخذلانا^(١١٦)
والملاحظ أن المعنيين متكافئان تماماً، ولكن ابن المقرب يميل إلى الاطناب والتفصيل، وهذه سمة عامة في شعره، ويتكرر مثل هذا المعنى عند ابن المقرب في قوله:

أضحت بك الاحساء ساكنة وقد
رجفت بمن فيها وكادت تقلب^(١١٧)
وقد يأخذ مثلاً سائراً مشهوراً
فيضمنه شعره، كقوله:

واستيقظوا فالسيل قد بلغ الذبي
وعلت غواربه على القريان^(١١٨)
ومنه قوله:

ولكنه أمسى قتيلاً لمعشر
إذا قيل من هم قيل: بن بيان^(١١٩)
وقوله:

يا راكب السدس الموار تامكة
كأنه علم من فوقه علم^(١٢٠)
«والمثل السائر ينتشل المعنى من تموجه وتسربه، وانتمائه إلى خبرة فردية، ويؤدي بالمعنى أو الصور إلى ما يسمى مستقر العرف والمعقول،

كما أن المثل السائر لا يتجزأ من التفكير العربي في الشعر، واليه يعزى قدر لا بأس به من افساد تصوراتنا وادراكنا حقائق الأشياء (١٢١).

كما أعجب ابن المقرب ببعض القصائد لمشاهير الشعراء، فعارضها ونسج على منوالها، كعينية ابن الفجاءة والتي مطلعها:

أقول لها وقد طارت شعاعاً

من الأبطال ويحك لن تراعي (١٢٢)
فقد نظم ابن المقرب قصيدة طويلة، وتخير لها نفس الوزن والقافية، واستهلها بقوله:

ردي مر الحتوف ولا تراعي

فما خوف المنية من طباعي (١٢٣)
وحين نقرأ هذه القصيدة نستشعر بروح قطري الخارجي تطالعنا في ألفاظه ومعانيه وصوره، كما لا نحس أدنى اختلاف في موسيقاهما القوية الصاخبة التي تخلق القلوب ولنقرأ هذه الأبيات من قصيدة ابن المقرب لنرى أنها تمثل توأماً لقصيدة قطري:

أحفل بالفراق وكل شعب

تصيره المنون الى انصداع
وأرهب أن أموت وكل حي
سينعاه الى الأقوام ناع
وأخشى الفقر والدنيا متاع
وربي بالكرام أبرراع
دعيني أركب الأهوال إني
رأيت ركوبها فيه انداعي

فما للمرء خير في حياة

إذا ما عُد من سقط المتاع (١٢٤)
ولا يخفى أن البيت الأخير - كاملاً - تضمن من قصيدة قطري التي أشرنا إليها. ولكن قارئ ديوان ابن المقرب لا يحس أن هذه القصيدة تمثل نغماً نشازاً بين قصائده فقد ارتفع فيها ابن المقرب الى قطري بالاتكاء على قصيدته، وجاءت قصيدة شاعرنا منسجمة تماماً مع طبعه ونفسه، كما أنه استطاع أن يطبعها بطوابعه، ويلقي عليها ظلاً من نفسه وفنه، وأن يجعل منها عملاً فنياً ذا شخصية مستقلة، لا يعيبه أن يتمثل تجربة سابقة.

كما تأثر ابن المقرب بروح قصيدة أبي تمام والتي مطلعها:
السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب (١٢٥)
وذلك حين نظم بائيته التي مطلعها:

بيني فما أنت من جدي ولا لعبي

مالي بشي سوى العلياء من أرب (١٢٦)
وقد نجد تشابهاً بين بعض أبيات القصيدتين، كقول ابن المقرب:
الضاربي الهام في يوم تخال به الشمس
المخيرة قد غابت ولم تغب (١٢٧)
فهذا القول يماثل قول أبي تمام من بائيته:

فالشمس طالعة من ذا وقد أقلت

والشمس واجبة في ذا ولم تجب (١٢٨)

فإبن المقرب - كأني شاعر آخر - قد تأثر بأسلافه من فحول شعراء العربية، بعد أن قرأ أشعارهم ووعاها، وقد أسهمت هذه القراءة أو الاحاطة - دون شك - اسهاماً حسناً ملحوظاً في تكوين شاعريته، وفي تحديد أبعادها.. ولكن ذلك كله لا يعيب قدر شاعرنا، فتلك سنة الشعراء منذ قديم العهد.. وإن وجود بيت أو بيتين في قصيدة أو في عدد من القصائد سبقه الى معناه أو معناها متقدموه لا يعني - اطلاقاً - ضعفاً في شاعريته، ولا فتوراً في تخيله، وإنما هي سنة الفكر مع الأيام ومع المناسبات، ولم يسلم منها شاعر، ولم يخلص منها مفكر (١٢٩).

كما نلاحظ أن المعاني والصور التي أخذها، هي من المعاني والصور الهامة التي تلتقطها الذاكرة باهتمام، وتصهرها، وتخزننها لتصبح جزءاً من لا شعور الشاعر كما لاحظنا أنه قد تفوق في بعض تلك المعاني، وقصر في بعضها الآخر، وجاء سائرهما مكافئاً لمعاني متقدميه ممن أخذ منهم وهنا تجدر الإشارة الى أن ابن المقرب - على كثرة من أخذ منهم - ليس من أدباء الذاكرة، ممن يتمحلون القول اعداداً وتمهيداً لمعنى محفوظ مكرور، أو

ممن لا يقوون على الوقوف أو الحركة إلا متكئين على غيرهم، فأكثر ما جاء في شعره من معاني سابقيه، كان عفويّاً ولم يقصد اليه عن عمد إلا في القليل النادر، كما يجب ألا ننسى ما جاء منها من قبيل توارد الخواطر بين الشاعر وسابقيه بحكم مرور الأيام وتشابه المناسبات. كما ينبغي ألا نغفل حقيقة لها أهميتها في هذا الصدد وهي أن الشعر العربي «لم يتغير في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه، ولم يتغير في لفظه ومعناه إلا تغييراً قليلاً جداً، فقد بقيت القصيدة معتمدة على وحدة الوزن والقافية، معنية بوحدة المعنى، وبقي موضوع الشعر كما كان مدحاً وهجاء ورثاء وغزلاً، وإنما تحدثت هذه الموضوعات دون أن تتغير (١٣٠).

ولكننا نعيب على شاعرنا ذلك النوع البغيض من النظم - وهو قليل - الذي دفعه اليه تقليده الأعمى لشاعر العربية الأكبر أبي الطيب المتنبى والذي لم يسلم نظمه ذلك من نقد.

قيم التصوير التقليدية

يكاد يجمع نقادنا المعاصرون على «أن الشاعر لا يعيش حياة منفصلة عن الماضي، بل يستأنف حياته في نفس الدروب التي سلكها أسلافه، وقد أخذته التعب والنصب، وفي باطنه حافز يحفره على تحمل كل المشقات،

وتجشم كل الصعاب»^(١٣١) وانطلاقاً من هذا الإدراك فقد وجدوا لزماً عليهم أن يعيدوا النظر في قضية السرقات الأدبية التي أثارها نقادنا القدامى، فأخذوا يتصيدون ما أخذه الشعراء المحدثون عن سابقهم، ومعاصريهم، مغفلين أن هذا التأثير مرده الإطار الثقافي الواحد الذي أخذوا منه، «فمن الطبيعي أن يتشابه الشعراء مادام إطارهم الثقافي يكاد يكون واحداً»^(١٣٢). وليس معنى هذا أن نبيح للشاعر أن يكون نسخة مكررة من سابقه، لا يقوى على الوقوف أو الحركة دون أن يتكىء على تراث أسلافه «فاتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز، وتركه كل معنى سبق إليه جهل، ولكن المختار أوسط الحالات»^(١٣٣) وأوضح من هذا قول الدكتور أحمد الشايب: «إن الآثار العلمية والفنية التي نتمتع بها الآن ثمرة الجد الانساني المتواصل من بدء الحياة لم ينفرد بأكثرها جيل وحده، بل تحمل طوابع الأجيال الغابرة ومن حق كل طبقة أن تستغل نشاط سابقتها، وتضيف إليه ما يمثل شخصيتها وتاريخها الخاص تمثيلاً موضوعياً أو شكلياً»^(١٣٤).

لقد لا حظنا في تناولنا لقيم التعبير التقليدية عند شاعرنا أنه قد صدر في انتاجه الفني متأثراً بإطار ثقافي واسع

يمتد قرابة سبعة قرون، لذا وجدناه يتأثر بالكثير من قممنا البواخ في عالم الشعر على امتداد عصورنا الأدبية، وحين نمعن النظر في صور شاعرنا الفنية، نجد أنه يصنعها وفق نمط قديم موروث أرسى قيمة شعراؤنا الأول. وليس هذا مدعاة للدهشة نظراً، لثبات الأغراض التي طرقها شعراء بنى العباس، كما طرقها، أسلافهم، ونجم عن هذا الثبات استمرار الشكل النمطي الفني، مما ساعد الشاعر على الاستمرار - دون حرج - في نقل صور القدماء ابتداءً في ذلك من اعتماده على صورة الطلل في مقدمة القصيدة، وانتهاء بدوافعه الشعرية إلى أغراض بعينها^(١٣٥).

لم ينحرف ابن المقرب كل الانحراف عن الفواتح التقليدية للقصيدة العربية، ولا أهملها كل الإهمال، فانه تمسك ببعضها، وردد كثيراً من معانيها وصورها، شأنه في ذلك شأن أسلافه ومعاصريه من شعراء العصر العباسي. ويجدر بنا الوقوف على المعالم التراثية في تلك الصور التي استهل بها قصائده، فراح يستوحى في بعضها الصورة القديمة ليعيد رسمها في شكلها النمطي الذي يصف فيه الاطلال ورسوم الديار. ومن بين صور ابن المقرب في مقدمات بعض مدائحه قوله:

سائل ديار الحي من ماوان
 ما أحدثت فيها يد الحدثان
 وأطل وقوفك يا أخي بدمنة
 قد طال في أطلالها ادماني
 كانت جنانا كالجنان فأصبحت
 للوحش موحشة وللجنان
 لما وقفت العيس في عرصاتها
 ذهب العزاء وأقبلت أجفاني
 وذكرت أياما خلون وأعصرا
 ذكرى لهن لسلوتي أنساني (١٣٦)

يرسم الشاعر في هذه الابيات صورة
 نمطية للأطلال، التي عفت رسومها،
 وغدت موحشة بعد أن كانت تفيض
 بالحياة، وأصبح الوقوف بها مستثارا
 لاشجانه، ومبعثا لذكرياته الطيبة
 فيها مستعينا على رسمها بأدواته
 الفنية كالتشبيه «كانت جنانا
 كالجنان» والتشخيص «أحدثت فيها
 يد الحدثان» و «ذهب العزاء».

كما استطاع أن يستغل البديع بشكل
 فني في تشكيل الصورة، فإلى جانب
 الصورة البصرية، تأتي الكلمات
 متناغمة في صورة الجناس «جنانا،
 وجنان» وقد يعمد إلى التلاعب الشكلي
 بالألفاظ «أحدثت، حدثان - دمنة،
 إدمان - وحش، موحشة» كما يعمد إلى
 التلاعب بفعل «طال» فيأتي به ماضياً
 وأمرأ، مجانساً بينها وبين كلمة
 أطلال، هذا بالإضافة إلى استغلال
 الطباق في رسم الصورة في قوله
 «ذهب وأقبلت» والطباق - كما نعلم -

يهب الألفاظ القدرة على الأداء الفني
 للصورة، فيطابق بين متناقضات
 الصورة الجزئية. ومن الألوان البعيدة
 الأخرى التي استعان بها الشاعر في
 تشكيل صورته «رد العجز على
 الصدر» كما في البيت الثاني.
 ثم يوالي ابن المقرب استكمال جوانب
 الصورة الطلية، فيصور لنا ذكرياته
 المثارة فيقول:

وكواعباً بذوي العقول لواعباً
 بيض الخدود نواعم الأبدان
 من كل خرعية ثريك إذا بدت
 بدر الدجئة فوق غصن البان
 وإذا تراءت للحليم رأيتيه

في فتنه من طرفها الغثان (١٣٧)

فالشاعر يرسم لنا من خلال هذه
 الأبيات صورة غزلية تراثية، كانت
 تتداخل عند الشاعر القديم مع صورة
 الطلية، وقد امتد تقدير الموروث عنده
 إلى احتذاء مضامين السابقين أيضاً،
 فاستعار منهم صفاتهم الحسية التي
 كانت تروقهم في المرأة، ويستعين على
 تشكيل هذه الصورة بالتشبيه الجاهز
 كما في البيت الثاني، وباستغلال ألوان
 البديع الصوتي كما في التجنيس بين
 «كواعب ولواعب» وتكرار حرف
 «النون - روى القصيدة - في عدد من
 الكلمات في عجز كل من الأبيات
 الثلاثة، وتكرار حرف «الفاء» في عدد
 من الألفاظ المتلاحقة في عجز البيت

الأخير، والإعتماد على التقطيع الصوتي كما في الألفاظ «كواعب، لواعب، نواعم» و«العقول، الحدود»، ويمثل التشكيل الصوتي في حالتها الحقيقة والمجاز، سواء جرس الكلمات أو نغم التركيب بأسره أو موسيقى البيت في الشعر، عنصراً له خطره في رسم الصورة، وإبرازها وخلق عوامل التأثير لها^(١٣٨).

ومن بين صور ابن المقرب الطليعية في مقدمات بعض مدائحه صورة الإستعداد للرحيل والفرار، وصور الظلّاعن، كقوله في القصيدة ذاتها:

لم أنس يوم البين موقوفنا وقد
حم الفراق وفاضت العينان
وتتابعت زفرات وجد لم تزل
منها القلوب كثيرة الخفقان
بانوا وكنت أعدهم لي جنة
فبقيت بعدهم بغير جنان
قرن الاسى بجوانحي لما بدت
أظعانهم كالنخل من قران
أقوت مغانيهم وكانت حقبة
ماوى الحسان وملعب الفتيان
ومناخ متاح النوال وعصمة
للخائفين وملجأ للجاني^(١٣٩)

فالشاعر يحدثنا عن انفعالاته وقد أرف رحيل الأوبة، ثم ينتقل الى صورة أخرى وقد ابتعد ركب القوم، فبدت أظعانهم وكأنها النخل، فغدا الشاعر طائر اللب والعقل، قرين الهم والا لم. ويشكل لنا الصورة هنا من

عدد من الصور الجزئية، كالتشبيه في «كنت أعدهم لي جنة» و«بدت أظعانهم كالنخل» وهي صورة بلاغية تقليدية موروثة، وكالتجسيم في قوله «قرن الاسى بجوانحي»، كما يستعمل بعض ألوان البديع فيحسن التخلص من صورة الطلل الى صورة الممدوح، لنحس أنها نقلة طبيعية أجاد فيها ربط الصورتين.

كما استعان برد العجز على الصدر كما في البيت الثالث وتاليه.
ومن بين صور الطليعية النمطية قوله مفتتحاً كافيته:

أمن دمنة بين اللوى فالدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك
عفت غير أرى وأورق حائل
واشعت مشجوج وسفع روامك
ونؤى كجذم الحوض غير رسمه
وجيف الحصار بالموجنات الحواشك^(١٤٠)
يحدد الشاعر في هذه الصورة ديار الأوبة العافية، ويصف ما ألم بها من تغير بفعل الرياح الشديدة والتي لم يصمد ازاءها الا اليسير من معالمها، وقد استعان على رسمها بالتشبيه الحسي كما في البيت الثالث، وبعض ألوان البديع، فيعتمد الى التلاعب الشكلي بالالفاظ المشتركة في حرف معين «كـالـشين» في «أشعت ومشجوج» و«الجيم» في «جذم، وجيف، وموجفات» و«الحاء» في

«حوض، حصا، حواشك» ويحقق الشاعر من خلال هذا التلاعب الشكلي بالالفاظ ثراء موسيقيا للصورة.

ويبدو من هذه الصورة أن تقدير الشاعر للتراث قد امتد الى لغة الأسلاف. فاستعار مفرداتهم الوعرة في تشكيل، صورته، مما حال دون تمام الاستمتاع بالصورة السمعية التي أشرنا اليها.

ونجد أن الشاعر لا يطيل الوقوف بأطلاله فيتحول الى صورة أخرى لها صلة بسابقتها، وهي صورة الاستعداد للرحلة، فيقول:

كان فؤادي ناطه ذو سخيمة
قليل التحني في صدور النيازك
غداة تداعي الحي بالبين بعدما
جلا الصبح أعجاز النجوم الدوالك^(١٤١)

ويخرج من هذه الصورة الى صورة الناقاة التي تعد مكملًا لصورة الاستعداد للرحلة فيقول:

وقد قربوا للبين كل همرجل
أمون القرى ضخم العثانين تامك
قمطر ددرفس فيسرى كأنما
مناكبة جللن وشي الدرائك
رعي واجفا فالصلب من أجمل الغضا
بحيث استهلكت كل وطفاء رامك^(١٤٢)

ولا يخفي أنه يترسم خطوات أسلافه في تشكيل هذه الصورة النمطية، سالكا نفس الدروب وكأنني به يحاذر أن يجاوز تلك الصور التي أرسوها، لكنه لم يكن طويل النفس في تشكيل

صورة الناقاة، بل لا يميل شاعرنا الى رسم الناقاة الانادرا، وربما كان علة ذلك انشغاله بالفرس أكثر من الناقاة.

ويخرج ابن المقرب من صورة الناقاة إلى صورة غزلية تراثية، اعتاد القدماء أن يأتوا بها في صدور مدائحهم استكمالاً للصورة الطليية الموروثة، فيقول:

وفي الجيرة الغادين لا عن ملالة
ظباء على تلك الهجان البوائك
خماص الحشا حُمّ الشفاة كأنما
يلئن مروط العصب فوق العوائك
ويبسمن عن نور الأقاحي لم يزل
يغذى بدرات الذهب الركاك
وفيهن من دهل بن شيبان غادة
يطيب رياها عبر المداوك
كان على فيها سلافة قرقف
وقد غُورت أم النجوم الشوابك
لقد حملت تلك النوق حبيبة الشاعر
ورفقتها وكأنهن ظباء، دقيقات
الخصور، لعس الشفاة، يآترزن
بأكسية من صوف على أعجاز كأنها
مرتفعات الرمل، ويبسمن فيبين
زهر الأقاحي، ويركز الشاعر آله
المصورة على تلك الحسناء التي يكنّوها
على عادة أسلافه، ويكتفي بالتلميح
دون التصريح باسمها، واصفاً طيب
ريها، أما فمها فكأن عليه آثار تعاطي
الخمرة لجمال لونه، وطيب رائحته.
ويستعين على تشكيل هذه الصورة
بالصور الجزئية، كالصور التشبيهية

التقليدية في البيت الأول وتاليه،
والصور الإستعارية «ويبسمن عن
نور الأفاقي».

ويبدو حس الشاعر التراثي من خلال
هذه النماذج التي عرضناها من
صوره الطللية، ومدى تأثره بالنمط
الموروث عن الأسلاف، أما قصائده
التي استهلها بمثل هذه الصورة
التراثية فهي لا تزيد على أربع قصائد:
الأولى: قالها في مدح الخليفة الناصر
لدين الله، ومطلعها:

أررتها المآقي ما تكن الجوانح
فبج فالمعنى بالصباية بائج (١٤٣)
والثانية: قالها في مدح الأمير العيوني
أبي ماجد محمد بن علي: (١٤٤)

أمن دمنة بين اللوى والدكادك
شغفت بتذراف الدموع السوافك
والثالثة: قالها في مدح الأمير العيوني
فضل بن محمد:

ما أنصف الطلل العافي بما وأنا
لم نُسجه يوم سلّمنا وأشجانا (١٤٥)
والرابعة: قالها في مدح الأمير العيوني
محمد بن أبي الحسين:

سائل ديار الحي من ماوان
ما أحدثت فيها يد الحدثان (١٤٦)
ونخلص في تحليلنا لصورة الطلل
وصور الظعائن إلى أنه قد استوحاها
من التراث، والشاعر في مثل هذه
الصور التراثية لا يصدر فيها عن
ذاته، وإنما يصدر فيها عن الصنعة

والتقليد والمحاكاة، أما صور الطلل
عند القدماء فلها علاقة مباشرة،
بوجدان الشاعر، وتنازعه مع ميوله
وعواطفه، لما يستثيره في نفسه من
ذكريات توافق طبيعة تجربته
الشعرية، بل أن موضوع الطلل يكاد
يكون الموضوع الوحيد الذي يباشره
الشاعر بوجوده وعاطفته، بينما
اقتصر على مباشرة سائر المواضيع
بحدقة حسه التي تنعكس على الأشياء
انعكاسا دون مشاركة ذاتية أو
وجدانية، فالطلل يمثل له تجربة
البراح والحزن والندم» (١٤٧).

أما صورة الممدوح النمطية فقد انكب
شعراء العصر العباسي عليها ينهلون
مادتها من التراث، وإذا ببعضهم يكرر
البعض الآخر في نقلها أو التوليد فيها،
واستعان الشعراء بألوان الصنعة
محاولين بها - في أغلب الأحيان - أن
يغطوا مآلدهم من فتور في العاطفة
والاحساس، فمالوا الى المبالغة في خلع
الصفات المثالية المطلقة على
ممدوحهم، وانتهوا الى توليد صور
ذات أبعاد فنية متشابهة، حتى لانكاد
نجد فرقا يميز ممدوحا عن آخر «فلكل
أمير صفات فائقة في الحرب والشدة
والبأس والكرم، ولكل عالم بحر زاخر
من صفات المعرفة والعقل، ولقد زاد
الاقبال على المدح لأنه سبيل الرزق،
ولأن العظماء في حاجة اليه بسبب ما

قام بينهم من تنافس، وقد بلغ
الغلو فيه حداً مقيتاً»^(١٤٨). ولنستمع
الى هذه الابيات من قصيدة لابن
المقرب يمدح بها الأمير العيوني فضل
بن محمد فيقول:

ورجاء في فضل الندى بن محمد
ادراك ما في النفس من حاجاتها
السابق القوم الكرام الى العلى
سبق المبرز في مدى حليباتها
والواهب الهجمات عفواً واللها
في عامها الاحوى وفي لزباتها
والمكرم الجارات عن شر الخنا
ان دبت النوكي الى جاراتها
والقائد الجرد العتاق الى الوغي
يخرجن كالعقبان تحت كماتها
والطاعن الفرسان كل مريشة
مخلوطة والخيول في لباتها
والخائض الغمرات حتى ينجلي
بحسامه ما ثار من هبواتها
والسالب الملك المعظم تاجه
ومذيقه المكروه من كاساتها
والواصل الرحم التي أوصى بها
ذو العرش في الآيات من سوراتها
يا ابن الذي خضعت له وتضاءلت
شوس الاسود الغلب في أجماتها
أجرى نزارا كيف شاء ويعربا
بالكره من مرادها وعتاتها
ما حاربته قبيلة الاغدت
أحياؤها وفداً على أمواتها^(١٤٩)

لم يخرج شاعرنا في هذه الابيات عن
الصورة الموروثة والمكرورة، التي
تطالعنا في دواوين أسلافه
ومعاصريه، فممدوحه سباق الى

المعالي، كريم، عفيف، لا يتطلع بسوء
الى جارته وقائد شجاع يفتك بالملوك،
والى جانب هذه الصفات والاخلاق
الموغلة في القدم، يخلع عليه صفة
اسلامية وهي صلة الرحم. فالممدوح
كما نلاحظ - شخصية تتحلّى بصفات
مثالية يغلب عليها طابع التعميم
والتجريد. ويتوسل الشاعر في تشكيل
هذه الصورة، بالصور البلاغية
الجزئية كالتشبيه كما في قوله:

والقائد الجرد العتاق الى الوغي
يخرجن كالعقبان تحت كماتها
والتجسيم في قوله «ومذيقه المكروه»
كما يستغل بعض ألوان البديع بشكل
فني في تشكيل الصورة، فيلجأ الى
التلاعب الشكلي بمشتقات الفعل
«سبق» كما في البيت الثاني، ويعتمد
على التلاعب الشكلي في تتابع كلماتي
(شوس والاسود) المتشابهتين - في
حرفي الواو والسين، كما يعمد الى رد
العجز على الصدر كما في (الجلات
وجلالاتها)، ومن ألوان البديع التي
استغلها المطابقة بين (أحيائها
وأمواتها).

وتأتي صورة الممدوح في الكثير^(١٥٠)
من مدائحه بعد التقديم لها بالصورة
الغزلية كما صنع القدماء، فقد كان
القسم الاعظم من الشعراء يبتدئون
بالغزل، ثم يستطردون منه الى المدح،
ومن بين تلك الصور الغزلية التي

قدمها ابن المقرب بين يدي مديحة
قوله في مدح الامير العيوني حسن بن
مسعود:

أراه الهوى ما لم يكن في حسابه
فأقلقه عن صبره واحتسابه
ولا تؤلمه بالملام فإنه
يثير جواه واتركاه لما به
أعيز كما من وجده وغرامه
ولوعاته يوم النوى واكتتابه (١٥١)
ويواصل تشكيل صورته التقليدية في
عدد غير قليل من الأبيات يجاوز
الإثني عشر بيتاً، ويخلص من صورة
النسيب إلى المدح في خفة ورشاقة،
فيقول:

رعى الله أيام الشباب فإنها
هي العمر يا طول الأسى باستلابه
وجاد ديار الحق من أيمن الحسا
مرب يواري الهضب داني رباه (١٥٢)
كجود ابن مسعود الفتى الواهب الله
ومخل منهل الحيا في انسكابه
وهو كغيره من شعراء بني العباس
يضيف على المديح - أحياناً - طابع
الحماسة والدين والسياسة إلى جانب
المديح الخالص، وقد بدا هذا جلياً في
مدائحه لخلفاء بني العباس، ولنستمع
إليه مادحاً الخليفة العباسي الناصر
لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ)، إذ يقول في
بني العباس:

تخيركم رب العلا واصطفاكم
وطهركم من كل ذم وذائم
وآتاكم فصل الخطاب ومحكم الـ
كتاب وملكاً زاهياً غير زائم

فأوضحتم سبل الهدى وكشفتهم
عن الحق أغشاء العمى المتراكم
وقومتهم بالسيف من مال خده اصـ
عراراً ولم يشمخ بأنف لخاصم
فكم هامة للكفر راحت وهامها
نعالاً لأيدي خيلكم في الملاحم
فقل لدعاة الشرق والغرب أقصروا
وكفوا وألا تقررعوا سن نادم
فما الحق إلا دعوة هاشمية
هي الحق لا دعوى غوى وغاشم
بها أصبح الإسلام في كل موطن
ينوء بركن منه عقد الدعائم
أقام له في كل ثغر كتائباً
ترى الشرك من شداتها في مآثم
تبيت طواغيت النفاق لهمه
كان حشاياها ظهور الشياهم
تقلبها جنباً فجنباً مهابة
ثوت واستقرت بين تلك الحيازم
فإن هومت أهدت لها سنة الكرى
سراياه تردي بالقنا والصوارم
فتزعجها حتى كأن قد أصابها
من المس ما لا يتقى بالتمائم
فليس لها في نومها منه راحة
إذا النوم سلى لهم عن كل نائم (١٥٣)
فالشاعر يرى أن بني العباس
مصطفون من الله، مطهرون من كل
عيب، من الله عليهم بنزول الكتاب على
بني هاشم، فأحسنوا حمل الأمانة،
والذود عنها، ونشرها بشئى
الوسائل، ويؤكد الشاعر للمشككين في
أحقية العباسيين بالخلافة أنها حق
لهم لا مرأى فيه. فقد استطاعوا أن
يقيموا دولة إسلامية عظيمة، وحموها

من مطامع المشركين، بل لقد أوقعوا
الهم في نفوسهم، وأورثوهم القلق
حذر الفتك بهم في كل لحظة.
فابن المقرب في هذه الأبيات يعيد على
مسامعنا أصوات شعراء الأحزاب
السياسية والفرق الدينية التي شهدها
عصر بني أمية وبني العباس، حين
كان الشعراء ينافحون عن زعمائهم
السياسيين والدينيين، فيمزجون في
مدائحهم عناصر الدين والسياسة
والحماسة معاً.

وتطالعنا في صورة الممدوح
صورة نمطية أخرى، وهي تصوير
مصاعب الرحلة الى الممدوح، وقد
جرت العادة لدى شعراء المديح أن
يلحوا على هذه الصورة، استدرارا
لعطف ممدوحهم، فوصفوا ما
انتابهم من نصب، وما اعترض
سبيلهم من أهوال.. وغدت هذه
الصورة من المقومات الفنية التي لا
غنى عنها في قصيدة المدح عند
المتأخرين، ومثل هذه الصورة التراثية
قول ابن المقرب مخاطباً بدر الدين
لؤلؤاً صاحب الموصل:

اليك طوت يابا الفضائل وامتنعت
بي البعد همت النفوس الكرائم
فكم متن ساج تحت ساج قطعته
على ظهر ساج غير واهي العزائم
وكم جبت من خرقا تموت بها الظبا
بعزمه مضاء على الهول حازم^(١٥٤)

فقد دفعته همته العظيمة لقطع
المسافة الشاسعة الى ممدوحة، فركب
البحر تارة، وتارة أخرى اعتسف
الفيافي الموحشة التي تموت فيها
الظباء لقلة مائها وشدة حرارتها.

ويبدو من هذه الصورة تكلف
الشاعر للصنعة، وقصده اليها، مما
أفسد عليه الصورة، وألغز المعنى،
فتكرار كلمة «ساج» ثلاث مرات في
البيت الثاني، له أثره في تشكيل
الصورة السمعية في الأبيات، ولكن
ورود هذه الكلمة كل مرة بمعنى
مختلف، يكلف سامعه شططا،
ويجشمه عناء كبيرا في فهم معانيها،
ويقف حائلا دون مضي المتلقي في
تذوق الصورة، والصنعة هنا صنعة
لفظية لا وظيفية فنية لها.

وقد يبالغ في تصوير ما أصابه في
رحلته الطويلة الشاقة فيقول
لمدوحه:

أفנית زادي ومركوبي وشيبيني
على عتو جنابي الخوف والوجل
وقد بلغت الجناح الرحب بعد وجي
وليس إلا على عليك متكل^(١٥٥)
ولم يبلغ ممدوحه حتى حفيت
قدماه، فكأن الشاعر يلزم ممدوحه -
على الأقل - بتعويضه خسائر الرحلة
اليه. وهكذا سلك ابن المقرب دروب
سابقه في رسم صورة الممدوح،
وتصوير متاعب الرحلة اليه، وكانت

الصورة الأخيرة، تأتي - غالبا - في ختام مدائحه، وقد يأتي بها - على عادة أسلافه - في استهلال مدائحه، ملحا عليها كقوله في مدح الأمير العيونى أبي على محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل.

لذا اليوم أعملت القلاص العباها
وأبقيتها تحكي الحنايا نواحلا^(١٥٦)
لذا اليوم كم نفرت عن زغبها القطا
ونبهت ذؤبان الفلاء العواسلا
لذا اليوم كم من حوت بحر ذعرته
وكم رعت ليثا أعمل الناب باسلا
لذا اليوم كم جاث بغاب أثرته
وغادرت هيقا يمسح الأرض جافلا
لذا اليوم نكبت الجزيرة راجعا
واربل لم أعطف عليها وبابلا
لذا اليوم فارقت اختيارا أحبتي
وأهل ودادي والملوك الأفاضلا
فكم خضت رجوى اليوم من لج مزبد
يظن اصطفاق الموج فيه مشاعلا
وكم جبت من مومة أرض ترى بها
مع الآل حق العين والأذن باطلا
تخال بها الحرباء في رأس جذله
شبيحا من البدوان للعرض ماثلا
وتحسب فيها الثعلبان مجدلا
من الخيل إذ تعلو كثيبا مقابلا
وان عرضت فيها الرثال حسبته
بخاتي تحملن الروايا قوافلا
وحي عدى طالما نذروا دمي
فلو ظفروا بي عمموني المناصلا
تخطيتهم هدها من الليل بعدما
تنكب حادي النجم للغرب ماثلا
ولو لم أمني النفس في كل ساعة

بذا اليوم لم تعدم من الهم قاتلا^(١٥٧)
يصور لنا الشاعر في هذه الأبيات رحلة العودة من شمال العراق الى الاحساء، حيث ممدوحه، وكيف عبر الفيا في بحث قلو صه منفرا القطا عن زغبها، منبها ذئاب الفلاة، ثم يستطرد الى تصوير عبوره البحر، ولكنه سرعان ما يعود الى فلواته مروعا أسودها ووحشها، مزعجا نعامها، ويلتقط أنفاسه برهة ليصور وداعه لأحبائه في العراق، ثم يلح على صورته فيصور البحر الهائج الذي ركبه، والمنفازة المهلكة التي عبرها والتي تستحيل الحقائق فيها الى أوهام، فيظن سالكها الحرباء وقد علت أصل شجرة كأنها بدوى مشبوح، كما يتوهم الثعلب فيها فرسا قويا ويظن النعام إبلا خراسانية قد حملت مزادات الماء.. وأشد من هذا وذاك هولا تخطيه لأحياء أعدائه ممن نذروا دمه.

وقد استعان الشاعر في تشكيل صورته بعدد من الصور التشبيهية كقوله «يظن اصطفاق الموج فيه مشاعلا» والتشبيهات التمثيلية التي يجد فيها وسيلة فنية مناسبة لرسم مشاهد الصحراء واستكمال خطوط الرحلة الى الممدوح، كقوله «تخال بها الحرباء.. ماثلا» و«تحسب فيها الثعلبان.. مقابلا» و«ان عرضت فيها

الرئال.. قوافلا»، والصورة الاستعارية «عمموني المناصلا».

ولا يخفى مدى تقديرنا لشاعر التراث في هذه الصورة، ولا سيما في الصور الجزئية التي رسم بها مشاهد الصحراء التي عبرها الى ممدوحة.

كما استغل ابن المقرب بعض ألوان البديع في تشكيل صورته، فنجدته يتلاعب بحرف «الحاء» فيكرره في ثلاث كلمات متتابعة في عجز البيت الأول «تحكي الحنايا، نواحلا»، ويعتمد أحيانا على التقطيع الصوتي كقوله «نفرت، نبهت» كما يعتمد الى تكرار «لذا اليوم» في مستهل عدد من الأبيات المتتابعة ليشكل صورة سمعية تجاور صورته البصرية في الأبيات. ومن ألوان البديع التي استغلها في تشكيل صورته المطابقة بين «حق وباطل».

ومما يلاحظ على تصوير متاعب الرحلة الى الممدوح عند شاعرنا، تجاوز صورة رحلة البر، وصورة رحلة البحر. ولا نستبعد أن رحلاته من الاحساء واليهما كانت تتطلب منه أن يركب البحر تارة، ويعتسف الصحراء تارة أخرى، لذا تجاوزت الصورتان. ومن بين تلك الصور المتجاورة قوله:

كم جبت دونك من تيه وحاويه
يشكو الكلال بها النجاة التعب

ومزبد يترأى الموت راحبه
سلامة المتخطيه له عجب
وكم طرقت رجالا يندرون دمي
أسقيتهم علقما غصبا له شربوا
كم قلت للنفس إذ لج الهلوع بها
وكالدماء دموع العين تنسكب^(١٥٨)
وبعد العصر الجاهلي عرفت
قصيدة المديح صورة الممدوح الذي
ينشر العدل ويحمي رعيته وأرضه،
كقول ابن المقرب في مدح شمس الدين
باتكين:

أرضي إله العرش في خلقه
مذولي الأمر وأرضي الإمام
عف فما بات أخو ثروة
يلصق منه صدره بالرغام
كم رد من حال مخيف وقد
صار من الهم كذات الوحام
إذا ما رأى ما نال اخوانه
من البلايا صاح صمي صمام
فضل منكبا على وجهه
وذاب غما وتمنى الحمام
منذ تولى لم يبت مسلم
منه على نعمته ذا اهتمام
راش ذوي الفقر وأحياهم

واحترم المثرين أي احترام^(١٥٩)
ونلاحظ الى جانب الحس التراثي
في صورة الممدوح هذه، أنها صورة
تقريرية مباشرة، كما ان الصنعة
البديعية التي استعان بها في تشكيل
صورته لا تخرج عن كونها صنعة
لفظية زخرفية لا تؤدي أية وظيفة
فنية، كالتلاعب بالألفاظ «صاح،

صمى، حمام» المشتركة في حرف
«الصاد» وتكرار كلمة «احترام» التي
أشاعت روح النثر في أبياته.

كما تتكرر في مدائحه صورة
الممدوح الذي يشبه الجبال في رزاقته،
كقوله:

ملوك هم الشم الرواسي رزاقه
إذا ما استخف الحلم حق وباطل (١٦٠)
ومثل هذه الصورة قوله مادحا
بدر الدين لؤلؤا:

فقد عهدتك طودا ما تزعزعه
نكباء عاد فكيف القيل والقال (١٦١)
وقوله مادحا راثيا معا:

ان كان ذاك العرش ثل فقد رسي
في إثره علم من الأعلام (١٦٢)
وطالما تغنى الشاعر العربي
بحرص ممدوحه على عرض جاره،
وعفته عن التطلع الى جارتها، ونجد
هذه الصورة التراثية في مدائح ابن
المقرب ومنها قوله:

وتبيت جارتها ولم يرفع لها
كسرا بعلة قائل متضلل (١٦٣)
وقد عرفت صورة الممدوح في
الشعر العربي عموما بتركيزها على
جانب العطاء والكرم. وابن المقرب
كأسلافه يجعل ممدوحه - في صورة
الكرم - يهين ماله ويهيله على سائليه،
وقد علت محياه ابتسامه الرضى،
ومنه قوله:

ترى الجود والاحسان فيه غريزة

وطبعا به ساد الورى لا تكلفا
وما ذاك إلا أنه هان ماله
عليه فأعطى بابتسام وأضعفا
يهيل على سؤاله من نواله
إذا ما الجواد الغمر كال وطففا
ضحوك إذا ما العام قطب وجهه

عبوسا وخوى كل نجم وأخلفا (١٦٤)
فالجود طبع في ممدوحه لا يتكلفه،
فهو يهين ماله، فيهيله على سائليه
مبتسما راضيا، وفي سنى المحل تتهلل
أساريه وكأنه يسعد بدوره في تفريج
الآزمات وتنفيس الكرب، ومع أن
الاسلام قد أبقي على الكثير من عادات
العرب بعد أن هذبها وقننها، لكن
شعراءنا أبوا ألا أن يكون الكرم اسرافا
وتجاوزا لحدود الاعتدال والتوسط في
الانفاق، الى الحد الذي أصبحت فيه
صورة الممدوح أقرب الى الحمق الذي
يثير السخرية، ولا يبعث على الإعجاب
الذي يتوهمونه. ولكن الشاعر العربي
لم يكن له بد من محاكاة الأنماط
الموروثة والتي غدت لها قداستها عند
معشر النقاد، وصارت معيارا للفحولة
والتفوق عندهم في باب المديح.

وقد استغل ابن المقرب ألوان
البديع في تشكيل صورته، من
التجنى بين «سؤاله ونواله»
والاعتماد على التقطيع الصوتي في
«ضحوك، عبوس» وكان للطباق دوره
في الربط بين جزئيات الصور مثل

«طبع وتكلف» و«ضحك وقطب وجهه وعبوس»، كما استعان بالمبالغة في تشكيل صورته كما في البيت الثالث.

وفي صورة الكرم يعفي طالبي المعروف من مذلة السؤال، لأن ممدوحه يبادرهم بالعطاء قبل أن يسألوه:

تعفي العفاة من السؤال فقلما تلقاه يوم عطائه مسئولا يعطي الجزيل من النوال فلا يرى الا كعابرة عليه سبيلا ويعم في اعطائه فتخاله بجميع أرزاق العباد كفيلا (١٦٥) وبمثل هذه الصورة قوله :

يرون الندى قبل السؤال فريضة وبعد السؤال زلة ليس تغفر (١٦٦) لا يخفى من هاتين الصورتين وسابقتهما مدى تقدير الشاعر للموروث، وميله لمحاكاة صورة الكرم النمطية عند أسلافه. ويجعل - في صورة الكرم - أموال ممدوحه تشكو ظلمه لها :

أمواله من ضيمه تشكي وجاره في نجوة لا يضام (١٦٧) وتصل درجة كرم الممدوح الى حد تنبيه السائلين ودفعهم اليه: نبه طلاب الندى جوده اليه تنويها وكانوا نيام (١٦٨) بل قد تصل درجة كرم ممدوحه حدا يجعله فيه ملتقى سبل السائلين:

أقام الى نداء به سبيلا يرى المعتفين به ارتيادا (١٦٩) يشبه هذا قول زهير بن أبي سلمى:

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون الى أبوابه طرقا (١٧٠) وقد تتجاوز صورة الكرم والشجاعة عنده، كقوله:

تلقاه أثبت ما يكون جنانه والخيل تعثر بالقنا المتكسر وأحب يوم عنده يوم به يعطي الهنيءة للفقر المقتدر جرار كل كتيبة فرسانها أوفى وأمضى من كتيبة دوسر (١٧١) وقوله :

فقد جزت مقدار الشجاعة والندى وتربك في لعب الصبا متشاغل (١٧٢) ومن بين تلك الصور التي تمتاز فيها صورة الكرم والشجاعة قوله: وإذا المحول تتابعت ألفتيه مثبجج العافي وزاد المرمل وإذا لظى الحرب الزبون تأججت أطفى لو افحها بحملة فيصل (١٧٣) كما يستغل ابن المقرب صورة صنائع الممدوح الحربية وانتصاراته لتشكيل صورة الممدوح النمطية، ومن بين تلك الصور قوله:

مقدام معركة كشاف تهلكه طلاب مملكة تسمو بها الدول ويوم نحس يوارى الشمس عثيره حتى يخال الضحى قد غاله الأصل كأنما البيض راحت وهي مصلته

فيه بوارق غيث رعد زجل
والسمر قد جعلت تحكي أسنتها
كواكب التدف والفرسان تتصل
والنبل في الجو تحكي للمشبه الـ
كبريت في روسه النيران تشتعل
سما له معية الرئبال لآخور
يشينه في تهاديه ولا كسل
بصارم لو علا ضرابه حضنا
لقليل كان قديما ها هنا جبل
إذا بدا ضاحكا في يوم معركة
بكفه بكت الأعناق والقلل
فصك هام العدى صكا مقل
قرت لأن سخنت من وقعه مقل (١٧٤)
يستعين الشاعر في تشكيل صورته
بعدد من الصور الجزئية، كالصورة
التشبيهية «والسمر قد جعلت تحكي
أسنتها كواكب القذف» و«النبل في
الجو تحكي للمشبه الكبريت..»
والصورة التمثيلية في البيت الثاني
وتاليه، والتي تذكرنا بصورة بشار
المشهور:

كان مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
كما استعان بالتشخيص في «غاله
الأصل» و«بدا ضاحكا» و«بكت
الأعناق والقلل»، ويلاحظ في هذه
الصورة ومثيالاتها أن ملكة الشاعر
المصورة قد انطلقت الى مدى أبعد
وأرحب من الصور الأخرى التي
عرضنا لها، لما تحقق لها من عناصر
الصورة الكلية، من حركة ولون

وشكل.. ولكن صورة الشمس التي
يوارىها غبار المعركة، والسيوف
اللامعة التي تعلو وتهبط خلال سحب
الغبار وكأنها برق يتبعه رعد، هي
صورة تراثية، وكذلك صور الأسلحة
من رماح ونبال وسيوف، وصورة
الممدوح في لقائه لأعدائه.

كما يستغل بعض ألوان البديع في
تشكيل صورته، كاعتماده على
التقطيع في ألفاظ البيت الأول «مقدام،
كشاف، طلاب» و«معركة تهلكة،
مملكة»، واعتماده على التصريح الذي
يكسب شعره رنينا موسيقيا جميلا
فيجعل الألفاظ مستوية الأوزان،
متفقة الفواصل، كما في البيت الأول،
والموسيقى في هذه الصورة نماذج
أخرى، فتلاعب في اختيار ألفاظ
تشارك في أحد الحروف مثل «بكفه،
وبكت» و«الأعناق والقلل» و«مقل
قرت.. وقعه مقل».

ومن ألوان البديع التي استغلها في
تشكيل صورته «الطباق» الذي يهب
الألفاظ قدرة على الأداء الفني
للصورة، فيطابق بين متناقضات
الصور الجزئية كما في «ضاحكا
وبكت» و«مقل قرت، وخفت مقل».

وقد كان البديع من الوسائل الفنية
الجديدة التي تفنن شعراء بني العباس
في تحليل المعاني بها، أو عرضها
عرضا جميلا جديدا، لأن اتساق اللفظ

مع المعنى هو جزء أساسي في محاولة الشاعر استكمال معالم صورته الفنية. ولكن ابن المقرب قد يبالغ - أحيانا - في استخدام ألوان البديع، حين يكتفها في تشكيل صورة ممدوحة، فيجمع في البيت الواحد عددا من ألوانه، كقوله:

نـدس رـدس شكس نكس
شوس مرس وافي الذمم
لهـج بهـج بفواضله
سمح طمح عـالي الهمم
يسر عسر فرح ترح
والخيل تعثر باللمم (١٧٥)

فالصنعة البديعية في هذه الصورة لا تزيد عن كونها صنعة لفظية زخرفية متكلفة، أو قل صورة سمعية متكلفة، لا تؤدي أية وظيفة فنية، ففي البيت الأول يجمع عددا من ألوان البديع، كالتجنيس، والتقطيع الصوتي، والترصيع، والتلاعب بعدة ألفاظ مشتركة في حرف السين، وفي البيت الثاني وتاليه يستغل الطباق إلى جانب التجنيس والتقطيع الصوتي.

ومن المشاهد التقليدية في صورة المعركة وصورة جيش العدو كثير العدد والعدد كقول ابن المقرب في وصف جيوش الصليبيين التي أغارت على «دمياط»، وذهب ممدوحه الأمير الأيوبي الأشرف للقائهم: وقد جاءت الافرنج من كل وجهة

كان تداعبها السيول الدوافق
كتائب ملء البر والبحر من بدت
له قال ذا جنح من الليل غاسق
تسير بسد من حديد لو انه

هو السد لم يخرقه للوعد خارق (١٧٦)
ومن تلك المشاهد التقليدية، صور الأعداء وقد بددهم الممدوح بين قتيل وجريح وفار، كقول ابن المقرب في وصف ما أنجلت عنه معركة «دمياط» بين الأمير الأشرف والغزاة الصليبيين: ومالوا لقذف المال في اليم بالضحي

وبالليل ثارت في الرحال الحرائق
وأزعجهم من ذاق للجرح بعدهم
بأمس وهل يستعذب الموت ذائق
قولوا فمكب على أم رأسه
لذن ذاك لم ينفق وآخر نافق
مستعصم بالبحر منه وعائد
باخلق تنبوا عن صفاه المطارق
ولم يبق يثنى من عنان جواده
أب لابنه والموت للقوم خائق
فسال دم لو سال في الأرض لاستوى
بها ردغ ما عمرت ومزالق
جرى منه فوق البحر بحر فموجه

إلى الآن من بعد الأقاخي شقائق (١٧٧)
ومن تلك الصور التقليدية، صورة ممدوحه الواثق من نفسه لحظة اشتداد المعركة:

تلقاه أثبت ما يكون جنانه
والبيض تختطف الرؤوس وتجتلي (١٧٨)
وقد بدا واضحا حس الشاعر التراثي بعد هذا العرض لصورة

المدح عندده، وسننتقل الآن الى تناول صورة نمطية أخرى وهي صورة الرثاء.

والرثاء - كما نعلم - ضرب من المديح، ولكنه ثناء على الراحلين، ويشكل ابن المقرب صورة الرثاء وفقاً لتقاليد موروثية مرعية، فهو يثني على مرثيه ثناءه على ممدوحه، ويخلع عليه صفات مثالية تواضع الشعراء عليها في هذا الباب، فمن بين صور الرثاء عنده قوله في رثاء ابن عمه مذكور بن عبدالله ابن منصور العيوني:

لقد كان غيظاً للأعداء وبانذا
يلوذ به جان ويأمله عان
فمن بعده من للرماح يعلها
وينهلها من كل أشوس مطعان
ومن لتوالي المرهقين اذا غدت
تعاطى وأبدى الشر صفحة عريان
ومن لجليل الخطب يوماً اذا أتت
هوازن تردى بين بيض وأبدان
ومن لمضيم مضه الضيم والتوى
به ذو ظلمات تعد وعدوان
ومن لأسير غارم قل ماله

وأب من المولى الشقيق بحرمان^(١٧٩)
فقد كان ابن عمه الفقيد نموذجاً
فريداً في الشجاعة والكرم، ونصرة
المظلوم، وفداء الأسرى.. ويستعين
بعدد من الصور الجزئية لتشكيل
صورته، كالصورة التشبيهية «كان
بانذا» والتشخيص «من للرماح يعلها

وينهلها» و«أبدى الشر صفحة
عريان» و«مضه الضيم» ولا حساسه
بجلل المصاب يعمد الى التحسين،
فيكرر كلمة (من) في مطلع الأبيات
كلها عدا الأول منها، وقد يوالي ثلاث
كلمات تشترك في أكثر من حرف واحد
(كمضيم، ومضه، والضيم).

صورة الفقيد الذي يشبه الطود
تتكرر عنده كقوله في رثاء الأمير
العيوني مقدم بن ماجد:

ومقدم لا شك طود بانذخ
يعلو على الهضبات والاكمام^(١٨٠)
كما يستغل في تشكيل صورة
الرثاء صورة القبر الذي اشتمل في
جوفه على عظيم من العظماء كقوله:

ولابد لي من وقفة قبل رحلة
أذيل بها دمعي فينهل وابله
على جدث أضحى به المجد ثاويًا
بحيث يرى شط العذار مقابله
لأسأل ذاك القبر هل غير البلى
محاسن مجد غيبتهما جنادله
وهل همت الموتى باشعاء غارة
يثار بها من كل جو قساطله
فقد نامت الأحياء عن الغزو فاستوى
بكل سبيل أسده وخياطله
فيا عجباً من ملحد ضم فيلقا

وبحراً وطوداً يركب المزن عاقله^(١٨١)
ونلتقي في صورة الرثاء النمطية،
بصورة الفقيد الذي ساءت أحوال
رعيته لفقده، كقوله في رثاء الأمير

العيوني محمد بن أبي الحسين
العيوني:

وكتيبة رعاء يخشاها الردى
أبكي فوارسها على ساداتها
يا سوء حظ بني نزار بعده
وشقاء حاضرها وشؤم بداتها
فمن للمكارم والصوارم والقنا
والمرملات ومن لفق عناتها
رجفت لمهلكه البلاد وزلزلت
وغدا مناخ الذل في حجراتها
ان نبك مصرعه أسي فلقد بكت
جزعاً عليه الجن من ستراتها
ويحق أن يبكي عليه بحرقه
وحش الفلا والطير في وكناتها
كانت به البحرين جنة مأرب
أيام بهجتها وطيب حياتها
حتى إذا ما الترب وارى شخصه
أبدت يد الأيام عن سوأتها
تباً لدنيا كلما وهبت ثنت
فاسترجعت منا نفيس هباتها^(١٨٢)
يشكل الشاعر صورته من عدد من
الصور الجزئية، كالتشبيه «كانت به
البحرين جنة مأرب» ولكنه يعتمد أكثر
على الصورة الاستعارية بهدف
التشخيص في «رجفت لمهلكه البلاد» و
«يبكي عليه بحرقه وحش الفلا
والطير»، و «الترب وارى شخصه» و
«أبدت يد الأيام» و «دنيا كلما وهبت
ثنت» و «استرجعت منا نفيس هباتها»،
وقد أشرنا سابقاً الى أن الصورة

الأخيرة قد أخذها من أبي الطيب.
ويستعين الشاعر بالبديع الصوتي
في تشكيل صورته، فيأتي بكلمات على
وزن واحد زيادة في الإيقاع «المكارم
والصوارم»، ويلجأ الى التلاعب بفعل
«بكى» فيأتي به ماضياً ومضارعاً.
أما الصورة الغزلية فقد وردت -
كثيراً عند الشعراء في مقدمات
قصائدهم، أو في أجزاء من تلك
القصائد. وقد سار شعراء بني
العباس في الغزل على النمط التقليدي
خاصة في المقدمات، لذا فقد آثروا أن
يختاروا لأدائها بعض الألفاظ الوعرة
والتراكيب القوية المتينة. وربما كانت
هذه ملاحظة عامة على شعرائنا
القدامى، إذ كانوا يميلون الى الوعرة
والخشونة عندما ينظمون في موضوع
تقليدي. ويرى الدكتور طه حسين أن
عصر بني العباس «لم تكن فيه
مدرسة غزلية، حيث أن شعراءها لم
ينقطعوا للغزل، ولم يسلكوا فيه سبيل
أصحابنا من الأمويين، وإنما كانوا
كالجاهليين يتخذون الغزل وسيلة
شعرية أو يتعاطونه كما يتعاطون
غيره من الفنون، وإذا كان الشعراء
العباسيون قد استحدثوا في الأدب
العربي شيئاً فهم لم يستحدثوا الغزل،
أكاد أقول انهم انصرفوا الى شيء آخر
هو العبث والمجون^(١٨٣).
لذا فقد تردد شعراء بني العباس

بين صورتين تراثيتين للغزل،
احدهما ظهرت في مقدماتهم الطللية،
وهي الصورة التراثية الجاهلية،
والأخرى صورة تراثية أقرب عهداً
بهم — من تلك الصورة الموغلة في
القدم.

أما الصورة الجاهلية التراثية عند
ابن المقرب فقد عرضنا لها من خلال
حديثنا عن الصورة الطللية عنده،
وطالما نحن بصدد الحديث عنها
فيجدر بنا أن نشير الى ايثاره — أحياناً
— لأدائها ببعض الألفاظ الوعرة
والتراكيب القوية المتينة، ويتخلص في
أحيان أخرى من كل هذا فيغير المنوال
الى آخر أكثر خفة ورشاقة كقوله:

دعوه فخير الرأي أن لا يعنفا
فلو كان يشفي داءه اللوم لاشتفى
ورفقاً به يا عاذليه فانه
شجى وقد قاسى من اللوم ما كفى
فلولا هوى لا يملك العزم عنده
لكان حمى الأنف أن يتعظفا
ولكن من يعشق ولو كان ذا على

فلا بد أن يعنوا وأن يتلطفا (١٨٤)
أما الصورة التراثية الأخرى،
ونعني بها تلك الصورة المادية التي
تفيض فحشا، فهو متأثر فيها
بالصورة الغزلية عند بشار، ومن بين
تلك الصور قوله:

فكم ليلة بتنا ضجيعين في الدجى
وقد غاب واش نلقيه وكاشح

متى رمت ترشافا لها فكانما
لفيها فمى من خمر عانة مأتج
الى أن وشى جرسى الحلى بها وبى
فشتت شملينا صديع وصادح (١٨٥)
يعتمد الشاعر في هذه الأبيات على
الحركة كعنصر هام في تشكيل
صورته، ويستعين بالقليل من الصور
الجزئية كالتشبيه في البيت الثاني،
والصورة الاستعارية «وشى
جرسها» و «شتت شملينا». كما
يستعين بالقليل من ألوان البديع،
فيعمد الى التلاعب بتكرار بعض
الألفاظ المشتركة في حرف «الشين»
كما في البيت الأخير، وحر في «الصاد
والدال» في «صديع وصادح».
ومثل هذه الصورة قوله:

فكم لذة قضيت في حجراتها
مع الغانيات المائسات النواعم
عذاب الثنايا ناهدات خرائد
حسان الشدايا واضحات المعاصم
أجرر لهموا بينهن ذلالي
وأضرب صفحاً عن ركوب المأثم (١٨٦)
يرسم الشاعر من خلال أبياته
صورة للمرأة التي يحبها، فهي عذبة
الأسنان بكر، ذات صدر ناهد، ممثلة
الجسم بادية المعصم، ولكن هذه
الخطوط لا تشكل الصورة العامة
للمرأة في غزله، فهناك الفتاة النحيلة
الخصر، والأشبهه بخيط البان في
ليونتها، ورشاقتها، وتنثيا..

فتاة كخوط البان لكن خصرها
لدقته تحويه حلقة خاتم^(١٨٧)
وهناك الفتاة البيضاء، ساحرة
الطرف، رشيقة القد:

يضيء الدجى من وجهها في خمارها
وتفصح قرن الشمس أيان تسفر
تبطل سحراً سحر هاروت ان رنت
وتخجل غصن البان أيان تخطر^(١٨٨)
كما يستعين على تشكيل صورته
الغزلية بوصف لحاظ فتاته،
فيصورها مرة كالسهم:

رمت بسام اللحظ عن قوس حاجب
أعارض ما بين الحشا والحيازم^(١٨٩)
ويصورها مرة أخرى بحد
السيف:

على دار من تصمى القلوب بأسهم
مواخي الظبي من لحظها حين تنظر^(١٩٠)
ومن بين تلك الصور الحسية التي
لا تخلو من فحش بشار وأضرابه
قوله:

يا طيب الوصل ودار الحي
بحيث الأبطح ذو الحرم
والدهر بعينه سدر
عن شمل الحي الملتئم
نغدو ونروح ومذهبنا
شرب الصهباء على النغم
وأزور الحب علانية
ويزور جنابي عن أمم
وأعلنه ويعلني
من ذي أشر عذب شيم

والمال يمد رواق الستر
على المثيرين من التهم
فترى الرقباء طلائعنا
وشهود العفة والكرم
سقياً لليالي اللهو لقد
كانت وتولت كالحم
يا خضرتها يا ناضرتها
يا حسرتها إذ لم تدم^(١٩١)
يستعين الشاعر في تشكيل صورته
ببعض الصور الجزئية كالتشبيه
التقليدي «ليالي اللهو كالحم»
والصور الاستعارية «والدهر بعينه
سدر» و«المال يمد رواق الستر»، وقد
بدت الصنعة جليلة في تشكيل الصورة،
إذ استغل الشاعر ألواناً من البديع
الصوتي لتشكيل صورته السمعية،
فيكرر أكثر من لفظ في عجز بيت
واحد، «فحشا لحشا» و«فما لفم»،
ويعمد إلى تكرار فعل، فيأتي به ماضياً
ومضارعاً كقوله «أعلله ويعلني»،
ويلجأ إلى التلاعب بألفاظ مشتركة في
حرف الشين مثل «أشر وشيم».

كما يؤدي التقسيم الموسيقي دوراً
ملحوظاً في الصورة كما في البيت
الأخير، والذي جمع فيه أكثر من لون
بديعي واحد، فقد تألق فيه الجنس
أيضاً بالإضافة إلى التقسيم الموسيقي
في «يا خضرتها، يا ناضرتها، يا
حسرتها». كما ينبغي أن ننوه باختيار
الشاعر لبحر المتقارب ذي الإيقاع

السريع، مما أعان الشاعر على تشكيل صورته السمعية، وكان الطباق من بين ألوان البديع التي استغلها الشاعر في تشكيل الصورة في قوله «نغدو ونروح».

فالملاحظ أن صورة المرأة - موضوع الغزل - عند شعراء العصر العباسي أصبحت مغايرة لها عند أسلافهم الجاهليين، وغيرهم من العذريين في صدر الاسلام، وعصر بني أمية، فقد أصبحت الجارية هنا - أمة وساقية وقينة - لها وضعها عند شعراء اللهو، مما ساعدهم - في أغلب الأحيان - على التدني في الغزل حتى وصل بعضهم الى نمط عـار مكشوف^(١٩٢).

وقد رأينا شيئاً من ذلك عند شاعرنا، وخاصة في مدائحه التي نظمها في العراق ابان رحلاته المتكررة اليها.

ولا يخفى - بعد ما عرضناه من صورته الغزلية - الحس التراثي عند شاعرنا، ومدى تأثره بالصورة النمطية التقليدية، وقد وقفت في تناولي لموضوع غزله عند صدق تجربته، وتساءلت عن حقيقة مشاعره، وهل صدر فيما نظم عن تجارب حقيقية، أم نظم ما نظم في هذا الباب انسياقاً، وراء محاكاة أسلافه، وضرباً على أوتارهم؟ وخرجت بنتيجة مفادها أن بعض ما

نظمه في هذا الموضوع قد صدر فيه عن معاناة حقيقية، وأن أكثره جاء محاكاة وتقليداً كما أشرنا الى أن تلك الصورة اليتيمة من الغزل بالذكر لم تكن الا مجارة لذوق العصر، وتقليداً لأسلافه من شعراء بني العباس.

أما الصورة الخمرية فقد كان للأعشى حق الريادة والسبق في رسم الاطار العام لها في الشعر العربي، فأبدع فيها وأجاد حين ألم بما يتعلق بها من أحوال وأوصاف كالشعاع، والطيب، واللون، والقدم، والصفاء، فضلاً عن الكأس، والندماء، والسقاة، والمجالس، والبائعين وغير ذلك فيما يتعلق بها كموضوع لفنه. وكان طبيعياً - بعد ذلك - أن يتأثر شعراء الخمر اللاحقون فيفيدوا من صورته، حتى أن أبا نواس - الذي يعد زعيماً لهذا الفن في عصره - متأثر في صورته بالحس التراثي، أو بالصورة الخمرية الموروثة. ومع أن شعراء الخمرة المحدثين حاولوا التجديد فيها إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص فيها من الموروث.

ولا يميل ابن المقرب الى رسم مثل هذه الصورة، بل لم يحاول ذلك إلا في موضوعين في شعره، افتتح بهما مدحتين من عراقياته، ولم يكن موضوع الخمرة مقصوداً لذاته، فقد جاء كتوطئة للمدح وهو غرض

القصيدتين الأساسيين، في إحدى
الموضعين يقول:
قم فاسقنيها قبل صوت الحمام
كريمة تجمع شمل الكرام
صهباء مما عتقت بابل
مزاجها الأرى وماء الغمام
مما أدير الكأس منها على
كسري ونمرود بن كوش بن حام
لو احتساها ابن الزبير اغتدى
أكرم من كعب وأوس بن لام
تذهب بالياس وتدني المنى
وتنشر اللهو وتطوي الغرام^(١٩٣)
فهى خمرة مصنوعة من العنب،
قديمة معتقة من العصر البابلي، لها
طعم العسل والماء العذب، ويلح على
قدمها ليبالغ في أثرها القوي على نفس
شاربها حتى لتغير من طباع حياته،
وتبعث الأمل في نفس محتسيها،
وتدفع عنه اليأس، وتبعث السعادة في
نفسه، وتنسيه آلام الحب.
وقد استعان على تشكيل صورته
بعدد من الصور الاستعارية في البيت
الأخير، كما بدا تكلفه واضحاً في
التلاعب بلفظي «كريمة، وكرام»،
وتقسيم شطري البيت الأخير إلى
وحدات متساوية في عدد الألفاظ،
ولكنه لم يوفق في تحقيق التوازي
الموسيقي لها، ولا يخفى دور الطباق -
وان بدت صنعتها - في تشكيل الصورة
في قوله «تذهب وتدني» و «تنشر

وتطوي».
وقد اكتفى في الصورة الخمرية
الثانية بوصفها بالجودة وشدة الأثر
إذ يقول فيها:
خليلي قوما فاسقياني رعيما
سلافة خمر مرة الطعم قرقفا^(١٩٤)
ولكنه يخرج من هذه الصورة إلى
رسم صورة للساقى:
بكف نديم لو تراءى بحسه
ليعقوب لم يأسف لفقدان يوسف
ولو أنه للبدر ليلة تمه
تجلى لأبدي غيرة منه واختفى
نظل بعينيه نشاوى وثغره
فما نتحسى الكأس إلا ترشفا
ولعل التقليد - وحده - كان وراء
تحوله إلى رسم هذه الصورة
البغيضة، فقد جرت العادة في خمريات
بعض شعراء بني العباس أن
يستعينوا برسم صورة الساقى في
تشكيل صورهم الخمرية.
وما بين أيدينا من نماذج هذه
الصورة التراثية عنده لا ينبيء عن
خبرة بها ودراسة بمجالسها، وأحوال
محتسيها، ولا يزيد عن كونه
استمراراً وتقليداً لتلك الصورة
الموروثة.
ويلاحظ أن صور شاعرنا - بعامية
- شديدة الارتباط بحسه، ملتصقة
بالمظاهر المادية التي تقع عليها
حواسه، ويصدق ذلك على ما كان منها

تصويراً للأفكار والمشاعر، فهو لا يعبر عن الشجاعة أو الكرم — مثلاً — باعتباره فكرة مجردة معنوية لا ترتبط بمظهر من المظاهر المادية، بل يلجأ الى تصويرها في صورة مادية محسوسة. فقد ربط بين صورته وحواسه فالصورة عنده تثير في مخيلتنا مادة محسوسة لتناولها بالبصر أو السمع، أو الذوق أو اللمس، ومع أن التصوير عماده العقل إلا أن الحواس تبقى شاخصة وراءه فهي سيدة الموقف، ونحن نتابع، الصور بدليل من عمل حواسنا، وبما تثيره من أشياء ندركها بالحس قبل الفكر.

وتمثل صورته كذلك واقع البيئة البدوية من حوله، فقد استمد عناصر صورته المختلفة من طبيعة هذه البيئة ومشاهدها. وهذه الملاحظة تدفعنا للتساؤل عن أثر الحاضرة في تصوره، فقد عاش فيها ربحاً من الزمن وكثر تردده عليها، وتجوّاله فيها، بل أنه أمير ينحدر من الأسرة الحاكمة، عاش حياته متنقلاً بين حواضر البحرين. إذا فلماذا غلب على صورته طابع البداوة؟

من المعلوم لدينا أن شاعرنا قد نشأ وترعرع في الاحساء، وتمكن من أداته الشعرية ولمع نجمه كشاعر ولما يتجاوز - حدود وطنه الاحساء وحين ارتحل الى حواضر بني العباس في العراق، كان مخزونه وافراً من رؤى

البادية. كما أنه قد تتلمذ على دواوين أسلافه ممن تخرجوا في البادية العربية، وكانت حافظته تلبيه وتمده بما أبدعته قرائحهم، فجاء شعره انعكاساً لثقافته الى حد بعيد.

لذا فقد غلب طابع البيئة البدوية على صورته، بالإضافة الى التصاقها بالمظاهر المادية التي تقع عليها حواسه، فإذا ما أراد أن يعبر عن معنى مجرد كالخضوع والاذعان، قفزت الى مخيلته تلك الصورة البدوية للشاة الجرباء المستسلمة لطايلها:

يلوذ معاديهم بهم وهو خاضع

كما تخضع الجرب العجاف لطلال^(١٩٥)

وإذا أراد أن يصور نفور قومه منه، وازورارهم عنه، لجأ الى هذه الصورة البدوية:

رأيت لكلهم عنى ازورارا

جنوح العجل مال عليه عجل^(١٩٦)

فالحسية عند شاعرنا تعد احدى مظاهر تقديره للموروث، واستمراراً لتأثير القدماء في المتأخرين من شعراء بني العباس. ويذهب الدكتور عز الدين اسماعيل الى أن الصورة في الشعر القديم - وكذلك الذوق النقدي والبلاغي - كانت تتسم بالنزعة الحسية، فكل من الشاعر والناقد كان ينزع نزعة حسية في فهم الجمال، وفي تصويره، فكان الجمال عنده فيما ترضى عنه الحواس، كل حاسة وما

يوافقها^(١٩٧) كما يرى أيضاً أن الصورة القديمة تتصف — الى جانب الحسية — بالحرفية والشكلية والجمود.. ومن بين الصور التي تتصف بالحرفية عند ابن المقرب قوله:

ونؤي كجذم الحوض غير رسمه
وجيف الحصى بالموجفات الحواشك^(١٩٨)
أما الصور التي تتصف بالشكلية عند شاعرنا فكثيرة، ومنها قوله:
كان العجاجة عارض وكانما
به المشرفيات المواضي عقائق^(١٩٩)
وقوله:

تقول ودمع العين منها كأنه
جمان هوى من سلكه متوابل^(٢٠٠)
وطالما نحن بصدد الحديث عن قيم التصوير التقليدية عند شاعرنا، فيجدد بنا ألا نغفل الوقوف ازاء الصورة التشبيهية، والصورة الاستعارية، باعتبارهما صورتين بلاغيتين جزئيتين، استعان بهما في تشكيل صورته الفنية، محاولين أن نضع أيدينا على الملامح التقليدية التراثية فيهما.

يقول ابن طباطبا «ان التشبيهات على ضروب مختلفة، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة، ومنها تشبيهه به معنى، ومنها تشبيهه به حركة، وبطناً وسرعة، ومنها تشبيهه به لونا، ومنها تشبيهه به صوتاً،

وربما امتزجت هذه المعاني بعضها ببعض، فإذا اتفق في الشيء المشبه بالشيء معنيان أو ثلاثة معان من هذه الأوصاف قوى التشبيه، وتأكد الصدق فيه، وحسن الشعور به للشواهد الكثيرة المؤيدة له^(٢٠١)، كقول ابن المقرب:

من بأسه تذهب الفرسان شاردة
شروذ سرب القطا من أجدل قطم^(٢٠٢)
فالمشبه في هذا البيت أشبه المشبه به صورة، ومعنى، وسرعة.
ومن ذلك قوله:

فصمت رجال عن دعائي وأحجمت
كمثل بغاث الطير عاين أجدلا^(٢٠٣)
كما يتحول التشبيه — أحياناً — عنده الى وسيلة من وسائل الاقناع كقوله:

فإن ساءني القوم الكرام وضيعوا
حقوقى وهدى المجد فيهم وكاهله
فقبلي أخو شن بن أفصى^(٢٠٤) أضاعه
بنو عمه دون الورى وفضائله^(٢٠٥)
وتفقد أمثال هذه التشبيهات كل ما يمكن أن تتيحه للقارئ من ثراء عاطفي وتعدد في الأدلة، وتنمية للتجربة التي تقدمها القصيدة، وتصبح ثانوية القيمة ازاء الفكرة التي هي الأساس، والصورة مجرد وسيلة ثانوية، والاقناع له وسائل متنوعة، فقد يلجأ الشاعر الى الشرح والتوضيح أو التحسين والتقبيح أو

الاستدلال والتمثيل وضرب المثل،
وفي جميع هذه الحالات لا يكون
للصورة أية وظيفة تعبيرية (٢٠٦) كقول
ابن المقرب مخاطباً نفسه:

فأنت الفتى حزماً وعزماً ولم تضق
بمثلك في كل النواحي مذهبه
فما يقطع الصمصام إلا إذا انتحى
عن الغمد لو كانت حداً مضاربته
وما دام ليث الغاب في الغاب كامناً
فإن حراماً أن تدمى مخالبه
كذا البدر لولا سيره وانتقاله

عن النقص لاستعلت عليه كواكبه (٢٠٧)
كما لا يفوتنا أن نشير إلى التشبيه
المكرر الذي يلجأ إليه في تفصيل شيء
واحد في بيت واحد، أو عدد قليل من
الأبيات، كقوله مادحاً الأمير محمد بن
أبي الحسين العيوني.

برد وظل للصديق وجنة
وعلى أعادييه حميم أن (٢٠٨)
ومن ذلك قوله في مدح الأمير ذاته :

هو البحر لكن مده غير جازر
هو البدر إلا أنه الدهر كامل
هو الشمس في جو السماء ونورها
على كل من فوق البسيطة شامل
هو المزن إلا أنه فوق سابع
وفي كل أرض منه سح ووابل
هو الليث إلا أن عرينه القنا

وصيداته الصيد الملوك العياهل (٢٠٩)
ويلاحظ أن الأبيات ذات التشبيه
المكرر تكون متشابهة المطالع عنده،

كما تجدر الإشارة إلى اعجاب النقاد
القدامى بهذا الضرب من الصورة
التشبيهية، إذ يرون أن اللاحاح على
علاقة التشبيه بالتفصيل، يؤدي إلى
الاعجاب الشديد بحشد التشبيهات
وتكرارها داخل البيت الواحد أو
الأبيات، ذلك أن الحشد يؤدي إلى
استقصاء عناصر المشابهة، كما أن
التكرار يؤدي إلى اقتناص كل
المشابهات الممكنة عقلاً. (٢١٠)

أما حظ ابن المقرب من الصور
الجاهزة فوافر، وهي التي يأخذها
الشاعر ممن قبله جاهزة لم يبدع فيها
شيئاً، ويكثر في هذه الصورة
الاستعانة بالتشبيهات الجاهزة
المعروفة لدى الأقدمين كتشبيهه
المدوح بالبحر، والبدر والشمس،
والليث.. أو تشبيهه الشاعر نفسه
بالسيف، والجواد.. إلخ، ومن بين تلك
الصور التشبيهية الجاهزة قوله :

فحياء صبح للهدى وبدته
بحار غزار للندى لا ضاحض (٢١١)
وقوله :

وإذا تشاجرت الخصوم فانني
سيف على الخصم الألد مجرد (٢١٢)
أما الصورة البلاغية الجزئية
الأخرى عند شاعرنا، فهي «الصورة
الاستعارية» ومن المعلوم أن
الاستعارة «مركب صعب، وضرب من

البيان عسر، وبها يكشف الشاعر عن مدى قوة خياله^(٢١٣)، ويرى أرسطو «أنها أعظم الأساليب في الشعر، وانها آية الموهبة التي لا يمكن تعلمها من الآخرين»^(٢١٤) فهي أمعن في الخيال من التشبيه، لأن الاستعارة «علاقة لا منطقية، وعبت بالحدود، وخلط بين الفكر والاحساس خلطاً نافعا يؤدي ما تقصر عنه الحواجز، وبهذا تستحيل إلى تشابه بين غير المتشابهات»^(٢١٥)

وإذا كان النقاد المعاصرون يميلون إلى تفضيل الاستعارة الأصلية على التشبيه من حيث القيمة الفنية «فهم - أيضاً - متفقون على مكانة الاستعارة الفطرية من الشعر، فكل ما عدا الاستعارة من خواص الشعر يتغير، من مثل مادة الشعر، وألفاظه، ولغته، ووزنه، واتجاهاته الفكرية، ولكن الاستعارة تظل مبدأً جوهرياً وبرهاناً جلياً على نبوغ الشاعر، فان كانت استعارات الشاعر قوية أصيلة حكم الناقد بأنه أشعر»^(٢١٦)

وللاستعارة عند ابن المقرب مكان الصدارة بين سائر صوره الجزئية، وله فيها باع طويل، ومرد هذا إلى عقليته الناضجة، وصلته القوية بالحاضرة. واستعاراته - في معظمها - قريبة واضحة، تجرى على الطريقة

العربية، وتتفق مع الذوق العربي، ولا تكلف متذوقيها شططا وكدا للذهن، ولكنه يلجأ - في أحيان قليلة - إلى الخروج على تلك المنطقية - التي اشترطها النقاد القدامى، والتزم بها شعراؤنا الأول - بين طرفي الصورة، وقد مهد أبو تمام السبيل إلى تجاوز تلك الحدود المصطنعة، والعبت بها، واهدارها، ولكنهم استنكروا عليه ذلك، وعدوه مخالفا لعمود الشعر العربي، وقدموا عليه من هو دونه من شعراء عصره. ومثل هذه الاستعارات قول شاعرنا :

غداة تداعى الحي بالبين بعدما
جلا الصبح اعجاز النجوم الدوالك^(٢١٧)
فقد شخص النجوم على غير
المألوف، ومثل هذا الخروج على
المألوف قوله :

وما رمتني بكر من نوائبه
الا صككت بصبري هامة الجزع^(٢١٨)
فقد جسم الصبر، وشخص الجزع
متجاوزا بذلك حدود الواقع إلى حد
بعيد ومثل هذا قوله :
واصفح ببعلك رأس الدهر واسط على
أحداثه سطو ضرغام على حمر^(٢١٩)
وقوله :

له هيبة ملء الصدور فلورنا
إلى الموت مزورا لمات من الذعر^(٢٢٠)
ويبدو من هذه الاستعارات انها
نابعة من حسية ابن المقرب، وان هذه

الاستعارات ومثيالاتها لهي دليل شاعرية وقدرة على التخيل والابتكار «لأن أهم ما يميز الشاعر البارِع عن غيره هو تلك القدرة الذهنية التي تجعله ينظر إلى أبعد مما ينظر سواه، ويكشف علاقات لم يلتفت إليها معاصروه، أو أسلافه، إن الشاعر إنسان متخيل، والتخيل قدرة ذهنية إذا عملت في رعاية عقل مفرط الذكاء، دائم الوعي والجهد، انتهت صاحبها إلى ما لم ينته إليه سواه» (٢٢١).

وهكذا فقد نالت الاستعارة حقها من إعجاب النقاد العرب القدماء وكذلك نقاد الغرب المحدثين. كصورة فنية تظل برهانا جليلا على نبوغ الشاعر.

لقد ظلت أشباح الصورة التقليدية الموروثة تلاحق ابن المقرب في أغلب موضوعاته الشعرية، وامتد تقديره للتراث من مفردات اللغة إلى تشبيهاتها واستعاراتها، حتى انتهى فيه إلى رسم الصورة العامة. بل قد يمتد تقدير الشاعر للتراث بشكل طبيعي من «مفردات اللغة وقواعدها إلى تراكيبيها وأمثالها، إلى تشبيهاتها واستعاراتها حتى تنتهي إلى فن الشعر بكل ما يشتمل عليه من أوزان وموضوعات وأخيلة ومعان» (٢٢٢). لذا وجدنا أن بعض الموضوعات القديمة ما زالت

سائدة في شعر العصر العباسي بسبب التقليد والمحاكاة في الغالب واتجه الشاعر إلى معالجة تلك الموضوعات على طرق المتقدمين، فللظل صورته النمطية، وللناقة والرحيل عليها صورها المتشابهة، وكذا في وصف الرحيل وما ينشأ عنه من مثلهم العليا كالكرم والشجاعة والنجدة والوفاء وغيرها من مكارم يصور الشعراء أضدادها في الهجاء. ويعد معظم شعراء بني العباس — من حيث مذاهبهم في النظم، والأغراض الشعرية — امتداداً لأسلافهم من شعراء الجاهلية «لأن نهوض الأدب العربي لم يكن نوعاً من النسيان للماضي، أو التنكر له، أو الغض من شأنه، فالأمر واضح، حيث ظل الشعراء يصطنعون لغة الأطلال، ويبكون الديار، ويذكرون منازل الأحبة بعد انقضاء العصر الجاهلي، وظلت المادة التي يصنع منها الشعراء خيالهم متشابهة أو كالمتشابهة، فالشمس والنجوم والجمال والوديان وأنماط الشجر والنبات والظباء والأبقار والناقة والفرس والبحر والسفن، كل أولئك وغيره كثير، ظل مادة تفكير أدباء العربية عصوراً طوالاً، فقد أرسى شعراء العصر الجاهلي دعائم هذه المادة الفكرية

والجمالية».(٢٢٣)

ويضعنا هذا الامتداد والتقدير للموروث أمام الازدواجية الثقافية التي عانى معظمهم منها في تشكيل صورهم أو بعضها، وابن المقرب واحد ممن عانوا ذلك الصراع بين حياتهم وما يتصل بها من معان وتجارب حقيقية، وبين محاولاته لابرار فحولته من خلال الاسراف في التقليد بكل أنواعه، حتى تلاقت فيه مدارس مختلفة سابقة عليه، ومعاصرة له، وقد لاحظنا كيف استعبده التراث، وخاصة عند تكرار التشبيهات أو الاستعارات الجاهزة، وفي هذا الخضوع استنزاف - ولا شك - للمكانة المبدعة.

وقد لاحظنا أن الصورة التشبيهية تغلب عليها الحسية، وهي ذات طابع بدوي، كما أشرنا إلى الصورة التشبيهية المكررة التي يلجأ إليها في تفصيل صفات شيء واحد في بيت واحد، أو عدد قليل من الأبيات، وأنه يكثر من الصور الجاهزة، والاستعانة بالتشبيهات المعروفة الشائعة لدى الأقدمين وأنه يميل كثيراً إلى المبالغة في رسم صورة ممدوحه، أما مجازة لذوق عصره، أو ارضاء لممدوحه مستعيناً بتلك التراكيب الشائعة والصور الجاهزة.

كما لاحظنا كيف استغل ابن المقرب ألوان البديع في تشكيل صورته وكان البديع من الوسائل الفنية الجديدة التي تفنن شعراء بني العباس في تحلية المعاني بها أو عرضها عرضاً جميلاً. ولا ينكر ما يكمن في البديع من طاقات تصويرية تجعله قادراً على مد الشعراء بصورهم الناعمة مما يمنح شعرهم رونقاً وجمالاً.

ويجعل النقد الحديث الصنعة البديعية في الصورة الشعرية مكملًا لالطار الفني العام الذي يهدف الشعراء من ورائه إلى نقل التجربة إلى المتلقين، وإن كنا نجد ناقداً يرى أن التجنيس، والمطابقة، ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي «ما هي إلا محسنات لفظية، أو طريقة من طرق التفكير الذي يغلب عليه العقم، أنها ليست أشياء من جوهر الشعر، ولا هي حتمية فيه».(٢٢٤) ولعله يعنى - ولا شك - ألوان البديع المتكلفة لذاتها، لأنه يقول في موضع آخر من مؤلفه: «والبديع شيء قديم اهتمت إليه الشعراء بقريحتهم، وبحكم طبيعة الشعر ذاته، وذلك لأن الشعر - إلى حد كبير - صياغة، وفي طرق هذه الصياغة تتركز عادة أصالة الشاعر إذ يفضلها يقيم علاقات بين الأشياء، وكلما ازدادت

كمية تلك العلاقات ودقتها وجدتها
وقوة أبحاثها ازداد شعره
جودة». (٢٢٥)

وقد أجاد ابن المقرب — في أحيان
كثيرة — ادخال البديع ضمن نسيج
صوره الشعرية، فأضفى عليها من
الزينة والزخرف الشيء الكثير، وحقق
لشعره زينة محكمة ليست عبثاً ولا
تلاعباً، ولعله في هذا يتفق وروح
العصر الذي صار فيه الأدب صناعة،
«فان الاهتمام بالبديع أصبح من
مميزات الشعر المتأخر كله، ومعروف
ان هذا البديع يصطنع صورته
وطرائقه اصطناعاً، فأول بحثه له قد
حسب منها خمسة فقط، ثم تجاوز
العدد المئة فيما بعد». (٢٢٦)

وقد خان التوفيق شاعرنا — في
أحيان قليلة — فتجاوز حدود الاعتدال
في استخدام ألوان البديع، فطغت
الزينة على بقية عناصر صنعته.
«فالفن الحقيقي للشاعر يكمن في
صنعه الشعرية في شقيها المعنوي
واللفظي، ويحسن به ألا يترك للألفاظ
عنان الزخرف والتنسيق، فتطغى على
بقية عناصر صنعه الفنية، ولكن
حاجته إلى هذه الزركشة تعد أمراً
ضرورياً إذا ما نجح في استخدامها
عنصراً مساعداً يساعده على خلق
الصورة الشعرية أو يزيد من تأثيرها

في المتلقى». (٢٢٧)

فالبديع مكمل لشكل القصيدة،
والشكل لا ينفصل عن المضمون،
ولكن موطن الخطورة على الصورة
الفنية حين يتحول الشاعر إلى صانع
يصنع أشكالا من الزينة كان قد
درسها في كتب البديع ليحلى بها ما
يشاء من دمي الأغراض الفنية التي
يسعى إلى تصويرها. (٢٢٨)

ومن المؤسف ألا يدرك المتأخرون
من شعرائنا موطن الخطر «فغلبت»
الصنعة على الشعر. وأخذت هذه
الصنعة تزداد إلى أن أصبح الشعر في
أواخر العصر العباسي زخرفة
مقينة». (٢٢٩)

قيم الموسيقى التقليدية :

لم يقف تقدير شاعرنا للموروث
عند محاكاة أسلافه في تعبيرهم
وتصويرهم، بل تجاوز ذلك إلى
موسيقاهم الظاهرة المتمثلة في أوزانهم
وقوافيهم. ويدفعنا الحديث عن أوزانه
إلى التساؤل، هل كان الشاعر القديم
يتخير لشعره من الأوزان ما يتلاءم
وعاطفته؟ وهل اختلفت تلك الأوزان
تبعاً لاختلاف الشعور عند الناظرين
من القدماء؟ وهل اتخذ القدماء لكل
موضوع من الموضوعات وزناً خاصاً
أو بحراً خاصاً؟

لقد شغلت هذه التساؤلات عددا من الباحثين المعاصرين، وأفردوا لها كتباً متخصصة، ولكننا لم نقف منهم على اجابة محددة، نظراً لاختلافهم في النتائج التي توصلوا إليها، ففي الربط بين عاطفة الشاعر ووزنه يرى الدكتور إبراهيم أنيس أنه «قد يكون من العسير أن نجيب عن مثل هذا التساؤل اجابة مقنعة»^(٢٢٠) ويقول في الربط بين موضوع الشعر ووزنه : «ان استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرا بمثل هذا التخير أو الربط، فهم كانوا يمدحون ويفاخرون أو يتغزلون في كل بحور الشعر التي شاعت عندهم»^(٢٢١) ولكنه يعود فيقرر مطمئناً^(٢٢٢)، أن الأوزان الطويلة تستدعيها حالات نفسية معينة، تختلف عن الحالات النفسية التي تتطلب أوزاناً قصيرة، كما تتفاوت أوزان بعض الموضوعات طويلاً وقصراً.

فصاحب المرشد جد معنى ببيان التناسب بين أوزان الشعر ومعانيه.^(٢٢٣) في حين يرى الدكتور عز الدين اسماعيل أن «الربط يكون بين الحالة النفسية والايقاع، وليس بين

هذه الحالة والوزن. وعندئذ نجد الرثاء في البحر القصير، ونجد الغزل في البحر الطويل»^(٢٢٤) ثم يضرب مثلاً بديوان الخنساء، وهو في الرثاء كله، ولكن الخنساء لم تلتزم واحداً أو نوعاً واحداً من البحور الطويلة. فهي كما نظمت في الطويل، والبسيط، والمديد، والكمال نظمت كذلك في البحور القصيرة المجزوءة.. ثم يعقب قائلاً : «وذائع مستفيض أن الشاعر حين يريد أن يقول شعراً لا يحدد لنفسه بحراً بعينه، وانما هو يتحرك مع أفاعيل نفسه، فيخرج الشعر في الوزن الذي يصدق له من الأوزان، ومعنى هذا كله أن الوزن المجرد لا يعطى لونا بعينه من الموسيقى»^(٢٢٥)

إذن فالصلة بين العاطفة والوزن، أو بين الوزن والموضوع هي من قبيل الملاحظات الجزئية، وليست قاعدة عامة. فما يصدق منها على شاعر قد لا ينطبق على شاعر آخر.

(يتبع)

الهوامش

- ١ (د. يوسف خليف : ذو الرمة شاعر الحب والصحراء : ٣٩٠.
- ٢ (راجع : الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ١٥-١٦ : تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي الجاوي، الحلبي: القاهرة (بدون تاريخ)، وأنظر: العمدة ١/ ١٩٦-١٩٧ : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: المكتبة التجارية: القاهرة ١٩٥٥.
- ٣ (ابن طباطبا : عيار الشعر : ٨-٩ : تحقيق طه الحاجري، ومحمد زغلول سلام: المكتبة التجارية: القاهرة ١٩٥٦.
- ٤ (قراءة جديدة لشعرنا العربي: ٢٣.
- ٥ (د. جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ١١٠ : دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة : الطبعة الأولى : ١٩٧٤م.
- ٦ (ابن أبي الأصبع : تحرير التحرير : ٤٧٥ : تحقيق حفني شرف : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية : القاهرة ١٣٨٣ هـ
- ٧ (عيار الشعر : ١٠.
- ٨ (أنظر : قراءة جديدة لشعرنا القديم : ٢٣.
- ٩ (الديوان : ٤٧ وجاء في صدر هذه القصيدة أنه قالها عام ٩٩ هـ، وهي أصل شعره (أنظر : نسخة المتحف العراقي: تسلسل ٨٩٨٩) وهذا يعني أنه بدأ نظم الشعر وله من العمر سبعة وعشرون عاما. ولكنني أميل الى القول بأن هذه القصيدة أول شعره الذي اطمئن الى سلامته وجودته، أما شعره اللاحق فيبدو أنه قد حجب، كما فعل أكثر شعرائنا، ولا سيما أن هناك ما يشير الى نخله الشعر مبكرا قبل أوان الحلم. ولم تزد سنه على عشر.
- (أنظر : مقدمة الديوان : ٥).
- ١٠ (الديوان : ٢٧-٢٨، بنيك أصلها في الديوان (بنوك).
- ١١ (المصدر نفسه : ١١٩.
- ١٢ (المصدر نفسه : ٦١.
- ١٣ (ديوانه : ٣٠٥.
- ١٤ (المصدر نفسه : ١٢١.
- ١٥ (ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ٣٧٣.
- ١٦ (محمد جابر الانصاري : مجلة الدوحة : مقالة بعنوان «ابن المقرب العيوني» متنبىء الخليج : قطر ديسمبر ١٩٧٧م.
- ١٧ (الديوان : ٦٦.
- ١٨ (الديوان : ١٩.
- ١٩ (ديوان المتنبي : ٥٥.
- ٢٠ (ديوان المتنبي : ١٥.

- ٢١ (الديوان : ٤٨ .
- ٢٢ (ديوان المتنبي : ح ٩١ / ٤ : بعناية عبدالرحمن البرقوقي : دار الكتاب العربي
بيروت ١٩٣٨ م (نسخة مصورة).
- ٢٣ (ديوان المتنبي : ١٠٢ .
- ٢٤ (الديوان : ٢٤٥ .
- ٢٥ (ديوان المتنبي : ٢٥٣ .
- ٢٦ (الديوان : ٢٩٩ .
- ٢٧ (الملحق : ١٤ .
- ٢٨ (ديوان المتنبي : ٢٥٣ .
- ٢٩ (الديوان : ١١٠ .
- ٣٠ (ديوان المتنبي : ٢٠٥ .
- ٣١ (الديوان : ٢٠٢ .
- ٣٢ (ديوان المتنبي : ٣٧٨ / ٤ (البرقوقي).
- ٣٣ (ديوان المتنبي : ٧٢ .
- ٣٤ (الديوان : ٣٨١ .
- ٣٥ (ديوان المتنبي : ٢٠٣ .
- ٣٦ (الديوان : ٧٠ .
- ٣٧ (المصدر نفسه : ٥١٣ .
- ٣٨ (ديوان المتنبي : ٢٩٩ / ٢ (البرقوقي) .
- ٣٩ (د. طه حسين : مع المتنبي : ٨٠ : دار المعارف بمصر ١٩٤٩ .
- ٤٠ (الديوان : ٥٨٢-٥٨٣ .
- ٤١ (أنظر : مع المتنبي : ٥١ .
- ٤٢ (العمدة : ج ٢ / ٥٤ .
- ٤٣ (المصدر نفسه ج ٢ / ٥٣ .
- ٤٤ (نفس المصدر ص ٢ / ٥٥ .
- * أنظر : البديع في نقد الشعر : لأسامة بن منقذ : ١٠٤ : تحقيق د. أحمد بدوي وآخرين، مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٦٠ م.
- ٤٥ (أنظر : ابن حجة الحموي : خزانة الأدب : ٢٢٧ : ط ١ المطبعة الخيرية بمصر ١٣٤ هـ ، وأنظر عبدالعزيز عتيق : علم البديع : ٧٦ : دار النهضة العربية بيروت ١٩٧١ م.
- ٤٦ (الديوان : ٧٨ .
- ٤٧ (أنظر : خزانة الأدب : ٢٢٧ وعلم البديع : ٨٧ .
- ٤٨ (الديوان : ١٩٦٣ .
- ٤٩ (المصدر نفسه : ٢٧١ .
- ٥٠ (أنظر : خزانة الأدب : ٢٢٩ : وعلم البديع : ٨٧ .

- ٥١ (أنظر : علم البديع : ٩٩ .
 أنظر : العمدة : ج ٢ / ٦٠ .
 ٥٢ (الديوان : ٢٠٢ - ٢٠٣ .
 ٥٣ (المصدر نفسه : ٤٢٥ .
 ٥٤ (الديوان : ١٧٩ .
 ٥٥ (المصدر نفسه : ٢٩٩ .
 ٥٦ (المصدر نفسه : ٢٧١ .
 ٥٧ (المصدر نفسه : ٩٦ .
 ٥٨ (مع المتنبي : ٧٦ .
 ٥٩ (ديوان المتنبي : ٥٥ .
 ٦٠ (ديوان البحري : بعناية عبدالرحمن البرقوقي : ص ٢ : مطبعة هندية بالموسكي بمصر ١٩١١ م .
 ٦١ (الملحق : ٢٤ .
 ٦٢ (الديوان : ٤١٠ .
 ٦٣ (ديوان المتنبي : ٢٥٣ .
 ٦٤ (الديوان : ٣٤١ .
 ٦٥ (د. النعمان القاضي : كافوريات أبي الطيب دراسة نصية : ٣١٧ : مركز كتب الشرق الأوسط بالقاهرة ١٩٧٥ م .
 ٦٦ (ديوان المتنبي : ٥٥ .
 ٦٧ (الديوان : ٢٣٠ .
 ٦٨ (الديوان : ١٠٠ - ١٠١ .
 ٦٩ (الديوان : ١٦٨ .
 ٧٠ (مختار الشعر الجاهلي : ١ / ٢٣٤ .
 ٧١ (الديوان : ٣٣٨ .
 ٧٢ (مختار الشعر الجاهلي : ٢٣٤ .
 ٧٣ (الديوان : ٢٢٦ .
 ٧٤ (مختار الشعر الجاهلي : ٢٣٤ .
 ٧٥ (الديوان : ٤٣٧ .
 ٧٦ (العمدة : ٢ / ١٧٨ .
 ٧٧ (الديوان : ٣٩٠ .
 ٧٨ (مختار الشعر الجاهلي : ٣٢٠ .
 ٧٩ (الديوان : ٢٧٣ .
 ٨٠ (شرح ديوان عنتره : بعناية يوسف البستاني ص ١٥٦ - المطبعة الرحمانية (د.ت) .
 ٨١ (الديوان : ٢٣٢ .

- ٨٢ (جمهرة أشعار العرب: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: ص ٨١، مطبعة بولاق بالقاهرة ١٣٠٨هـ.
- ٨٣ (الديوان: ٨٦.
- ٨٤ (الأغاني (الهيئة المصرية العامة للكتاب: ١٩٧٣): ج ٢٢ / ٣٥٧.
- ٨٥ (الديوان: ٢٣٤.
- ٨٦ (جمهرة أشعار العرب: ٢٢٨.
- ٨٧ (الديوان: ٤٨.
- ٨٨ (أبو علي الحسن المرزوقي الأصفهاني: شرح ديوان الحماسة: تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون: ج ١ / ص ٤٨: لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م.
- ٨٩ (الديوان: ٤٧٦.
- ٩٠ (شرح ديوان الحماسة: ج ١ / ص ٧٣.
- ٩١ (الديوان: ٢٦٧.
- ٩٢ (طبقات فحول الشعراء: ١ / ١٠١.
- ٩٣ (سورة الرحمن: ٢٦.
- ٩٤ (سورة آل عمران: ١٨٥.
- ٩٥ (سورة الرعد: ٣٨.
- ٩٦ (الديوان: ٩٧.
- ٩٧ (العمدة: ١ / ٥٠.
- ٩٨ (الديوان ٢٤٩ وانظر: بيت الحطيئة في التمثيل والمحاضرة للثعالبي: تحقيق د. عبدالفتاح الحلو: ٦٣: دار احياء الكتب العربية بالقاهرة.
- ٩٩ (الديوان: ٣٢٤.
- ١٠٠ (ديوان بشار بن برد: بعناية محمد الطاهر عاشور: ج ١ ص ٣١٧: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٠.
- ١٠١ (ديوان أبي نواس: بعناية محمد واصف: ٦٤: المطبعة العمومية بمصر: ط ١٨٩٨م.
- ١٠٢ (الديوان: ٦٢٢.
- ١٠٣ (نفسه: ٩٨.
- ١٠٤ (الديوان ٥٥.
- ١٠٥ (ديوان أبي نواس: ٩٩.
- ١٠٦ (ديوان بشار بن برد: ج ١ / ٣١٨.
- ١٠٧ (الديوان: ٤٩.
- ١٠٨ (المصدر نفسه: ٧٢.
- ١٠٩ (المصدر نفسه: ٨٧.
- ١١٠ (المصدر نفسه: ١٨٦.

- (١١١) ديوان أبي فراس الحمداني: بعناية سامي الدهان: ج ١ / ص ٣٢: بيروت ١٩٤٤م.
- (١١٢) الديوان: ١٤٣.
- (١١٣) نفسه: ١٧٦.
- (١١٤) نفسه: ١٨٤.
- (١١٥) شرح قصيدة ابن عبدون: محي الدين صبري الكردي: ص ٣٠٢: مطبعة السعادة: ط ١ بالقاهرة: ١٣٤٠هـ.
- (١١٦) الديوان ٦٠٩.
- (١١٧) نفسه: ٨٩.
- (١١٨) الديوان: ٦٩٤، وانظر: مجمع الأمثال (للميداني: ١ / ٦٠: المطبعة الخيرية: ١٣١٠هـ.
- (١١٩) الديوان: ٥٩٨، وهي بن بي، وهيان بن بيان يضرب مثلاً لمن لا يعرف أصله ولا فصله (اللسان: بي).
- (١٢٠) الملحق: كانه علم في رأسه نار، يضرب مثلاً للشهرة، وهو عجز بيت للخنساء في رثاء أخيها صخر (انظر: البيت في العمدة لابن رشيق ج ٢ / ٥٨).
- (١٢١) د. مصطفى ناصف: الصورة الأدبية: ٢٤١: مكتبة مصر بالقاهرة: ط ١ ١٩٥٨م.
- (١٢٢) ديوان الحماسة لأبي تمام: ٢١.
- (١٢٣) الديوان: ٢٦٧.
- (١٢٤) الديوان: ٢٦٧ - ٢٦٨.
- (١٢٥) ديوان أبي تمام: بعناية شاهين عطية اللبناني: المطبعة الأدبية بيروت، ١٨٨٩، ص ١٥.
- (١٢٦) المصدر نفسه: ٧٤.
- (١٢٧) القصيدة ذاتها: ٧٨.
- (١٢٨) ديوان أبي تمام: ص ١٦.
- (١٢٩) ابن المقرب حياته وشعره: ١٤٩.
- (١٣٠) حديث الأربعاء: ج ٢ / ٨.
- (١٣١) د. شوقي ضيف: في النقد الأدبي: ١٧٧: دار المعارف بمصر ١٩٦٦.
- (١٣٢) د. محمد مصطفى هدار: مشكلة السرقات الادبية في النقد العربي: ٢٨٠: الانجلو المصرية بالقاهرة ١٩٥٨.
- (١٣٣) العمدة: ج ٢ / ٢٨١.
- (١٣٤) د. أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي: ٢٦٠ - ٢٦١: مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٧٣م.
- (١٣٥) انظر: عبدالله التطاوي: الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد: ٧٦: رسالة

- ماجستير مخطوطة بآداب القاهرة ٩١٧٦م.
- (١٣٦) الديوان: ٦١٨، وماوان: قرية في أودية العلاء من أرض اليمامة.
(معجم البلدان: ٣٦٩/٧).
- (١٣٧) الديوان: ٦١٨.
- (١٣٨) د. شفيع السيد: التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية ص ١٥٨: مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٧م.
- (١٣٩) الديوان: ٦١٩.
- (١٤٠) الديوان: ٣٠٥.
- (١٤١) الديوان: ٣٠٥ والقصيدة ذاتها.
- (١٤٢) المصدر السابق: ٣٠٦.
- (١٤٣) الديوان: ١٢٠.
- (١٤٤) المصدر نفسه: ٣٠٥.
- (١٤٥) الديوان: ٦٠١.
- (١٤٦) المصدر نفسه: ٦١٨.
- (١٤٧) د. ايليا حاوي: فن الوصف: ٢١: دار الكتاب اللبناني بيروت: ط٢: ١٩٦٧م.
- (١٤٨) حنا فاخوري: تاريخ الادب العربي: ٣٦٨: المطبعة البوليسية بيروت ط٢: ١٩٥٣م.
- (١٤٩) الديوان: ١٠٨ - ١٠٩.
- (١٥٠) أنظر الديوان: ١٩، ٢٦، ٨٤، ١٢٠، ١٦٠، ٢٨٣، ٤٠٦.
- (١٥١) المصدر نفسه: ١٠٠.
- (١٥٢) وأرت السحابة: أي دام مطرها، والرباب: واحدته ربابه: وهو السحاب.
- (١٥٣) الديوان: ٤٩٤ - ٤٩٥.
- (١٥٤) الديوان: ٥١٩.
- (١٥٥) الديوان: ٤٤٧.
- (١٥٦) القلوص: الناقة النجيبة السريعة، وابل عباهل، لا راعي لها ولا حافظ، وقيل ترد متى شاءت، والعباهلة الأقيال، وفي الصحاح ملوك اليمن.
(تاج العروس ٨/٤) والحنايا: مفردها الحنية وهي القوس (اللسان: مادة حنا).
- (١٥٧) الديوان: ٣٩٥-٣٩٨، والرئل: فرخ النعام، والبخت: هي الابل الخراسانية.
- (١٥٨) الديوان: ٩٨-٩٩، والتهباء: الأرض التي لا يهتدي فيها، والتهباء: المضلة الواسعة التي لا أعلام فيها ولا جبال ولا أكام. (اللسان: تيه).
- (١٥٩) المصدر نفسه: ٥٧٥، ويقولون: صمى صمام، أي زيدي يا داهية.
- (١٦٠) الديوان: ٣٤٩.

- (١٦١) المصدر نفسه : ٣٩١ .
- (١٦٢) المصدر نفسه : ٤٤٩ .
- (١٦٣) المصدر نفسه : ٤١٥ .
- (١٦٤) المصدر نفسه : ٢٨٦ .
- (١٦٥) الديوان : ٤٠٨ .
- (١٦٦) الملحق : ١٥ .
- (١٦٧) الديوان : ٥٧٤ .
- (١٦٨) الموضع نفسه ، والقصيدة ذاتها .
- (١٦٩) المصدر نفسه : ١٨٧ .
- (١٧٠) ديوان زهير بن أبي سلمى : ٤٩ : مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤ .
- (١٧١) الديوان : ٢٢٠ - ٢٢١ ، وكتيبة دوسر : كتيبة كانت للنعمان بن المنذر .
- (١٧٢) المصدر نفسه : ٣٤١ .
- (١٧٣) المصدر نفسه : ٤١٥ ، ومتبجح العائلي : أي مكان فرحه .
- (١٧٤) الديوان : ٤٤٤ - ٤٤٥ .
- (١٧٥) الديوان : ٥٨٢ ، وندس ندسا : كان فهما كيسا ، وردس القوم يردسهم
ردسا : أي رماهم بحجر (تاج العروس ٤ / ١٦٠) .
- والشكس : الضعف الخلق ، وماكسه الرجل مماكسه : شاكسه (تاج
العروس ٤ / ٢٤٩) والشرس : الشديد الخلاف ، الجريء في القتال ، ومرس
مرسا ، كان شديدا في معالجة الأمور ، والمراس : الشدة والقوة .
- (١٧٦) الديوان : ٣٠٠ .
- (١٧٧) المصدر نفسه والقصيدة ذاتها .
- (١٧٨) الديوان : ٤١٦ .
- (١٧٩) المصدر نفسه : ٥٩٧ .
- (١٨٠) الديوان : ٤٩٩ .
- (١٨١) المصدر نفسه : ٣٣١ : والخياطل : مفردها خيطل وهو السنور ، وقيل المهر ،
والكلب (اللسان : خطل) .
- (١٨٢) المصدر نفسه : ١١٠ .
- (١٨٣) حديث الأربعاء : ٢ / ١٢٨ .
- (١٨٤) الديوان : ٢٨٣ .
- (١٨٥) الملحق : ١١ .
- (١٨٦) الملحق : ٢١ .
- (١٨٧) المصدر نفسه : ٢٠ .
- (١٨٨) المصدر نفسه : ١٤ .
- (١٨٩) المصدر نفسه : ٢٠ .
- (١٩٠) المصدر نفسه : ١٤ .

- (١٩١) الديوان: ٥٨١، وفم ذو أثر: في أسنانه تحزين يكون خلقة ومستعملاً، (اللسان: أثر) وفم شيم: بارد البريق. والأبطح: بفتح الطاء، كل مسيل فيه دقاق الحصا فهو أبطح، وقيل الرمل المنبسط على وجه الأرض، والأبطح: موضع يضاف الى مكة والى منى وربما كان الى منى أقرب. (معجم البلدان: ٨٥ / ١).
- (١٩٢) أنظر: الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد: ١١٧.
- (١٩٣) الديوان: ٥٧١.
- (١٩٤) الديوان: ٢٨٣ - ٢٨٤.
- (١٩٥) الديوان: ٣٧٧.
- (١٩٦) المصدر نفسه: ٣٩٤.
- (١٩٧) أنظر: د. عز الدين اسماعيل: الأدب وفنونه: ١١٦: دار الفكر العربي: طه ١٩٧٣ م.
- (١٩٨) الديوان: ٣٠٥.
- (١٩٩) المصدر نفسه: ٢٩٩.
- (٢٠٠) المصدر نفسه: ٣٥٤.
- (٢٠١) عيار الشعر: ١٧.
- (٢٠٢) الديوان: ٥٥٧، والأجدل: الصقر (اللسان: جدل).
- (٢٠٣) المصدر نفسه: ٣٦٦.
- (٢٠٤) قال لبعض بني عمه: احفروا لي حفرة وادفنوني فيها، واذهبوا عني بعيداً فإذا رأيتم الوحوش قد اجتمعت على تلك الحفرة فاتركوها حتى تذهب فإذا ذهبت فاكشفوا عني، فلما حفروا له، لم يحفروا عنه حتى مات، فقليل هذا بيت ضيعه أهله وقومه وأصحابه (نقلاً عن ديوان ابن المقرب ص وشن بن أقصي: هو بن عبد القيس بن أقصي بن دهمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار (الجمهرة: ٢٩٩).
- (٢٠٥) المصدر نفسه: ٣٢٨.
- (٢٠٦) نعيم اليافي: مقدمة في دراسة الصورة الفنية: ١٣٤ رسالة دكتوراه، مخطوطة بآداب القاهرة.
- (٢٠٧) الديوان: ٥٤.
- (٢٠٨) المصدر نفسه: ٦٢٢.
- (٢٠٩) الديوان: ٣٥٣.
- (٢١٠) انظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء: تحقيق أحمد محمد شاكر: ١ / ١٣٩ - ١٤٠ دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٧ م.
- وانظر: قدامة بن جعفر: نقد الشعر: تحقيق س. أ. يونياكر ص ٥٩ مطبعة بريل، لندن ١٩٥٦ م.
- (٢١١) الديوان: ١٢٧.

- (٢١٢) المصدر نفسه : ١٦٢.
- (٢١٣) د. صلاح الدين الهادي : الشماخ حياته وشعره ٢٧٤ — ٢٧٥ دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ م.
- (٢١٤) انظر : أرسطو طاليس : فن الشعر : ١٢٨ : ترجمة شكري عياد، دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ م.
- (٢١٥) د. مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني : ٣٠٢، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٩ م.
- (٢١٦) د. مصطفى ناصف : الصورة الأدبية : ١٢٤ : مكتبة مصر بالقاهرة ١٩٥٨ م.
- (٢١٧) الديوان : ٣٠٦.
- (٢١٨) المصدر نفسه : ٢٧٤.
- (٢١٩) المصدر نفسه : ٢٣١.
- (٢٢٠) المصدر نفسه : ٢٠٢.
- (٢٢١) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ٢٢٦.
- (٢٢٢) د. عبدالعزيز الأهواني : ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر : ص ٢٧ : الانجلو المصرية ١٩٦٢ م.
- (٢٢٣) د. مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم : ٤٢٠ : الجامعة الليبية - كلية الآداب (بدون تاريخ).
- (٢٢٤) د. محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب : ٥٠، دار نهضة مصر ١٩٦٩ م.
- (٢٢٥) المرجع ذاته : ٤٨.
- (٢٢٦) كراتشكوفسكي : دراسات في تاريخ الأدب العربي : ٢٠ — ٢١ : موسكو ١٩٦٥ م.
- (٢٢٧) الصورة الفنية في شعر مسلم بن الوليد : ٣٦.
- (٢٢٨) المرجع ذاته : ٣٨.
- (٢٢٩) تاريخ الأدب العربي - لحنا فاخوري : ٣٦٩.
- (٢٣٠) د. إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر : ١٧٦ : مكتبة الانجلو المصرية : القاهرة ١٩٧٢ م.
- (٢٣١) المرجع نفسه : ١٧٧ وانظر د. شوقي ضيف : في النقد الأدبي : ص ١٥٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م.
- (٢٣٢) انظر موسيقى الشعر : ١٧٧.
- (٢٣٣) انظر د. عبدالله الطيب : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : دار الفكر بالقاهرة ١٩٧٠ م.
- (٢٣٤) أنظر د. عز الدين اسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي : دار الفكر العربي : القاهرة ١٩٧٤ م. (ص ٢٧٧، ٢٧٨).
- (٢٣٥) انظر : نفس المرجع والموضع.

ابن المقرب

بقلم: الدكتور احمد موسى الخطيب

في هذه الحلقة من الدراسة الكبيرة والهامة عن الشاعر علي بن المقرب العيوني يتحدث المؤلف الدكتور أحمد موسى الخطيب عن قيم التجديد عند الشاعر العظيم ويتناول في حديثه التجربة الشعرية ووحدة القصيدة ، وفي هذا الجزء الأخير يتناول المقطوعات والقصائد ثم وحدة القصيدة .

[الوثيقة]

العيونى



المؤلف: ١٣٣

AL WATHEEKAH -123

التجربة الشعرية



الشاعر ، ولم يقف عنده وقفة واسعة يتأمل ويفكر ، بل زحمت الموضوعات بعضها بعضاً ، أو قل صدم بعضها بعضاً ، فلم تتقدم ، بل وقفت وانقطعت دون التمام والكمال" (١) .

فليست التجربة الشعرية إذن كل قصيدة جمعت أبياتها في إطار موسيقي، بل هي قصيدة من طراز خاص (٢) موضوعها محدد ، ومعالمها واضحة متميزة في نفس الشاعر ، وكل جزء يقود إلى أخيه ، ويرى (ستيفن سبندر) " أن التجربة الشعرية إفشاء بذات الشاعر، بالحقيقة كما هي في خواطر الشاعر وتفكيره ، في إخلاص يشبه إخلاص الصوفي لعقيدته ، ويتطلب هذا تركيز قواه وانتباهه في تجربته" (٣) إذن فالتجربة الشعرية " حدث نفسي وعقلي مارسه شاعر لأول مرة ، ولم

يرى النقاد المعاصرون أن القصيدة ينبغي " أن تكون ذات مضمون واضح لاتعدوه ، فإن هي اشتملت على مضامين وموضوعات متعددة لم تكن تجربة كاملة ، فقد عاقت التجربة تجارب أخرى ، وعاق الموضوع الواحد موضوعات تجاوره وتزاحمه ، شأن الموضوعات والتجارب المتعددة التي يزحم بعضها بعضاً في حياتنا اليومية، فهي تجربة لم تترك لها ولجزئياتها حريتها ، وهي وما يزعمها تجارب ناقصة ، لم تأخذ الزمن الكامل للتخلق والتشكل ، ومن خير ما يصور ذلك القصيدة العربية القديمة التي كانت تتألف من موضوعات متباينة مثل الغزل، ووصف الطبيعة ، والمديح، والحكم، فإن موضوعاً واحداً من هذه الموضوعات لم يستوعبه

يسقط من ذاكرته ولا ذاكرة الناس من حوله ومن بعده" (٤) ، ولعل هذا ما عناه دعبل بن علي الخزاعي بقوله :
يموتُ رديُّ الشعرِ من قَبْلِ أهْلِهِ
وجيِّده يبقى وإن مات قائله (٥)

ولكن نقادنا القدامى في فهمهم لتألف المعاني في الشعر ، لا يلقون بالآ إلى وحدة العمل الأدبي بوصفه كلاً يتطلب أجزاء خاصة (٦) ، " وحين تناولوا إنتاج الشعراء القدامى بالدراسة ، لم يلتفتوا إلى هذه الظاهرة بل أقرّوهم عليها ، ومضوا في منهجهم على أساس النظر إلى المفردات والصور الجزئية ، دون اعتداد بما بينها من توافق أو تعارض" (٧) ، وقد يكون مرجع ذلك إلى أن أسلافنا غرقوا في أحاسيس ومشاعر وأفكار جزئية ، وكأنما ألهامهم هذا الفتات عن الاستغراق في الأحداث التي ألموا بها استغراقاً من شأنه أن يحيلها إلى تجارب كبيرة يعيشون فيها أمداً طويلاً ، وقد يكون مرجعه أيضاً إلى أن أفراد جمهورهم لم يحسوا الوجود الإنساني والكوني إحساساً تفتح فيه بصائرهم على الأسرار الكامنة في نفوسهم والتي لا يحيط بها حد أو وصف ، فعاشت كثرتهم في ظروف

حياتهم اليومية ، ولم تصنع سوى تحويلها إلى شعر منظوم ، شعر لا نحس فيه التجربة العميقة ، وما يتغلغل فيها من الحقائق المطلقة (٨) .

ومن هنا نجمت حيرة الدارس المعاصر لتجارب أسلافنا الأول ، فنحن لانكاد نجد لديهم - إلا نادراً - تجارب تستوفي ما اشترطه وأجمع عليه نقادنا المعاصرون ، وأصبح عرض ما أفرزته قرائحهم الملهمة على معاييرنا العصرية أمراً لا يخلو من الإجحاف ، ومما لاشك فيه أن ما وصل إلينا من شعرهم - على الرغم من تجاور تجاربهم وتزاحمها فيه - يحوي قدراً كبيراً من عواملهم النفسية والفكرية وإلا لما خلد هذا الكم الهائل من شعرهم ، ولما أمكننا من سبر ذوات أولئك الشعراء ، وتحديد معالم شخصياتهم من خلال أدبهم ، فالشاعر المجيد حقاً "شعره مرآة نفسه وعواطفه" (٩) .

وحين نقرأ شعر شاعر كابن المقرب ، ونواجه أغراضه البعيدة ، نخلص إلى أن تجربته الشعرية يغلب عليها الصدق ، وينبع صدقه من أن شعره مرآة نفسه وفكره . وإذا كنا معنيين في هذا الفصل بالتعرف على ملامح الأصالة في شعره ، فأهم جديد

في شعره هو ذلك الإيقاع الشخصي الذي وقع به أكثر شعره ، وقد تمثل في إصراره على تأكيد ذاته في جل هذا الشعر وذلك بما كان يصبغه به من صبغة شخصية ، فقد كان شعره ينطلق من الأحداث ، فيفعل بها ، ويحفل بها في حدود تجربته الخاصة ، واتصاله بالواقع الفعلي .

كان ابن المقرب ينظم الشعر استجابة لما يعايشه ويعانيه ، وما يعتمل في نفسه من أملٍ وألم ، جاعلاً هذا النظم متجاوباً فنياً مع التقاليد العربية الأصيلة . وقد تتخذ صلة الشاعر بأسلافه دليلاً على نبوغه ، فالحس التزائي ضروري لاستمرار كيان الشاعر^(١٠) . "لأن الشعر كما يقول ت. س. إليوت لا يعرف ما يسمى بالأصالة الكاملة التي لا تدين للماضي بشيء"^(١١) .

عاش ابن المقرب في زمن غلب فيه على صناعة الشعر اهتمام الشاعر بمدح أو ممدوحه أكثر من اهتمامه بعواطفه هو ، وصدقه فيها ، وأغفل النقاد القدامى الحالة النفسية للشاعر ، واهتموا بالحالة النفسية للسامع ، ولذلك عرفوا البلاغة بأنها مطابقة لمقتضى الحال ، ويعنون به (حالة الغير) ولا يدخلون حال الشاعر

في اعتبارهم ، وإن كنا لا ننكر على شاعرنا اتجاهه - كسائر شعراء عصره - إلى الممدوح الذي يحلم بعيش آمن رغيد في ظله ، أو بعتاء وافر يدفع عنه وعائلته غائلة الفاقة والعوز ، وربما تنامت أحلامه فطمع في منصب أو إمارة ، لكنه لم يكن ينسى نفسه ليزوب في ممدوحه ، فقد حافظ على شخصيته في أكثر مدائحه ، واقتصر بنفسه وشعره . ومن أمثلة ذلك مدحته للخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) التي شغل في مستهلها بالحديث عن نفسه ، وطال حديثه عنها قرابة ثلاثين بيتاً ، ومنها قوله:

على أنني الندب الذي يُكْتَفَى به
إذا غَالَهَا خَطْبٌ من الدَّهْرِ مُبْهِمٌ
وعِنْدِي لِشَانِيهَا سِيُوفٌ ثَلَاثَةٌ
لِسَانٍ ورأي لا يُفْلُ ومِخْدَمٌ^(١٢)

ومنها قوله :

وَمِنَعْنِي كَيْدَ الْعَدُوِّ احْتِقَارُهُ
وَكَيْدَ الْمَدَاجِي عِفْتِي وَالتَّكْرُمُ
وَأَصْفَحْ عَنْ جُهَالِ قَوْمِي حِمِيَّةً
وإنْ أَسْرَجُوا فِي هَدْمِ عِزِّي وَأَجْمَعُوا
ويختتم هذه المقدمة بقوله :

لَعَمْرِي لقد طال انتظاري ولا أرى
سِوَى نارٍ شَرَّ كلِّ يَوْمٍ تَضَرَّمُ

تقولين عقي الصبر حلو مذاقه
وما هي إلا مُرَّة الطعم علقم
أصبرُ إما شاكيا متعباً
إلى شامت أو باكياً أظلم
سأرحلها إما لداعي مَيَّة
وإما لعز حوضه لا يهدم
ففي شاطيء الزوراء من آل هاشم
إمام هدى يُؤوى إليه فيعصم
ولم يكن هذا المنهج محبباً لدى
الممدوحين ، بل كان عاملاً من عوامل
تأخر شاعر المديح بين أقرانه ممن لم
يكونوا يؤخرون المديح ، وكان دأبهم
الإيجاز في مقدماتهم والإسراع في
التخلص إلى المدح ، متجنبين الحديث
عن أنفسهم والفخر بها بين يدي
ممدوحيه . ولكن ابن المقرب كان
معنيا بذاته مشغولاً بما يعتلج في نفسه
فزاحت نفسه الكبيرة شخوص ممدوحيه
في مدائحه . ويبدو أنه كان يرى ذاته -
في بعض ممدوحيه - على نحو من
الأنحاء ، كالأمير محمد بن أبي الحسين
العيوني وابنه الفضل ، فجاء مدحه لهما
تحقيقاً لذاته وتجسيداً عميقاً لوجوده
الشخصي . فإذا ما مدحهما أثار فينا
إحساس الإعجاب بهما ، فمن قصيدة
له في مدح الأمير محمد بن أبي الحسين
العيوني يقول :

فيا خاطبَ العلياء لا تحسبها
حديث العذارى أنشأته المغازل
تنحَّ ودعها هكذا غير صاغر
لملك همام ما اشتتت فهو باذل
أغرَّ عيوني كأن جبينه
صفيحة سيف أخلصته الصياقل
نمائه إلى العلياء فضل وعبدل
وأحمد والقرم الهزبر الحلاحل^(١٣)
فهذا الأمير الذي لا يزاحم في طلب
العلياء ، ينحدر وشاعرنا من أصلاب
أولئك السادة العظام من العيونيين ،
الذين يلتقون جميعاً في سلسلة أبوتهم
عند العبدلي (عبد الله بن علي) ، فكأن
الشاعر يفخر بذاته حين يمدح أميره
هذا ، فهو يجسد - في نظره - الصفات
المثالية التي كان ينشدها ، أو قل كان
يراه في شخصه هو ، فيقول :
سِمَامُ الْعِدَا جَمُّ النَّدَى دَافِعُ الْعِدَى
بَعِيدُ الْمَدَى يعلو به مَنْ يُطَاوِلُ
ثم يقول في القصيدة ذاتها :
حميدُ السجايا ما تروح عِدَاتُهُ
مُسَالمةٌ هاماتُهُم والمناصِلُ
يُحَكِّمُ في أعدائه حدَّ سيفِهِ
إذا خُطِمَتْ في الدارعين العوامِلُ
إذا ما رآه ناظرٌ خال أنه
شهابٌ على جانٍ من الأفقِ نازلُ

يروم ذوي الأغراض إدراك شأوه
 وأين من البحر الخضم الجداول
 وإذا ما وصف شاعرنا وقائع أميره
 محمد بن أبي الحسين وابنه الفضل ، أثار
 فينا الإحساس بالرهبة، وتعظم إعجابنا
 بمدوحه ونحن نراه يشق الصفوف ،
 ويقنطر الأبطال ، ويدد الجموع ، غير
 مبال بأسباب الموت وقد أحذقت به ،
 ومن بين صور البطولة عنده ، قوله في
 مدح الأمير محمد بن أبي الحسين
 العيوني:

يا سائلي عنه رؤيتك هل ترى
 يخفى الصباح على ذوى الأذهان
 سائل به يجزئك كل مقلص
 نهدي وكل مثقف ويماني
 لما أت أهل القطيف بجحفل
 متوقد كوقد النيران
 في آل حجاج وآل شبانة
 مثل الأسود بحافتي خفان
 نزلوا على صفواء صبحاً وابتسوا
 فيها القباب وأيقنوا بأمان
 وتسربلوا حلق الحديد وأقبلوا
 بالخيول والرايات كالعقبان
 فغدت فوارسهم لما قد عاينت
 هرباً ولم تعطف على النسوان
 فرمى الأمير جموعهم فتمزقت
 كالشاة إذ جفلت من السرحان

وتحكمت فيهم حدود سيوفه
 ضرباً فويق معاقد التيجان
 وحوى ظعائنهم وأحرز مالهم
 غصبا وأنزلهم بشر مكان
 أحى نفوساً من رجال قد رأت
 آجالها بالسيف رأي عيان^(١٤)
 وكما أسلفنا القول فشعر ابن
 المقرب ينطلق من الأحداث ، وينفعل
 بها ، وإذا كانت صورة المكارم
 والأعمال الحربية للممدوح من الصور
 التقليدية في تراثنا الشعري ، فإن ابن
 المقرب يلقي عليها - هنا - ظلاً من
 نفسه ، وإعجاباً بأميره . فهو يسجل
 حدثاً حقيقياً عايشه وانفعل به ، فقد
 رأى خيوط التآمر تحاك ، وتلتف من
 حول دولته ، وأميره ، وأخذ الطامعون
 يتطلعون إلى سيادة الأحساء بالقوة ،
 ورأى أحلامهم وآمالهم تتحطم تباعاً
 على صخرة الصمود المتمثلة في شخص
 ممدوحه ، فانبرى مصوراً هذه المواقف
 البطولية لقومه بزعامة ذلك الأمير .

ومدح ابن المقرب لأمرأ أسرته بعامة ،
 وآل الفضل منهم بخاصة ، مدح ذاتي ،
 كان بدافع من قبلته وعصبية ، فقد
 كان مدح واحد منهم فرصة مواتية ،
 ومجالاً رجباً للفرح بالقبيلة ، بل
 وبأصولها البعيدة والضاربة في أعماق

التاريخ . ومن بين تلك المواقف قوله في استهلال مدحته للأمير محمد بن أبي الحسين :

وإني لَمَنْ قَوْمِ أَبَاقٍ أَعَزَّةٍ
مَصَالِيَتٍ مَاخَمُوا قَدِيمًا وَلَا خَانُوا
لِي النَّسَبُ الْوَضَّاحُ قَدْ عَلِمَتْ بِهِ
مُعَدُّ إِذَا عُدَّ الْفَخَارُ وَعَدْنَانُ^(١٥)
ثم يقول :

فَقَوْمِي الْأَوَّلَى أَجْلَوْا قُضَاعَةَ^(١٦) غَنَوَةَ
وَدَانَتْ لَهُمْ كَلْبٌ وَنَهْدٌ وَخَوْلَانُ^(١٧)
وَهُمْ فَلَقُوا هَامَ التَّبَاعِ إِذْ طَفَتْ
يَقَرُّ بِهِ وَادِي خَزَازَى وَسَلَانُ^(١٨)
غُلَامَةٌ تَوَلَّتْ حِمِيرٌ فِي جُمُوعِهَا
وَذَاقَ الرَّدَى فِي مَلَقَى الْخَيْلِ صِهْيَانُ^(١٩)
ويعضي الشاعر علي هذا النحو ستة عشر بيتاً ، معدداً مفآخر "قومه الأولي" مراعيأً التسلسل الزمني لتلك المفآخر والأحداث ، حتى يصل إلى أطرفها حين استأصل العيونيون شأفة الوجود القرمطي في البحرين :

فَعَنْ هَجَرَ ذَادُوا الْقَرَامِطَ غَنَوَةَ
وَقَدْ شَرَكْتَ فِيهَا عَتِيكَ وَخُدَّانِ
وَسَارُوا إِلَى أَرْضِ الْقَطِيفِ فَلَمْ يَكُنْ
لِيَمْنَعَهَا مِنْهُمْ خُصُوفٌ وَخِطَانُ
وَلَمْ تَمْتَنِعْ مِنْهُمْ أَوَالٍ بِمَرْبَدِ
مَنْ الْيَمِّ تَرْجِيهِ شَمَالٌ وَمَرْخَانُ^(٢٠)

وإذا ما انتقل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله أثار فينا عاطفة الإكبار والتقدير لمكانته الدينية ، وأرومته الطاهرة :

إِلَيْكَ سَمِيَّ الْمِصْطَفَى وَابْنَ عَمِّهِ
تَخَطَّتْ بِي الْبَيْدَاءُ وَجَنَاءُ عَيْنِهِمْ^(٢١)
كما كان يمثل - في نظره - أمل الأمة الإسلامية ، ومركز ثقلها :

فَمَا الْحَقُّ إِلَّا دَعْوَةُ هَاشِمِيَّةٍ
هِيَ الْحَقُّ لَا دَعْوَى غَوِيٍّ وَغَاشِمٍ
بِهَا أَصْبَحَ الْإِسْلَامُ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ
بِنُوءٍ بَرَكْنَ مِنْهُ عَقْدُ الدَّعَائِمِ^(٢٢)
وسائر ممدوحيه - في نظره على الأقل - شخصيات جديرة بالاحترام والتقدير والإعجاب ، ما بين وال قد أخلص النية والجهد لإمارته ، كشمس الدين باتكين والي البصرة ، وبدر الدين لؤلؤ والي الموصل : أو عالم فاضل مشهود له بالتقدم كأبي البقاء العكبري ، أو وجيه مرموق كالنقباء العلويين .. وكانت تربطه بالعديد من ممدوحيه علاقات تجاوز الصلات المحدودة والضيقة بين أكثر شعراء المدح وممدوحيههم .

ولكن يستوقفنا في مدائحه ظاهرة تكرار معان بعينها لعدد من الممدوحين وكأنها أنماط جاهزة يفرغها متى شاء ، ولمن يشاء ، مما يجعل مثل هذه المعاني

ثم مدح بهذا المعنى أمير البصرة
باتكين ، فقال :

فيا أيها الساعي ليدرك مجده

أفنى إن هذا السعي منك ضلال (٢٨)

ومدح بعد ذلك الأمير الموصلي
كمال الدين بن أبي الكرم محمد بن
علي بن مهاجر ، فقال :

فيا أيها الساعي ليدرك شأوه

رويداً ولا يغفرك سعي مضلل (٢٩)

فالآيات تحمل المعنى ذاته ، بالفاظ
تكاد تكون متشابهة ، بالإضافة إلى
اتفاقها في الوزن . ومن معاني المدح
المتكررة عنده قوله في مدح الأمير
العيوني محمد بن أبي الحسين :

ولو أن للعضب المهند عزمه

لفرى الجماجم وهو في الأجفان (٣٠)

ومدح بالمعنى ذاته الأمير العيوني -
أمير الأحساء - علي بن ماجد بن محمد
العيوني ، فقال :

ولو أن للعضب اليماني جوهراً

كعزمته لم ينب عن قلل الصخر (٣١)

ثم مدح بهذا المعنى الأمير العيوني
بن الفضل بن أحمد بن عبد الله بن علي
حين ملك الأحساء ، فقال :

ولو أن للعضب المهند عزمه

لأراك كالشمام صخر شمام (٣٢)

باهتة عديمة الأثر في نفس متلقيها ،
لكثرة دورانها في شعره وذلك لأن
هؤلاء الممدوحين لا يحظون في نفسه
بموقع مؤثر ولا مكانة حميمة . ومنها
على سبيل المثال لا الحصر قوله في مدح
أمير الأحساء علي بن ماجد محمد
العيوني :

سما للعلا طفلاً وبرز يافعاً

وسمي ولما يثغر أوحده العصر (٢٣)

ثم مدح القاضي محمد بن إبراهيم
المستوري بقوله :

فتى لم يزل مذ كان قبل احتلامه

يدافع عنكم جاهداً ويصانع (٢٤)

ومدح الأمير العيوني أبا علي محمد
بن أحمد بن محمد بن الفضل :

سما للعلا طفلاً وحال أثغاره

سقى من نحور الدارعين العواملا (٢٥)

ثم مدح الأمير العيوني الحسين بن
مسعود بن أحمد بن أبي سنان بقوله :

ندّ الورى طفلاً وبرز يافعاً

وبنى العلا وعذاره لم ييقل (٢٦)

ومن المعاني التي تكررت عنده قوله
في مدح أمير الأحساء علي بن ماجد بن
محمد العيوني :

فيا أيها الساعي ليدرك مجده

رويدك فانظر من على آثاره تجري (٢٧)

ومدح بالمعني ذاته النقيب العلوي تاج
الدين إسماعيل ، فقال :

لو أن المهند وانيات عزمته

في الروع لم تطق الأغمد تحويها^(٣٣)

فالشاعر في هذه النماذج التي
أوردناها وقع ضحية القوالب الجاهزة ،
فخلت أبياته من نبض الحس الصادق .
ولكن ظاهرة تكرار معانٍ بعينها في
مدائح لم تقف عند هذا الحد بل
تجاوزته إلى تكرار ما يقرب من أربعة
عشر بيتاً في قصيدتين لمُدوحيْن مختلفين
قدراً وخطراً . أحدهما الخليفة العباسي
الناصر لدين الله ، وثانيهما أمير الموصل
بدر الدين لؤلؤ ، وقد سبق^(٣٤) أن
وقفنا عند تلك الأبيات في دراساتنا
لمدحيه ، ولكن ما يهمنا منها الآن مدى
دالاتها على صدق تجربته . وتكرار هذه
الأبيات مع تغيير طفيف للغاية في
ألفاظها ، وفي ترتيبها ، يعد نوعاً من
الزيف والإفلاس عند شاعرنا ، نظراً
لانعدام التجربة الشعرية وخصوصيتها .
وربما كان لهذا الزيف والإفلاس صلة
بمبالغاته التي رافقته طوال مسيرته الفنية ،
ويبدو أنه أثر من آثار علاقته الهامشية
ببعض مدوحيه .

لو أحصينا شعر ابن المقرب لوجدنا
أن معظمه ذاتي ، وأن فخره بنفسه

وشكواه يمثلان نسبة عالية من شعره ،
مما يدل على إحباطه . لذا فهو محبط لا
يصدق إلا في الذاتيات القريبة من نفسه
كالفخر والشكوى .

فإذا افتخر ابن المقرب بدت نواجذه
من ثنايا قريضه ، وأثار فينا عاطفة
الإعجاب به ، وبثقته بنفسه وبصموده
إزاء صرف دهره العنيد . وهذا اللون
من شعره يعد مرآة صادقة لنفسه
وعقله ، يعكس لنا شموسه ، وإبائه ،
وعلو همته ، وسعيه الدائب للوصول
إلى آماله الكبار . وقد كان الفخر
غرضاً رئيسياً لست عشرة قصيدة في
ديوانه ، واستقل هذا الموضوع - تماماً -
ببعض تلك القصائد ، ولم تجاوره فيها
موضوعات أخرى ، وحملت إلينا تلك
القصائد ألواناً من الصراع النفسي التي
تعمل في نفس شاعرنا إزاء الأحداث
التي تحيط به ، وتضغط عليه . ولكن
تلك القصائد لا تزيد عن كونها
مجموعة من المعاني تدور حول موضوع
معين ، يربطها خيط نفسي واحد ،
والشاعر فيها لا يسير في خط صاعد
نحو القمة إلا نادراً ، وإنما هو يمضي في
خط مستقيم ومستو ، أشبه ما يكون
بصحرائه الفسيحة ، فإن شئت قدمت
بيتاً على سابقه أو تأليه ، وإن شئت

حذفته دون خلل أو اضطراب في بنية القصيدة . ومع ذلك فقد حملت إلينا تلك القصائد قدراً لا يستهان به من عوالمه النفسية والعقلية ، وحسبنا عينيته التي عارض فيها سلفه قطري بن الفجاءة ، والتي افتتحها بقوله :

ردى مر الحتوف ولا تراعي

فما خوف المنية من طباعي

وقد بلغت أبياتها ثلاثة وخمسين بيتاً ، جاءت كلها في دفعات شعورية متلاحقة صادقة ، مضى فيها صاعداً لتكتمل له في النهاية تجربة شعرية تعد أصدق تجاربه ، وتمثل تنوعاً بارزاً في ديوانه ، استهلها بحث نفسه على اقتحام مواطن الموت غير هيابة ولا وجلّة فيقول :

وعزماً صادقاً فلکم مضيق

بصدق العزم صار إلى اتساع

ومن هاب المنية أدركته

ومات أذل من فقع بقاع

فالموت قدر محتوم ، لامناص منه ، والحذر من أسبابه لا يدرؤه عن المرء ، بل على عكس ذلك " اطلب الموت توهب لك الحياة " ، ومن هذا المفهوم مضى الشاعر هادراً (٣٥) :

ذريني والملوك بكل أرض

أكيلها الردى صاعاً بصاع

فما أيمانهم تعلو عيني

ولا أبواعهم تعدو ذراعي

تخوفني ابنة العبدى حتفي

واقحامى المهالك وافتراعي

وتعذلي على إنفاق مالي

وتزعم أنه للفقر داعي

فقلت لها وقد أربت وزادت

رويدك لا شقيت فلن تطاعي

أما والأريحية إن سمعي

لما تهذي العواذل غير واع

أحفل بالفراق وكل شعب

تصيره المنون إلى انصداع

وأرهب أن أموت وكل حي

سينعاه إلى الأقوام ناع

وأخشى الفقر والدنيا متاع

وربي بالكرام أبر راع

دعيني أركب الأهوال إنى

رأيت ركوبها فيه أتداعى

" فما للمرء خير في حياة

إذا ما عد من سقط المتاع " (٣٦)

وإذا كانت روح " قطري " تطل

علينا من بين أبياته ، وتطالعنا في ظلال

ألفاظه ، حتى لنجده يضمن بيتاً له لكنه

وفق في أن يطبع هذه القصيدة بطوابعه

فاستطاع أن يستعير إطار قطري

الشكلي ليضمنه تجربته الخاصة .

" فالثقافة الواسعة بالموروث القديم

تفيد من ناحية في إرساء بعض
المكونات الثقافية المتصلة بالتجارب
الخلاقة للشعراء السابقين ، وهي
تجارب ينبغي أن تذوب في اللاشعور
مكونة مع إدراكات الشاعر مادة
جديدة لتجاربه الشعرية التي يعبر بها
عن إحساسه المتفرد بذاته وبعصره في
نفس الوقت^(٣٧) .

ويعضى ابن المقرب في قصيدته مباعداً
بينه وروح سلفه ، أو قل متخلصاً من
سيطرته التي بدت في أبياته السابقة ،
فنحس في الأبيات التالية أنه يعبر بها
تعبيراً متحرراً وخالصاً عن نفسه ، وما
يدور فيها من صراع ، إزاء الأحداث
من حوله :

إذا راع الوداع قلوب قوم
فلي قلب يحن إلى الوداع
وإن ينزع إلى الأوطان غمر
فإني إلى النوى أبداً نزاعي
يراع لفرقة الأوطان نكس
ضعيف العزم أخلي من يراع
وكم من فرقة طالت فكانت
بعيد اليأس داعية اجتماع
تقارعي الحوادث عن مرادي
وأرجو أن يذللها قراعي
وإني والعلا فرسا رهان
كما أنا والندى أخوا رضاء

ولست إذا الهموم تأويتني
ملاقيها بآراء شعاع
ولكني سألقاها بعزم
وباع في المكارم أي باع
سئمت تقلي فوق الحشايا
ونومي بالهواجر واضطجاعي
إذا يوما نبت بي دار قومي
فما تنبو المطي عن انتجاعني
سأطلب حق آبائي وحقني
ولو من بين أنياب الأفاعي^(٣٨)

ولعلنا لاحظنا كيف مضى الشاعر
معبراً عن إحساسه وخلجات نفسه ،
وكيف نما الخط البياني لتجربته حتى
استحال البيت الأخير إلى ما يشبه
الصرخة المدوية ، بدأ عندها الشاعر في
حالة شديدة من التوتر الانفعالي ،
وأصبح غير قادر على كبح مشاعره
المتفجرة ، فأنفلت لسانه مفصحاً عن
مكبوتات لاشعوره فكشف عن طويته
في تطلعه إلى الإمارة التي يراها (حقاً
له) ، ومن هذا الموقف المتوتر توالى
صرخات الشاعر فقال :

وإن الموت في طلب ارتفاع
لدي ولا حياتي في اتضاع
وثوب الليث في إذا تبدت
فريسته وإطراق الشجاع

يحادعني عن العليا رجال
 وأين بنو النواعل من خداعي ؟
 أبقى قابعاً ولدي فضل
 يسوم الناس كلهم اتباعي ؟
 يطاولني بقومي كل عبد
 تنقل من لكاع في لكاع
 أهم بهجوهم فأرى ضلالاً
 هجائي دون رهط ابن الرقاع^(٣٩)
 يجذبنا إيقاع الشاعر القوي للمضي
 معه في تجربته ، وقد استغرقنا إحساس
 بالإعجاب به ، وبروحه المتحفزة ،
 ونفسه القلقة المثوبة .. ثم ينطلق
 الشاعر من هذا الموقف المتوتر إلى لون
 آخر من فخره ، وهو الفخر الذاتي
 الذي تتحد فيه الذات بالمجموع فيقول:
 أنا ابن السابقين إلى المعالي
 وأرباب الممالك والمساعي
 حللنا من ربيعة في ذراها
 وجاوزنا الفروع إلى الفراع
 وقد علمت نزار أن قومي
 سيوف ضرابها يوم المصاع
 وأنا المانعون حتى معد
 وأهل الذب عنها والدفاع
 وإن نفخر نجيء بكل ملك
 حليم قادر عاص مطاع^(٤٠)
 يفخر الشاعر هنا بالأصول البعيدة
 لقبيلته ، متجاوزاً فروعها القريبة ،

محافظاً على حرارة انفعاله وصدقه ،
 مستمراً في تدفقه الشعوري ، ويمضي
 على هذا النحو حتى يختتم قصيدته
 بقوله :
 فإن سيوفنا مازال فيها
 شفاء للرؤوس من الصداع
 يخبر تبع عنها وكسرى
 بذأ والمنذران وذو الكلاع
 فكم قدما ربنا من ربوع
 بهن وكم أبرنا من رباع^(٤١)
 أما سائر شعر ابن المقرب في هذا
 الباب ، فهو لا يقل عن عينيته السالفة
 دلالة على نفسه ، وعواطفه ، وقد
 يصل به الإعجاب بالنفس أن يتمثل
 نفسه أمة وحده :
 وإن يدرك العليا همام بقومه
 فنفسى تناجيني يادراكها وحدي^(٤٢)
 وهو معتد بشاعريته وتفوقها على
 أسلافه ومعاصريه
 وليس في الشعر فضل يطول به
 مثلي ولو فاق أعلى سبعا الطول^(٤٣)
 أما شعر الشكوى فيأتي ترتيبه - من
 حيث الكم - الثالث بين موضوعات
 شعره ، ولكنه من الناحية الفنية يتصدر
 تلك الموضوعات بلا منازع ، لأنه مفعم
 بالصدق ، ويصدر فيه عن إحباطه وألمه
 وحرمانه وتطلعه ، بعيداً عما يحتمل أن

يعلق بشعر المدح من زيف أو رياء ، أو
قل بعيداً عن قوالب المدح والفخر
الجاهزة والموروثة والتي تعاطاها الشعراء
على مر العصور ، وأصبحت كالدرهم
المسيح ، ففقدت جدتها وطرافتها ،
وأصبح الشعراء المتأخرون يكلفون
أنفسهم شططا في توليدها^(٤٤) من
جديد ، وإخراجها في ثوب مصنوع
مزخرف ليوحوا بجدتها وطرافتها .

لم يكن ابن المقرب وإهي العزم ،
ضعيف النفس ، لنجد تبريراً لتصدر هذا
الغرض في ديوانه ، بل إن شخصيته الفذة
هي التي جرت عليه ألوان النقم من
أقرب الناس إليه ، فقد خشي أبناء عمه
طموحه وتفوقه ، وظلموه غير مبالين
بأواصر القرابة ، وصلة الرحم وما
أقسى أن تقهر النفوس الكبار ، وأن
يكون قهرها وظلمها من أقرب الناس
إليها ، أو من هم دونها ، أو من
كليهما معاً كما هو الحال مع شاعرنا ،
إذ يقول:

بلى إن ظلم الأقربين وجدته
أشد على الأحشاء حرا ولاهبا^(٤٥)

ومن قصيدة أخرى يقول :

وأعجب ما لاقيت أن بني أبي
حسام لمن يبغي جلادي وساعد

عزيزهم إن لذت يوماً بظله
رأيت سموما وهو للخصم بارد
وسائرهم إما ضعيف فضعفه
له عاذر أو مبغض لي مجاهد^(٤٦)
هم الحموي في الغائبات وأولعت
بلحمي أسود منهم وأسود^(٤٧)
ويلوم نفسه في موضع آخر فيقول:

أوليس جهلاً أن تسيم بمرتع
أكلت به المعزى لحوم رعاتها
لذا فقد كان ألمه شديداً ، وعميقاً ،
ولم يكن يملك كبح جماحه ، بل لم يكن
له بد من أن يفرغه كلما واثته الفرصة
لذلك . فكثيراً ما تجاوزت شكواه مع
مدحه وفخره ، وندر استقلال شكواه
بإحدى قصائده .

وحسبنا من شكايته هذه الأبيات
التي استهل بها مدحته لأمير البصرة
باتكين ويقول فيها :

طما بحر الهموم به فمادا
وعوضه من الغمض السهادا
وأنساه الصبابة ريب دهر

يجرد من مكائده عنادا
إذا قلت ارعوي أبدى غراما
وأربى في تخايله وزادا
شكوت الجور والعدوان منه
فقال شكوت عدلاً واقتصادا

وصيرني لما ألقاه أَرْضِي
 من التمرين أسرتنا وسادا
 ألا خل على الأيام ندب
 يشاطرنى الصبابة والسهادا
 أعاهده بأن لا خان عهدا
 ولا جعل المحال له عتادا
 وأنى لي بذاك وهل كحر
 أخى ثقة إذا ما الأمر آدا
 وأقسم لو طمعت به بمصر
 لجبت له الغوائر والنجادا
 فقد قضيت عمري في أناس
 يرون الغدر دينا واعتقادا
 كأنى بينهم نضو يعانى
 وقد أفضى بجرته ازدرادا
 أهيم ولا أريم حذار أمر
 يهيج بحامل الداء الغدادا
 أريهم منطقا عيا وإنى
 لأفحم في بلاغته زيادا
 وأغضي ناظري حتى كأنى
 حديث عمى يخرج أن يقادا
 ونار الزند تدر كها لحاظي
 وإن لم يور قاده الزنادا
 وأبدي فيهم صمما وسعوى
 يحس النمل إذ يخفي السوادا (٤٨)
 لقد ربي الهم عن حده ، فحرمه
 النوم ، وأنسته صبابته صروف الدهر
 ومكائده ، فكلما ظن أن الدهر سيكف

عن حربه ، أبدى جموحا وزاد غرورا ،
 وإذا ما شكا ظلم دهره له ، وعدوانه
 عليه ، أجابه الدهر بأن شكواه على
 غير وجه حق ! وغدا كذلك حاله حتى
 راضه دهره ، وروضه على أن يستسيغ
 ما يضيق به ، وليت قضيته مناة بالدهر
 وصروفه فحسب ، فالشاعر يعانى من
 أزمة الأخلاق التي استحكمت في
 مجتمعه ، وتمثلت في انعدام الثقة والوفاء
 حتى ليرى نفسه نبئا شاذا فيه ، وكائنا
 غريبا مرفوضا. لذا تحاشى الاحتكاك
 بمن حوله خشية أن يهيج دأؤه ،
 ويتضاعف ألمه ، فتظاهر بأنه عيى
 المنطق، حسير البصر أصم ، علما بأن
 الله قد أتاه منطقا بليغا ، وحسا مرهفا
 في سمعه وبصره .

وقد استطاع ابن المقرب أن يتجاوز
 بتجربته حدود ذاته ، إلى إطار إنساني
 أرحب ، فمحنة الإنسان مع دهره محنة
 أبدية ، وليست قضية ابن المقرب
 فحسب .

نقرأ أبيات الشاعر فنحس بمعاناته
 الصادقة ، وحربه غير المتوازنة مع دهره
 ومجتمعه ، ونشفق عليه من غصصه التي
 يتجرعها ، ويغمرنا إحساس بالحسرة
 والألم أشاعه الشاعر في تعبيره ،
 وتصويره وموسيقاه .

لقد اختار من الألفاظ والعبارات ما يوحى بضيقه وألمه (كالهموم - والسهاد - ريب الدهر - يجرد من مكانده - شكوت الجور والعدوان - يرون الغدر دينا - نضو - يعاني - حامل الداء ..) كما كان للخيال دوره في تجسيم عوالم الشاعر النفسية ، وتصوير معاناته ، فاستعان بعدد من الصور الجزئية كالتشبيه " بجراهموم " و " كأني بينهم نضو يعاني " و " كأني حديث عسى يخرج أن يقادا " والاستعارة " دهر يجرد مكانده " و " أبدى غراما " و " أربى في تخيله " و " صيرني .. " و " يشاطرنى الصباة " ، والكناية عن بعد نظره ، ورهافة سمعه في اليتيم الأخيرين .

وحين نقرأ هذه الأبيات نجد أنها على غير ما عهدناه من نبرة عالية ، في شعر المدح والفخر عنده ، فموسيقاه هنا أقرب إلى موسيقى الهمس ، التي تخاطب القلوب ، وتنفذ من السمع إلى النفس في هودة ولين لتفعل في نفس المتلقي فعل السحر ، وربما كان لاختياره ألفاظا ذات أصوات خاصة - كحروف المد - سببا في ذلك ، بالإضافة إلى ما تحسه من ثراء في

موسيقاه الداخلية المتمثلة في إيجاء ألفاظه وصوره .

وعلى الرغم من أن هذه التجربة تعد تجربة ناقصة بمقيار النقد الحديث ، إلا أنها تحمل إلينا قدرا كبيرا من عوالم الشاعر النفسية والعقلية ، وتؤكد لنا أنه قد نظم هذا الشعر استجابة لما يعايشه ويعانيه ، كما تكشف لنا عن أصالة ابن المقرب ، وشاعريته حين ينأى عن الأنماط الموروثة ، والصور المكررة . وهكذا عمقت محتته رؤاه الشعرية ، وشحذت مواهبه .

وحين غمضي مع الشاعر في رحلة الفن ، نجد أن وترا آخر قد أضيف إلى آلة الشكوى ، فضاعف من نغماته الشاكية ، إذ لم يعد الشاعر معنياً بقضيته الشخصية فحسب ، بل بقضية العيونيين جميعاً ، حين تردت أحوالهم ، وقويت شوكة أعدائهم ، فأخذوا ينالون منهم ، وغدا هناك ظلم جديد ، ظلم وافد مع أعدائهم من أبناء البادية الحاقدين ، وقد عبر ابن المقرب عن محتته المزروجة بقوله :

قل وذل وخذلان وضميم عدى

مقام مثلي على هذا من العجب^(٤٩)

وقوله مخاطباً قومه :

إلام تقاسون الهوان أذلة

وأنتم إذا كوثرتم عدد النمل

يسوقكم كرهاً إلى ما يسوءكم

عييدكم سوق الأحيمة الهزل^(٥٠)

وهكذا صاحبه نغمات الحرمان
الحزينة طوال مراحل حياته ، وسارت
عموازة نغماته الحزينة الخاصة تلك
النغمة الحزينة الطارئة بتزدي أحوال
أسرته وقومه :

كنت قبل اليوم أبكي بشجى

هم نفسي وطريفي وتلاذي

ثم قد أصبحت أبكي ناسياً

شجو إخواني ورهطي وبلادي^(٥١)

فالشكوى عند ابن المقرب كانت
ثمرة معاناة حقيقية ، نبعت من نفس
شاعر مطبوع ، ولعلنا لم نجانب
الصواب حين قلنا إن شعر الشكوى
عنده صادق لا يخالطه زيف أو فتور ،
بل هو أصدق شعره .

وفي نصحه لأبناء عمومته ، وعتابه
لهم يصدر عن معاناة حقيقية ، وغيره
وطنية صادقة ، فليس النصيح عنده
مجموعة من القيم السلوكية والخلقية ،
ولكنه رصد واع لمظاهر الضعف
والفساد السياسي في مجتمعه ، وعرض
للحلول الممكنة لإصلاح ما فسد . وقد

التزم شاعرنا هذا الخط الوطني ، ولم يثنه
عن موقفه الراسخ ظلم أهله ، وإنكار
مجتمعه له ..

وإذا ما تغزل قصد إلى هذا الفن
قصداً ، فصدر به مدائح محاكاة
لأسلافه ، ومجاراة لمعاصريه ، ولذا نحس
انفعالاته فاترة واهنة ، تفتقر لخلجات
الحبين الصادقة ، وعواطفهم الشائرة
المضطربة . ويقترّب في غزله من المرأة
جسداً لا روحاً ، ويجيل في أعضائها
نظرة تفصيلية ، كما كان للصنعة -
أحياناً - أثرها في فتور العاطفة في نسييه .
ولكننا لا نعدم في شعره غزلاً يحمل في
طياته مشاعر صادقة ، وصدر في ذلك
الشعر القليل عن تجربة حب
حقيقية^(٥٢) . ويشكو ابن المقرب - في
أكثر نسييه - من الحرمان والهجر ،
ويشيع روح الحزن ، والألم والهـم ،
وحسبنا قوله من قصيدة له يمدح فيها
الأمير حسن بن مسعود العيوني :

أراه الهوى ما لم يكن في حسابه

فأقلقه عن صبره واحتسابه

ولا تؤلّاه بالسلام فإنّه

يثير جواه واتركاه لما به

أعيذ كما من وجده وغرامه

ولوعاته يوم النوى واكتسابه

فهل لكما أن تذهبا لا شفيتما
لشأنكما أو تقصرا عن عتابه
تريدان منه سـلـوة وتناسياً
وصبراً لقد بالغتما في عذابه
وأنى له الصبر الذي تطلبانه
وقد ضاع يوم الحشر مفتاح بابه^(٥٣)
وقوله في قصيدة أخرى يمدح فيها
فخر الدين الدوامي ببغداد :

دعوه فخير الرأي أن لا يعنفا
فلو كان يشفي داءه اللوم لاشتفى
ورفقاً به يا عاذليه فإنه
شجي وقد قاسى من اللوم ما كفى
فلولا هوى لا يملك العزم عنده
لكان حمي الأنف أن يتعظفا
ولكن من يعشق ولو كان ذا على
فلا بد أن يعنو وأن يتلطفا^(٥٤)

أما هجاؤه الفردي فيتدنى فيه إلى
نوع من السباب الرخيص ، وتناول
الأعراض بلا وازع من دين أو خلق ،
ولكن هذا الإقذاع لا يتعارض مع
صدق انفعاله إزاء ذلك المهجو الوحيد
في ديوانه ، فقد كان في شخصه - كما
أسلفنا - ^(٥٥) ما يدعو لذلك . ونظم
ابن المقرب قصيدتيه في هجاء ابن
الدبشي وهو في حالة شديدة من
الغضب والسخط واليهاج .. نظراً لما

وقع عليه من ظلم مجحف . أما هجاؤه
الاجتماعي ، وهو الغالب على شعر
الهجاء عنده ، فهو أعمق أنواع الهجاء
تجربة ، وأصدقها إحساساً ، وكان هذا
النوع من شعره أقرب ما يكون من
النقد الاجتماعي .

والحكمة عنده ثمرة لخبرات حياتية
عميقة وخصبة ، وترجمان صدق
لتجاربه الشخصية الحافلة بصنوف
المعاناة ، وقد يسد بها علينا استجلاء
كثير من غوامض شخصه ، وملامح
نفسه ، والوقوف على فلسفة الحياة
عنده .

وحين رثى ذوي قرباه ، أشاع في
نفوسنا جواً من الحزن الحقيقي والأسى
العميق كقوله في رثاء ابن عمه مذكور:
أظنك خلت الشوق والنأي أبكاني
فأقبلت نحوي يابس الدمع تلحاني
فقم فالتمس خلا سواي فلا أرى
صحابة من لم يتبع شأنه شاني
كأنك ما شاهدت ما قد أصابني
به الدهر من صياب قومي وإخواني
رزئت ملوكاً لو بكيت لفقدتهم
دما ما كفاني عمر نوح ولقمان^(٥٦)
ومن القصيدة ذاتها يقول :

أتلحي على فيض الدموع وقد ثوى
أخي وشقيقي وابن عمي وخلصاني

أمن بعد مذكور أصون مدامعاً
تقل له لو أنها من دم قان
ألا عميت عين امريء لم تجدله
بدمع وأضحى ربها رب عميان
وقد يفتقر رثاؤه - أحياناً - لهذا
الصدق ، والحزن الحقيقي الذي لمسناه
في رثائه لابن عمه مذكور العيوني .

أما وصفه للطبيعة ومشاهدها ، فقد
جاء في أكثره محاكاة لسابقه وخلا من
نبض الحس الصادق أو كاد . ولكن
وصفه للمعارك - وهو أكثر موضوعات
وصفه مواءمة لنفسه وطبعه - فقد برع
فيه وأجاد التعبير والتصوير ، وجاءت
أبياته في وصف المعارك غنية
بالإحساس ، ويبلغ صدقه مداه ، حين
يصف وقعة المسلمين بقيادة الملك
الأشرف مع الإفرنج على ساحل دمياط
وتدفعه حماسته وعاطفته المتقدة إلى
المبالغة فيقول :

فسال دم لو سال في الأرض لاستوى
بها ردغ ما عمرت ومزالق
جرى منه فوق البحر بحر فموجه
إلى الآن من بعض الأفاحي شقائق (٥٧)

وعلى الجملة ، فالتجربة الشعرية
عند ابن المقرب يغلب عليها الصدق
كما نجد أن انفعالاته تتعدد بتعدد
موضوعاته وأغراضه ، وينبع صدقه في

تجاربه من أن شعره كان مرآة نفسه
وعواطفه ، وتعبيراً عن انفعاله
بالأحداث من حوله .

المقطوعات والقصائد

=====

شغل القدماء (٥٨) والمحدثون في
تحديد أبيات كل من المقطوعة
والقصيدة ، ولسنا بصدد عرض ما
اختلفوا فيه أو اتفقوا عليه ، فحسبنا من
آراء القدماء ما يقوله ابن رشيق "ومن
الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ
العشرة وجاوزها ولو بيت واحد" (٥٩)
ومعنى هذا إخضاع الشاعر
والأحاسيس لحساب الأرقام ، وهذا ما
يرفضه دارس معاصر (٦٠) ويراه حكماً
جائراً ، وهو رفض له ما يبرره ، إذ
ليس من الممكن أن تخضع عالم الحس
لمثل هذا الحكم العام ، فقد يفرغ
الشاعر من التعبير عن تجربته ولما يتجاوز
بأبياته عقداً ، ومع هذا تحتفظ أبياته
القليلة بحقها في أن نطلق عليها اسم
"قصيدة شعرية" .

وبمقياس ابن رشيق الرقسي ،
فالمقطوعات في ديوان شاعرنا لا تمثل

إلا جزءاً يسيراً منه ، ففي ديوانه تسعون قصيدة وثمانية مقطوعات ، وفي ملحقات هذه الدراسة تسع قصائد وخمس مقطوعات .

ولكن هل ثمة علاقة بين الشكل والموضوع عند شاعرنا ؟

يرى ابن رشيق " أن الشاعر يحتاج إلى القطع حاجته إلى الطوال بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثيل والملح أحوج إليها من الطوال " (٦١) . وإذا كان صاحب العمدة قد أوضح موضوعات القطع، فالخليل ابن أحمد يميّط اللثام لنا عن الجانب الآخر الذي يتطلب الإطالة بقوله "وتستحب الإطالة عند الإغذار، والإنذار والترهيب ، والترغيب ، والإصلاح بين القبائل" (٦٢).

وحين نعرض شعر ابن المقرب على هذه المعايير القديمة ندرك أنه كان ينظم شعره عن وعي بتلك القيم الفنية . فمقطوعاته قال أكثرها مرتجلاً في مواقف دعابة ومزاح ، كما فعل حين طلب منه بدر الدين لؤلؤ أن يهجوّه ففعل ذلك في بيتين (٦٣) ، أو كما فعل حين طلب منه جماعة أن يكتب تعويذة لرجل محموم عرف بظرفه ، فكتب له

ثمانية أبيات تفيض دعابة وسخرية ، بدأها بقوله :

يا مالك الخير عليك السلام
أتاك شيخ من أهل الأنام
فأجج (النيران) وافتح له
أبوابها وأنعم له بالقيام (٦٤)
ومثل هذه السخرية والدعابة ما قاله في ذلك الأبيات :

وأبكم مثل حب القرع مبسمه
وأحذب وجهه الخازي من السفن
يرغو إذا هر في قول مشافره
مثل الثمامة إذ تعلق على اللب (٦٥)
كما نجد يصدر رسالة يبعث بها إلى أهله (٦٦) أو صديق له (٦٧) ببضعة أبيات يعبر بها عن أشواقه وحنينه .

وإذا مضينا في استقصاء مقطوعاته فسنجد أنه لم يلجأ إلى هذا الشكل ليعبر من خلاله عن موضوعاته الجادة ، وهذه النتيجة تسلمنا إلى حقيقة أخرى ، وهي أن موضوعاته الجادة كالمديح والرثاء والفخر والهجاء والشكوى والشعر التاريخي .. جاءت كلها في قصائد طويلة .

وتجدر الإشارة هنا إلى طول نفسه (٦٨) في أكثر قصائده التي يربو بعضها على المائة بيت ، وكانت ظاهرة الاستقصاء أهم أسباب الإطالة عنده ،

مضافاً إليها قدرة على النظم ، وتمكن
من اللغة وربما دفعه هذا التمكن وتلك
القدرة على النظم في قوافٍ قد تجنّبها
فحول الشعراء " كالشاء والزاي
والطاء، والذال " .

ويعيننا في هذا المقام أن نقف عند
ظاهرة الاستقصاء في شعره ، فابن
المقرب لا يكتفي بأن يلم بالمعنى إلماً
عابراً سريعاً ، بل لابد له من أن يتناوله
من شتى جوانبه ، أو أن يقلبه ظهراً
لبطن ، مزيلاً ما قد يتوهمه لبساً أو
غموضاً في معناه .

لننظر مثلاً قصيدة له بعث بها إلى
أهله من بغداد وكانت مفعمة بمشاعر
الحب والشوق .. وحتى لا يظن به
ضعفاً أو نكوصاً ، يقول فيها :

ولولا " بنات العامرية " لم أكن
لألوي إلى دار المذلة جانباً (٦٩)
ويجد نفسه مضطراً لتفسير ما يعنيه
(بنات العامرية) فيتبع هذا البيت
بخمسة أخرى يقول فيها :

ولكنني أخشى عليهن أن يرى
بهن عدو ماله كان طالبا
مقاساة ضر أو معاناة غربة
تريهن أنوار الصباح غياها
وآنف أن يصبحن في غير معشري
فأصبح قد ردوا على النصائب

فيصبحن قد أنكحن إما مدرعاً
لئيماً يرى الإحسان للفقر جالباً
وإما ابن ضل تائه في ضلالة
من الغي تدعوه الطواغيت راهبا
ويرى أن المعنى في البيتين الأخيرين
يحتاج إلى إيراد مثل يوضحه ويجعله
أكثر تأثيراً ، فيقول :

كما نكحت بنت المهلهل إذ غدا
من الضيم في سعد العشيرة هاربا
بأيسر مهر عند الأم خاطب
ووالدها غيظاً يعرض الرواجبا
ثم يرأى تحذيره لقومه من مغبة
التفريط بأعراضهم ، راجياً إليهم ألا
يألوا جهداً في الحذب والعطف على
بنات قومه :

فيا ابن أبي رفقاً بهن وكن أباً
مديماً على إكرامهن مواظباً
وصل واحتمل واخفض جناحك رحمة
لهن ولا تقطب عليهن حاجبا
وحاذر عليهن الجفاء فإنني
أرى الموت أن يمشين شعنا سواغبا
فإن سلمت نفسي لهن هنيئة
من الدهر جاورن النجوم الثوابا
لعلنا لاحظنا كيف كان الاستقصاء
سبباً في إطالة قصيدته ، وكان ثلث هذا
العدد - على الأكثر - من الأبيات كافياً
لعرض فكرته . ثم ألا نحس - في

الجموعة الأخيرة من الأبيات بروح النثر
وقد تسلت إليها .

وبعد ذلك لتأمل هذه الأبيات التي
يقول فيها لمدوحة :

فذاك من الردى جهم الحيمى

سحاب سمائه أبدا جهام

عبوس إذ يقابل وجه حر

وبين المومسات له ابتسام

جواد حين يلعن والده

وتقرع أنفه وكذا اللثام

يعز مهينة ويهين لؤمأ

مكرمة كذا النطف الحرام (٧٠)

لا يخفى أن البيت الأول كان كافياً
لمعناه ، وأن ما تلاه من صفات "المفدى

من الردى" كانت من نافلة القول .
وربما كان إيرادها حفاء بمدوحه ، أو

إظهاراً لمقدرته على النظم .

ولنقرأ الأبيات التالية لنعرف كيف

يقلب الشاعر معناه ظهراً لبطن في
موقف من مواقف الفخر بالنفس ،

فيقول :

لا يقبل الضيم إلا عاجز ضرع

إذا رأى الشر تغلي قدره وجها

وذو النباهة لا يرضى بمنقصة

لو لم يجد غير أطراف القنا عصما

وذو الدناءة لو مزقت جلده

بشفرة الضيم لم يحسس لها ألما

ومن رأى الضيم عاراً لم تربه

شرارة منه إلا خالها أطمأ (٧١)

فالملاحظ أن هذه الأبيات لا تخرج

عن معنى محدود ، وهو أن الإنسان

القوي يرفض كل أشكال الظلم

وعكسه العاجز المتوكل .

وإذا ما قال ابن المقرب لمدوحة :

فتى لم يزل مذ كان يخشى ويوتحي

إذا قصرت عن يوم خطب رجالها (٧٢)

رأى أن معناه يحتاج إلى ما يشرحه

ويوضحه فيقول :

فيخشاه جبار ويرجوه خائف

وأرملة قد مات هزلاً عياها

وقد سلك السلوك ذاته في مدح

الأمير أبي سنان مسعود بن محمد

العيوني ، فقال :

خلقت للنصل أنامله

والبذل الشامل والقلم

فالنصل لأهل عداوته

ولكل لهاة كالأطم

والبذل لأهل مودته

وأخ في الله وذو رحم (٧٣)

وما أوردناه قليل من كثير في ديوانه ،

وهو يمثل ظاهرة بارزة في شعره ، وإذا

ما أضفنا إليه تلك القوالب الجاهزة (٧٤)

التي كان يكيلها لمدوحه على تفاوت

أقدارهم ، أصبح من الممكن تحليل
إطالته في أكثر قصائده .

وحدة القصيدة

=====

يرى بول فاليري " أن اللغة نفسها
ليست سوى قمة الإبداع الأدبي
والفني لشعب من الشعوب ، وأي
عمل من هذا القبيل لا يعدو أن يكون
استثماراً لإمكانياتها وتوفيقاً لكلماتها
وأنظمتها" (٧٥) . فاللغة الشعرية —
موضوع حديثنا - ليست مجرد مجموعة
من الكلمات ، إنما نعني بها تراكيب
مكونة من كلمات مصنوعة بأنساق
معينة (٧٦) ، وتعد لغة الشعر أهم وسائل
توصيل التجربة لكونها تتشكل من
الألفاظ التي تكون الدعامة الأساسية
لسائر الموصولات . والألفاظ وهى أول
ما يلقانا في نصوص الشعر "ليست
ألفاظاً محددة الدلالة ، يدل بها
الشعراء على أشياء حسية من واقعهم
الخارجي فإنهم لا يعبرون عن هذا
الواقع ومسمياته الحقيقية ، إنما يعبرون
عن واقعهم النفسي وما تختلج به

نفوسهم من مشاعر وأحاسيس" (٧٧)
ومن هنا كانت لغة الشعر "لغة انفعال
مرنة" (٧٨) وتحدد قيمة الألفاظ " بالطاقة
أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها
الشاعر عليها" (٧٩) .

"واللغة - في الشعر - تستخدم كافة
طاقاتها الصوتية والدلالية والرمزية
للتعبير عن التجربة الأدبية .. بحيث
تبدو القصيدة مركبة من عدة
مستويات تشكيلية متضافرة شديدة
التداخل تتعاون جميعها - كالجوقة في
المسرحية - لتحث تأثيرها الفني عند
المتلقي" (٨٠) .

ومن هنا كان الحديث عن لغة
الشاعر يستوجب الحديث عن تلك
المستويات التشكيلية المتألفة معاً ، ولكن
منهجنا في تناول شعر ابن المقرب -
الذي اقتضته طبيعة البحث - حال دون
ذلك . فعند حديثنا عن القيم التقليدية
في شعره ، وقفنا عند بعض تلك الزوايا
الفنية التي أسهمت في نقل تجربته ، كما
أننا سنعرض - بالضرورة - لبعض منها
في حديثنا عن الصورة العامة لقصيدته ،
وسنقصر هذا الجزء من الدراسة على
خصائصه اللغوية والأسلوبية .

لقد سبق لنا الوقوف على ظاهرة
الإغراب ، والنزوع إلى الرعورة

والتبدي عند ابن المقرب ، ورأينا كيف
ساهمت في ذلك عدة عوامل ، منها
تلمذته على دواوين أسلافه ، وتقديره
لميراثهم الفني ، ونشأته في بادية
الأحساء ، كما لم نستبعد أن يكون
للمنافسة في بلاط الخليفة الناصر لدين
الله - بخاصة - دور في ذلك . ولاحظنا
أيضاً أن ميله إلى التبدي ونزوعه إلى
الوعورة كان يبدو جلياً حين ينظم في
موضوعات تقليدية . وطالما نحن بصدد
الإشارة إلى هذه الظاهرة عنده فينبغي
ألا نغفل أدواق اللغويين والنحاة ، ممن
استطاع أن يكسب ثقتهم ، ويحوز على
شهادتهم بتفوقه ، وحسبنا أبو البقاء
العكبري دليلاً على ذلك .
لذا وجدناه يحشد - أحياناً - عدداً
من الألفاظ الغريبة في بيت واحد
كقوله:

طال امتراؤك خلف كل رذية

أكدى لدى الإبساس من ثفاتها^(٨١)

ومثل ذلك تكديسه لعدد من
الصفات في بيت واحد كقوله :

ندس ردى شكس مكس

شرس مرس وفي الذمم^(٨٢)

وقد يحشد عدداً من أسماء فرسان
العرب في بيت واحد كقوله :

وإن صان أنس حارثاً ومهلهلاً
وعمرأً وبسطاماً وحار بن ظالم^(٨٣)
وقد يضم في بيت واحد أسماء عدد
من الأماكن كقوله :

والشيطان ولعلع وأوارة

وحمى ضرية والنباج وثيتل^(٨٤)

وقد يحشد في بيت واحد أسماء عدد
من الخيول العربية الأصيلة ، كقوله :

نتاج عمير والضبيب وكامل

وذات نسوع والنعامة والخطر^(٨٥)

ويؤثر في أحيان كثيرة - استعمال
ألفاظ غريبة ، يجدها شديدة الجرس ، أو
عسرة على اللسان ، ومثل ذلك قوله :

وشالت لنا أذناها مقدحرة

وعهدي بها تسطو على ذئابها^(٨٦)

وقوله :

وبلتعانياً إذا سيم خطة

تطى ونادى عرسه وتلددا^(٨٧)

وقوله :

فيا ليت شعري لو عرت مصمثلة

وفر البلا عن نابه متجهما^(٨٨)

فالألفاظ مقدحرة ، وبلتعاني ،
ومصمثلة - ومثلها كثير في شعره - تمتاز
إلى جانب غرابتها - بجرسها القوي .

ومن ألفاظه التي جمعت مع الغرابة
عسراً في النطق قوله :

فلا تقصدن محبظاً خوف ميتة

ستأتي فما تلقى جواداً مخلداً (٨٩)
وقوله :

ومتى ينلني بالهوان معلهج

خطأ أنلة ضعفه متعمداً (٩٠)

ولا يخفى ما في كلمتي (محبظي
ومعلهج) من وعورة وتشكل أمثال
هاتين الكلمتين ظاهرة لغوية بارزة
ومطردة في أغلب قصائده . ومن أمثال
تلك الألفاظ العسرة نطقاً وفهماً
(الجهضمية ، واسجهرت طباسله ،
واللكع الضغاييس (٩١) . وعد القدماء
التكلم بوحشي اللفظ نقصاً ، وتعقيداً ،
وتقعيماً ، وعابوا هذا المذهب ، وحذروا
من ولوج بابه فقال ابن منقذ (٩٢) "
اياك وتعقيد المعاني ، وتقعيير الألفاظ "
وكرر تحذيره في موضع آخر
فقال (٩٣) : " ولا تعقد المعاني فتحوج
إلى كشف ، فإن أحسن الشعر ما سبق
معناه إلى القلب مع لفظه إلى السمع " .
وقد يعدل - إمعاناً في التبدي - عن
لفظ مشهور إلى آخر غير مألوف
كقوله :

بهرأ لها أو ما درت أني الذي

يدعى مسرتها وغيظ عداتها (٩٤)

فليست كلمة (بهرأ) من الألفاظ
المألوفة والمطروقة وقد عدل الشاعر عن

لفظ (تعمساً) الشائع إلى هذا اللفظ
الغريب النادر . ومثل هذا قوله :

الطاعن الفرسان كل مرشه

تنشاع من خلف ومن قدام (٩٥)

أليست كلمة (تنصب) هي البديل
الذي عدل عنه بقوله (تنشاع) ؟ وأن
الأولى أيسر فهماً وأشد وقعا .

ولكن وإن بدا ابن المقرب ميالاً إلى
التبدي ، تياهاً بغريبه ، فنحن لا نعدم
في ديوانه بعض القصائد التي ابتعد فيها
عن غريبه أو تناساه ، فنظمها بألفاظ
وعبارات سهلة رشيقة عذبة ، وبخاصة
في بعض موضوعاته الذاتية اللصيقة
بنفسه كالشكوى ، والحنين ،
والنسيب ، ولنستمع إليه من قصيدة
طويلة شكاً فيها سوء حال العيونيين
واستهلها بشكوى الدهر فقال :

بعض الذي نالنا يا دهر يكفيننا

فامن ببقيا وأودعها يداً فينا

إن كان شأنك إرضاء العدو بنا

فدون هذا به يرضى معاديننا

فالحمد لله حمداً لا نفاذ له

إذ لم يكن ضعفنا إلا بأيدينا (٩٦)

وأرشد من هذا لفظاً وأعذب قوله
متغزلاً :

من ذا أفتاك بسفك دمي

يا غرة حي بني جشم

فتعالى غير مدافعة

نقصص رؤياك على حكم

أبنظرة عين عن خطبا

عرضت بالعمد يراق دمي^(٩٧)

ويعضني على هذا النحو من الرقة
والسلاسة ما يجاوز العشرين بيتاً ، ولعله
أدرك - في هذا الموقف - ما تتطلبه طبيعة
الغزل من رقة وعذوبة .

و لم يكن ابن المقرب - في هذه
الازدواجية - بدعا بين شعراء عصره "
فالعباسيون لم يشوروا على الصياغة
الشعرية القديمة ، بل عكفوا عليها
دارسين فاحصين ، وسرعان ما حذقوا
وسائلها وعناصرها الجمالية ، ومرنوها
على أن تؤدي عالمهم العقلي والشعوري
الذي عاشوه . بل لعلنا لا نغلو في
التعبير إذا قلنا إنهم وجدوا فيها ضروبا
من الحذق أتاحت لهم أن يزاوولوها وأن
يحسنوها إحساناً بعيداً ، فقد رأوا فيها
عناصر وأدوات مرنة اختبرها كثيرون ،
ومن ثم تعاونوا على الإبقاء عليها ،
والاحتفاظ بصورها اللفظية التي تقوى
أحياناً ويشد بعضها بعضاً كأنها
أهرامات مرصوصة . وأحياناً ترق حتى
تصبح كالماء الرقراق والتبع
الصافي"^(٩٨).

ومن الظواهر اللغوية عند ابن المقرب
تكراره لبعض الألفاظ أو الصيغ ، ومن
أكثر الصيغ دوراناً في شعره لفظ (دار)
مضافة إلى المذلة أو الضيم أو الهوان أو
القلى .

فقد تكرر ورود هذه الصيغة في
ديوانه ما يقرب من خمس عشرة مرة ،
ويكني بها عن موطنه "الأحساء" ،
وكان لهذا التعبير دوافعه النفسية عند
الشاعر إذ ارتبطت الأحساء في نفسه -
أول الأمر - بالقهر والظلم .. فقد حدثنا
كثيراً عن نكبته المبكرة ، ثم اشتدت
الصلة - في نفس الشاعر - بين الأحساء
ومعاني الذل ، بعد أن دالت دولتهم ،
ونكبت بتمكن من هم دونهم شأناً من
السلطة ، وأصبح الضيم لا يعنيه وحده
بقدر ما يخص قومه .

ومن الألفاظ التي كثر دورانها في
شعره كلمة (الغلب) أي القوية ،
يستخدمها أحياناً صفة مفردة كقوله
(الأسود الغلب) أو (شمارخة غلب) و
(وائل الغلباء) ، وقد يضيفها كقوله
(غلب الرقاب) ، ويأتي - أحياناً -
بأفعال التفضيل منها كقوله (بفناء
أغلب) أو (الهزبر الأغلب) وليس من
شك في دلالة هذه اللفظة وما ينحته

منها على طبع الشاعر ، وحبه للقوة والغلبة .

كما يكثر دوران لفظ (الدهر) في شعره ، والعرب بعامة يتوهمون أن هناك معركة غير متوازنة بينهم والدهر، ويتصورون أن للدهر سلطاناً لا يقهر ، وكل شيء في قبضته ، وخاضع لسلطانه وسطوته .

كما أن العرب قد تصوروا أن الحركة هي الدهر ، والزمن والأيام . ولم يفصلوا بين الحركة والزمن ، وردوا كل شيء في العالم من حياة وموت ، وعمران وخراب ، وتجديد وبلى ، وعز وذل ، وسعادة وشقاء .. إلى هذه الحركة الأبدية التي سموها الزمن والدهر والأيام^(٩٩) .

وتتكرر كثيراً لفظة (الامتراء) في شعر ابن المقرب . والامتراء هو مسح ضرع الناقة لتدر . ولكن الناقة التي يمتريها شاعرنا طويلاً دون جدوى ، ليست إلا رمزاً لأبناء قومه ، ووعدهم البراقة له ، لأن الناقة التي يمتريها إما ناقة مهزولة كقوله:

طال امتراؤك خلف كل رذية

أكدى لدى الإساس من ثغنائها^(١٠٠)

وإما ناقة قد ذهب لبنها ، وحتى لو وجد شيء منه ، فهو محرم طبقاً للعرف العربي القديم :

لقد طال إغضائي جفوني على القذى
وطال امتراي الدر من بحر جد^(١٠١)
وإما ناقة قد ذهب لبنها ، وتقلصت ضرعوها زيادة في اليأس كقوله :

فكم أتحسى الضيم مرا وأمتري
عقاييل خلف قد أزي وتجدد^(١٠٢)

والملاحظ أن لفظة الامتراء ، وما نخته الشاعر من فعلها ، جاءت مرادفة عنده لمعنى اليأس ، والقنوط والاستحالة ..

ويكثر في صياغة ابن المقرب استخدامهم للأفعال المزيدة ، المشتقات التي يستخدمونها اسم الفاعل واسم المفعول ، وأفعال التفضيل "والإفراط في استخدام المشتقات والأفعال المزيدة، هو الوسيلة التي لا بد منها للشاعر العربي الذي يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ، ويتدرج به في مختلف درجاته"^(١٠٣) .

وتأتي المشتقات - غالباً - في مواقف المديح عنده ، ونجدها - في أحيان قليلة - في قصائد الفخر . والواضح أن شاعرنا يستعين بها ليعلي من موسيقاه في مواقف المديح والفخر لحاجتهما للموسيقى القوية الصاخبة .

كما يعتمد على المشتقات في الوصول إلى مبالغته التي تمثل ظاهرة مطردة في ديوانه . ويحتل اسم الفاعل ومبالغته مكان الصدارة بين سائر مشتقاته .

ويلاحظ أن مشتقاته التي كانت تتكرر في مدائحه بخاصة تشبه القوالب الجاهزة يكيّلها متى شاء ، ولمن يشاء من ممدوحيه ، ومنها (التارك — الضارب — الطاعن — الخائض — الحامل — السالب — الراهب) ومنها (ضراب — مناع — جمال — تراك — خواض — بداع). ومنها (ابسط — أنهر — أقتل — أوسع — أسرع — أكرم..).

ومن الظواهر اللغوية في شعره كثرة دوران أفعال الإرادة مثل (سأرحلها — سأمضي — سأقحمها — سأرسل — سأطلب — سأركب..). وأكثر هذه الأفعال دوراناً في شعره لفظ (سأرحلها) . ولا يخفى ما تحمله هذه الأفعال من دلالات على حياة الشاعر، ومعاناته ، وإحباطه ، وملامح نفسه .

كما يلاحظ تكراره لبعض ألفاظ الترف (كالدر — المسك — العنبر — الياقوت — المرجان — العقيق — الجمان — الأرجوان — الجواهر — التبر — الثياب المروزية وثياب اللالس) . ولكننا — في

الحقيقة — كنا نتوقع ثروة أكبر من هذه الألفاظ المترفة ، شأنه في ذلك شأن الشعراء الأمراء . وربما كانت نكبته المبكرة وتجريده من أمواله ، ومن ثم سوء أحواله الذي صاحبه بقية حياته ، وراء زهده في مثل تلك الألفاظ . فلعله كان يجد فيها ما يهيج آلامه ، وينكأ جراحه ، لذا احتواها وعدل عنها ما أمكن .

ومن الظواهر اللغوية التي تنتشر في شعره ميله إلى تسهيل الهمز ، ولا يخفى أن التسهيل في بعض الأحيان^(١٠٤) يكون مرده إقامة الوزن كقوله :

بئس الأماني منتهم نفوسهم
جهلاً ويا قرب ما فاجاهم الندم^(١٠٥)
وقوله :

بلا منة أسديتموها ولا يد
إلى وقول المرء أسواه كاذبه^(١٠٦)
وقوله :

وقائل قال لي إذ راقه أدبي
والمرء قد ربما أخطأ وما علما^(١٠٧)
وقوله :

قد نامت الأحيا عن الغزو فاستوى
بكل سبيل أسده وخياطه^(١٠٨)
ومن ذلك :

يقال لي كل تفريق له سبب
يجري فأورد علينا الأمر والشان^(١٠٩)

ومثل قوله (جرى) في صدر البيت
التالي :

جرى إذا لم يبق للطرف مسلك
وصم حصي الجبار للخوف جالبه (١١٠)
ومن الظواهر اللغوية استعماله (ذا)
الإشارية في مواضع كثيرة من شعره
ومنها قوله :

ولم تعط من ناوى علاها مقادة
وذا دأب قيس منذ كانت ودا بها (١١١)
وقوله :

ومنذا الذي أرضى عطاياه أو أرى
يزاحمني في سدة الباب حاجبه (١١٢)
ومنه قوله :

أريتك إن أخرتني وجفوتني
وذا الدهر قد أربى وبان تحامله (١١٣)

وتعد أعمال (ما) الحجازية من
الظواهر اللغوية النادرة في شعره ،
كقوله :

ولا تلقه مستعباً من ظلامه
فما الدهر سماعاً لمن جاء عاتبا (١١٤)

ومن سمات معجمه إسفافه اللفظي
في الهجاء . فقد أتى في شعره بكثير من
الألفاظ الفاحشة العارية ، التي ينبو عن
ذكرها الذوق ، وحسبنا قصيدته في
هجاء ابن الديبشي (١١٥) .

ومن الهنات القليلة في شعره قوله :

فهاهو لو خوارزم رآه
لأصغر قصره اللذ كان شادا (١١٦)
والشائع قولهم (هاهو ذا) ، كما أن
قوله (اللذ كان شادا) يبدو تركيباً غير
مألوف ، ومن الصيغ غير المألوفة عنده ،
قوله :

عجلت يومي إن لم أفن غاربها
أليس لابد من هم ومن نصب (١١٧)
إذ جعل (لابد) اسماً ليس ، وهذا ما لم
نألفه في اللغة .

وطالما نحن بصدد الحديث عن هنات
الشاعر ، فيجدر بنا أن نشير إلى ما
وهمه العمران من خطأ في قول ابن
المقرب :

نام الغنى وكان قبلك لايني
خوف المظالم ساهراً يتقلب (١١٨)

إذ أصر على أن كلمة (يني) هي (ينم)
مجزومة بلا وجه حق للشاعر في ذلك ،
علما بأنها في النسخة المحققة للديوان
وردت (يني) ، ويفهم من مقدمة
دراسته أنه قد اطلع على هذه النسخة ،
وإمعاناً منه في تخطيط الشاعر يقول " إن
كلمة يني بمعنى يفتر قد وردت في بعض
نسخ الديوان بدلاً من كلمة (ينم)
وفي هذه الحالة ليس في البيت عيب
نحوي ، إلا أن استعمال كلمة (يني)
هنا لا يستقيم معه معنى البيت ، وإنما

يستقيم المعنى باستعمال مضارع (نام) "١١٩" ولست في حاجة للدفاع عن صحة استخدام كلمة (يني) لغة ومعنى .

ومن الصيغ غير المألوفة ، والتي يتكرر ورودها في شعره قوله (قد ربما) فكلما الحرفين يفيد التقليل والتشكيك ، ومنه قول ابن المقرب :

قد ربما يجزى على الصد والقلبي
أب وأخ والمرء ممن يساعد (١٢٠)
وقوله :

على أن حد السيف قد ربما نبا
وفل وهذا لا يفل ولا ينبو (١٢١)

أما أسلوب الشاعر فنعني به طريقته الخاصة في التعبير عن انفعاله بالحياة من حوله . وعندما نقول (الأسلوب هو الرجل) إنما نعني بذلك " أن أسلوب الأديب مرآة صافية لشخصيته كلها ، نقرؤه فنحس بصاحبه يطالعنا بعقله ، وشعوره ، وخلقه ، ومزاجه ، وعقيدته ، وكل ما يميزه من سواه ، فإذا ما عرفناه وقرأنا له أثراً أدبياً أضفناه إليه ، وإن لم يكن عليه اسمه ، فهذا الكلام يدل على أن أظهر خواص الأسلوب إنما تنشأ عن شخصية كاتبه ، فهي التي تطبع الكلمات والعبارات والصور البيانية بطابع ممتاز يدل على

تجارب خاصة وطريقة في التخيل والتفكير والتعبير ليست لغيره " (١٢٢) .

وليس معنى هذا أن يمضي الشاعر في أسلوبه على نسق محدد لا يعدوه فليس من المعقول ألا يتلون أسلوب الشاعر باختلاف أغراضه وتفاوتها في الشدة واللين (١٢٣) وقد نبه العلماء على ذلك فقال القاضي الجرجاني " لا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجزئاً واحداً ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني ، فتلطف إذا تغزلت ، وتفخم إذا افتخرت .. " (١٢٤) ولعل هذا ما عناه ابن طباطبا بقوله " وللمعاني ألفاظ تشاكلها ، فتحسن فيها ، وتقبح في غيرها ، فهي كالعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعضها " (١٢٥) .

وقد ألحنا خلال دراستنا لأغراض ابن المقرب إلى مناسبة ألفاظه لمعانيه ، إن شدة فشدة ، وإن ليناً فليناً ، فيسمعنا في الفخر والحماسة ووصف المعارك صهيل الخيول ، وصليل السيوف ، ونرى الرؤوس تقطف والدم يتفجر ، والموت يتخطف النفوس .. وإذا تغزل لانت قناته ، وخفت حدة نبرته ، وتهالك أسمى ولوعة ، وبدا وقد

يحسن رعايتها ، أو قل من يحسن
استغلال إمكاناتها الفنية كعمر بن أبي
ربيعة الذي يعد بحق (١٢٨) رائدا لهذا
الفن .

وإن استطاع ابن المقرب أن يشيع
قدراً كبيراً من الحيوية في بعض قصائده
التي سلك فيها سبيل الحوار القصصي ،
إلا أننا لا نقف فيها على ملامح
واضحة المعالم لعناصر القص الشعري
عنده .

ويتعدد المخاطب في تلك القصائد
ما بين فتاة محبة مشفقة ، أو قلب
مضطرب ، وربما أدار الحوار مع نفسه ،
أو مع رفاق رحلته ، وقد يديره مع
بعض عناصر الطبيعة ، ومن أساليب
الحوار القصصي قوله:

وقائلة والعيس تحـدج للنوى
ودمع الجوى قد جال في الخد جائله
عليك بصبر واحتساب فإنما
يفوت الشا من راح والصبر خاذله
ولا ترم بالأهوال نفساً عزيزة
فذا الدهر قد أودى وقامت زلازله
فكم كربـة في غربـة ومـنية
بأمنية والرزق ذو العرش كافله
فقلت لها والعين سكرى بزفرة
أرددها والصدر جمٌ بلابله

شفه الوجد ، وبرحه الهوى .. وإذا
شكا أشاع في نفوسنا إحساس القوي
المقهور .. ويمضي ابن المقرب في أغلب
شعره كذا ديدنه ' ملبساً معانيه ما تزداد
به حسناً من معارض ألفاظه الموشاة
بضروب الزخرفة والزينة ، مستغلاً
طاقته البديعية في تشكيل صورته الفنية ،
وإثراء موسيقاه ، " وكلما كان الشاعر
أصيلاً كانت ألفاظه تنضح بالقيم
فتقطر ألفاظه بالموسيقى ، والمعنى ،
والذاكرة ، والبساطة ، والزخرفة ،
والصورة ، والفكرة ، والتركيز
الغنائي ، والعبارة الصريحة ، والكنائية ،
واللون ، والضوء ، والقوة" (١٢٦) .

لم يلتزم ابن المقرب أسلوباً بعينه ،
فقد تلونت أساليبه وتعددت بتعدد
موضوعات شعره ، ولكن شملتها عدة
أشكال وأنماط ، تراوحت بين أساليب
القصة والحوار ، وأساليب الطلب ،
والاعتراض ، والتبليغ .

لقد مهد قدامى الشعراء لأسلوب
القصة والحوار ، ووضعوا بذوره
الأولى ، وقد وقف صاحب (شعر
الحنين) (١٢٧) على تلك البدايات الفجة
عندهم ، التي لم تستكمل عناصر القص
الفنية . ولكن تلك البذور سرعان ما
نمت وترعرعت عندما وجدت من

أبالوت مثلي ترهيبين وبالنوى
وعاجله عندي سواء وآجله
وما غربة عن دار ذل بغربة
لو ان الفتى أكدى وغشت مآكله^(١٢٩)

فالشاعر يضعنا في هذه الأبيات إزاء موقف درامي مؤثر .. فالشهد مشهد وداع ، بدت فيه فتاة الشاعر حزينة باكية ، تحاول أن تتنيه عن عزمه بشتى السبل .. ولم يكن الشاعر فيه أقل حزناً وألماً وضيقاً وإن بدا متجلداً ، ويضطر إزاء رجائها وإلحاحها إلى الإفصاح عن دواعي ارتحاله واغترابه .

ويتكرر هذا الموقف الدرامي - الذي يمثل - إن صح القول - مشهداً من فصل مسرحي - في قصيدتين أخريين ، وكأنما هو شريط مصور نراه مرة أخرى فالشخص ذاتها بملامحها الحزينة الباكية ، ومضمون الحوار يكاد لا يتغير وانظر إليه في موقف منهما قائلاً :

وقائلة لي والركاب مناخة

بكيرانها ترغو مراراً وتزغم
وقد أيقنت مني الرحيل فدمعها

توأم كما انفض الجمعان المنظم

دع الحل والترحال والشد واصطبر

فصبر الفتى لو شق أخرى وأحزم

ولا تجزعن إن الليالي بأهلها
تقلب والأيام يؤسى وأنعم^(١٣٠)
وفتاته على هذا النحو راجية
متوسلة ، فيجيبها بقوله :

فقلت لها والنفس في غلوائها
تجيش وأفكاري تغور وتتهم
نريني فإن الحر لا يالف الأذى
وقد أكثر النسل الجديل وشدقم
ومن يك مثلي ضيمه من رجاله
فترحاله لو مسه الضر أحزم
لعمرى لقد طال انتظاري ولا أرى

سوى نار شر كل يوم تضرم
تقولين عقبى الصبر حلو مذاقه
وما هي إلا مرة الطعم علقم

والجديد في هذا الضرب من الحوار القصصي أن نرى الشاعر هو الراحل المودع إذ جرت العادة عند أسلاف شاعرنا - في الغالب - أن تكون الصورة معكوسة فالشاعر هو الحزين المودع لفتاته ، وقد حذج ربعها عيسهم ، وأزمعوا الرحيل . ولكننا لا نعدم في شعره مثل هذا المشهد ، فهاهو ذا مضطرب القلب باكي العين ولما يرتحل بعد ركب حبيبته :

فيا باكيا قبل النوى خشية النوى
رويدا بعين جفنها سوف يقترح
ولا تعجلن واستبق دمعك إنني
رأيت السحاب الجون بالقطر ينزح
إذا كنت تبكي والأحبة لم يرد
ببينهم إلا حديث مطوح
فكيف إذا ما أصبحت عين مالك
وحبل الغضا من دونهم والمسيح
فكف شئون الدمع حتى تعثها
غداً ثم تهمني كيف شاعت وتسفح^(١٣١)

فالشاعر - في هذه الأبيات - يدير
حواره مع نفسه الجازعة وقد أهمها ذلك
الحديث المطوح عن رحيل الأحبة.
ونجده - في موضع آخر - يدير مثل هذا
الحوار مع قلبه فيقول :

قد قلت للقلب اللوح ومانات
دار وما عزم الخليط رحيلا
أصباة وأسى وما حدجوا لهم
عيسا ولا شدوا لهن حمولا
هذا الغرام فكيف لو نادى بهم
بين وأصبحت الديار ظلولا
فاستبق دمعك والحنين لساعة

تذر الأبليل من الرجال وببلا^(١٣٢)
ولرفاق الرحلة دورهم في حواره ،
وهو ينحو فيه منحى أسلافه الذين ألفنا
مثل هذا الحديث عندهم ، فنجدهم -
إما حقيقة أو توهمًا - يخاطبون رفيقاً أو

أكثر ، ويبثونه أو يبثونهم ، شجوههم
وحنينهم ، ولكن الملاحظ عند ابن
المقرب تكثيفه للحوار مع الرفاق ،
كقوله :

أقول لهم والعيس تسدو كأنها
مع الآل أمات الرئال الرواتك
أقيموا صدور اليعملات ورفعوا
عن السبل تنجو من سبيل المهالك
فعن لنا من بين ستين ليلة

وميض سنا عن أيمن الجو نابك
فقالوا ترى النجم اليماني قد بدا
يلوح بمستن من الأفق حالك
فقلت لهم ما ذاك نجم ترونه

بناجية الخضراء ذات الحباتك
فقالوا : فماذا ؟ قلت : نار بربرة
تشب لأبناء الهموم الضرائك^(١٣٣)

ويتكرر هذا الموقف بكل دقائقه
وشخصه وحواره المكثف في موضع آخر
من شعره^(١٣٤) .

ونجد ابن المقرب في إحدى قصائد
الفخر^(١٣٥) وقد خلص من نسيبه إلى
فخره عبر أسلوب قصصي ، مازجاً فيه
السرد بالحوار ، مما أضفى على أبياته
مزيداً من الحيوية والسلاسة فيقول :

بدت سافراً من درب دينار والصبا
يرنحها والذل والتيه والعجب
رأتني فأبدت عن أسيل وحجبت
بذي معصم جدل يعض به القلب

فالشاعر يحدد المكان ، ويركز أضواءه
على بطله الموقف ، تلك الحسنة
العراقية الحية التي فوجئت بهذا الوافد
الغريب ، ولكن المفاجأة - كما يبدو - لم
تذهلها عن طبيعتها الأنثوية :

وقالت : غريب والفتاة غريبة
ولا في نكاح الحل ذام ولا ذنب
ولكن عرضها السخي المفاجئ لم يشغله
عن فخره بقومه :

فقلت لها : إني ألوف ولي هوى
ومالي في بغداد شعوب ولا سرب
فقلت : وأين الشعب والسرب والهوى
فقلت بحيث الكر والطعن والضرب
فقلت : أرى البحرين دارك والهوى
بنيك وهذا ما أرى فمن الشعب

فقلت سلي حيي نزار ويعرب
بأعظمها خطباً إذا استبهم الخطب
وقد تحدث ابن رشيق^(١٣٦) عن
أسلوب الاعتراض في باب الالتفات وقد
سماه آخرون الاستدراك ، ولكنه اتفق في
تعريفه له - إلى حد كبير - مع أسامة
ابن منقذ ، وأبي هلال العسكري^(١٣٧)
فقال : "وسيله أن يكون الشاعر آخذاً

في معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن
الأول إلى الثاني فيأتي به ثم يعود إلى
الأول من غير أن يخل في شيء مما يشد
الأول"^(١٣٨).

يكثر أسلوب الاعتراض في شعر ابن
المقرب ، ويوظفه في خدمة أغراضه
المتعددة ، وبخاصة في مديحه ليحقق
بواسطته ما كان ينشده من المبالغات
التي رافقته طوال رحلته الفنية ، ومنه
قوله مادحاً :

بحر يوارى الربى والقور مزبده
وإنما البحر - تشبيهاً به - وشل^(١٣٩)
فلا يخفى أن قوله (تشبيهاً به)
اعتراض كانت المبالغة هدف الشاعر
منه ، ومثله قوله مادحاً :

الطعن منه كأفواه الزار - إذا
غصت - وطعن العدا كالوخز بالإبر^(١٤٠)
فاستدرك بقوله (إذا غصت) ما يمكن
أن يلتبس به المعنى ، أو ما يمكن أن
يعتوره من نقص . ومثله قوله :
إذا شמוש مواضيه طلعت فما
لهن - إلا بهامات العدا - أفل^(١٤١)
ومنه قوله :

مقالهم فذ إذا وعدوا الغنى
وضربهم - تحت العجاج - توام^(١٤٢)
وقد يوظف اعتراضه للدعاء لممدوحة
كقوله :

وأنت تعلم - لازلت المنيع حمى -

أن الشدائد للسادات غريبال (١٤٣)

ويوظف اعتراضه - أحياناً - للدعاء

على شائيء ممدوحه كقوله :

ويا مضمرأ بغضائه جن أو فمت

فداؤك - لا عوفيت منه - عقام (١٤٤)

وربما وظفها في مدائحه لاستدرار

عطف ممدوحه كقوله :

أفيت زادي ومركوبي وشيبيني

- على عتو جناحي - الخوف والوجل (١٤٥)

يلجأ ابن المقرب إلى استخدام كافة

أساليب الطلب ، وتكثيفها في شعره

وتوظيفها لإحداث المشاركة الوجدانية

المطلوبة بينه ومتلقي شعره . ويكاد

رصيد الشاعر من أساليب الأمر والنهي

والاستفهام يسير في ثلاثة خطوط متوازية

. وربما كان مرد انتشار صيغ الأمر

والنهي في شعره إلى وفرة الحكمة ،

واتساع مساحة النصح . ولم ينصح الناس

والحكام فحسب ، بل إنه يوجه هذه

الصيغ للحديث مع نفسه ، فيأمرها ،

ويستحثها ، وينهاها . كما أن رجاء

المدوحين - وهم كثر - يتطلب أحياناً

مثل هذه الصيغ ، وينبغي ألا نفعل

أسلوب الحوار مع رفاق الرحلة وما

يتطلبه من مثل هذه الأساليب ، كقوله

مخاطباً رفاق دربه :

تري حيث أعلام العيون تراها

فخلوا لأعناق المطي براها

ولا تعجلوها عن إناخة ساعة

فقد شفها تهجيرها وسراها

وياحادييها من زوي بن مالك

ذراها ترد ماء الوقيب ذراها

ولا تجذبها بالبرى وارخيا لها

فجذب البرى والانجذاب براها

لعلنا لاحظنا كيف تحاورت صيغ

الأمر والنهي في هذه الأبيات بغرض

الالتماس فالموقف يقتضي هذا التلون

الأسلوبي ، الذي أجاد الشاعر

استخدامه ، فأضفى جواً من الحيوية

على أبياته لولا ما وقع فيه من تنافر

حروف وتطريق في البيت الرابع . ومثل

هذا التجاور والتحاور ما يقتضيه أسلوب

الحكمة ، ومنه قوله :

لا تسألن الناس فضل نوالهم

والله والبيض الصوارم فاسأل

واجعل رسولك إن بعثت إلى العدى

زرق الأسنة فهي أصدق مرسل

واعلم هديت ولا أخالك جاهلاً

أن الرسول يبين عقل المرسل

كما يتعاقب الأمر والنهي في مقام

نصح الحكام ، وأهل العقد والحل في

موطنه كقوله في قصيدة بعث بها إلى أبي
علي إبراهيم بن أبي جروان وكان من
زعماء الأحساء :

واحذر أصيحاب النصائح واحترس
منهم فكلهم أخو كيسان
لا تحسبن الكلب يوماً دافعاً
بالنبح صولة ضيغم غضبان^(١٤٦)
وقوله في نصح الأمير أبي منصور بن
محمد بن علي العيوني :

لا تركنن إلى العدو ولا تطع
آراء من في حبل غيرك يحطب
واعص الذليل إذا أشار ولا تثق
في الكائنات بكل من تستصحب
واعلم بأن الناس قد جربتهم
فإننا صحيح الود منهم أجرب
واقبل نصيحة ماجد باعدته
عنكم لضعف الرأي وهو الأقرب^(١٤٧)

ولكننا نلاحظ - أحياناً - طغيان صيغ
الأمر في مقام نصح الحكام ، وانحسار
صيغ النهي بعض الشيء ، كقوله من
قصيدة يمدح فيها الأمير أبا شكر مقدم
بن ماجد بن محمد الفضلي العيوني :
لا تركنن إلى من لا وفاء له
الذئب من طبعه إن يقتدر يثب
ولاتكن لنزوي الأبواب محتقرا
نو اللب يكسر فرع النبع بالغرب

واحسب لشر العدى من قبل موقعه
فربما جاء أمر غير محتسب
وغر على الملك من لعب الرجال به
فالمك ليس بثبات على اللعب
وارفع وضع واعتزم وانفع وحز وصل
واقطع وقم وانتقم واصفح وخذ وهب
واحذر تؤخر فعلا صالحا لغد
فكم غد يومه غاد فلم يؤب^(١٤٨)
أما رصيده الوافر من أساليب
الاستفهام ، ففعل مرده إلى إحباطه ،
وحيرته وقلق نفسه ، لذا كثر هذا
الأسلوب ، وانتشر انتشاراً واسعاً في
شعره وتعددت معانيه التي أجاد الشاعر
استغلالها لخدمة أغراضه ، ويتقدم
الاستفهام التعجبي والإنكاري على سائر
معاني هذا الأسلوب ، ويشكل تفوقاً
ملحوظاً في مواطن شكواه بخاصة ،
كقوله :

إلام بني الأعمام نسقي نطافها
أجأجا ويسقى الغير غنياً وصافياً؟^(١٤٩)
وقوله :

أأصبر إما شاكياً متعتباً
إلى شامت أو باكياً أتظلم؟^(١٥٠)
وقوله :

أفي كل دار لي عدو أصاوله
وخصم على طول الليالي أزاوله؟^(١٥١)
وقوله :

أَرْضِي بما يَرْضِي الدني وصارعي
 حسام وعزمي عزم ذي لبسة ورد؟ (١٥٢)
 كما كثر استفهام التمني في مواقف
 الشكوى ، كقوله :
 ألا يا لقومي هل أرى في جنابكم
 مطاعاً لدى السادات منكم مبعجلاً ؟
 وهل أصبح الأعداء منكم بصيلاً
 تغادر دار القوم ربعا معطلا ؟
 أصبح حظي فيكم وهو ناقص
 وتعدو حظوظ الغير أوفى وأكملًا ؟ (١٥٣)
 وقد يوظف استفهام التمني لخدمة
 حنينه واغترابه ، كقوله :
 ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة
 بحيث التقى سقط اللوى والأبارق ؟
 وهل أرين العيس تهوي رقابها
 بنا حيث أنقاء العيون الشواهدق ؟
 وهل أردن ماء العذيب غدية
 وقد مل حاديننا وذل الفرائق ؟
 وهل تصبحني فتية أبواهم
 علي وفضل لا صدي وغافق ؟ (١٥٤)
 ويلاحظ أن استفهام التمني يأتي -
 غالباً - في عدد من الأبيات المتتالية ،
 وقلما يحدث ذلك في سائر معاني هذا
 الأسلوب كقوله من استفهام النفي في
 موقف حث ونصح لقومه :
 وهل مات من خوض الردى قبل يومه
 فتىً لو طيس الحرب مازال مفئدا ؟

وهل ساد راض مرتع الذل مرتعاً
 وهل فاز راض مورد الذل موردا ؟
 وهل عز بالأعداء من قبل تبيح
 مليك تمطى الملك كهلاً وأمردا ؟
 وهل طاب عيش بالمدارة أوصفا
 لو أن الداري راح بالخلد واغتنى (١٥٥)
 وقد يلجأ إلى أسلوب الاستفهام
 لإظهار تفجعه وحزنه في موقف الرثاء ،
 ونلاحظ في هذه الحالة تلاحق الاستفهام
 في عدد من الأبيات المتتالية كقوله في
 رثاء ابن عمه مذكور :
 فمن بعده ؟ من للرماح يعلها
 وينهلها من كل أشوس مطعان ؟
 ومن لتوالي المهقين إذا غدت
 تعاطى وأبدى الشر صفحة عريان ؟
 ومن لجليل الخطب يوماً إذا أتت
 هوازن تردي بين بيض وأبدان ؟
 ومن لمضيم مضه الضيم والتوى
 به نوظلامات تعد وعدوان ؟
 ومن لأسير غارم قل ماله
 وآب من المؤلى الشقيق بحرمان ؟ (١٥٦)
 ولا يخفى ما يؤديه الاستفهام في هذه
 الأبيات من دور في التعبير عن حزن
 الشاعر المتفجر ، تدفق هذا (المن) في
 مبدأ كل بيت منها . كما أن تكرار (من)
 الاستفهامية على هذا النحو له أثره
 الواضح في إثراء إيقاع هذه الأبيات .

الهوامش

=====

- ١ - في النقد الأدبي ، ص ١٤٠ - ١٤١ .
- ٢ - المرجع نفسه ، ص ١٣٩ .
- ٣ - د. محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص ٣٥٨ .
- ٤ - في النقد الأدبي ، ص ١٤٠ .
- ٥ - التمثيل والمحاضرة ، ص ١٨٨ .
- ٦ - انظر : النقد الأدبي الحديث ، ص ٢١١ .
- ٧ - التعبير البياني ، رؤية بلاغية نقدية ، ص ١٧٤ .
- ٨ - انظر : في النقد الأدبي ، ص ١٤٢ .
- ٩ - حديث الأربعاء ، ١/٢٢٢ .
- ١٠ - د. مصطفى ناصف ، نظرية المعنى في النقد العربي ١٠٥ : دار القلم بالقاهرة ١٩٦٥ م .
- ١١ - انظر : د. محمود الربيعي ، في نقد الشعر : ١٥٣ ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ ،
- ١٢ - الديوان ، ص ٤٤٩ .
- ١٣ - الديوان ، ص ٣٥١ .
- ١٤ - الديوان ، ص ٦٢٠ - ٦٢١ .
- ١٥ - المصدر نفسه ، ص ٥٨٧ .
- ١٦ - جاء في هامش الديوان ، ص ٥٨٨ أن مساكن بني قضاة كانت بين جدة ومكة وقد أجلاهم عنها العدنانيون .
- ١٧ - كلب ، ونهد ، وخولان ، من قبائل قضاة .
- ١٨ - يوم " خزازى " كان لمعد على مذبح . ويوم " السلان " كان لبني عامر على النعمان ابن المنذر اللخمي . انظر : الديوان ، ص ٥٨٨ .

١٩ - صُهبان : هو صهبان بن سعد بن مالك النحوي . جاهلي قحطاني . الجمهرة ، ص ١٤٤

٢٠ - الديوان ، ص ٥٩٠ .

٢١ - المصدر السابق ، ص ٤٥٥ ، ناقة وجناء : شديدة متينة الخلق ، والعيهم : الناقة السريعة .

٢٢ - المصدر نفسه ، ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

٢٣ - الديوان ، ص ٢٠١ .

٢٤ - المصدر نفسه ، ص ٢٨١ .

٢٥ - المصدر نفسه ، ص ٣٩٩ .

٢٦ - المصدر نفسه ، ص ٤١٩ .

٢٧ - المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .

٢٨ - المصدر نفسه ، ص ٤٣٧ .

٢٩ - المصدر نفسه ، ص ٤٣١ .

٣٠ - المصدر نفسه ، ص ٦٢٠ .

٣١ - الديوان ، ص ٢٠٣ .

٣٢ - المصدر نفسه ، ص ٥٠١ .

٣٣ - المصدر نفسه ، ص ٦٥٢ .

٣٤ - انظر : الحلقات السابقة من هذه الدراسة ، وانظر : الديوان ، ص ٤٩٥ و ٥١٩ .

٣٥ - الديوان ، ص ٢٦٦ .

٣٦ - الديوان ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

٣٧ - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، ص ١٨ .

٣٨ - الديوان ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

٣٩ - المصدر السابق ، القصيدة ذاتها ، والموضوع ص ٢٧٠ ، وابن الرقاع هو عدي بن الرقاع ، ويقال أنه من بني عاملة والله أعلم (الجمهرة ص ٢٠٠) وهو شاعر أموي كان معاصراً لجريز مهاجياً له ، وقد عيره الراعي النميري بقومه (التمثيل والمحاضرة ص ٦٨) حين قال :

لو كنت من أحد يهجي هجوتكم يا ابن الرقاع ولكن لست من أحد

٤٠ - المصدر نفسه ، القصيدة ذاتها ، والموضع نفسه .

٤١ - الديوان ، ص ٢٧٢ ، ولعله يعني بالمنذران : المنذر بن ماء السماء وهو المنذر الأكبر أخو النعمان الأكبر أحد ملوك الحيرة (العمدة ٢/٢٢٩) ، والثاني هو المنذر بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ، أحد أمراء الغساسنة (الجمهرة ، ص ٣٧٢) وذو الكلاع : هو يزيد بن النعمان الحميري ذو الكلاع الأكبر ،

وذو الكلاع الأصغر سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر من ملوك اليمن في الجاهلية (الجمهرة ، ص ٤٣٤) .

٤٢ - المصدر نفسه ، ص ١٣٧ .

٤٣ - المصدر نفسه ، ص ٣٨٣ .

٤٤ - والتوليد صناعة يدور بها ذهن الشاعر ، وتعالجها نفسه ، فيأتي المعنى ناشئاً عنه ، ويكون وليداً له ، فيصبح معنىً مفتعلاً مصنّعاً لا مبتدعاً ولا مطبوعاً وقد يجود المعنى مع التوليد .. ولكنه في ذلك يأتي وليد الكد وثمرة المجاذبة ، ولكنه طرب العقل ، لا طرب القلب ، ولذة الفهم لآذة الوجدان (د. محمد الهياوي - الطبع والصناعة في الشعر ، ص ١١٥ ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٣٥٨هـ) .

٤٥ - الديوان ، ص ٣٩ .

٤٦ - المصدر نفسه ، ص ١٠٥ .

٤٧ - المصدر نفسه ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

٤٨ - المصدر نفسه ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

٤٩ - المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

٥٠ - المصدر نفسه ، ص ٣١٩ .

٥١ - المصدر نفسه ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

٥٢ - انظر : الحلقات السابقة من هذه الدراسة .

٥٣ - الديوان ، ص ١٠٠ .

٥٤ - المصدر نفسه ، ص ٢٨٣ .

٥٥ - انظر : الحلقات السابقة من هذه الدراسة .

٥٦ - الديوان ، ص ٥٩٤ - ٦٠٠ .

٥٧ - نفس المصدر ، ص ٣٠١ .

٥٨ - انظر : ابن رشيق ، العمدة ١/١٨٦ وما بعدها ، وانظر : اللسان ، مادة قصد ،

والقاموس المحيط ١/٣٤٠ .

٥٩ - العمدة ، ١/١٨٨ - ١٨٩ .

٦٠ - د. محمد عويس ، مجلة الشعر ، مقال البناء الموضوعي للقصيدة العربية في

العصر الجاهلي ، ص ٩٣ العدد ٩ يناير ١٩٧٨ م .

٦١ - العمدة ، ١/١٨٦ .

٦٢ - نفس المصدر والموضع .

٦٣ - الديوان ، ص ٥٠٥ .

٦٤ - المصدر نفسه ، ص ٥٧٧ ، والنيران في الديوان (النار) والوزن لا يستقيم بها .

٦٥ - المقطوعة رقم " ١٣ " من الملحق .

٦٦ - الديوان ، ص ٤٦٥ .

- ٦٧ - المقطوعة رقم " ٥ " من الملحق .
- ٦٨ - انظر : تحليلنا لطول مدائحه في الحلقات السابقة من هذه الدراسة .
- ٦٩ - الديوان ، ص ٣٩ .
- ٧٠ - المصدر نفسه ، ص ٥٦٧ .
- ٧١ - المصدر نفسه ، ص ٥٢٧ .
- ٧٢ - المصدر نفسه ، ص ٣٦ .
- ٧٣ - المصدر نفسه ، ص ٥٨٤ .
- ٧٤ - انظر الحلقات السابقة من هذه الدراسة .
- ٧٥ - د. صلاح فضل : نظرية البنائية في النقد الأدبي ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ م ، ص ٢٦٩ .
- ٧٦ - المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .
- ٧٧ - في النقد الأدبي ، د. شوقي ضيف ، ص ١٢٩ .
- ٧٨ - د. عز الدين اسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٤٠ .
- ٧٩ - إليزابيث درو ، الشعر ، كيف نفهمه ونتذوقه ، ترجمة د. محمد الشوش ، مكتبة ميمنة ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٨٩ .
- ٨٠ - د. طه وادي ، شعر ناجي - الموقف والأداة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٠١ .
- ٨١ - الديوان ، ص ١٠٥ .
- ٨٢ - المصدر نفسه ، ص ٥٨٢ .
- ٨٣ - المصدر نفسه ، ص ٥١٧ والحرث : هو الحرث بن عباد البكري ، والمهلهل : هو المهلهل بن ربيعة بن الحرث التغلبي ، وعمرو : هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وبسطام : هو بسطام بن قيس الشيباني ، وحرار الذي اضطر الشاعر لترخيم اسمه : هو الحرث بن ظالم بن جذيمة المري (الجمهرة ، ص ٣٠٥ ، ٤١١ ، ٣٢٦ ، ٢٥٣) .
- ٨٤ - المصدر نفسه ، ص ٤١٧ والشيطان : واديان في ديار تميم ، لبني دارم ، وبه يوم للعرب ، (مراصد الاطلاع ص ٨٢٦) ولعلع : قيل منزل بين البصرة والكوفة (مراصد الاطلاع ص ١٢٠٥) وأواره : يومان مشهوران ، يطلق على أحدهما أواره الأول ، وكان لتغلب على بكر بن وائل والثاني يطلق عليه أواره الأخير وكان لعمر بن هند على ابن دارم (العمدة ، ٢/ ٢١٥ - ٢١٦) وحمى ضرية : وهو يوم مشهور لبني سعد والرياب وبني حنظلة ، اجتمعوا فيه لحرب ثم اصطلحوا (العمدة ، ص ٢٠٩) والتباج وثيتل : من أيام العرب المشهورة (أيام العرب في الجاهلية ، الحلبي ط ١٩٤٢/١ ص ١٧٥) .

- ٨٥ - المصدر نفسه ، ص ١٩٩ وعمير : فرس حنظلة بن سيار (تاج العروس ٤٣٤/٣)
والضبيب : فرس حسان بن حنظلة الطائي (أنساب الخيل لابن الكلبي ، ص ٩٥)
وكامل : من خيل ضبة (أنساب الخيل ، ص ٥٢١) وذات نسوع : فرس بسطام بن قيس
(تاج العروس ٥٢٣/٥) والنعام : فرس قراص الأزدي (أنساب الخيل ص ١٠٦)
والخطر : لعله الخطار وهو لحذيفة بن بدر (العمدة ٢٣٥/٢) .
- ٨٦ - الديوان ، ص ٤٦ ، ومقدحرة : متهينة للشر والقتال .
- ٨٧ - المصدر نفسه ، ص ١٥٦ ، والبلتعاني : المتظرف المتكيس وليس عنده شيء .
- ٨٨ - المصدر نفسه ، ص ٤٦٨ ، والمصنعة : الداهية .
- ٨٩ - المصدر نفسه ، ص ١٥٢ ، والمحبنطي : الممتلي غيظاً .
- ٩٠ - المصدر نفسه ، ص ١٧١ ، والمعلهج : الأحقق اللثيم .
- ٩١ - انظر الديوان ص ٣٢٥ و ٣٣٠ و ٦٥٩ .
- ٩٢ - البديع في نقد الشعر ، ص ٢٩٥ .
- ٩٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٩٧ .
- ٩٤ - الديوان ، ص ١٠٦ .
- ٩٥ - المصدر نفسه ، ص ٥٠٤ .
- ٩٦ - المصدر نفسه ، ص ٦١١ .
- ٩٧ - المصدر نفسه ، ص ٥٨٠ .
- ٩٨ - في النقد الأدبي ، ص ١١٥ - ١١٦ .
- ٩٩ - انظر محمد رشاد خليل ، البناء الفني للقصيدة العربية حتى نهاية عصر
المخضرمين ، ص ٣٦ (رسالة دكتوراه مخطوطة بآداب القاهرة .
- ١٠٠ - الديوان ، ص ١٠٥ .
- ١٠١ - نفس المصدر ، ص ١٣٢ ، والبحر : جمع بحيرة ، وكانت العرب إذا أنتجت الناقة
عشرة أبطن تشق أذنّها وتطلقها ، ولاتنتفع منها بلبن ولاظهر (اللسان : بحر) وتجدد
الضرع : ذهب لبنه (اللسان : جدد) .
- ١٠٢ - نفس المصدر ، ص ١٥٢ ، وأزى أي تقلص (اللسان : أزا) .
- ١٠٣ - ابن الرومي ، حياته من شعره ، ص ٣٣٣ .
- ١٠٤ - انظر الديوان ، ص ٣٨ ، ٤١ ، ٧٦ ، ٣٤٠ .
- ١٠٥ - نفس المصدر ، ص ٥٢٤ .
- ١٠٦ - نفس المصدر ، ص ٦١ .
- ١٠٧ - نفس المصدر ، ص ٥٢٩ .
- ١٠٨ - نفس المصدر ، ص ٣٣١ .
- ١٠٩ - نفس المصدر ، ص ٦٠٦ .
- ١١٠ - نفس المصدر ، ص ٥٧ .

- ١١١ - نفس المصدر ، ص ٤٣ .
- ١١٢ - نفس المصدر ، ص ٥٥ .
- ١١٣ - نفس المصدر ، ص ٣٤٢ .
- ١١٤ - نفس المصدر ، ص ٣٥ .
- ١١٥ - نفس المصدر ، ص ٢٢٤ وما بعدها ، و ٥٠٥ وما بعدها .
- ١١٦ - نفس المصدر ، ص ١٨٩ .
- ١١٧ - نفس المصدر ، ص ٧٨ .
- ١١٨ - نفس المصدر ، ص ٨٩ .
- ١١٩ - ابن مقرب ، حياته وشعره ، ص ١٥٩ .
- ١٢٠ - الديوان ، ص ١٤١ .
- ١٢١ - نفس المصدر ، ص ٣٢ .
- ١٢٢ - أصول النقد الأدبي ، ص ٢٥٨ .
- ١٢٣ - انظر د. أحمد الشايب ، الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية ط ٥ / ١٩٥٦ ص ٧٣
- ١٢٤ - الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، دار إحياء الكتب العربية (الحملي) بدون تاريخ ، ص ٢٤ .
- ١٢٥ - ابن طباطبا ، عيار الشعر ، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٩٥٦ م ص ٨ .
- ١٢٦ - الشعر كيف نفهمه ونتوقه ، ص ٩١ .
- ١٢٧ - انظر د. عبد المنعم الرجيبي ، الحنين إلى الديار في الشعر العربي إلى نهاية العصر الأموي ، رسالة دكتوراه مخطوطة بآداب القاهرة ١٩٧٩ م ، ص ٦٥٤ وما بعدها .
- ١٢٨ - الخيال الشعري عند العرب ص ٩٥ - ٩٦ .
- ١٢٩ - الديوان ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .
- ١٣٠ - نفس المصدر ، ص ٤٥٠ - ٤٥١ .
- ١٣١ - نفس المصدر ، ص ١٣٠ .
- ١٣٢ - نفس المصدر ، ص ٤٠٦ ، والأبيل : الراهب أو رئيس النصاري ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يسمى أبيل الأبيليين (اللسان : أبيل) .
- ١٣٣ - نفس المصدر ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ، وتسدو : يتسع خطوها ، والرئل : فرخ النعام ، والروائك : القرية الخطو ، والنايك : المرتفع ، والخضراء : السماء ، وحبك السماء : طرائقها أي طرائق النجوم ، والضريك : الزمن والضريير والفقير .
- ١٣٤ - نفس المصدر ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .
- ١٣٥ - نفس المصدر ، ص ٢٧ - ٢٨ .
- ١٣٦ - العمدة ، ٤٥/٢ .
- ١٣٧ - انظر : البديع في نقد الشعر ، ص ١٣٠ ، وانظر : كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، ص ٣٩٤ .

- ١٣٨ - العمدۃ ٤٥/٢ .
- ١٣٩ - الديوان ، ص ٤٤٥ .
- ١٤٠ - نفس المصدر ، ص ٢٣٣ .
- ١٤١ - نفس المصدر ، ص ٤٤٣ .
- ١٤٢ - نفس المصدر ، ص ٤٧٥ .
- ١٤٣ - نفس المصدر ، ص ٣٩٢ .
- ١٤٤ - نفس المصدر ، ص ٦٣٤ .
- ١٤٥ - نفس المصدر ، ص ٤١٣ .
- ١٤٦ - نفس المصدر ، ص ٦٤١ .
- ١٤٧ - نفس المصدر ، ص ٩٠ .
- ١٤٨ - نفس المصدر ، ص ٨٣ .
- ١٤٩ - نفس المصدر ، ص ٦٥٨ .
- ١٥٠ - نفس المصدر ، ص ٤٥١ .
- ١٥١ - نفس المصدر ، ص ٣٣٤ .
- ١٥٢ - نفس المصدر ، ص ١٣٦ .
- ١٥٣ - نفس المصدر ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .
- ١٥٤ - نفس المصدر ، ص ٢٩٤ ، والفرانق : الذي يدل صاحب البريد على الطريق .
- ١٥٥ - نفس المصدر ، ص ١٥٠ - ١٥١ .
- ١٥٦ - نفس المصدر ، ص ٥٩٧ .

ابن المقرب

بقلم: الدكتور احمد موسى الخطيب

نقدم على هذه الصفحات الحلقة الأخيرة من الدراسة الخاصة بالشاعر البحريني الكبير علي بن المقرب العيوني . . وقد بدأ الباحث الدكتور أحمد موسى الخطيب في الحلقة السابقة حديثه عن قيم التجديد عند الشاعر العظيم كما تناول المقطوعات والقصائد ثم وحدة القصيدة . . وهو يستكمل في هذا الجزء ما بدأه من حديث . . ولا أعتقد أننا بعد هذه الرحلة مع الشاعر الكبير في حاجة إلى التأكيد على أن القيمة الكبيرة لشعر ابن المقرب إضافة إلى قيمتها الأدبية هي أنها تؤرخ لفترة من أهم الفترات في تاريخ البحرين . . وهي دولة العيونيين

[الوثيقة]

v

الفيونى



الموقف ٢٣٣

AL WATHEEKAH -133

شاءت الأقدار أن يغترب شاعرنا ،
وأن يختار الغربية بديلاً عن ذل الإقامة
في وطنه وبين أهله ، ولكنه سرعان ما
وجد نفسه في غربته مشدوداً إلى الوطن
والأهل ، يرجو الركبان - وقد يمت
صوب البحرين - أن تحمل أشواقه
وتحياه إلى أحبائه هناك ، ويكون
المخاطب - غالباً - مسافراً مضى مسرعاً
يعتسف الصحراء وقد امتطى ناقة قوية
سريعة ، وكأنما الشاعر يطمئن بذلك
على سرعة وصول رسالته ، وهي دائماً
رسالة شغوية تفيض بمشاعر الاغتراب
الحزينة كما تفيض بصراع نفسه بين
شوقه إلى الأهل ، وضيقه بما ناله منهم
وكان سبباً في نأيه عنهم . ويلاحظ أن
هذا الأسلوب قد اختصت به بعض
قصائده العراقية كقوله :

فيا راكباً تطوي به البيد جسرة
وتغال عيطان الفلا والأخاشبا
إذا أنت ألقيت العصي مختماً
بالاحسا وجاورت الملوك الأطايبا
فيمم لجرعاء الشمال فإن لي
بها خلة اشتاقها وملاعبا
وقف وقفة بالدرب غربي بابها
فثم تلاقي أسرتي والأقاربا^(١)
ثم يقول من القصيدة ذاتها :

فقل لهم بعد السلام مقالة
تعم بها عني شبابا وشائبا
ألا يا لقومي والفتى حين يرتمي
به الدهر يدعو قومه لا الأجانب
كفى حزناً أني ببغداد مفرد
عن الأهل ألقى كل يوم عجائباً
ويشتاقكم قلبي فأذكر دونكم
مهامه لأشتاقها وسباسبها
فيسهل عندي خوضها فيعز لي
تذكر حالات أشبن الذوائب
وشبيه بهذا الأسلوب الذي سلكه
الشاعر لتوصيل أحاسيسه ، وعبر من
خلاله عن مبلغ شوقه للأهل والوطن
قوله :

فيا راكباً وجنء تستغرق البرى
ويطوي الفيافي خطوها وانجذابها
أقم صدرها قصداً إلى الخط واحتقب
رسالة ود أنت عندي كتابها
فحين ترى الحصن المعلا مقابلاً
ويبدو من الدرب الشمالي بابها
فلج بسلام آمناً تلق بلدة
مقدسة الأكفاف رحبا جنابها^(٢)
ونجده يحمل النسيم - على غير
عادته - رسالة شوق إلى أحبائه في
العراق فيقول من قصيدة يمدح فيها أمير
البصرة باتكين :

أنسيم نجد بالمهتك سحرة
لشفاء ذي الكبد العليل عليلا
أحمل إلى أرض العراق رسالة
عني فما ارضى سواك رسولا
والبصرة الفيحاء لا تتخلفن
عنها ولا تتجاوزنها ميلا^(٣)

ولا نستبعد أن تكون هذه القصيدة
مما دبجه الشاعر في مدح الأمير شمس
الدين وهو بعيد عنه .

وقد يلجأ إلى التكرار لتلوين أسلوبه
وهو أن يكرر الشاعر لفظاً أو معنى وأكثر
ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني^(٤) .
ويبدو أن ابن المقرب كان يلجأ عادة إلى
هذا الأسلوب لتعظيم ممدوحيه ، وإثراء
موسيقاه . وهذا ما يفسر لنا استقلال
قصائد المديح - تقريباً - به . فأسلوب
المدح (بنعم) - مثلاً - لا يأتي إلا مكرراً
في مدائحه كقوله في مدح الأمير العيوني
الفضل علي بن مسعود بن أبي القاسم :

لعمري لنعم المرء أنت إذا التقت

صدر المذاكي والخفاف النوابل

ونعم المرجى في السنين إذا استوت

من الضر أبناء السرى والأرامل

ونعم المراعى للنزِيل إذا غدا
أكيلاً وأفنى ماله من ينازل

ونعم الصريخ المستجاش إذا ارتوت
لدى الروح من هام الكماة المناصل
ونعم لسان القوم إما تأخرت
عن القول سادات الرجال المقاول
ونعم مناخ الركب أهدى له السرى
سنا النار في الظلماء والعام ما حل^(٥)
ويتكرر أسلوب المدح بنعم على هذا
النحو في موضعين من شعره^(٦) . ومن
التكرار اللفظي الذي يوظفه لخدمة
مديحه وموسيقاه قوله في مدح بدر الدين
لؤلؤ :

هذا هو الملك بدر الدين خير فتى
به تعلق للراجي الغنى أمل
هذا الذي لو يبارى فيض راحته
فيض البحار لما أضحى لها بلل
هذا الذي لو لليت الغاب نجدته
ما حل إلا بحيث الشيخ والنفل
هذا الذي بالندى والبأس يعرفه
وبالتقى كل من يحفى وينتعل^(٧)

ولا يخفى دور التكرار اللفظي - في
هذه الأبيات - في إعلاء النبرة الخطابية
إلى جانب ما يتطلبه افتتاح كل منها
باسم الإشارة من استدراج لتعريف (هذا)
المبهم بما يدعو للمبالغة والغلو. ويندر
عند شاعرنا تكرار المعنى دون اللفظ
كقوله :

فلم أر منهم غير خب يمدلي
لسان محب من طوية قال^(٨)
له شيمة السنور في لطف خدعه
ولكنه في اللمس حية ضال

* * * *

إذا كنا نعني " بالوحدة العضوية " وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي الذي يثيره الموضوع ، وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية ، لكل جزء وظيفته فيها ، ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر^(٩) . فالوحدة العضوية بهذا المفهوم الحديث " لم تكن تعرفها القصيدة العربية معرفة واضحة قبل عصرنا الحديث إلا نادراً ، وربما كان مرجع ذلك إلى تقييد شعرائنا في العصور الوسطى بنموذجها الذي وضعه لها شعراء العصر الجاهلي^(١٠) ولا يعني هذا أن القصيدة العربية لم تكن تعرف وحدة الموضوع وما يستتبعها من وحدة نفسية بل نحن لا نعدم بعض الإرهاصات لمفهوم الوحدة العضوية عند نقادنا القدماء . فابن طباطبا يرى " أن أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه

انتظاماً ينسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فإن قدم بيتاً على بيت دخله الخلل ، كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقص تأليفها .. ويجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها ، نسجاً وحسناً وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ، ودقة معان ، وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يضعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً .. لا تناقض في معانيها ، ولا وهْي في مبانيها ، ولا تكلف في نسجها^(١١) .

كما يشترط المرزوقي في عمود الشعر "التحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، وعيار ذلك الطبع واللسان ، فما لم يتعثر الطبع بأبنيته وعقوده ، ولم يتحبس اللسان في فصوله ووصله ، بل استمر فيه واستهلاه بلا كلال ولا ملال فذلك يوشك أن يكون القصيدة منه كالبيت والبيت كالكلمة ، تسالماً لأجزائه وتقارناً^(١٢) وأجود الشعر عند الجاحظ " ما رأيت متلاحم الأجزاء سهل الخارج ، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً ، فهو

يجري على اللسان كما يجري فرس
الرهان" (١٣) .

ولكن نقادنا القدامى في فهمهم لتألف
المعاني في الشعر لا يلقون بالاً لوحدة
العمل الأدبي ، بوصفه كلاً يتطلب
أجزاء خاصة ، إذ أن مبلغ جهدهم هو
وصل الأفكار الجزئية بعضها ببعض
داخل البيت أو البيتين
المتجاورين (١٤). "وربما فهموا أن معنى
الوحدة هو إجادة وصل أجزاء القصيدة
بعضها ببعض وإن لم يكن بين الأجزاء
صلة" (١٥) بل ربما قالوا الشيء وضده ،
فابن رشيقي الذي أورد قول الجاحظ في
تحديد معنى جيد الشعر، نجده يقول
"ومن الناس من يستحسن الشعر مبنياً
بعضه على بعض ، وأنا أستحسن أن
يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج
إلى ما قبله ، ولا إلى ما بعده ، وما
سوى ذلك فهو عندي تقصير إلا في
مواضع معروفة مثل الحكايات
وما شاكلها" (١٦) .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ،
هل نستطيع أن نخضع بعض قصائد
ابن المقرب لمفهوم الوحدة العضوية الذي
ينادي به النقد الحديث ؟ .

لقد حقق شاعرنا وحدة الموضوع ،
ووحدة الجو النفسي في خمس عشرة

قصيدة ، وهذه القصائد تحقق جانباً
هاماً من جوانب الوحدة العضوية ،
ولكنها لا تحقق كل شروطها ، أو
بمعنى أدق لا يتأتى لها أن تحقق بقية
شروطها من ترتيب الصور والأفكار
ترتيباً تتقدم به القصيدة تدريجاً حتى
تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب
الأفكار والصور ، أو أن تكون أجزاء
القصيدة كالبنية الحية لكل جزء ووظيفته
فيها .. وذلك لأن (البيت) هو الوحدة
البنائية عنده ، وكانت براعة الشاعر
تتوقف على قدرته في تركيز معناه
وإيجازه في البيت الواحد ، بل ربما
عابوا عليه - كما هو الحال عند ابن
رشيقي - أن يكتمل معنى البيت السابق
بتاليه . فالشعر الجيد عندهم ما دل فيه
صدر البيت على عجزه ، لا ما دل فيه
البيت على ما بعده . لذا فالوحدة
العضوية بالمفهوم الحديث لم يحققها
ابن المقرب في أي من قصائده ، ولكنه
حقق الوحدة الموضوعية لبعض قصائده ،
إذ تدور القصيدة كلها حول موضوع
واحد أو بمعنى أدق يظل الغرض
الرئيسي بارزاً فيها كما حقق لتلك
القصائد أيضاً وحدة الجو النفسي ، ولا
أريد أن أذهب إلى ما هو أبعد من ذلك
في تطبيق هذا المفهوم الحديث على

قصائده ، لأنه كان يراعي فيما ينظم مفاهيم عصره النقدية ، وتقاليد الفنية الموروثة . وحسبنا مرثيته لإبن عمه مذكور والتي بلغت ثلاثة وخمسين بيتاً ، واستهلها بقوله :

أظنك خلت الشوق والنأي أبكاني

فأقبلت نحوي يابس الدمع تلحاني^(١٧)

فلم يخرج فيها عن موضوع الرثاء ، وتلونت ألفاظ الشاعر وعباراته وصوره بإحساسه الحزين ، فتعانت فيها ألفاظ الدموع والبكاء والنواح والحزن والموت ، وحتى قافية القصيدة (النون) التي التزم قبلها حرفاً من حروف المد ، كانت بمثابة توقيع حزين يتوالى مع نهاية كل بيت ، كما كان لهذه القافية ذات الإيقاع الحزين أثرها في انتشار حرف النون بكثرة في ألفاظ القصيدة ، فكأنها نبع حزين يفيض على ما حوله ، ويشيع فيه جو الحسرة والألم .

ومثل هذه المرثية - في وحدة الموضوع والجو النفسي - قصيدته في هجاء ابن الديبثي ، استهل إحداها بقوله :

بع واسطاً بالنأي والهجر

ودع المرور بها إلى الحشر^(١٨)

وقد بلغت هذه القصيدة ثمانية وأربعين بيتاً ، صب فيها جام غضبه على مهجوه ، ولم يتخللها سوى سبعة أبيات في الفخر بالنفس ، وهي في موضعها تمثل هجاءً بالمقابلة .

أما قصيدته الثانية في هجاء ابن الديبثي والتي استهلها بقوله :

قالوا الديبثي ذو قوافٍ

محكمة النظم مستقيمة^(١٩)

فتبلغ أبياتها واحداً وأربعين بيتاً ، وجاءت امتداداً لغضبه السابقة ، ولم يخرج فيها إلى أي موضوع آخر ، وحقق لها بذلك وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي .

ويقودنا الحديث عن الوحدة العضوية - بالضرورة - إلى الحديث عن شكل بنائي آخر سلكه ابن المقرب في بناء قصائده ، ونقل به تجاربه ، وهو البناء التقليدي ذو الموضوعات المتعددة الذي يمثل أغلبية ساحقة في ديوانه . وهو الشكل الذي سارت عليه القصيدة العربية ، حيث تتجمع عدة موضوعات مختلفة في قصيدة واحدة ، فنجد المديح إلى جانب الفخر إلى جانب الغزل وربما الشكوى .. وتفترق القصيدة إلى الوحدة الموضوعية ، حتى ليسهل تقسيمها إلى قصائد متعددة بتعدد موضوعاتها .

وقد ظلت هذه الظاهرة الفنية البنائية للقصيدة العربية كما هي ، رغم اختلاف العصور والبيئات ، وحتى بعد مجيء الإسلام وما أحدثه من تغيير في المجتمع العربي كان له أثره في الحياة الفنية ، إلا أن بنية القصيدة لم يمسه تغيير وإن مس بعض تفصيلاتها^(٢٠) . وذلك لأن المجتمع العربي ، "حين نظر في الشعر لم ينظر إليه أي نظرة تطورية، ولكنه كان ينظر في الأغلب الأعم نظرة فنية صرفاً ، وكانت نظراته مرتبطة بالاعتبارات ، والتقاليد الفنية الشكلية فهذه الاعتبارات والتقاليد هي التي أثرت في الأدب العربي وكان الخروج عليها بمثابة الخروج على أوضاع المجتمع ذاته"^(٢١) .

كما أصبح المجتمع العربي من حيث علاقته باللغة العربية ينقسم إلى طبقة العامة ، وطبقة الخاصة . وتحاول هذه الطبقة الأخيرة التمسك بالعربية الفصحى .. من حيث هي مميزهم عن غيرهم من العامة ، وكان المفروض أن الشعراء يمثلون في المجتمع هذه الطبقة المثقفة الممتازة ، فلم يكن لهم مناص لذلك من أن يخضعوا للتقاليد الفنية التي سبّقوا إليها في نظام القصيدة وإطارها العام^(٢٢) .

فابن المقرب - كأبي شاعر قديم - كان يؤلف قصيدته - غالباً - وفقاً لنسق معلوم يدركه بالبدئية ، ولم يكن يملك إلا أن يخضع للتقاليد الفنية الشكلية بحكم انتمائه إلى الطبقة الأرستقراطية المثقفة .

وأول أنماط بناء القصيدة عند ابن المقرب ، هو البناء التقليدي ذو الموضوعات والعواطف المتعددة ، المفتقر إلى الفكرة العامة أو المحور الواحد والذي تحشر فيه الأفكار حشراً ، وترص فيه المعاني رصاً . وهو النظام البنائي الشائع عنده .

ولنأخذ - على سبيل المثال - قصيدته في مدح الأمير العيوني الفضل بن محمد بن أبي الحسين ، والتي بلغت أبياتها سبعة وثمانين بيتاً ، فقد استهلها بلوم نفسه لجريها وراء سراب خادع ، وقبولها العيش في مجتمع انقلبت فيه أوضاعه ، واضطربت أشد الاضطراب فيقول :

سُقْها ولو ذهب السرى بسراتها
كم ذا ترد النفس عن عزماتها
طال امتراؤك خلف كل رذيلة
أكدى لدى الإيساس من ثفناها
سفهاً لرأيك إن سررت بروضة
لمزنم العدان غرض نباتها

أوليس جهلاً أن تسيم بمرتج

أكلت به المعزى لحوم رعاتها^(٢٣)

ثم يتوجه بالعتاب لقومه على
مواقفهم السلبية منه ، وإنكارهم له
ولجهوده الجادة في الدفاع عنهم ،
وتبصيرهم بما يدبر سراً وجهراً للإيقاع
بهم ، فيقول :

إن يرض قومي الهون في فطالما
عمدا أهنت النفس في مرضاتها

كم قد غدوت ورحت غير مقصر

في لم فرقتها وجمع شتاتها

ولكم عصيت بها العذول ولم أذع

ما بان للأعداء من عوراتها

حاميت عن أعتابها ورميت عن

أحسابها وسهرت في نوباتها

بهرًا لها أومادرت أن الذي

يدعى مسرتها وغيظ عداتها

كم زبيلة حفرت لها يد كاشح

يبغي لها الأسواء في غفلاتها

مازلت أهدم جالها حتى غدت

أبحاثها تنهار في مهواتها

ونلاحظ أن النبذة الفاخرة القوية

التي بدأ بها قصيدته ، قد استحالت

إلى نبذة أقرب إلى الشكوى في هذه

الآبيات . ثم يعرض بأعداء قومه قائلاً :

مهلاً بني اللؤماء ثم تبينوا

سباقها السامي إلى غاياتها

وينتقل بعد ذلك إلى الفخر بقومه

المتحدين من "ربيعة" :

قومي سراة ربيعة وملوكها

وإذا نسبت وجدت من سرواتها

الطاعنين الخيل في لباتها

والضاربين الصيد في هاماتها

ولكن هذه النبذة العالية سرعان ما

ينحدر خطها البياني ، فيقول :

هون فقومك يا علي حياتها

كمماتها ومماتها كحياتها

لو كان فيها من همام ماجد

لم تسق مر الضيم من راحتها

سلبتك ما خولته من نعمة

ورماك من ناواك من مرماتها

وكأن الشاعر - بجو الحسرة الذي

أشاعه في هذه الآبيات - قد مهد

لموضوعه التالي وهو "رثاء" والد المدوح

الأمير محمد بن أبي الحسين ، حتى لا

يكون التحول إلى الرثاء نقلة مفاجئة في

الإحساس ، إلى جانب النقلة المفاجئة

في المعنى ، فيقول :

مذ وارت الغبراء شخص محمد

رحل العلا والمجد من أبياتها

أو ما تراها كيف نام عدوها

أمنًا وما قد نال من خيراتها

وترى أقاربها وأهل ودادها
غرض البلى في صباحها وبياتها
ولكن وقفته لم تطل عند الفقيد ،
ليعلن عن عزمه على الرحيل :
فلأرحلن عنها رحيل مفارق
ولأزجرن النفس عن لفتاتها
وقبل المضي بعيداً في آفاق الأرض ،
لابد من قضاء حق القرابة :
لكن لي " بالخط " وقفة ساعة
بمحل سادتها ودار حماتها
لقضاء عذر من ملوك لحمها
لحمي وأخشى اللوم إن لم آتها
ثم بلتفت إلى ابن عمه الأمير الفضل
مادحاً راجياً :
ورجائي في فضل الندى بن محمد
إدراك ما في النفس من حاجاتها
السابق القوم الكرام إلى العلا
سبق المبرز في مدى حلباتها
ويفيض في خلع صفات المدح - بشيء
من المبالغة - عليه ، ويقوده الحديث
عن أبوة ممدوحه إلى العودة ثانية لموقف
الرثاء :

يا سوء حظ بني نزار بعده
وشقاء حاضرها وشؤم بداتها
من للمكارم والصوارم والقنا
والمرملات ومن لفك عناتها

رجفت لهلكه البلاد وزلزلت
وغدا مناخ الذل في حجراتها
ويطول وقوفه هذه المرة ، وكأنه قد
تدارك قصر الوقفة السابقة ، ويخلص
من الرثاء إلى المدح ، ويطول حديثه عن
مناقب الممدوح ويطولاته في تبديد جموع
بني عقيل ومن والاها من أهل
"السيب" :

يا فضل يا من لا تزال جياده
وطء الأنوف الشم من عاداتها
أنت الذي مازال سيفك في الوغى
يردي العدا ويكف من جهلاتها
ثم يقول :

وحميت دار أبيك منك بهمة
الجود والإقدام من هاماتها
من بعد ما جمعت "عقيل" كيدها
بالرأي من عقالها وغواتها
ودعت بأهل "السيب" فابتدأت بها
من شط دجلتها وشط فراتها
ويصف تلك الوقعة وما أسفرت عنه
فيقول :

تركت نساء السيب تبكي حسرة
لولاتها وتطيل من ويلاتها
ثم يخاطب ابن عمه شاكياً راجياً
فيقول :

إيها عماد الدين يقظة ماجد
فذوو مكارمها ونو يقظاتها

أو ما ترى الرحم المضيمة تشتكي
قد ضاقت الأحشاء عن زفراتها
رجاؤه وشكواه ثلاثة عشر بيتاً ،
ويختمها بما يشبه التهديد بإعلان
القطيعة ، والتحول عنهم إلى غيرهم ،
فيقول :

فأما وأعلام المحصب من منى
ومواقف الركبان في عرفاتها
لولا أواصرنا وبعد حميتي
لتعرفتني حمير بسراتها
وينهي قصيدته بحكمتين جاءتا
ختاماً لقصيدته ، وفيهما قدر كبير من
الفخر بالنفس :

وأقول إن الأسد إن هي أخرجت
خرجت إلى الأصحار من غاباتنا
والغبن يوطي الحر كل عزيمة
ويفتش الحلماء عن أحناتها
لقد حشد الشاعر في قصيدته عدداً
من الأغراض المختلفة ، حتى ليكاد
يصعب تحديد غرضها الرئيسي ، فقد
تجاوز اللوم ، والعتاب ، والشكوى ،
والتنديد بالأعداء ، والفخر بالقبيلة
والتحسر على واقع قومه ، كما تعاور
المدح والرثاء شطراً كبيراً منها وختمها
بالرجاء والفخر بالنفس .

وعندما نقرأ هذه القصيدة وأمثالها
يحضرنا تشبيه الدكتور شوقي ضيف^(٢٤)

لها (بمتحف) لموضوعات مختلفة لا
تربط بينها أي رابطة قريبة ، أما أبو
القاسم الشابي فيشبه أمثال هذه القصيدة
" بحدائق الحيوان فيها من كل لون
وصنف ، أو كالأرض المقدسة التي
يحشر فيها الناس من كل حذب
وصوب ، ومن كل فئة وقبيل . وتكون
الأفكار منبثة في صعيد واحد ،
متماسكة بعضها من الرؤوس والبعض
الآخر من الأذنان " (٢٥) .

وينبغي أن ننبه إلى تفاوت عدد
الموضوعات داخل تلك القصائد ذات
الشكل البنائي التقليدي ، ويستدعي هذا
التنبيه - بالضرورة - التساؤل عن مدى
تلاحم أجزاء تلك القصائد ، وهل يعني
اختلاف الموضوعات داخلها وتنوعها أن
تلك الأطر البنائية قد افتقدت لروح
الانسجام ، وغدت الموضوعات فيها
أشبه ما تكون بسلاسل المرتفعات ؟

والإجابة على هذا التساؤل تتطلب
منا الوقوف على المطلع وحسن التخلّص
والخاتمة التي تمثل ثالوثاً بنائياً هاماً في
القصيدة العربية .

فالمطلع "أول ما يقرع السمع وبه
يستدل على ما عند الشاعر من أول
وهلة" (٢٦) ، وقد عني القدماء ببراعة
الاستهلال وحرصوا على أن يوفرأوا له

أسباب الإجابة والإتقان ، وعده بعضهم
 "من أصعب ما في القصيدة" (٢٧) ، كما
 نبهوا على أهميته ، فقال أسامة
 ابن منقذ " أحسنوا الابتداءات فإنها
 دلائل البيان" (٢٨) وكانوا يريدون من
 المطلع أن يكون دالاً على موضوع
 القصيدة ، فيرى ابن حجة الحموي "أن
 براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة
 المعاني واضحة في استهلالها" (٢٩) .
 وابن المقرب معني بمطالعه ، وبتوفير
 أسباب الإجابة والدلالة لها . ولعلها في
 بعض القصائد قد تجاوزت حد الإرهاص
 بغرض القصيدة ومصبتها إلى ما يشبه
 رؤوس الأقلام التي تكتب بخط واضح
 بارز في الصحف الطائفة ، ويكتف فيهما
 أصحابها أو يوجزون ما هم بصد
 الحديث عنه ، كقول ابن المقرب :

ألم يأن أن تنسي عسى ولعلما

وتترك ليقاً للمعنى وربما (٣٠)

فإذا ما علمنا أن موضوعي هذه
 القصيدة هما الشكوى والفخر أدركنا أن
 هذا الحشد من أفعال الرجاء والتمني
 مضافاً إليها أداة التشكيك والتعلل التي
 صاغها جميعاً بأسلوب الاستفهام
 والتعجب ، إنما هي تكثيف وإيجاز
 لموضوع قصيدته .

وقد يفتتح بعض قصائده بعدد من
 الحكم التي تومئ إلى غرضها وبخاصة
 في مدائحه كقوله :

صداق المعالي مشرفي وذابل

وسابغة زغف وأجرد صاهل

وطعن إذا الغر المساعير أقبلت

تخب مذاكيها بها وتنقل

وضرب إذا ما الصيد هابت وأحجمت

وفر من الفرسان من لا ينازل (٣١)

وربما كان استهلاله لمجرد التهيئة
 والإعداد النفسي لسامعه ، وذلك حين
 يفتتح قصائده بالنسيب " لما فيه من
 عطف القلوب ، واستدعاء القبول ،
 بحسب ما في الطبع من حب الغزل
 والميل إلى اللهو والنساء ، وأن ذلك
 استدراج إلى ما بعده" (٣٢) ، كقوله
 مستهلا مدحته للنقيب العلوي تاج
 الدين إسماعيل :

تخفي الصبابة والألحاظ تبديها

وتظهر الزهد بين الناس تمويها

وتستر الحب كيما لا يقال صبا

شيخاً فتعلنه الأنفاس تنويها (٣٣)

وينتقل في البيت السادس إلى
 الحديث عن الخمرة وسفاتها من
 الجنسين ثم يتحول إلى ماضي ذكرياته
 (بالجرعاء) ، وبعد سبعة عشر بيتاً

يخلص إلى ممدوحه بعد أن هياً الأسماع
والنفوس لموضوع القصيدة البارز .

وربما خانه التوفيق في افتتاحية
إحدى قصائده ، وكانت في مدح شمس
الدين باتكين ، ومطلعها :

طما بحر الهموم به فمادا

وعوضه من الغمض السهادا^(٣٤)

ويفيض بحر همومه وشكواه فيطغى
على مساحة كبيرة من قصيدته تجاوز
العشرين بيتاً . ولا يخفى أن مثل هذا
الحديث الطويل عن هموم النفس
وآلامها يعد من الأمور المخالفة للعرف
الفني لقصيدة المديح العربية ، كما يعد
دليلاً على انشغال الشاعر بذاته عن
سواها .

وكثيراً ما يستغني ابن المقرب عن
التمهيد لموضوعه بتلك المقدمات المألوفة ،
فيعمد إلى موضوعه مباشرة . ويرى ابن
رشيقي أن مثل هذه المصافحة للموضوع
"إنما هي وثب ووتر ، وقطع ، وكسع ،
واقetzاب"^(٣٥) ولا يخفى أنه قد صدر في
حكمه متأثراً بالنظرة التقليدية لبناء
القصيدة التي أعلن شعراء بنو العباس
ثورتهم عليها .

ومن بين تلك القصائد التي اقتطع
منها الاستهلال والتمهيد قوله في الأمير
شمس الدين باتكين :

يا با شجاع رعاك الله من ملك

لولاك ما كان هذا الناس بالناس^(٣٦)

وقوله في مدح الأمير ذاته :

يا شمس دين الله كم لك من يد

يثني بها باد ويشهد حاضر^(٣٧)

وحسن التخلص "هو أن يستطرد

الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى

آخر"^(٣٨) ويستلقت انتباهنا من هذا

التعريب تخصيص ابن حجة الحموي

شاعراً بعينه ، وكأنه يشير بذلك إلى

صعوبة وأهمية هذا المحور البنائي ،

وقد نبه ابن منقذ إلى تلك الصعوبة إذ

يرى "أن المبدأ والمقطع والخروج ،

أصعب ما في القصيدة"^(٣٩) ، ويلقي ابن

رشيقي مزيداً من الضوء على هذه القضية

فيقول "إنما الخروج هو أن تخرج من

نسيب إلى مدح إلى غيره بلطف تحيل ،

ثم تتماذى فيما خرجت إليه"^(٤٠)

وهكذا أدرك القدماء ضرورة تلاحم أجزاء

القصيدة ، وأهمية انسجام الموضوعات

في داخلها ، فنبهوا على أن يكون الأول

سبباً في تاليه ، وألا نحس بنقلة مفاجئة

حين ننتقل من موضوع إلى آخر .

وكانهم كانوا يدركون أن هناك صلة ما

بين موضوعات القصيدة ، وأن هذه

الصلة تستدعي - بالضرورة - قدراً من

الانسجام بينها ، ولعلم كانوا يومثون

إلى هيمنة موضوع القصيدة الأساسي ،
الذي سماه بعضهم "محط الرياسة
ومصب القصيدة"^(٤١) على سائر
الموضوعات الثانوية فيها .

وإذا كان ابن المقرب قد أجاد هذا
الفن^(٤٢) ، فربما كان ذلك بفضل تلمذته
على ديوان أبي الطيب بخاصة الذي
يعد أكثر الناس استعمالا لهذا الفن ،
فإنه ما يكاد يفلت له ولا يشذ عنه^(٤٣)
فلم يحدث أن لجأ شاعرنا إلى تلك
التخلصات التي شاعت عند القدماء ،
كقولهم دع ذا ، وعدّ عن ، وإن ..
ونحو ذلك مما سمي طفرأ واقتضابا^(٤٤) .
فمن المواضيع التي أجاد فيها ابن
المقرب التخلص قوله بعد حديثه عن
أيام لهوه وصباه :

إن ليس البيض تؤنبنني

بمشيب لاح ولا عدم

ساوت في الحسن زمان الملك

لك عماد الدين حيا الأمم^(٤٥)

وشبيه بهذا التخلص الحسن قوله :

لم أنسها مذ نأت عني ببهجتها

وأين غر من الأيام تنسيها

فاقت جميع الليالي في البهاء كما

فاق البرية تاج الدين تشبيها^(٤٦)

وقد يخلص إلى ممدوحه في خفة
ورشاقة من وصف جلسة شراب في ظلال
حدائق نهر دجيل فيقول :

دُجَيْلِيَّةُ لَوْ حَطَّ غِيلَانُ رَحْلَهُ

بِهَا سَاعَةٌ أَنْتَهُ حَزَوِي وَمَشْرِفَا

كنسياني الأوطان في ظل سيد

جلى الغم عن سوداء قلبي وكشفا^(٤٧)

أما الانتهاء "فهو قاعدة القصيدة ،
وآخر ما يبقى منها في الأسماع ،
وسبيله أن يكون محكما ، لا تمكن
الزيادة عليه ، ولا يأتي بعده أحسن
منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له
وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه"^(٤٨)

وقد نبه القدماء على أهمية هذا الجزء في
بناء القصيدة ، وربما عدّوه أخطر
أجزائها "فإن كان مختاراً جبر ما قد
يسبقه من تقصير ، وإن كان بخلاف
ذلك فربما أنسي محاسن ما قبله"^(٤٩)

لأن خاتمة الكلام أبقى في السمع وألصق
بالنفس .. وآخر ما يعيه السمع .. فإن
حسنه حسن ، وإن قبحت قبح^(٥٠) .

وأحسن الانتهاءات ما آذنت بانتهاء
الكلام^(٥١) كقول ابن المقرب في ختام
مدحته لبدر الدين لؤلؤ :

فبوركت من ملك أقل هباته

تبر على فيض البحار الخضارم

وعشت على مر الليالي مخلداً

لنصرة مظلوم وإرغام ظالم^(٥٢)

والدعاء للممدوح مما يستحب في
ختم القصيدة إذا كان من الملوك ،
وبمثل هذا أنهى مدحته في الأمير الفضل
بن محمد ابن أبي الحسين العيوني
فقال :

وهذه دولة لولا الرجاء لها

لما انجلت كربة عنا ولا غم
عشنا بآمالها دهرأً وبلغنا

إدراكها واحد فرد له القدم
فالحمد والشكر منا واجبان له

لا ينفدان جميعاً ما جرى القلم^(٥٣)
وكذا ختم مدحته في الخليفة الناصر
لدين الله :

ومن كنت يا بن المستضيء مآله

رجاه وحاشاه محب وكاشح

فعش وأبق للإسلام ما نر شارق

وما سجعت بالبان ورق صواح^(٥٤)

وكان هذا ديدنه في معظم مدائحه ، وقد
نجده يختم بعض مدائحه بالفخر بشعره
كقوله :

وإليكها يا باعلي مدحة

من فضلها أني عليها أحسد

جاءت نسيجة وحدها في عصرها

إن أنت في هذي البرية أوحده^(٥٥)

وربط ختمها بالدعاء والفخر بشعره
معاً كقوله :

فكلاك ربك حيث كنت بحفظه

وبقيت ما بقي الزمان مخلداً

وأراك في ابنك ما تحب وعاش من

يشناكما ما عاش أكمده أكبدا

وإليك من در الكلام جواهرأً

يعيي الفرزدق نظمها ومزردا^(٥٦)

د.أحمد موسى الخطيب

الهوامش

- ١ - الديوان ، ص ٣٨ وما بعدها .
- ٢ - نفس المصدر ، ص ٤٢ .
- ٣ - نفس المصدر ، ص ٤٠٧ .
- ٤ - العمدة ٧٣/٢ .
- ٥ - الديوان ، ص ٣٤٤ .
- ٦ - نفس المصدر ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ ، ٤٠٠ .
- ٧ - نفس المصدر ، ص ٣٣٩ - ٣٤٠ ، والنفل : نبت من البقوليات نوره أصفر طيب الرائحة .
- ٨ - نفس المصدر ، ص ٣٧٢ ، والضال : شجر من فصيلة النبقيات .
- ٩ - د. محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، ص ٣٩٥ .
- ١٠ - د. شوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، ص ١٥٤ .
- ١١ - ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .
- ١٢ - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، تحقيق د. أحمد أمين ، ط ١ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ ، ص ١١ .
- ١٣ - العمدة ، ٢٥٧/١ .
- ١٤ - انظر : النقد الأدبي الحديث ، ص ٢١١ .
- ١٥ - نفس المصدر ، ص ٢١٢ .
- ١٦ - العمدة ، ٢٦١/١ .
- ١٧ - الديوان ، ص ٥٩٤ .

- ١٨ - نفس المصدر ، ص ٢٤٤ .
- ١٩ - نفس المصدر ، ص ٥٠٥ .
- ٢٠ - انظر : عز الدين اسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربي ١٩٧٤ م ، ص ٤١٩ .
- ٢١ - نفس المصدر ، ص ٣٠٩ .
- ٢٢ - نفس المصدر ، ص ٣١٩ .
- ٢٣ - الديوان ، ص ١٠٥ .
- ٢٤ - انظر : في النقد الأدبي ، ص ١٥٤ .
- ٢٥ - ابوالقاسم الشابي ، الخيال الشعري عند العرب ، ص ١١٤ .
- ٢٦ - العمدة لابن رشيق ، ٢١٨/١ .
- ٢٧ - البديع في نقد الشعر ، ص ٢٩٥ .
- ٢٨ - نفس المصدر ، ص ٢٨٥ .
- ٢٩ - خزانة الأدب وغاية الأرب ، ص ٣ .
- ٣٠ - الديوان ، ٤٦٦ .
- ٣١ - نفس المصدر ، ص ٣٥٠ .
- ٣٢ - العمدة ، ٢٢٥/١ .
- ٣٣ - الديوان ، ص ٦٤٩ .
- ٣٤ - نفس المصدر ، ص ١٨٢ .
- ٣٥ - العمدة ، ٢٣١/١ .
- ٣٦ - الديوان ، ص ٢٤٧ .
- ٣٧ - نفس المصدر ، ص ٢١٢ .
- ٣٨ - خزانة الأدب ونهاية الأرب ، ص ١٤٩ .
- ٣٩ - البديع في نقد الشعر ، ص ٢٩٥ .
- ٤٠ - العمدة ، ٢٣٤/١ ، وانظر الإيضاح للقزويني ، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة (بدون تاريخ) ، ص ٤٣٢ .
- ٤١ - البديع في نقد الشعر ، ص ٢٩٥ .

- ٤٢ - انظر : الديوان ، ص ٢٠-٢٨ - ١٠١ - ١٢٤ - ١٢٥ - ٢٩٦ - ٤٥١ - ٥٦٥ .
- ٤٣ - العمدة ، ٢٣٤/١ .
- ٤٤ - نفس المصدر ، ص ٢٣٩ .
- ٤٥ - الديوان ، ص ٥٨١ .
- ٤٦ - نفس المصدر ، ص ٦٥١ .
- ٤٧ - نفس المصدر ، ص ٢٨٤ .
- ٤٨ - العمدة ، ٢٣٩/١ .
- ٤٩ - الإيضاح للقزويني ، ص ٤٣٤ .
- ٥٠ - نفس المصدر والموضع ، وانظر : العمدة ، ٢١٧/١ .
- ٥١ - الإيضاح ، ص ٤٣٥ .
- ٥٢ - الديوان ، ص ٥٢٠ .
- ٥٣ - نفس المصدر ، ص ٥٢٥ .
- ٥٤ - نفس المصدر ، ص ١٢٩ .
- ٥٥ - نفس المصدر ، ص ١٦٧ .
- ٥٦ - نفس المصدر ، ص ١٧٥ .